الجهاد والاجتهاد

تأملاتٌ في المنهج

عمر محمود أبو عمر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله،نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: قال تعالى: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) [التوبة : 122]

قال القرطبي: "فيها أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية إذ لو نفر الكل لضاع من ورائهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد وليقم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع" . التفسير (293/8).

وقد جعل الله سبحانه الناس في هذه الآية قسمين: مجاهد ومجتهد ولا خير فيمن سواهم، والمجاهد مجتهد والمجتهد مجاهد، فإن الجهاد والاجتهاد مشتقان لغة إما من الجَهد بفتح الجيم وهو " التعب والمشقة" أو من الجُهد بالضم وهو " الوسع والطاقة ".

قال سيد قطب رحمه الله عقب الآية: " إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة، والذين يعكفون على الكتب والأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاما فقهية " يجددون" بها الفقه الإسلامي أو " يطورونه " وهم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد، وردهم إلى العبودية لله وحده بتحكيم شريعة الله وحدها وطرد شرائع الطواغيت.. هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين، ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين".[1]

[1] – الظلال (1735).

واعلم أن الغاية من الجهاد والاجتهاد هي: « تعبيد الناس لله وحده وإخراجهم من العبودية للعباد وإزالة الطواغيت كلها من الأرض وإخلاء العالم من الفساد ».[1] وقد فقه هذا الدين سلف الأمة وخيرها وتمثلوه حتى أصبح هيئة راسخة في نفوسهم، ووصفا لازما ففاضوا على العالم وعيا وعلما بالرسالة. قال الطبري: "أرسل سعد بن أبي وقاص ربعي بن عامر قِبَل القادسية إلى رستم قائد جيش فارس بناء على طلبه، فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه. فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا. ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله! قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي".[2]

ثم طال الأمد على الأمة فرجعت القهقرى ونسيت العهد، وكأن الزمان قد استدار كهيئته يوم بدأ، فعاد الدين إلى غربته الأولى كما في الحديث: "**بدأ الإسلام غريبا وسعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء**".[3]

"وكأنما نادى لسان الكون على العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة". كما قال ابن خلدون. وأفول العمران يحتاج إلى التجديد، والتجديد إنما يكون بعد الدروس الذي هو غربة الإسلام وذلك بالجهاد والاجتهاد. بتجديد النظرة الشاملة إلى العالم على المستوى المعرفي و المجتمعي والقيمي، الذي أصيب بالعطب في هذه الأعصر المتأخر ة.

لقد أخذ الأخ الصديق عمر أبو عمر بمقتضيات التجديد في معالجة قضايا الجهاد والاجتهاد، وذلك بتوسيع هذه المفاهيم وتجديدها لتأخذ مكانتها اللائقة في مجتمعاتنا المعاصرة، فقد أخذ بالنظرة الشمولية والتكاملية، وليس بالنظرة التجزيئية والتفاضلية، فجاءت تأملاته على اقتضابها وكثافتها كالوابل الصيب، فأيقظت نفوسنا وأحيت أرواحنا من غفلتها ودعتها.

---

[1] – هذا الدين (ص 15).

[2] – التاريخ (1 / 2271).

[3] – رواه مسلم.

إن الربط المحكم الذي جاء به المؤلف بين الجهاد والاجتهاد، والعبودية والتوحيد، يعيد إلى الدين جدته، ويجعله غضا طريا كما كان عليه عند التنـزيل قبل أن تطاله يد التأويل والتبديل. والتمييز الذي أتى به بين الخلق والأمر والكوني والشرعي جعل التواصل مع الشريعة أمرا ممكنا، إن الفضل يعود إلى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في بيان هذه المفاهيم، ولكن الغفلة التي أصابت الأمة أدت إلى اندراس الشريعة، وغموض المفاهيم، واشتباه الحقائق.

يقول ابن تيمية: "حكم الله نوعان: خلق وأمر". وقال: " وكثير من الناس تشتبه عليهم الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية بالحقائق الخلقية القدرية الكونية، فان الله سبحانه له الخلق والأمر، كما قال تعالى: {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين}. فهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فكل ما في الوجود من حركة وسكون بإرادته وقدره ومشيئته وقدرته وخلقه، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله، ونهى عن معصيته ومعصية رسله. أمر بالتوحيد والإخلاص ونهى عن الإشراك بالله".[1]

ومما ينبغي التنبيه عليه أن هم المؤلف هو أن يعيد لمفهومي الجهاد والاجتهاد إنتاجيتهما في مجتمعاتنا المعاصرة، بعد أن عطلا زمنا طويلا، وقد تيسر له ذلك بربط الجهاد والاجتهاد بالقدرة والاستطاعة بعد أن أنيطا ردحا من الزمن بالإمام. فالجهاد هو الذي يمثل القوة في أكمل معانيها، والاجتهاد هو الذي يمثل المعرفة بأشمل معانيها، ولا يخفى على اللبيب أن شبكة علاقات القوة بالمعرفة هي التي تشكل السلطة بمعناها الكامل والشامل.

يقول ابن تيمية في الجهاد والقدرة: " ولما كان الجهاد من تمام ذلك - أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كان الجهاد أيضا كذلك فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته، إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته".[2]

---

[1] - الفرقان (ص 53).

[2] - الفتاوى (126/28).

ويقول في الاجتهاد والقدرة: "وكذلك العامي إذا أمكنه الاجتهاد في بعض المسائل جاز له الاجتهاد، فان الاجتهاد منصب يقبل التجزؤ والانقسام، فالعبرة بالقدرة والعجز، وقد يكون الرجل قادرا في بعض عاجزا في بعض".[1]

أود أن أنبه أن أصل هذا الكتاب عبارة عن مقالات متفرقة، ينتظمها سلك الجهاد والاجتهاد، فإن وجد القارئ الكريم تفككا في التركيب فلن يعدم تماسكا في المعنى والمضمون، وإثم ذلك على جامعه لا مؤلفه.

أسأل الله العلي القدير أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يجعلنا من أهل الجهاد والاجتهاد، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] - الفتاوى (203/5).

الفصل الأول

العبودية والصراع

" ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي في قلبي، وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة"

ابن تيمية

حقيقة الصراع

كيف صور القرآن الكريم معركة الحق مع الباطل؟ يعتري هذا البحث تصورات ومفاهيم تحتاج إلى تجلية وبيان، إلا أنه ما يلزمنا هنا أن نستطلع الحق القرآني ليرشدنا في كشف (المنهزمين) أمام الباطل، وكيف دخل في روعهم روع الباطل فاستحكم تلبيسه عليهم فظنوه شيئا يستحق الخوف والتقوى، فصار كل جهدهم قائم في ترضية الباطل وطلب الرخصة منه في مزاولة حقهم - إن كان لديهم حق -، وصاروا يرددون مع أهل الجاهلية أن كافة أوراق القضية في يد البيت الأبيض حينا، وفي أدراج قصر الإليزيه حينا آخر، وفي أروقة السياسة الإنجليزية حينا آخر، فهم على الدوام كرويبضة الأرض؟ لا يقر قرارها في السعي المكوكي عند هؤلاء الطواغيت وغيرهم ليشرحوا لهم صورة (إسلام) الاستسلام، وديمقراطية الإسلام، وسلامة الإسلام من أن يفكر بالعداء لهم، أو التحرش بهم، ولعل المراقب (ضعيف النظر) يستطيع أن يلاحظ هذا الكم من الندوات والمؤتمرات التي تعقد في بلاد الردة، وفي بلاد الغرب تحت عنوان "علاقة الإسلام بالغرب". وهذه الندوات كلها تدور في فلك الفتوى العصرية التي يسعى من أجلها الغرب في ترويض الإسلام، وإزالة عوارض وموانع الغزو الحضاري الغربي بأبعاده الفكرية الكافرة، وبما تحمل من حِمل أخلاقي يدعو إلى الحرية والإباحية، وكذلك من حمل سياسي في ترويج الديمقراطية المزعومة، هذه الندوات واللقاءات والمؤتمرات شهد بعض الاخوة صورها في بريطانيا تحت عنوان "علاقة الإسلام بالغرب. علاقة

تعاون أم تصادم؟". أو قريباً من هذا العنوان. كان شعار المؤتمر يحمل مضمونه، حين دمج الشعار صورة المئذنة (الإسلامية المزعومة) ودولاب حركة التقدم الفيزيائي (الغربي)، وهو شعار يثير في النفس مجموعة من التساؤلات والملاحظات المصاحبة للغضب، وأبرز هذه الملاحظات تلك الانحرافات التي نحن بصددها، وهي حالة الانهزام الكبرى التي يعيشها تيار (الإسلام الغربي المنحرف)، فهم لا يرون في الإسلام إلا قيما روحية (بالمفهوم الكنسي)، وأما عجلة الحياة فالذي يفرزها الغرب (الحضاري!!) فحق الإسلام في عقول هؤلاء القوم هو المسجد، ولقيصر بعد ذلك كل شيء، وقد يستغرب بعض الاخوة من هذا الاتهام الذي نوجهه لهذا التيار الإسلامي الضال، ولكن المنصف يستطيع أن يدرك هذا من رؤيته السقف الأعلى من المطالب التي يريدها هذا التيار المنحرف.

إن هذا التيار المنحرف، يحصر دوره في الإصلاح الاجتماعي فقط، فهو بما يحمل من مفاهيم (الكنيسة = إسلامية) قادر على منع الجريمة في المجتمعات، ويقضي على مظاهر الفساد فيها، وكل هذا حق، لكنه يطرح هذه البرامج من خلال مظلة الجاهلية الحاكمة، فقد سقطت من أذهان هذا التيار المقولة المكذوبة أننا نريد أن نصل إلى الحكم لنعيد الحق إلى صاحبه (الله) سبحانه وتعالى، وصار عامة ما يردد هذا التيار المنحرف الطلب من الجاهلية أن تأذن له ليقضي على ما يعيق التنمية تحت مظلة الجاهلية.

ومن نازعنا في هذه الأحكام فهو بلا شك ليس ضعيف النظر في المراقبة، بل أعمى البصيرة مع فقدان قوة الإدراك كذلك.

وأما المسألة الأخرى التي تستوقفنا في هذا المؤتمر، فهو ما قاله أحد رواد هذا التيار المنحرف راشد الغنوشي عند دعوته إلى انخراط الشباب المسلم في أوربا في داخل المجتمعات، وعدم وضع الفواصل المعارضة لهذا الاندماج، بل ذهب أكثر من هذا، حين صور الغرب صورة حضارية إنسانية سامقة، وجعلها الحاملة لمشعل التفكير العلمي المتألق، وأما شبابنا الإسلامي في أوروبا، فما زالت عالقة في ذهنه قيم الانحطاط التي يحملها، إرثا تاريخيا ضربة لازب.

وإن شئت المزيد فانظر إلى بعض شباب هذا التيار المنحرف وعملهم في مؤسسة مقرها بريطانيا شعارها "مؤسسة نشر الديمقراطية في العالم ". أو قريبا من هذا العنوان، ترى القائمين عليه من الشباب من العالم الإسلامي هم شباب "الإخوان المسلمين" ومن هؤلاء بعض الشباب الذي تجرأ في نقد حركة الإخوان المسلمين (وهو منها) بأنها ما زالت معوقة في دخولها في الفهم الديمقراطي، واعتبر أن سبب هذه الإعاقة كونها متأثرة بفكر سيد قطب (المتكلس) أي (المتجمد)، فهذا التيار بما فيه من عوامل الانهزامية وصلت الدعوات فيه إلى تسمية القيود الشرعية: بالعوائق التي تمنع تقدم مسيرة الحركة بأن تصبح حزبا سياسيا كحزب الخضر (حزب يدعو فقط إلى الحفاظ على البيئة من التلوث والتخريب)، وذهب هؤلاء الشباب إلى تبني إمامة حسن الترابي (إمام هذا التيار - أو كما يحلو أن يسمى نفسه "ليبرالي حر").

وصورة أخرى من ممارسات هذا التيار: هناك محاولة إسلامية !! قامت في أوروبا بإخراج مجلة تطرح التفكير الإسلامي الأصولي!! بثوب إنساني عصري متطور، وإذا أردت أن تعرف ما تحمل من أفكار انهزامية فانظر إلى عنوانها "الإنسان " ومن أبحاثها الأولى في عددها الأول: محاولة لقراءة تجربة محمد علي الألباني. الذي حكم مصر في بداية القرن الماضي، والذي أجمع أهل العقول الإسلامية أنه رائد الكفر العصري في الدول الإسلامية، إذ أنه أول "من دفع أهل الإسلام إلى حضن الجاهلية عن طريق الابتعاث، واستيراد النظم الدستورية الأوروبية (اقرأ ملزما: "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" لمحمود شاكر، وهي في صدر كتابه ""المتنبي")، هذا الكاتب في مجلة "الإنسان" يجعل تجربة محمد على تجربة إسلامية حضارية لم تأخذ أبعادها.

جذور الصراع وأدواته:

صراع الحق مع الباطل تمتد جذوره منذ أن وحد البشر على وجه الأرض، فهو من سنن الله القدرية التي فطر الخلق عليها، ولأن الشرع الحكيم قام على الحق، وقام ليعالج ما فطر عليه البشر من نوازع ورغبات ليقيمها على ما فيه صلاحها، فقد شرع الله للمسلمين أن يشرعوا ويبدءوا في إزالة الباطل واجتثاثه من جذوره، حتى لا تقوى أصوله، ولا تتجذر أثاره في حياة

الناس والخلق، ولذلك شرع الله الجهاد لعباده، وكان شعار هذا الجهاد هو: إقامة دين الله تعالى وإماتة الشرك... {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}.

وقد كشف الله مسيرة الصراع بعبارات رائعة تحمل في طياتها طبيعة الحق، وتكشف حقيقة الباطل، والمنهج القرآني هو منهج الحق والصواب وضده منهج السحرة والخرافيين.

منهج السحرة تزوير الواقع، وإلباسه لبوس الخداع والتمويه، فالساحر هو الذي يقلب لك في نظرك العصا حية، ويزيف لك صورة الأشياء فلا تراها على ما هي عليه. ومدار التاريخ الإنساني كان طواغيت البشر (الآلهة الكاذبة) يستخدمون السحرة في تأليه الناس (أي تعبيد الناس) لهم. والسحر حسب النص القرآني والحديث النبوي يطلق على أمرين:

الأمر الأول: هو الذي يغير صور الأشياء في أعين النظارة دون تغيير لحقيقتها لأنه لا يستطيع أن يخلق إلا الله، فالعصا تتحول إلى أفعى في أعين الناس لا في حقيقتها. قال تعالى: {**قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين، قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين**} الأعراف، وقال تعالى: {**فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**} طه.

الأمر الثاني: هو الذي يغير الحقائق في أذهان الناس عن طريق الخداع البياني والقدرة اللفظية، قال صلى الله عليه وسلم: (**إن من البيان لسحرا**) حديث صحيح، وقال تعالى: {**وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين**} الصف، والآية تدل على أن الناس كانوا يطلقون على البيان البليغ سحرا.

وكلا الأمرين يجتمعان في:

1 - تزوير الحقائق بتمويهها في البصر أو في البصيرة.

2 - لا يقع السحر على المسحور إلا باستخدام الإرهاب، "فاسترهبوهم".

3 - اكتشاف الحقيقة تبطل السحر، قال تعالى: {**ولو أنزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**} الأنعام، والآية تدل على أن المرء إذا أبصر الحق بطريق صحيح (كاللمس بالأيدي) لا يعذر بسحر الساحر له، بل هو كذاب مفتر.

صور الصراع في القران:

والآن كيف صور القرآن صراع الحق والباطل (السحر):

1 - قال تعالى: {**بل نقذف بالحق على الباطل ليدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون**}.

فالحق قذيفة، ولا يكون إلا كذلك، لأن فيه من عوامل القوة الذاتية التي أودعها الله فيه ما يجعله كذلك. وكذلك قوله تعالى: {وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى} طه.

2 - قال تعالى: {**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**} الإسراء.

ففي هذه الآية بين الرحمن سبحانه وتعالى حال الحق حين يظهر أمره بعبارة "جاء الحق" وهي عبارة تلقي في النفس ظلال الحركة الحقيقية التي لا تحمل جهدا عظيما، ولا تكلف عملا شاقا، بل هي مسيرة طبيعية."جاء" على الرغم أن الآية الأولى بينت أن حركة الحق هي حركة (قذيفة)، وهي تجد مسرعة في حركتها لتزيل الباطل وتدمره. وليس بين الآيتين تعارض، بل كل حرف في الأولى يشهد لكل حرف في الثانية ويشبهه، وهذا معنى قوله تعالى: {**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني**} الزمر. لكن الباطل في الآيتين (زاهق، زهوقا): وهي تعني خروج النفس والروح، واضمحلال أمره وخضوعه لغيره، وهي لفظة تثير في النفس حقيقة هذا الباطل، وأنه سريع الزوال لا روح له ولا دوام، قال ابن القيم: واعلم أن الشر بالذات هو عدم ضروريات الشيء وعدم منافعه مثل عدم الحياة وعدم البصر. ا. هـ، فهذا هو الباطل إذ يعني غياب الحق، فإذا جاء الحق (على صورة قذيفة) فإن الشر والباطل لا بد أن يزول كما قال تعالى عن عصى موسى لما ظهرت لحبال السحرة: {**فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون،**

فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين}. وهذا كله نراه في الحس والبصر، فإن الظلمة تعني عدم وجود النور، فإذا غلب على الناس الظلمة واستشرى أمرها فهو واقع بحسب غياب النور والهدى.

ومما يخدمنا في هذا الباب الأمور التالية:

أن العلاقة بين الحق والباطل وبين الشر والخير، وبين السحر وأمر الله، وبين النور الظلمة، هي علاقة صراع، لا يقع الواحد إلا ويغيب الآخر، ولا يمكن أن يرضى أحدهما بوجود الآخر، ولو أراد أهل الحق التماس الإذن بوجودهم من الباطل - ولو أدى هذا الالتماس إلى إفراغ الحق من طبيعته (أي بكونه قذيفة) - فإن الباطل لن يأذن ولن يسمح، وصورة الإذن الوحيدة هي: {**تلقف ما يأفكون**}، و{**نقذف بالحق على الباطل فيدمغه**} و{**جاء الحق وزهق الباطل**}، أي بأن يقتلع الحق الباطل من جذوره ويخرج روحه منه بيده، وليس عن طريق انتظار أن تخرج روحه منه بنفسه.

وعلى هذا فإن كثيرا من الجماعات الإسلامية التي تنكر الجهاد في هذا العصر أو تدعو إلى (تأجيله) تتهم المجاهدين بأنهم يعطون المبرر للباطل بأن يضربهم ويقتلهم، وهؤلاء جد واهمون، لأنهم جهلوا طبيعة الباطل، وجهلوا أن ذات الحق (دون حركته) لا يرضى عنه ولا بوجوده الكفر بحال.

وبين أيدينا مئات الأمثلة منها:

صراع لوط عليه السلام مع قومه، فلماذا عاداه أهل الفاحشة؟ هل لأنه حمل عليهم؟ أو كر عليهم بليل؟ كل هذا لم يحدث، إنما علة محاربته: {**اخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**} الأعراف.

وانظروا إلى هذا الحديث العجيب بين نبي الله شعيب عليه السلام وبين قومه، وتفكروا في عرض شعيب على قومه وماذا قال لهم: قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: {**وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين**} الأعراف (87). رجل يقول لقومه: أنتم في حالكم ونحن في حالنا، طائفة آمنوا وطائفة لم يؤمنوا، فيا أيها الكافرون لا تعتدوا علينا ولا نعتدي عليكم حتى يقع أمر قدري لا بأيدينا ولا بأيديكم فيكون هو الفصل بين الطائفتين.

الصراع: معنى الحق وحقيقة الباطل

فماذا تتوقع أن يكون الجواب؟ الجواب؛ هو جواب كل طاغوت: {قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا} الأعراف (88)، نعم هذا هو جواب قومه (الطاغوت) وهو جواب لا يمكن أن يتخلى عنه الباطل أبدا. فأي ضلال وأي انحراف لرحل علم طبيعة الباطل ثم هو يطلب الإذن منه أن يعمل في نشر حقه؟.

إذا قلنا إن الباطل ليس له حقيقة في نفسه، بل هو غياب الحق كما قال ابن القيم رحمه الله، فسيكون السؤال في الأذهان: ما معنى ظهور الباطل على الحق في جولات كثيرة نحسها في عين الزمان، ونراها في واقعنا؟ والجواب على هذا التساؤل يتشعب إلى عدة نقاط نمر على بعضها إن شاء الله تعالى:

البيان الأول: اعلم أن الله قد قرر في كتابه أن الحق لا يهزم أبدا، وقرر سبحانه وتعالى أنه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا، قال تعالى: {**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**} النساء. والجاهل يظن أن هذه الآية تنخرم بعض الأحيان لما يرى من ظهور الكفر على الإسلام حينا، وهذا جهل عظيم في دين الله تعالى.

قال الإمام الشاطبي في الموافقات في قوله سبحانه وتعالى: {**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**} إن حمل على أنه إخبار، لم يستمر مخبره، لوقوع سبيل الكافر على المؤمن كثيراً بأسره وإذلاله، فلا يمكن أن يكون المعنى إلا على ما يصدقه الواقع ويطرد عليه، وهو تقرير الحكم الشرعي. فعليه يجب أن يحمل. اهـ. (100/1 - 101).

قلت: وهذه لفتة عظيمة من هذا الإمام ينبغي الالتفات لها منذ زمان بعيد، لأن ما نعيش فيه هذه الأيام يدل على أننا ابتعدنا كثيرا عن مفاهيم الكتاب والسنة، بسبب تلك الأفكار الدخيلة التي شوهت مفاهيم الإسلام العظيم.

ولتفسير كلام الشاطبي نقول: إن الآية فيها أمر من الله تعالى للمؤمنين أن لا يقبلوا الدنية في دينهم، وأن عليهم أن يبذلوا أقصى طاقاتهم لمنع حصول الذل، فإن حصل ظهور للكفرة

عليهم فهو دال على أنهم قصروا في تطبيق أمر الله، فهنا في الآية على الصحيح أمر إلهي ووعد إلهي؟ أما الأمر: فهو أن يكونوا مؤمنين، والإيمان هنا يعني المدافعة والقتال وطلب الظهور والعزة، وهذا راجع إلى مفهوم أهل السنة لمسمى الإيمان، وقد وقع المعلق على كتاب الشاطبي وهو الأستاذ الفاضل عبد الله دراز في خطأ حين ظن أن الآية بعريّها عن قوله: وعملوا الصالحات، تحمل على معنى آخر، وذلك لظنه أن الإيمان هنا هو الحكم وليس الدرجة والمرتبة، والصحيح أن قوله سبحانه وتعالى في هذه الآية (المؤمنين) هي قيامهم بواجب الإيمان وهو واحب الدفع والمدافعة، ومثل هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم : (**إذا تبايعتم بالعينة، واتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلا لا يرفعه إلا أن تعودوا لدينكم**) حديث حسن، فمعنى الدين هنا هو معنى الإيمان في الآية السابقة، وهو الجهاد. فإن الذل لا يرفع بالصلاة، ولا بالزكاة، ولا بالحج، ولا بالذكر، وكلها دين وتساعد في رفع الذل، ولكن الذل لا يرفع إلا برفع السبب الذي حصل به الذل وهو ترك الجهاد في سبيل الله تعالى. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (**ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا**). وعليك أخي المسلم أن تتنبه إلى التنكير الموجود في قوله صلى الله عليه وسلم : (قوم)، لأن ترك القتال من قبل قوم (أي قوم) يؤدي إلى الذلة، ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: (**ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا**). وعلى هذا فإن الآية تطلب من المؤمنين أن يكونوا مؤمنين أي مجاهدين، كقوله تعالى: {**يا أيها الذين آمنوا آمنوا**}) ومثل قوله تعالى: {**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات**} وكقوله: {**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا**} وغيرها كثيرا من الآيات العظيمة، ولا يظنن ظان أن قوله: {**خذوا حذركم**} وقوله: (اصبروا) أمر زائد عن مسمى الإيمان فإن هذا من غلط أهل البدع وفسادهم، لأنهم يقولون: إن الإيمان قول القلب فقط وبعضهم يزيد للدلالة على قول القلب قول اللسان. ولما انتشرت هذه البدعة المبيرة في الناس وهو قولهم: إن الإيمان في القلب. ذهبوا في تفسير هذه الآيات مذاهب شتى وكلها باطلة، فحملوا قوله تعالى: {**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**} على مفهوم الوعد فقط فقالوا: إذا حصل إيمان القلب (أي تصديقه) فإن الله سيدافع عنهم بقدرته دون أفعالهم (لأنها لم تذكر في الآية). فنسبوا إلى قول الله الخلف في وعده لما يرونه من الواقع الذي يكذبهم.

أما أنها وعد: فنعم، ولكن على المفهوم الذي تقدم، فإذا قام عباد الله بواجب الدفع والمدافعة، وشرعوا بالجهاد، واستكملت لهم أدواته، فلا بد أن يقع الوعد الإلهي لأن السبب والأثر - في حياة المؤمن - لابد من تلازمها، والتلازم مطلق في باب الوعد، بخلاف باب الوعيد، فالتلازم غير مطلق.

والنتيجة: إذا تخلف الوعد دل لزوما على تخلف الأمر في نفس المكلف.

فهل بعد هذا يقول قائل ما معنى ظهور الباطل؟ إن ظهور الباطل مازال يعني غياب الحق. والحق هو الأمر وامتثاله. وظهور الحق هو وعد ترتب على اكتمال الحق وتمامه.

البيان الثاني: إن ظهور الباطل حينا هو مظهر من مظاهر الحكمة الربانية. فإنه لا يقع شيء في الكون إلا لحكمة، وقصد إلهي عظيم ولو ذهبنا نستكشف الحكم الإلهية لضاق بنا المقام، ولكن لنسوق بعضها:

الحكمة الأولى: - وهي أعظمها وأجلها- قال تعالى: {**حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**} يونس.

واعلم أن من أجل أسماء الله تعالى وأعظمها: المتكبر. قال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن ربه: ((**العزة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما عذبته**)) رواه مسلم. فقد سمى الله أشرف صفاته (الكبرياء)، وهذا الاسم هو عنوان ربوبية الرب، وعلى هذا فإن من مظاهر هذا الاسم في هذا الكون أن يأخذ أعداءه لحظة القدرة الكاملة لهم، وهذا من تمام ألوهية الإلهية الحقيقية، ومن تمام كبرياء الله تعالى، ومن تمام خداع الله تعالى للكافرين. قال تعالى: {وأملي لهم إن كيدي متين} الأعراف والقلم. فإذا تمكن الكافر واستعلى في الأرض، وادعى لنفسه الربوبية فإن هذا من تمام حكمة الله فيه ليأخذه أخذا شديدا، لتعظم المصيبة فيه، وتظهر قدرة الله (الرب الحقيقي) لعباده المؤمنين.

وأعظم مثال على ذلك هو فرعون، قال تعالى: {**إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين**}. وفرعون هو

الذي قال: {**ما علمت لكم من إله غيري**} وهو الذي قال: {**أنا ربكم الأعلى**} فهذه خصومة بين رب حقيقي، له صفات الكمال المطلق، وبين رب مزيف كذاب {استخف قومه فأطاعوه}.

فما هي النتيجة؟ إنها مظهر من مظاهر ربوبية الرب الحقيقي الدالة على كبريائه وعظمته وعلوه فوق خلقه.

قال سبحانه وتعالى: {**ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول أمين، وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين...** إلى قوله تعالى.. **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين**} الدخان.

الحكمة الثانية: قال تعالى: {**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**} الملك. فإن الله خلق عباده للابتلاء والامتحان، وأشد الناس بلاء وامتحانا هم المؤمنون. قال صلى الله عليه وسلم: ((**يبتلى الرجل على قدر دينه**)) رواه الترمذي. فمن ابتلاء الله المؤمنين أن يمتحنهم بغلبة الكافرين وبظهورهم عليهم، ليعلم الرب من آمن به حق اليقين، وممن في قلبه شك ودخن. وهذا من تمام حكمته وعظمته، فإن الرب لا يرضى من العبد إلا أن يخلص له فلا يكون في قلب العبد إلا الله. وعلى هذا اقرأ قصة قارون وعلوه في الأرض في سورة القصص، وكيف كان كثرة ماله فتنة للناس، وثبت فيها أهل العلم بالله تعالى ثم عقب عليها بقوله: {**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**}.

الحكمة الثالثة: ومن ابتلاء الله للمؤمنين بعلو الكفر حينا عليهم، ذلك ليرى من يطيعه بقتالهم ومنابذتهم ثقة بوعد الله تعالى، ممن يستكين للكفر ويذل له، كما حدث للصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في حركة الردة، فكان الصحابة هم أهل الإيمان واليقين وهم أحق به وأهله.

فارتفاع الكفر حينا هو فرصة ذهبية للمؤمن ليظهر صدق دعواه في تعلقه بعبودية الرب الحق قال تعالى: {**ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض**} محمد، وقال الله تعالى لنبيه في الحديث القدسي: ((**إنما بعثتك لأبتليك وابتلي بك...** إلى قوله... **استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك وأنفق عليهم فسننفق عليك، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك**)) رواه مسلم.

سنن إهلاك الكفار:

يكثر الحديث الشيق في القرآن الكريم عن سنة إهلاك الله تعالى الكافرين، وهو حديث يرطب قلب المؤمن في صحراء الغربة القاحلة، فالمؤمن في زمن الضياع، وزمن قلة الإخوان والخلان، ونضوب القيم والفضائل، واستعلاء الباطل وغطرسته، وتبجحه أنه صاحب الأمر والشأن، وأنه لا راد لأمره، ولا فناء لملكه، في هذا الزمن يكون الحديث القرآني حادي حق، وصادح أمل للنفوس العطشى، المرتقبة أمر السماء العلوي بحصول القضاء الإلهي العاجل بين المستضعفين وأعدائهم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعالجات النفسية للمستضعفين في غير موطن فيه، ومنها قوله عن لوط عليه السلام لحظة استعلاء فجور قومه عليه ومراودتهم لضيوفه قال سبحانه وتعالى: {**ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب، وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات، قال هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد، قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم، إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**} هود.

فتمعن في عبارات لوط عليه السلام وما تحمل من آلام نفسية، وما تضمر من مخبآت تبين عن هذه الغربة التي يعيشها نبي الله لوط عليه السلام.

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى عنه: {وضاق بهم ذرعا}.

نعم لقد ضاقت نفسه، وذهب انبساطها، والعرب تقول: ضاق بالأمر ذرعا: أي لم يطقه ولم يقو عليه.

هل رأيتم نبيا عظيما يصل إلى هذه المرحلة وإلى هذه الصورة في استقبال ضيوفه؟، والأنبياء هم الأنبياء، خلقا ودينا، كرما وشجاعة، لكنه عليه السلام: لم يطق ضيوفه، و لم يفرح لقدومهم، بل قال: {هذا يوم عصيب}.

ثم تابع الحدث حكايته، وتزداد الأزمة حبكتها بين طرفين:

الأول : يملك الحق {**قوم يتطهرون**} ولكنه غريب بحقه، ضعيف بأدوات مصارعته.

والثاني: الباطل بكل صلفه وخبثه، يتحدث حديث الفجور باستعلاء وإعلان: {**لقد علمت مالنا في بناتك من حق**}.

باطل يتحدث عن الحقوق، ويراعيها، وينبه خصه إلى قواعد الشرعية الدستورية، ويلبس مسوح الحكماء {**لقد علمت مالنا في بناتك من حق**} انظروا إلى طريقته في الحديث، واعجبوا كيف صدرت كلمة "الحق" منه، وإلى طريقة تقرير القانون {**لقد علمت**}، هم أصحاب الحق والقانون، والخصم، لوط عليه السلام، نسي قواعد الحق، والباطل يذكره بها،!!

ثم تواصل القصة تأزمها.

هؤلاء قوم: ليس فيهم رجل رشيد، إنهم يتحدثون عن أمور لا رشد فيها ولا عقل ومع ذلك يقولون عن كل هذا الطيش الذي يخرج من رؤوسهم حقا، هل هؤلاء القوم تردهم الكلمة؟ أو تزجرهم الموعظة؟ أو تهديهم النصيحة؟.

هنا في هذه اللحظة تخرج كلمات الأسى والغضب، تخرج هذه الكلمات كأنها الجمر تريد أن تحرق من أمامها، تخرج هذه الكلمات من فم نبي من أنبياء الله تعالى: {**لو أن لي بكم قوة**} ماذا ستفعل بهذه القوة يا لوط؟ هل تصلح لهم لما بها بنياتهم؟ هل تصلح بها اقتصادهم؟ هل تدافع ما عن أعداء قومك؟ لا، بل لو أن لي بكم قوة لأدوس لما رؤوسكم، لو أن لي بكم قوة لأريكم العذاب ألوانا، لو أن لي بكم قوة لصنعت بكم ما صنع خاتم الأنبياء ب "عكل " و"عرينة"، قطع أيديهم وأرجلهم وجدع أنوفهم وقطع آذانهم ثم أحمى الحديد على النار حتى احمر ثم كحل عيونهم به ثم رماهم في الحرة يستسقون الماء ولا يسقون، هؤلاء قوم لا تنفع معهم الحكمة، بل من تمام الحكمة معهم أن تبيد خضراءهم وأن تقتلع رؤوسهم، وعلى هذا فإن الذين يظنون أن الحق لا يحتاج إلى قوة تحميه وتبيد أعداءه هم أصحاب عقول سخيفة لم تفهم سياسة الدنيا والدين.

{**لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد**} إن لوطا عليه السلام نسي. والأنبياء ينسون كما ينسى الناس وآدم من قبل قد نسي. أقول إنه عليه السلام نسي أنه هو في ركن شديد، قال ابن كثير: (ورد في الحديث من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد** - يعني الله عز وجل - **فما بعث الله بعده من نبي إلا وفي ثروة من قومه**"). ا. هـ.

إن هذه العبارات التي خرجت من فم نبي الله لوط عليه السلام تدل على حالة هي أشد ما يلقى الإنسان من القهر والظلم، ولكن هل انتهى المشهد أم أن هذه بداية النهاية؟. قال تعالى: {**حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا**} يوسف.

في تلك اللحظة أتصور المشهد بالصورة التالية: لوط عليه السلام يقف أمام الباب وهو ينظر إلى تلك الحيوانات البهيمية من قومه، لوط يرتجف غضبا، وحبات العرق النقية تنساب على جبهته، يداه ترتفعان حينا بالتهديد وبالإنذار، وحينا بالرجاء {**هؤلاء بناتي هن أطهر لكم**}، وأما تلك الحيوانات الإنسية فإن منظرها لن يكون إلا على الصورة التالية: سكرى يتمايلون باستهزاء وسخرية، ويهرشون أبدانهم القذرة ارتقابا بعاجل الشهوة، وليس بعيدا أنهم يحملون معهم بعض الأوراق كتب عليها "الدستور لقرية سدوم" (قرية نبي الله لوط عليه السلام)، وهذا الدستور مكتوب فيه: "قرر الشعب أن يختار حرية الجنس بين المتماثلين"، في هذه اللحظات التي امتدت في نفس لوط إلى ملايين السنين، ونسي كل شيء وغابت عنه أعظم الحقائق. وهو كونه يأوي إلى ركن شديد. في تلك اللحظة التي بلغت فيها الأزمة ذروتها يخرج ضيف كأنه البدر ويضرب كنف لوط قائلا له: {**إنا رسل ربك**}، أي نحن ملائكة العذاب. يا الله! جاء الفرج، جاء الفرج، وهنا املأ مخيلتك بمشهد لوط عليه السلام: تخيل ماذا قال؟ وتخيل ماذا فعل؟ نعم في البداية جحظت عيناه من هول المفاجأة ولم يصدق ما سمع، لكنه جزما رأى ابتسامة على وجه الملك ردت إليه روح الأمل فصرخ: ماذا؟ ملائكة الله؟ ملائكة العذاب؟: هيا عذبوهم، اقتلوهم، أروني بهم ما يسر نفسي ويفرح قلبي. أرجوكم الآن لأشفي قلبي منهم. لكن الجواب: {**إن موعدهم الصبح**} هذا جوابهم. قال لوط: ماذا؟ الصبح! الصبح بعيد، وكان الوقت عصرا - كما قال أهل التفسير- أريد أن أشفى قلبي منهم الآن! قال الملائكة: بل انتظر، الصبح قريب. نعم فكان ما كان: {**فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود** (أي مصنوعة في السماء) مسومة (أي مختومة بختم الصنع وإما بأسماء أصحابها) **عند ربك وما**

هي من الظالمين ببعيد}، وانتهى المشهد بكل حركته وبكل عظمته، وظهر أمر الله وهم كارهون.

في هذا الحديث القرآني عدة فوائد منها:

أولا: أن الباطل لابد إلى زوال، وأن فيه عوامل الفناء والفساد، وأنه مهما طال الليل فلابد من الصبح.

وقد جعل الله الصبح علامة مباركة لأمور عدة أهمها:

أن الصبح هو ميقات حركة الخيل المجاهدة، قال تعالى: {والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا} العاديات.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح خيبر: ((**الله أكبر خربت خيبر إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين**)). وكما قال الله تعالى: {أفبعذابنا يستعجلون، فإذا نزل بساحتهم فساء **صباح المنذرين**}. فعلى الاخوة أن لا ييأسوا، ولا يستبطئوا النصر فإن لكل أجل كتاب، والصبح يأتي في موعده، ولن يطفئ نوره شيء.

ثانيا: أن الهلاك القدري بالسنن الكونية كما كان يقع في الأقوام الكافرة السابقة قد توقف، وأن الله يعذب الكافرين الآن بأيدي المؤمنين، فإذا أراد الله بقوم عذابا أغرى بهم عباده المؤمنين، فنـزلوا بساحتهم. قال تعالى: {**ولقد أتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون**} القصص . قال ابن كثير في تفسيرها: (يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا المشركين) ا.هـ. فعلى هذا فإن البديل عن ملائكة العذاب لقوم لوط هم أولئك الفتية صبح الوجوه. يضربون وجوه الكفرة بأيد من حديد يتشبهون بالملائكة، فالملائكة: {**غلاظ شداد**} التوبة، والفتية {**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**}التوبة، وهم {**وليجدوا فيكم غلظة**} التوبة، وهم { **أشداء على الكفار**}. ورحم الله من لم يرحم الكافرين، ولا رحم الله من كان في قلبه رحمة للكافرين.

العبودية والشرك:

البيان القرآني لحركة الأنبياء في أقوامهم يقدمهم على أساس مشترك بينهم جميعا، وهو الحديث الدال على أن معركة الأنبياء وصراعهم مع الناس هو من أجل تحقيق عبودية الله فيهم، ولما كان لفظ العبادة لفظا يحمل معان كثيرة فإن التحديد هو الذي نحتاجه في هذا الوقت:

إن أعظم ما يصيب الناس في مسرة التاريخ هو الشرك، وهو أعظم ظلم يقع فى هذه الحياة، قال تعالى: {**إن الشرك لظلم عظيم**}، وصراع الأنبياء مع هذا الاعوجاج لتقويمه ورده إلى الجادة؛ أي رده إلى التوحيد، ولأن الأنبياء هم رسل الله وعبيده فهم يقومون أول ما يقومون به إقامة التوحيد في الأرض، ويكشفون للناس ما وقعوا فيه من ظلم لهذا الحقن ومع أن هذا الظلم يؤدي إلى مظالم أخرى؛ كالمظالم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إلا أن إصلاح هذا كله لا يمكن أن يكون بمعزل عن إقامة الحق الأول، وهو حق الله على عباده، وتجاوز هذا الغرز يبعد المسلم عن العبودية التي ينبغي أن يكون عليها، أي أن يكون ممثلا لرسل الله في دعوتهم، وللتصريح فإن المسلم إذا قدم نفسه مصلحا اجتماعيا لمفسدة اجتماعية، أو إذا قدم نفسه مصلحا سياسيا للمفاسد السياسية، أو تدم نفسه مصلحا اقتصاديا للمصالح الاقتصادية تفقده هذه الصورة الكثير من معالم الصورة الرئيسية لحركة الأنبياء في القرآن، وعلى ضوء هذه المقدمة نستطيع أن نتبين الصورة الحقيقية لكل جماعة تنتسب إلى الإسلام في قربها أو بعدها عن الصورة المختزنة في القرآن الكريم عن أنبياء الله تعالى. ولنتذكر أن معركة الأنبياء مع أقوامهم هي معركة التوحيد مقابل الشرك، أي هي معركة تحت راية التوحيد.

وقد يكون هذا العرض لهذه القضية دافعا لمجموعة من قاصري النظر لرده قائلين: وهل قضية الجماعات الإسلامية مع أقوامهم المسلمين اليوم هي قضية إيمان وتوحيد مقابل شرك وكفر؟. وقد يكون السؤال أصرح وأوضح: هل وقعت أمة الإسلام في الشرك والكفر؟. وفورا سيقفز للذهن التهم التقليدية نحو أهل التوحيد: خوارج، جماعات الغلو، المارقين... وغيرها إلى آخر هذه القائمة السوداء أما أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يصيبها ما أصاب الأمم السابقة

من الشرك والكفر فنعم، والقائلون ببراءة الأمة المنتسبة للإسلام من الشرك هم جاهلون بحقيقة التوحيد، لا يعرفون منه إلا لفظه: ولبيان هذا الأمر لما فيه من خطورة، لابد أن نسوق بعض الأحاديث المعصومة الدالة على ما قدمنا وأن طوائف من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ستلحق بالمشركين والكفار: فقد روى ابن ماجة وأبو داود بسند صحيح عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**وإن مما أتخوف على أمتي أئمة مضلين، وستعبد قبائل من أمتي الأوثان، وستلحق قبائل من أمتي بالمشركين**)) ا. هـ.

فهذا حديث عظيم الفوائد، والرسول صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم، وقد فرق صلى الله عليه وسلم بين أمرين من الشرك وهما من الأكبر، أما **الأول**: فهو قوله: ((**ستعبد قبائل من أمتي الأوثان**)) وأما **الثاني**: ((**ستلحق قبائل من أمتي بالمشركين**))، ومع أن نتيجتهما واحدة وهي الكفر والشرك، إلا أن الطريقة الموصلة إلى هذه النتيجة مختلفة، وليس من العبث التفصيل في بيان هاتين الصورتين، فلنسر معاً قليلاً في تجلية الفرق بين الحالتين لما فيهما من الفوائد العظيمة، والتي تكشف للمسلم طوائف الكفر في العصر الذي يعيش فيه:

الشرك الأول: وهو شرك عبادة الأوثان، والأوثان هي الأصنام، قال مجاهد : الصنم ما كان منحوتا على صورة، والوثن ما كان موضوعا على غير ذلك. ا.هـ.

وعبادة الأصنام والأوثان هو صنيع من مال إلى التدين الفاسد في زماننا من صوفية وقبورية، فالشيطان قد نصب على طريق هؤلاء صورا من الشرك فتن بها الناس، ولذلك ترى الكثير من المتدينين مشركين بهذه الأوثان والمعابد، حتى جزيرة العرب التي جاهد فيها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لإزالة هذه الأوثان منها، قد عادت إليها، والدولة المزعومة هناك لم تر بديلا في إماتة دعوة الشيخ هناك، سوى غض الطرف عن الطرق الصوفية والمجالس الشركية التي تعقد في مكة والمدينة من قبل طوائف الصوفية هناك.

قال صاحب قرة الموحدين: وقد وقع فيه - أي الشرك - الأذكياء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة فاتخذت الأصنام وعبدت... وصرفت لها العبادات بأنواعها واتخذت ذلك ديناً.ا.هـ.

والعجب أن زعيم جماعة إسلامية كبرى، وهي جماعة "الإخوان المسلمين"، المحامي عمر التلمساني يعتبر أن عبادة القبور، والالتجاء إليها، والنذر عندها، والطواف حولها مسألة ذوقية، وهذا مقدار فهمه للتوحيد الذي بعث به الأنبياء، ومع هذا فإن المستشار القانوني!! سالم البهنساوي قرر في كتابه "شبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر" أن التوحيد في أذهان المسلمين أوضح من نور الشمس في رابعة النهار، ويرفع النكير على من قال إن الأمة جهلت التوحيد ومقتضياته، ونحن لو طفقنا نجمع كلام الأئمة قديما وحديثا على جهل الناس بالتوحيد، لضاقت بنا المجلدات، ويكفي أن نردد مع الإمام عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب حين قال: (فلا يأمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه.ا.هـ. من فتح المجيد.

الشرك الثاني: وهو شرك اللحوق بالمشركين وله صور متعددة تتجدد في كل زمان وتلائم شرك المشركين ق ذلك الزمان، والمشركون في زماننا هذا قد تميزوا بنوع من الشرك، وهذا الشرك هو الذي دخلت فيه كثير من الطوائف المنتسبة للإسلام، وهو شرك القضاء والتحاكم، فإن الكثير من المنتسبة للإسلام لم يلحق شرك الغرب من جهة أنه صار نصرانيا أو يهوديا، وهو - بلا شك - شرك وكفر، ولكن ما هو الشرك الذي دخلت فيه الطوائف هذه الأيام؟ إنه بلا شك شرك الدساتير والقوانين الوثنية.

وقد لحقت طوائف من أمتنا بهذا الشرك والكفر، ودخلت فيه إلى أعناقها، وهذا شرك الناس هذه الأيام وأغلبه، وإذا كان شرك الناس الذين يميلون إلى التدين هو شرك عبادة الأوثان، وهو شرك المتعبدين من صوفية وقبورية وخرافية، فإن شرك البقية الباقية ممن أعرض عن التدين والعبادة، هو شرك اللحوق بمناهج ونظم وقوانين المشركين، والدخول في طوائفهم، كاللحوق بالشيوعية والعلمانية والبعثية والوطنية والقومية وغيرها من صور الشرك والكفر الأكبر، وهذا النوع من الشرك قد كثر هذه الأيام وتعاظم أكثر من غيره من صور الشرك الأخرى، وهو بلا شك صورة جديدة بهذه الكثرة لم تعهدها أمتنا من قبل على هذه الشاكلة من الكثرة والوضوح، ولأن كثيرا من الناس قد مات لديهم الإبداع في اكتشاف صور الشرك وتجدده في حياة الناس، فإنهم ما زالوا يحاربون الشرك بصوره التي حاربها الأوائل من

عبادة قبور وغيرها، وأما ما أحدث الناس من شرك جديد وهو شرك الطاعة والتحاكم لغير الله فهم لا يقيمون له وزنا، ولا يقيمون له شأناً.

وإذا كان هناك من الجماعات الإسلامية ممن لم تكتشف شرك القبور، بل دخل بعض أفرادها فيه، فإن هناك طوائف من الجماعات الإسلامية لم تكتشف شرك القصور بل دخل بعض أفرادها فيه، وصار طوائف من هذه الجماعات جزءاً من الطوائف التي لحقت بالمشركين، فلو قيل لسلفي مزعوم مازال يحلم بمصارعة طواحين الهواء القديمة: لماذا أنت في هذا الجهاز الكافر لطائفة من طوائف الشرك؟ لحار جواباً ولم يدر ما يقول، وإلا فما هو عذر هؤلاء القوم من المنتسبين للتوحيد في تأييدهم للطاغوت حينا، أو لدخول زعيم من زعمائهم في طائفة الكفر: بأن يكون مستشارا للطاغوت.

مثل هؤلاء القوم يقيمون النكير تلو النكير على شرك القبور - مع أنهم تخلوا عن الكثير من وضوحه وجلائه - وأما شرك القوانين والدساتير فلا يهتمون به، وهذا يدل على أن التوحيد الذي بعث به الأنبياء قد أصابه الكثير من التشويه في أذهان المسلمين هذه الأيام.

نخلص من هذا إلى النتائج التالية:

1 - أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يصيبها ما أصاب الأمم السابقة من الشرك والكفر، والممتنع هو: اجتماع الأمة على هذا الكفر والشرك.

2 - أن الشرك الواقع في هذه الأيام له صورتان:

أ- شرك القبور: وهذا وتعت فيه طوائف المتعبدين.

ب - شرك القصور: وهذا وقعت فيه طوائف العلمانيين (الذين لا يقيمون للدين وزنا).

3 - أن الجماعات المهتدية هي التي تبرأ من الشركين، لا من أحدهما ثم تقع في الآخر.

4 - أن معركة الجماعة المهتدية هي معركة توحيد ضد كفر، وإيمان ضد شرك، وليس معركة اقتصادية ولا سياسية ولا اجتماعية، وليست هي كذلك معركة حنبلي ضد حنفي أو شافعي ضد مالكي، أو لنصرة مذهب على مذهب أو قول فقهي على قول فقهي آخر.

العبودية والتمكين:

في كثير من الآيات القرآنية العظيمة، يكشف المسلم توافقا عجيبا بين أمور قد تبدو لأول وهلة غريبة، ولكن بإعمال النظر يظهر للمسلم التساوق العجيب والارتباط الوثيق بينهما.

هناك قاعدة، نستمدها من مجموع بعض الآيات والأحاديث في موضوع تحقيق عبودية الله في النفس الإنسانية، هذه القاعدة هي: لا عبودية بغير تمكين. ولا مغفرة من غير فتح. ولا فتح بلا شهادة.

1 - لا عبودية بغير تمكين: استقر في أذهان المسلمين في هذه الأيام أن عبوديتهم لله تتحقق بمثل ما يقومون به من أعمال تعبدية فردية، فهم يصلون ويصومون ويحجون، ويذكرون الله كثيرا، وإذا حدثتهم عن مهمة الإسلام العظمى وهي بسط سلطان الله في الأرض، وتمكين دين الله في الوجود، عدوا ذلك من نافلة القول في موضوع العبودية، بل قد وصل الأمر ببعض (الأذكياء) أن يعد الحديث عن هذا الأمر (أي الحاكمية) هو حديث الباحثين عن الشهوة في الحكم، فهذا سلفي مزعوم وهو الدكتور ربيع المدخلي في كتابه "منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله"، يقرر أن الإمامة ليست من قواعد أهل السنة والجماعة، وهو بسوق حديثه ضد بعض الجماعات المسلمة التي تتكلم عن موضوع تحكيم الشريعة الإسلامية وأنه مهمة عظمى، وساق هذا الرجل الواهم كلاما لشيخ الإسلام ابن تيمية في موضوع الإمامة في رده على الشيعة الروافض وعقيدتهم في الإمامة، والأمر بينهما جد مختلف ويبصره صغار الطلبة وأنصاف المتعلمين، لكن هذا الرجل (ربيع المدخلي) يكفيه أن يعلن أنه سلفي!! ليكون إماما لبعض الصبية الأغرار ممن تغرهم الشعارات والعبارات البراقة. الإمامة في دين الله مطلب شرعي، ولا تتحقق عبودية المسلم في الأرض إلا إذا صار إماما، ونقصد هنا بالإمامة والإمام هو التمكين بالغلبة والقوة. فكلما زاد تمكين المسلم في الأرض كلما زادت عبوديته، وكلما نقص تمكين المسلم في الأرض كلما نقصت عبوديته.

وهذا الفهم له أدلة كثيرة منها:

أولا: قال تعالى: {**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**} غافر، وقال تعالى: {**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون**} الصافات، وقال تعالى: (**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**} الأنبياء، وقال تعالى: {**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم**}. هذه الآيات وغيرها الكثير تربط بين صدق الدعوى وصدق الوعد.

أما الدعوى فهي الإيمان وهي أعلى مراتب تحقيق العبودية.

وأما الوعد فهو التمكين، فإذا وجدت الدعوى فلا بد أن يتحقق الوعد، وتخلف الوعد يدل لزوما على تخلف الدعوى، وللتذكير فإن هذه القواعد القرآنية هي قواعد الجماعة ولا تعمل إلا من خلال الجماعة، وإذا تأملت في الآيات السالفة بعين نظر رأيت صفة الجمع للدعوى: {**الذين آمنوا**} و{**جندنا**} و{**عبادي الصالحون**} فإنها تتكلم عن جماعة لا عن أفراد، وهذه قاعدة سنتكلم عليها إن شاء الله في مقام قادم.

فالتمكين الذي هو النصر والغلبة مظهر من مظاهر عبودية المسلم في الأرض، وطلب التمكين في الأرض أمر إلهي واجب، على قاعدة أن الوعود الإلهية هي أوامر لتحقيق أسبابها والسعي في إدراكها، فأي جماعة لا تعمل في أسباب التمكين في الأرض بالغلبة والقوة لا تستحق أن تلج باب العبودية لرب الأرباب، والتمكين لا يتم إلا بالفتح كما أن الفتح لا يتم إلا بشهادة.

وأما قول بعضهم من جماعات الوهم الساذج، أو جماعات الفكر العرفاني - وهم الذين لا يرون الارتباط بين السبب الكوني والنتيجة القدرية - أن التمكين يتم عن طريق البلاغ فقط، أو عن طريق التصفية والتربية (بالمفهوم الصوفي الجديد تحت دعوى السلفية) أو عن طريق صندوق العجائب، فهؤلاء قوم حادوا عن جادة الصواب.

ثانيا: إن الكثير من الآيات الربانية، والأوامر النبوية لا يمكن أن يعملها المسلم إلا في زمن التمكين، وذلك لعجزه عنها، والعجز سبب من أسباب عدم تحقق تطبيق الأمر الإلهي الذي هو في النتيجة تخلف كمال العبودية لله، الحدود والاستعلاء على الكافرين وغيرها من الأوامر لا يمكن أن يقدر عليها المسلم إلا بتمكين.

2 - **لا مغفرة من غير فتح**: بتمام العبودية لرب العباد يمن الله على عباده بالغفران، فالعبودية تساوي التمكين، والتمكين يكون بالنصر والغلبة وهما يعنيان الفتح، قال تعالى: {**إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك وسبحه إنه كان توابا**}، فانظر حفظك الله ورعاك إلى التلازم بين فتح الله لنبيه (وهو ظهور دين الله تعالى على كل الأديان بالسيف والسنان كما ظهر بالحجة والبيان) وبين الله منه أن يستغفر ربه، وقال تعالى: {**إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا**} الفتح.

انظر إلى الجمع بين الفتح والمغفرة، إنا فتحنا تساوي ليغفر مضافا إلى ينصر. فالفتح نتيجة المغفرة والنصر، لأن الفتح لا يقع إلا بتوبة وجهاد. فالمغفرة لا تقع إلا باستغفار، والنصر لا يقع إلا بقتال، فالفتح لا يقع إلا باستغفار وجهاد، وغياب الفتح عن العبيد دال على أن المغفرة لن تقع، وقد أدرك الصالحون من عباد الله هذا الأمر، قال تعالى: {**وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين**} آل عمران. هذه الآيات العظيمة، نزلت بعد موقعة أحد، حيث امتنع فيها الفتح، فأرشدهم الله إلى صنيع الأوائل، وكيف هي سنته سبحانه وتعالى في وقوع الفتح، حيث عبر عنه في هذه الآية بقوله {**ثواب الدنيا**}. فإذا آتى الله عباده {**ثواب الدنيا**}دل هذا على وقوع المغفرة، وتأخر النصر يدل على تخلف المغفرة.

3 - **لا فتح إلا بشهادة**: في قراءة مشهورة للآية السابقة {**وكأين من نبي...**} تقرأ: {**وكأين من نبي قتل** (بدل قاتل) **معه ربيون كثير...**} الآيات . فالآية بهذه القراءة وبالقراءة السابقة كذلك تدلنا على سنة الله مع أوليائه أن يتخذهم شهداء، قال تعالى: {هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين} آل عمران. فمن مقاصد الرب سبحانه وتعالى وقوع البلاء الذي هو

مقدمة النصر والتمكين، كما سئل الإمام الشافعي: أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى.ا.هـ. الفوائد لابن القيم. قلت: من مقاصد الرب سبحانه وتعالى في وقوع البلاء هو اتخاذ الشهداء، وعلى هذا فيحب على الجماعة المهتدية أن تنشئ في نفوس أتباعها حب الشهادة وطلبها والسعي لها لأنها مقصد إلهي ولأنها الطريق نحو النصر والتمكين، ولهذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع أصحابه على الموت، وكانوا رضي الله عنهم يطلبون الموت مظانه لما علموا من حب الله تعالى لاتخاذ الشهداء، قال تعالى: {**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**}.

وعلى هذا فإنا نخلص إلى النتائج التالية:

أ - الجماعة المهتدية هي التي تسعى إلى تحقيق عبودية الله تعالى في الأرض بتمكين دين الله، وببسط سلطان الله في الناس.

ب - الجماعة المهتدية علمت أن هذه العبودية لا تتم إلا بالفتح وأن أسباب الفتح هو القتل والقتال.

ج - الجماعة المهتدية هي التي يجتبيها الله بأن يتخذ منها شهداء، أما جماعات الانحراف والتزوير فهم الذين يفرزون سوء الرأي بأخذ جانب السلامة فيستبدلون القتل والقتال بالبرلمان حينا وبالبلاغ حينا وبتحقيق كتب التراث حينا وبالتربية الموهومة حينا وكل هذه - الطرق تؤدى إلى الذلة والهوان إذا اتخذت سبيلا للتمكين، والله الهادي سواء السبيل.

الفصل الثاني

الجماعة والإمامة

"لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى
يوم القيامة" حديث نبوي رواه مسلم
"الجماعة ما وافق الشرع وإن كنت وحدك"
ابن مسعود

الجماعة والحزب:

بعد أن سقطت الخلافة الإسلامية، وانفرط عقد الجماعة، دخل أهل السنة في إشكالية ما تزال تعتبر معوقا لهم عن بلوغ أهدافهم أو التقدم نحوها، هذه الإشكالية هي معضلة الجماعة وشرعيتها، وما هي قوة الإلزام في انضمام المرء لها.

كان أهل السنة يعتبرون أنه بمجرد وجودهم تحت راية إمام ممكن، يدينون له بالطاعة والولاء، ويمتثلون أمره هم داخلون تحت مسمى الجماعة، فلم يكونوا بحاجة إلى بحث هذا الإشكال إلى مستوى أوسع مما هي عليه، ولضيق هذا الفهم وعدم شموليته، ولبعده عن الفهم الصحيح عن مفهوم الجماعة كما هو معروض بالشرع وكما فهمه السلف، فإنه بمجرد سقوط هذا الرابط العام (الخلافة) حار أهل السنة في حل هذا الإشكال وما زالوا في حيرة إلى لآن.

في هذا الوقت الذي يدرك فيه البشر جميعا أن التفرق ضعف، وأن الذاتية مهلكة وأن الدول لا تستطيع أن تحافظ على كيانها وتحصل طموحاتها إلا بوجودها في داخل تحالفات وتجمعات، والعالم الآن يرقب ميلاد تجمع واسع ليحافظ على مكتسباته، هذا التجمع هو أوروبا الموحدة، ومع أن أسباب التفرق والتنازع بين هذه الدول هي من أعظم ما يوجد بين بشر من اختلافات، إلا أنهم بطريقة سننية يحثون الخطى لتجاوز هذه المعوقات وتذليلها للوصول إلى لحظة الوحدة على شكل ما وطريقة مقبولة لديهم.

أقول في هذا الوقت الذي يدرك فيه البشر هذه السنن وأهميتها ويوجد بين المسلمين من يقول ببدعية التنظيم، وأن الانضمام إلى جماعة مسلمة عاملة هو بدعة وضلالة، وأن سنة السلف

لم يكن فيها هذه الصور الحادثة من التجمعات والتنظيمات، وهؤلاء هم الأعلى صوتاً داخل المجتمعات الإسلامية، وهم كعادتهم يضربون بسيف السلف، وبشعار ملك الحقيقة والدليل.

ومع أن قضية الجماعة لم تكن مطروحة إلا بشكل هزيل قبل حدوث هذه الأفكار، أي أن على صورة أن الانضمام في جماعة هو أمر مستحب ومرغوب، وهو أمر موسمي حسب الظروف والحاجة، فإذا ما تعارض أمر الجماعة والانضمام إليها مع بعض الأهواء أو الواجبات الذاتية انصرف عنها المسلم وهو لا يشعر بأدنى نوع من أنواع الندم والشعور بالذنب، إلا أن وجود مثل هذه الفتاوى القائلة ببدعية التنظيم والتجمع وعدم شرعيته أحدثت هزة داخل الفرد الذي يسيره الدليل، أو الذي يملكه الشعار، حتى أن بعض التيارات الإسلامية بدأت تطرح نفسها على شكل جماعة وتنظيم، فيه بعض مقومات التنظيم البسيطة والأبجدية، إلا أنها تحت ضغط هذه الأفكار اضطرت إلى تحليل نفسها، وتنازلت عن بعض المقومات حتى صارت تطرح نفسها على شكل تيار فكري ما، دوره فقط نشر الأفكار، أو بعض التوجهات دون حصول دعوة التجمع والتنظيم، وهذه الصورة، وهي صورة نشر الأفكار على شكل تثار لا رابط تنظيمي يجمع بينه تلاقي قبولا شديدا لدى المسلم المتخلف فكرا وإرادة، فهو أمر يسقط عنه تبعية المساءلة أو التكاليف، ثم هو لا يضطر في بعض المواقف أن يدافع عن الجماعة كمفهوم ولا عن الجماعة كوجود حقيقي ينتمي إليه، وهذه الصورة السلبية كذلك - وهو طرح الفكر كتيار جامع لا تنظيم فيه - لا تعتبر شرعية في نظر تيار التخلف، لأنه هو صورة من صور التنظيم البدعية عندهم كذلك، ولذلك لم يحصل له الرضا والموافقة، فهو معرض للهجوم دوما، وللتبديع في كل وقت، ولعل البعض ما زال يرتكس في شهواته وأهوائه، فهو حين يطرح التنظيم يطرحه كأمر منفر غير مقبول.

ومن الشعارات التي صارت مألوفة لدى المسلم السني المتخلف، أن الإسلام لا حزبية فيه، أو أن الحزبية شر، ثم يبدأ يعدد مضار الحزبية وشرورها، حتى يهيأ للقارئ أن الحزبية هي شر بذاتها ولا خير فيها، وأنها لا تنشئ إلا البدعة والضلال، وهم يظنون أن التنظيم والتحزب لا بد أن ينشئ هذه الأخطاء، ولا خروج منها إلا بأن يسلم الرحل بنفسه، وينفرد بالعمل والتفكير، مع أن هذه الأخطاء التي تنشأ في التجمعات، هي التي تكسب الإسلام وتصبغه

صبغة العملية والموضوعية، فصلاة الجماعة مثلاً هي تجمع وتحزب، فيها أمير، وبينه وبين الأتباع عقد، وقوة الإلزام فيه الوجوب والفريضة، حتى أن التابع يجب عليه أن يقلد ويسير بسير القائد حتى في ضعفه وخطئه (إلى حد يبينه الشارع) فلو أن الإمام صلى قاعدا لعجز أصابه، والمأموم قادر على أن يصلي قائما، وجب على المأموم أن يصلي جالسا، ولو الإمام لم يجلس الجلسة الوسطى وتركها فعلى المأموم وجوبا أن يتابعه ولا يتخلف عنه، وهي أمور لو فعلها المرء منفردا لكان مقصرا آثما وربما تبطل عمله، فلو صلى المرء منفردا وصلى جالسا وهو قادر على القيام في صلاة الفريضة فإن صلاته عند جمع من الأئمة حكمها البطلان لتركه ركنا من أركانها، كذلك هو آثم لو ترك الجلوس الأوسط في الصلاة الرباعية والثلاثية على الصحيح، ولكن وجود المصلي في جماعة غير الحكم، وأوجد فقها جديداً، ولم يقل أحد من العقلاء أنه بسبب هذا الفقه الجديد الذي أحدثته الجماعة في صلاتها يجعل صلاة الجماعة شرا وأن الصلاة المنفردة هي الأفضل والأولى، بل بقيت صلاة الجماعة واجبة من واجبات الشريعة، وشعيرة من شعائرها الظاهرة.

وقد يجد المرء في نفسه قوة وهو منفرد بدون جماعة وهو وهم وظن وتلبيس شيطاني لأن الشيطان كالذئب يأكل من الغنم القاصية.

ثم إن الجماعة تفرض على المرء صورة جديدة لحياته تجعله أسلم بضعفه مع الجماعة من قوته وهو منفرد، ومسيره معها مثل صلاة الجماعة، فإن الرجل حين يصلي في جماعة، فإن على الإمام أن لا يطيل في الصلاة، بل عليه أن يخفف لأن وراءه المريض والكبير وذو الحاجة، فالجماعة تجمع الطريق ففيها القوي الجلد كذلك، فلو صلى هذا الجلد منفردا لأطال وأكثر في القيام والقنوت، ولكن حين يصلى مع الجماعة فإنه مقيد بطول صلاة الإمام وقصرها، وهي فضيلة في حقه لكونه في جماعة، لأنها مقصد من مقاصد الشارع تهون بعض الأمور إلى جانبها، ولا ينظر إلى تلك الأمور التي يظنها بعضهم فوائد للانفراد والذاتية.

قبل أن ندخل في موضوع شرعية الجماعة والتحزب والتنظيم فإننا مدعوين لهاتين النقطتين اللتين لابد منهما:

هناك فرق بين العصبية الحزبية وبين الحزبية والتحزب، وليس بينهما ترابط ولا علاقة، كون الرجل متعصبا لفكرة وهو غير متحزب، ولا في حزب، وقد يكون الرجل في حزب وتنظيم وهو غير متعصب، بل إن الجماعة والتنظيم إن قامت على سوق صحيحة تقتل في الرجل أنانيته وتعصبه لأنها تجبره دوما على التنازل عن آرائه التي يراها ذهبية عظيمة مقابل ما استقر عليه رأي الجماعة، والانفرادية والذاتية تجذّر في المرء حب رأيه وتعصبه له والمدافعة عنه بحق وباطل، وهذه العصبية المقيتة في التجمعات هي من الوراثة النكدة للفردية الذاتية، ولكن الكثير من الناس يظن أن المرء حين يدافع عن فكرة ما وينافح عنها، هو بسبب تبني حزبه لها، وهذا خطأ فالناس يدافعون عن أفكارهم هم، ولتبنيهم تلك الأفكار، لأنها أفكار حزبهم وتنظيمهم، لكن بعض الناس مرتبتهم التقليد، وبعضهم مرتبته الاتباع، وبعضهم مرتبته الاجتهاد، وكل مرتبة من هذه المراتب هي مراتب ومنازل ودرجات كذلك، قد يكون الرجل هو في نفسه مقلداً فيدافع عن تلك الأفكار مدافعة المقلد، بغض النظر عن كونه في حزب أو في غير حزب، فعلينا أن ننظر إلى الناس في نقاشنا معهم باعتبارهم أفرادا مستقلين لا باعتبارهم أفرادا في جماعات، فيعامل كل امرئ بحسبه ودرجته مع التنبيه أن المقلد قد نبه أئمتنا على عدم جدوى نقاشه ومناقشته، لكن حظه من الأمر النصيحة والتذكير، لا المناظرة والمجادلة.

زعم بعضهم أن التحزب تفرق، وأن التنظيمات وزعت الأمة أوزاعا وفرقا، وهذا خطأ بين، فإن التفرق في الأمة حادث بسبب أنانيتهم وفرديتهم، والفردية هي التي صنعت في الأمة أمراضها، وأفرزت شرورها.

ثم تعالوا لنرى، هل الأولى أن تتجمع الأمة في ألف تنظيم وحزب، أو يكون كل امرئ على هواه وشخصه، حيث يكون فيها ألف شخص، كل على رأسه وهواه، ثم هل زاد دعاة هدم التنظيمات والأحزاب إلا أن أوجدوا في داخل أنفسهم أحزابا جديدة، وتنظيمات متعددة؟ هذا أمر يراه كل أحد ويحس به كل إنسان.

تكلمنا عن إشكالية الجماعة داخل صف أهل السنة والجماعة في هذا العصر، وقلنا إن أهل السنة الآن مضطربون في تحديد الحكم الشرعي للتحزب، والانضواء تحت جماعة إسلامية، وقد

بلغ اضطرابهم أن بعضهم يرى أن التنظيم بدعة، وآخرون يرون وجوبها، وبينهما من التيارات من يرى أحكاما تتراوح بين هذين الخطين، وهو اضطراب غير مقبول، أفرز مفاسد وأمراضا، ومنع أهل السنة من تحقيق أهدافهم أو التقدم نحوها، والكلام عن الجماعة يحتاج إلى بحوث جادة، واستنفار عام لأن موضوع الجماعة هو اللبنة الأولى لتحقيق الفكرة واقعا ووجودا، وبدون الجماعة لن تتحقق أي فكرة وجودا وبقاء، ولعلنا نتذكر كلمة الإمام العظيم محمد إدريس الشافعي - رحمه الله - حين دخل مصر ورأى فقه الليث بن سعد، وعلمه، وروايته فقال كلمته المشهورة: "الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به" سير أعلام النبلاء (156/8).

وهذه الكلمة تدل على عظم أمر الجماعة في بقاء الأمر ودوامه، وقبل ذلك نشره وبثه، فبدون وجود جماعة وتحزب وتنظيم لا يكون للأفكار وجود ولا بقاء.

إذا فهمنا هذا، ثم تفكرنا قليلا في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وبحثنا برؤية جادة عن بداية دعوته وظهور أمره، وإلى أي شيء دعا الناس، لأبصرنا تمام البصر أن أول شئ دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم هو التوحيد والجماعة.

فكان الرجل إذا استجاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل في التوحيد، قطع علائقه الأولى، وخرج خروجاً نفسيا ووجوديا من أي ارتباط سابق، كرابطة العائلة أو القبيلة أو غيرهما وانضوى تحت الجماعة الجديدة، وارتبط بها ارتباط كليا، ولاء، ونصرة، وامتثالا لأمرها، وإحساسا بها، وعطفا عليها، وتمثل هذا بقوله صلى الله عليه وسلم: ((**المسلم للمسلم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**)). وعلى هذا فليس من غريب الأمر أن يكون شعار المسلم الصادق هو الانضواء تحت شعار أهل السنة والجماعة وقد كثر حديث الأوائل عن المفاهيم السنية التصورية في مسائل العقائد، فألفوا فيها ما يسمى بكتب العقائد، وذلك لتجلية مسائل السنة التصورية كما هي، والرد على المخالفين من أصحاب العقائد التي زعمها الآخرون أنها من دين الله تعالى كعقائد المعتزلة والجبرية والرافضة والخوارج وغيرهم، لكن بقي موضوع الجماعة على غير تفصيل في هذه الكتب لأن الجماعة التي كانت تحتاج إلى بيان في عصرهم هو موضوع الإمام الممكن ومدى شرعية الخروج عليه ببغي أو

بفسق، وكذلك مدى شرعية إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وغيرها من المسائل الشرعية التي تبحث في هذا المضمار، ومع أن فقه أهل السنة لا يوجد فيه إجماع على هذه المسائل إلا أنه استقرت بعض المعالم وخاصة تلك الآراء التي تبناها وبثها الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - في حادثة فتنة خلق القرآن، لكن لو رجعنا إلى عبارات الأئمة في تفسير معنى الجماعة لرأينا لها مفهومين اثنين، وليس مفهوما واحدا وهما:

المفهوم الأول: المسلمون المنضوون تحت راية إمام ممكن سواء كان هذا إمام عامة أو غير ذلك، وهذا هو الذي كثر الحديث فيه في كتب السياسة الشرعية وكتب العقائد كقولهم: ولا نرى الخروج، أو: نقاتل تحت راية البر أو الفاجر، وغير ذلك من القواعد السنية.

المفهوم الثاني: أهل الحق، وهذا المفهوم دائرته أضيق من الدائرة الأولى، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: "الجماعة ما وافق الشرع وإن كنت وحدك".

وهذا المفهوم يتحدث عن جماعة صغرى في داخل الجماعة الكبرى (الدولة والخلافة)، وهي لا تندثر ولا تزول لا بوجود الجماعة الكبرى ولا بزوالها، بل بقاؤها الشرعي القدري فريضة وضرورة، وانفراط أمرها هو المصيبة الكبرى، والطامة العظمى، بل إن أمر الجماعة الكبرى (الدولة) مرهون وجوده بوجود هذه الجماعة، فالجماعة الكبرى (الدولة) قد تزول وتسقط، فمن الذي يعيد بناءها ووجودها؟ إنهم بلا شك جماعة الحق وأهل الهدى، وهذا كله داخل في قوله تعالى: {**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**}، قال القاضي عياض: فلو طرأ عليه كفر- أي حاكم الدولة- وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية، وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه، ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر.اهـ. شرح مسلم (229/12).

وأما إذا كانت الجماعة الصغرى (أهل الحق) لا وجود لها فإن عودة الدولة هو أمر لا يتصور وقوعه أبدا.

ثم إن الجماعة الكبرى (الدولة) قد يصيبها بعض الوهن والضعف، فتقصر في تطبيق الأحكام، لبعض العوارض، وقد تفشو في الدولة المنكرات، ويغلب عليها إرادة الفساق، أو

الذين لا خلاق لهم، أو قد تتبنى الدولة بعض البدع الفاسدة، وتدعو الناس إليها، فمن الذين يقومون بمعالجة ذلك كله؟ بلا شك أنها جماعة الحق (الصغرى).

وهذا كله كما قلنا سابقا داخل في الآية: {**ولتكن منكم أمة** ...} وهذه الآية عامة لا تخصيص لها، سواء بوجود الإمام الممكّن أو بعدم وجوده.

وقد وجد في تاريخنا الإسلامي المجيد هذه الصورة التي أحاول رسمها، وهي وجود الجماعة الصغرى بكل ما يعني لفظ الجماعة من معنى، مثل معنى التحزب أو التنظيم، مع وجود القوة الرابطة الجامعة لهذه الجماعة والحزب، فكانت بينهم العهود والبيعات على الحق، وكان منهم من يختار الأمير والقائد، وهكذا تقوم بكل ما التقت عليه وتبايعت لحفظه أو لإعادته.

ولعل أوضح صورة بينت أهمية هذا التكتل والتجمع الناتج عن ضعف الدولة واهتزازها هو ما حصل زمن الحروب الصليبية، ففي زمنها كان أمر الخلافة صوريا لا حقيقة له، وهي كما قيل:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وتوزعت الولايات الإسلامية مشتتة موزعة، لا خيط يجمعها، بل صار بينها من التناحر والتخاصم ما وصل إلى درجة الحروب والاقتتال، وفي هذا الظرف العصيب من التفرق والتنازع، قدم على المسلمين وافد من وراء البحار، حمل معه شهوة القتل والاستئصال، ومعه أمل الاستيطان والبقاء، يحمل راية الصليب، تغذى بوري الكبد، وتعاليم الخرافة، وقد استطاعوا أن ينتصروا في المعركة الأولى، أو المعارك الأولى، واستقروا في كثير من المدن والجيوب الإسلامية، وكن على ذكر أنه لم يكن للمسلمين ولاية عامة، ولا تجمع واحد، هذه الصورة كيف عالجها أهل الإسلام؟.

أغلب من تكلم في هذه الفترة الزمنية عالجها من جهة بعض الأشخاص الذين أحدثوا أثراً تجميعيا للجهود المتفرقة السابقة لأعمالهم، فنرى كاتبا يعالجها من جهة القائد نور الدين زنكي أو من جهة القائد صلاح الدين الأيوبي، وهكذا، فيظن القارئ على غير دراية أن هذا الجزء من التاريخ الإسلامي في معالجة الصليبيين تم عن طريق الدولة الجامعة لأمر المسلمين وهذا خطا

بين، فالقارئ المتمعن لتلك الفترة الزمنية يرى أن المسلمين عالجوا أمر الصليبيين عن طريق تجمعات صغيرة، وتنظيمات متوزعة متفرقة، فهذه قلعة حكمتها عائلة من العائلات، جمعت تحت إمرتها طائفة من الناس، وهذه قرية ارتضوا حكم قائد عالم منهم وجاهدوا معه، وهذا عالم انتظم معه جماعة من تلاميذه وارتضوا إمامته وهكذا، ولعل خير يشرح لنا هذه الأوضاع على حقيقتها هو كتاب "الاعتبار" للأمير "أسامة بن منقذ"، وأسامة هذا من قلعة شيزر، وعائلته آل منقذ هم حكام هذه القلعة، ولهم دور مشهود في الحروب الصليبية، وأسامة شاهد عيان لحروب المسلمين ضد الصليبيين.

وقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى، فمن المهم التنبيه على أن دور القادة الكبار أمثال آل زنكي والأيوبيين هو تجميع هذه التكتلات والتنظيمات في تجمع واحد وتنظيم واحد، ومع ذلك فقد بقي هو الدور الأكبر لتلك التكتلات الصغيرة القائمة على الحق في معالجة الحروب الصليبية.

الجماعة والإمامة والدولة:

أنزل الله هذا الدين العظيم ليحقق مقاصد ومآلات، فمن هذه المقاصد ما يختص بالفرد ومنه ما يختص بالأسرة، ومنه ما يختص بالمجتمع، ومنه ما يختص بالأرض كلها، وبمقدار فهم المرء لهذه المقاصد يكون إدراكه لقيمة الجماعة وضرورتها، وبعضهم فهمه من دين الله تعالى بمقدار فهم أهل الضلالة من أديانهم، وهو النظر إلى ما يستطيع أن يقوم به المسلم من أعمال إسلامية منفردا وبدون جماعة، فهو يقول: أنا أستطيع أن أصلي بدون حزب، وأصوم بدون حزب، وأحج بدون حزب، وهكذا يبدأ يعد أعمال الإسلام التي ينجزها دون وجوده في جماعة وتنظيم وحزب، وقد رأينا من هؤلاء القوم الجهلة تطورا خطيرا لهذه النظرة، وهي أنهم أخذوا ينظرون إلى دولة الإسلام (الجماعة الكبرى) كشيء لا أهمية له ولا قيمة للبحث فيه، وسمعنا عجبا وهو قولهم: إن البحث في مسألة الإمامة والاهتمام بها هو من شأن المعتزلة والشيعة، أي أن الباحثين عن تحقيق دولة الإسلام فيهم شبه اعتزالية وشيعية، وهؤلاء القوم قد علت أصواتهم وملأت الفضاء، وتلبسوا لبوس العلم والحكمة والسلفية، وأخيرا قام رجل جهول ظلوم ق إحدى المراكز الإسلامية في أوروبا وأفرغ قيح فكره، وصديد جهله حين أعلن

للناس أن شأن دولة الإسلام ليس بهذه الأهمية التي ينظر إليها بعضهم، بل هي - إن وسعنا الأفق وأكثرنا القول - لا يعدو أن يكون أمرها مستحبا، إن وجدت فبها ونعمت وإلا فغيابها لا يضرنا شيئا، وكان هذا المنفلت من المصحة العقلية يرى نفسه يستطيع أن يقوم بأعمال الإسلام، وفرائضه وأحكامه دون أن يستظل بدولة إسلامية، والغريب أن مثل هذه العاهات هي التي تنشر في الناس فكرة أن لا جهاد إلا تحت راية إمام ممكن، وأن -أمر الجهاد لا يعقده إلا إمام العامة، وخليفة المسلمين، ولا ندري كيف نستطيع أن نفهم مثل هذه الأحاجي الغريبة التي تطل علينا برأسها مرة بعد مرة، وكأننا أمام سرك مهرجين لا قادة فكر ولا حملة راية، وقد نقم علينا بعض ممن لهم موقع الحب في القلوب أن لم نخفف العبارة، ونلطف الردود، ولكن -والله - لا نستطيع أن نناقش هؤلاء النوكى مناقشة العقلاء، ولا نباحثهم مباحثة الدارسين، لأنهم أشبه بالمهرجين منهم بأهل العقل والدراية، فهم دائرون - يقينا - بين غرضين: إما النفاق والعمالة والجاسوسية، وإما الجهل والغباء والبلاهة، فإن نثبت لهم الصفة الثانية فهو أخف وأيسر؟ أليس كذلك؟.

وهؤلاء البعض رأيت لهم بعض الكتابات التي تجعل جماعات الإسلام السياسي وجماعات الجهاد - والتي يجمع بينهما دعوتهما لإحياء الخلافة ووجوب إقامة الإمامة العظمى- تأخذ أهمية الإمامة من الشيعة الروافض، ذلك لأنهم وقعوا على كلام لشيخ الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في بداية كتابه "منهاج السنة النبوية"، في رده على "الحلّي"، صاحب كتاب: "منهج الكرامة"، وجعل الإمامة هي ركن الإسلام العظيم على فهم لمعنى الإمامة، ومهمته التي لا يصح بدونها شيء، فجعل شيخ الإسلام على هذه العقيدة البدعية، ويبين زيف أمرها، فظن من لا خبرة له أن الإمامة التي يناقشها شيخ الإسلام هي الإمامة العظمى والخلافة الإسلامية، وهذا خطأ قبيح، فإن الإمامة عند الشيعة هي على نحو معين، وفهم خاص، لا تقرب في شيء منها من الإمامة عند أهل السنة والجماعة، فأصل الإمامة عند الروافض هو قرنها بعلي وأولاده وأحفاده رضي الله عنهم حتى تصل إلى الغائب في السرداب "محمد بن الحسن العسكري" (نسبة لمدينة العسكر وهي سامراء) فهم يجعلون إمامة علي رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم جزءا من دين الله تعالى، ومن لم يؤمن بإمامته فهو كافر

بركن من أركان الدين، وهم يجعلون للإمام حق التشريع وإصدار الأحكام الدينية ابتداء، ثم هم يعتقدون فيهم العصمة، وينسبون لهم صفات لا تليق بالبشر، هذه هي الإمامة عند الشيعة، فكون شيخ الإسلام يرد على "الحلي" الشيعي: بقوله إن الإمامة ليست من دين الله، أو أنها ليست مهمة قام الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغها للناس، لا يعني من كلامه أبدا الإمامة التي هي عند أهل السنة والجماعة.

ثم هل زاد هؤلاء سوى أن رددوا كلام العلمانيين والمستشرقين، وهو أن الإسلام لا يحمل في داخله مفهوم الدولة، أو حسب مفهومهم الجاهلي: الإسلام دين لا دولة.

إن أمر الدولة في دين الله تعالى عظيم، شأنه مهم، فإن الإسلام لا يستقيم أمره، ولا تظهر حسناته إلا حين تكون له دولة تقوم عليه، عملا وحماية ونشرا.

قد يسأل سائل: وهل ينبغي علينا أن ننشغل بهذا الأمر في هذا الظرف أم أن هناك من الأمور ما هي أكثر أهمية وضرورة؟.

والجواب على هذا التساؤل يفرز لنا مجموعة من الأمور التي ينبغي التنبيه عليها:

أولا: من ظن أنه يمكن للإسلام أن يأخذ بعده الحقيقي من غير دولة تقوم عليه فهو جد واهم، لأن الدولة حين تكون على غير الإسلام فإنها ستعمل جاهدة لإزالة موانع بقائها، وستنشر أفكارها ومناهجها، والأعظم من ذلك أنها ستفرض على الناس دينا ومنهاجا وقضاء يتلاءم مع تصورها للكون والحياة، فمن ظن أنه يمكن له أن ينشر الإسلام ويعلم الناس الدين، ويكسب الأمة إلى صفه ودينه أمام طوفان هذه الدولة الجاهلية فهو مخطئ ولابد، فلو نظرت إلى عدد المسلمين الذين دخلوا في دين الله تعالى في زمن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة لرأيته عددا قليلا جدا، وأما من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة وزمن عزة الإسلام فستجد الآلاف منهم قد التحقوا بقافلة الإسلام، ولذلك من الله تعالى على رسوله بهذا الفتح وقال: {**إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**} فقد قرن الله تعالى نصره وفتحه مع دخول الناس في دين الله تعالى لأنه إن لم يتم النصر والفتح فلن يتم دخول الناس في دين الله تعالى، بل إن علماءنا الأوائل بفهمهم، وثاقب فكرهم، جعلوا انتشار الفكرة منوطا بالقوة

والشوكة، كقول ابن خلدون: "إن المغلوب مولع بتقليد الغالب" فجعل ظاهرة التلقي مقيدة بالقوة والغلبة.

وأما ابن حزم - رحمه الله تعالى - فقد جعل انتشار لغة ما، وسيطرتها منوطا بقوة أصحابها وظهور أمرهم. قال في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام": "إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها، ونشاط أهلها وفراغهم، وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم وعلومهم، هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة" (1 /32). فانظر - حفظك الله - إلى عظم أمر الشوكة والقوة، وهما لا يتم أمرهما إلا بدولة وسلطان. وعلى هذا فان الإسلام لن يبقى له وجود حقيقي إلا إذا تسارع أهله في إحياء الدولة.

ثانيا: كثيرا ما يضع البعض أمورا متعددة بصورة متعارضة، وهي لا تعارض بينها أبدا، بل قد تكون مكملة له ومتممة لأمره، وذلك مثل قول بعضهم: هل الأولى طلب العلم أم الجهاد؟ وهذا سؤال خطأ، فانه لا تعارض بينهما، فالمسلم يجاهد ويتعلم.

وكذلك في مثل هذا الأمر، يسأل البعض: هل الأولى أن ننشغل بأمر العقيدة أم بأمر إحياء الدولة والدعوة لها؟ وهما في الحقيقة لا يتصور فهم أحدهما إلا بفهم الآخر، فدولة الإسلام هي من تمام فهم التوحيد، لأنها تعني البراءة من الكفر وأهله، ثم هي تعني موالاة المؤمنين ونصرتهم، وعلى هذا فأغلب الذين لا يفهمون حقيقة التوحيد لا يهتمون كثيرا بأمر الجماعة الكبرى والإمامة العظمى، وترى عامة حديثهم في غير الأصل.

روى الإمام النسائي وغيره بسند صحيح عن سلمة بن نفيل الكندي (من قبيلة كندة) رضي الله عنه قال: كنت جالساً، فقال رجل: يا رسول الله، أذال الناس الخيل، ووضعوا السلاح، وقالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه وقال: (كذبوا، الآن جاء دور القتال، ولا يزال من أمتي أَمَّةٌ يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل

معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وإنه يوحى إليّ أني مقبوض غير ملَبَّث، وأنتم تتبعونني أفناداً، يضرب بعضكم رقاب بعض، وعقر دار المؤمنين بالشام).

هذا الحديث جليل القدر عظيم الفائدة، فهو يدعو المسلم للخروج من هوى النفس، وتضارب الآراء، وخاصة ق هذا الزمان الذي خاض فيه الناس بآرائهم، ورموا أفكارهم أمام أتباعهم ليقتاتوا منها، ظانين أن ما يقولونه صوابا وحقا، وظن من لا خبرة له بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يطلع عليه حق الاطلاع والمعرفة أن المرء في هذا الزمان بحاجة إلى جهد عقلي شاق لاكتشاف الحق من بين المطروح على الساحة الإسلامية من أفكار وأحزاب وتجمعات، فهو متردد ومتحير، وخاصة أن العارضين أفكارهم يملكون سحر البيان، ويتفننون في تزيين أفكارهم ومناهجهم، ولكن هل فكر هذا المتحير والمتردد أن يعود إلى السنة النبوية الصحيحة فيأخذ منها زاده؟ أو ليعرف منها الحق والهدى؟ هذا هو الواجب الشرعي.

وهذا الذي نقوله ليس قولا من الأقوال أو هو يحتمل قول المخالف، لا والله بل غيره هوى وظن.

الجماعة والطائفة المنصورة:

تكلمنا عن وجوب دخول المرء في جماعة وحزب، وهذه ضرورة شرعية وعقلية، وقد يسأل المرء الآن ما هي صفات الجماعة والحزب الذي يملك الحق، وهو الذي يجب على المسلم أن ينتسب إليه ويدخل تحت لوائه؟:

الجماعة المطلوبة والحزب الشرعي لا بد أن يكون حاملا لمواصفات الطائفة المنصورة التي مدحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تكون جماعة حق وحزب هدى، وكلما اقتربت الجماعة من هذه الصفات كان وجوب طاعتها ألزم وأوجب، وكلما كان الانتماء إليها أصوب وأهدى، والطائفة المنصورة التي مدحها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث لم يتركها صلى الله عليه وسلم هملا من غير بيان وشرح، بل كشفها بأشد بيان وأفضل تفصيل، فما هي صفات الطائفة المنصورة من نص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.

هذا الحديث المتقدم يكشف لك صفتين من صفات الطائفة المنصورة، ويجليهما لك أجلى بيان وأوضحه.

الصفة الأولى: لو أمعنت النظر في الحديث المتقدم - حديث سلمة رضي الله عنه - لرأيت سبب ورود الحديث هو أن جماعة أعلنوا توقف الجهاد، فأذالوا الخيل (أي تركوها من غير عناية ولا تدريب) ووضعوا السلاح وقالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها. فسبب ورود الحديث هو إعلان توقف القتال، وجاء الرد حاسماً وقاطعاً لا يحتمل تأويلا، فقد رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: ((**كذبوا، الآن جاء دور القتال**))، إذ القتال لم يتوقف، وليس هناك سبب موجب لتوقفه، أو إعلان انتهائه، وكيف ينتهي، وفي الأرض أقوام " زاغت قلوبهم؟.

ثم مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم أقواماً أوفياء للقتال، و لم يذيلوا الخيل، ولم يضعوا السلاح بل هم مقاتلون دوماً ومحاربون في كل حين: ((**ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق**)). هكذا وصف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائفة المنصورة، وهكذا بين لأمته، وإذا جاء نهر الله ذهب نهر معقل، فإذا جاء نص رسول الله صلى الله عليه وسلم فماذا بقى لغيره؟ وماذا عساه (أي غيره) أن يقول؟ إنه لن يقول إلا باطلا، كائنا من كان هذا الغير، سواء كان هذا الغير ممن ظن أن تجارة الورق بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تدخله في الطائفة المنصورة، أو كان هذا الغير يرى أن جعجعات المنبر تشفع له فتجعله من جماعة الحق والهدى.

نعم إن الطائفة المنصورة سبب ورود حديثها هو إعلان توقف القتال، أو قول بعضهم في كل زمان وفي كل آن (إلا ما يأتي من زمن عيسى عليه السلام مع يأجوج ومأجوج) أن هذا الزمن لا قتال فيه ولا جهاد، أو كقول بعضهم هذا الزمن: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة، أو كقول بعضهم: كونوا أحلاس بيوتكم. وكلها كلمات حق تنزل على معان باطلة، ومعان فاسدة.

إن أمر القتال هو أمر إلهي ليس لأحد أن يبطله، وإن رام أحد أن يزوره أو يماحكه فيكفيه ابتداء أنه لم يتشرف بموقع له في الطائفة المنصورة، بل هو مخذول ومن طائفة

الخذلان، وسيبقى شاعرا أبد الدهر أنه مخذول ومهزوم، وأن الباطل بغطرسته أقوى من الحق والإسلام الذي يملكه.

إن طائفة الحق والنصر هي طائفة تستشعر العزة مع ضعفها، وتمتلك غنى القلب مع فقرها، قد تكون رثة الثياب، قليلة المتاع، فقرة الحال، لكنها وهي ترتفق أسلحتها، وتناجي خيولها هي منصورة بفضل الله وقوته، وهذه الطائفة (لا تزال) ولن تزول، ولا تتوقف، ولن تتوقف، إذ أن المرء لا يتوقف عن القتال وعن مناجاة الحرب وسجالها إلا من سلبت منه رجولته، بعد أن سلبت منه معاني العزة بهذا الدين العظيم، والطائفة المنصورة ليست كذلك بإذن الله تعالى.

هذه هي الصفة الأولى للطائفة المنصورة، رضي من رضي وسخط من سخط، ومن سخط فليسخط على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والحق لن يضيره أن يعرض عنه أكثر الناس.

الصفة الثانية: في الحديث المتقدم بين لنا الرحيم بأمته الشفيق علينا موارد الاقتصاد والطعام والغذاء والمال للطائفة المنصورة: يقول صلى الله عليه وسلم: ((ويزيغ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله)).

إن مما يؤسف له أن عامة التنظيمات والجماعات الإسلامية، حتى الجهادية منها عندما يفكرون بالمورد المالي، فإنهم لا يخرجون عن تفكير أهل الباطل، أو أصحاب الدنيا، فهم إما أن يبحثوا عن متبرع محسن، أو يفرغوا بعض أفرادها للتجارة والكسب، وهم بهذا جعلوا لأعدائهم عليهم سبيلا، لأن هذه المنافذ لا يتقنها المسلم وخاصة المجاهد، وعلى الخصوص في هذا الزمان، حيث سيطر الكفر على هذه المنافذ، واحتاط منها حتى لا يؤتى من قبلها، قد يستكثر علينا البعض طرح مثل هذا الموضوع، مع أنه جد مهم وحيوي، فالمال عصب الحياة، وقوام الحياة به، قال تعالى: {ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما}، فقد جعل الله المال للبشر قواما لهم، إذ بدونه لا قوام لهم، وليس من المستغرب أبدا أن يرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر، وفي هذا الموطن الخطير، إذ أنه يقول للطائفة المنصورة: إياكم ثم إياكم أن تخجلوا من الحق الذي تعلمونه، وإياكم ثم إياكم أن تضعفوا أمام إرجاف الناس عليكم: سيسميكم

الناس لصوصا، كما سيسمون جهادكم قتلا وتخريبا، فلو أطعتموهم سيكون للكافرين عليكم قدرة وسبيلا.

وأنا أستغرب من أولئك الذين يدعون الناس للجهاد والقتال في سبيل الله، ثم يطلبون منهم أن يكتسبوا عيشهم من الوظيفة (وهي عبودية ورق القرن العشرين كما سماها العقاد)، أو يطلبون منهم أن يكتسبوا عيشهم بالتجارة التي ستأخذ جل وعامة وقتهم.

على المسلم أن لا يخجل من الحق الذي يملكه أمام ضغط الباطل وتشويهه للحقائق. أيها الاخوة المجاهدون: ظن بعض الجهلة أن قانون الغنيمة والفيء قد تغير هذه الأيام، وهؤلاء كذابون جهلة، فقانون الغنيمة - حيث يسلب العدو من عدوه - مازال قائما وإلى الآن، وإلا نخبرونا عن هذا الشيء الذي تسمعونه في الخليج؟ ماذا تسمونه؟ هل هو كما يسمونه أجرة ومقايضة؟، حيث يدفع للجندي الغربي أكثر من ثلاثين دولارا في الساعة الواحدة، أجرة بدون طعامه وشرابه، وتنعمه وفراشه، وبدون ثمن الآلات والمعدات، وبدون الوقود وما شابه ذلك؟ هذا الشيء الذي ترونه في البوسنة والهرسك ماذا يسمى؟.

خبرونا إن كان بقي في وجوه أصحاب التقوى الباردة بقية حياء أهذا كله مشروع، ولكن ما يفعله المجاهد في الجزائر جريمة وشنار؟.

ثم عرفونا يا أصحاب المعرفة أي طريق يعيش المسلم اليوم ليكتسب رزقه ولا يصيب مالاً حراما؟ وهل هناك طعام أزكى ومال أطيب من مال الغنيمة و الفيء ؟!.

إن من العار أن نخجل من حقنا، وغيرنا في باطله يتغطرس ويتبجح، وليعلم الجميع أن من صفات الطائفة المنصورة أنها تأكل من مال من أزاغهم الله تعالى، شاء من شاء أو أبى من أبى والله الموفق.

الطائفة المنصورة هم أهل الحديث:

إن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي له الحق فقط أن يكشف عن صفات الطائفة المنصورة، وقد تبين لنا أن سبب ورود الحديث - حديث الطائفة - هو الرد على معطلي الجهاد، ومن هنا يظهر أن الطائفة المقصودة شرطها اللازم هو القتال. وهناك أحاديث أخرى

غير حديث سلمة بن نفيل الكندي تؤيد هذا الأمر وتؤكد عليه، ومنها حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال فينـزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة**)) رواه مسلم.

ومنها حديث جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصبة من المسلمين حتى تقوم الساعة**)) رواه مسلم.

وأحاديث أخرى غيرها، كلها تشير إلى هذا الأمر وتؤكده، وتنفي أي فهم آخر لهذا الحديث العظيم.

وقد وجد بعض القوم ممن يتشبث بكلام بعض الأئمة في تفسير هذا الحديث، حيث أن جماعة من الأئمة الهداة أمثال عبد الله بن المبارك، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج سئلوا عن المراد بهذه الطائفة فأجابوا بالجزم أنهم أهل الحديث. فهل ما قالوه حقا، أم أنهم أخطأوا (والخطأ في حقهم جائز)؟ فإذا أصابوا فما المقصود بقولهم: أهل الحديث؟.

إنني أعتقد جازما أن ما قالوه هو الحق والصواب، وألهم هدوا إلى معرفة المراد بهذا الحديث، فأهل الحديث هم خير أهل الأرض في كل زمان، وأهل الحديث هم على الجادة التي يتم بها وعليها النجاة، بهم حفظ الله تعالى دينه، ومناهجهم هي الأهدى والأتبع لمنهج خير القرون المشهود لها بالخيرية حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: (خير الناس قرني). وحيث تبين لنا هذا فلماذا قال هذا الجمع من الأئمة أنهم: أهل الحديث؟.

وما المقصود بهذا المصطلح؟.

وقبل أن أخوض في كشف المراد من هذا المصطلح فلا بد أن أعرج ولو قليلا على بعض الأفهام السقيمة، والطروح العليلة في تفسر هذا المصطلح.

ظن بعض الأغمار وبعض الصبية أن المقصود بهذا الحديث هم الذين يشتغلون بفن علم الحديث، دراسة وتحقيقا وتخريجا، وعلى هذا فإنهم قصروه على أولئك الكتبة، وبعض تجار

الورق الذين اشتغلوا بهذا الفن، وهذا العمل وهذا الذي قالوه بين الخطأ والانحراف، وخطأ هذا التفسير ظاهر من عدة جوانب، ويكفينا أن نشير إلى الواقع العملي لهؤلاء ليتبين لنا بوضوح خطأ ما قالوه.

فنقول: لو أن كل واحد اشتغل بعلم الحديث جمعا ودراسة وتحقيقا وتخريجا هو من أهل الحديث، أي داخلا في مسمى هذا المصطلح الذي أطلقه أولئك الأئمة لكانت طامة وباقعة، فمن أشهر القوم الذين اشتغلوا بهذا الفن ممن عرفهم القاصي والداني، رُئي منهم شرك وكفر، وقرأنا لهم بعض الكتابات التي تحسّن عبادة غير الله تعالى، كعبادة القبور والجن، وقد رأينا كبار من اشتغل بهذا الفن من هو من أئمة التصوف، الذين صرحوا بأعظم البدع والمنكرات. فممّن اشتهر بهذا الفن الحديثي الشيخ يوسف النبهاني وهو الذي ضم زيادة الجامع الصغير إلى الجامع الصغير (وكلاهما للسيوطي) وسماه "الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير" ورتبه ترتيبا رائعا، وأزال منه المكرر، وجعل له مقدمة تشتمل على ست فوائد، وكلها مرقومة في "صحيح الجامع الصغير وزيادته "الفتح الكبير"، وهذا الرجل له من الكتب العديدة التي تحسن عبادة غير الله تعالى كالقبور والاستغاثة بالأموات، وله كتاب جمع فيه - ما زعم - كرامات للأولياء سماه "جامع كرامات الأولياء"، فيه من الطامات العظيمة، والمصائب التي يستحي المرء من ذكرها، وكان الرجل عاملا في المحاكم المدنية التي تحكم بالياسق العصري - حسب تعبير محمود شاكر - في لبنان، وجهوده في ذم الموحدين، والبراءة منهم، والطعن فيهم أشهر من نار على علم، فهل يقول قائل له مسكة من عقل: إن يوسف النبهاني من أهل الحديث فهو من الطائفة المنصورة؟!.

وهناك غير يوسف النبهاني وأشهر منه، وهم الغماريون، أمثال أحمد صديق الغماري، وإخوته عبد الله (وقد توفي) وأخوهم عبد العزيز الغماري (وهو لا يزال حيا)[1]. فهؤلاء لهم من الجهود العظيمة في خدمة السنة النبوية ما لا نستطيع أن نحصيه في هذه الورقات ولا مئات أمثالها، وقد اشتغلوا في الحديث تحقيقا وتخريجا ما يفوق عمل غيرهم، ولكنهم لمغربيتهم (نسبة للمغرب الإسلامي) لم يكن لهم شهرة كشهرة المشرقيين، ولكنهم - أي المشرقيين - ما

[1] - وقد توفي هو أيضا، والمقال كتب قبل وفاته. (الأسوة الحسنة)

زالوا يأخذون من كتبهم، ويستفيدون من بحوثهم دون الإشارة إليهم، وهو مما قيل فيه إنه من السرقة التي لا يجب فيها القطع، فأحمد بن الصديق الغماري (وهو أكبر الاخوة) له من الجهود الحديثية الكبيرة أمثال: "هداية الرشد في تخريج أحاديث ابن رشد" في مجلدين، وله مستخرج على مسند الشهاب حققه أحد المشارقة، وله مستخرج كذلك على الشمائل المحمدية، وهو رجل فطحل ولا شك في هذا الباب، إلا أنه كان من غلاة الصوفية، إذ كان يصرح بوحدة الوجود (أي أنه لا يرى فرقا بين الخالق والمخلوق)، وألف في ذلك رسالة، وكان رافضيا خبيثا وينبز أهل السنة بأقبح الأوصاف، مع أنه كان مجتهدا فى مسائل الفروع ولا يتقيد بمذهب، فهل هو داخل في مسمى أهل الحديث، وهو بالتالي من الطائفة المنصورة؟.

الجواب: لا شك أن هذا الفهم أعوج سقيم.

وكذلك أخوه عبد الله بن الصديق الغماري له في علم الحديث باع طويل - ولكن ليس كأحمد -، وله جهود في علم الرجال مثل جمعه للرجال الذين قال عنهم "الحافظ الهيثمي" في "مجمع الزوائد": لم أعرفه أو لم أجد له ترجمة، وقد اكتشف صحابيا لم يذكره من كتب في الصحابة قبله، وهو ممن يحسن اتخاذ المساجد على القبور ويرى ذلك قربة وعبادة.

ومن هؤلاء القوم الذين اشتغلوا بعلم الحديث جمعا وتحقيقا وتخريجا الشيخ "محمد زاهد الكوثري"، وهذا الرجل كان له إلمام بهذا الفن يفوق التصور، وله معرفة بالمخطوطات تدل

على براعة وذكاء وإحاطة فائقة، حتى قيل: إنه كان عنده القدرة أن يعرف المخطوط ومن كاتبه وفي أي سنة كتب، ولو لم يوجد على طرته ذلك!!، ومع هذه الإحاطة وهذا العمل، إلا أنه لا يدخل أبدا في مسمى أهل الحديث، لأنه كان عدوا للسنة ودعاتها، فكرس قلمه في طعن الموحدين، حتى وصل به الأمر- أي حقده على السنة والتوحيد - أن طعن في كبار الأئمة الثقات أمثال: الشافعي، وأحمد، وابنه عبد الله، والبخاري، وكثير غيرهم، بل إن بعض الصحابة لم يسلم من طعنه ولمزه أمثال: أنس بن مالك رضي الله عنه، وكل هذا بسبب تعصبه لمذهبه وحقده على أهل السنة والتوحيد.

هذه الأمثلة وكثير غيرها، وهي أمثلة واقعة، تبين لطالب الحق أن الاشتغال بالحديث وفنونه لا يدخل الرجل في مسمى أهل الحديث، وبالتالي ليس المقصود بعبارة الأئمة الهداة،

أن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث هو المشتغل بعلم الحديث. بل لها معنى آخر لابد من اكتشافه ومعرفته.

وعلى هذا فإن الرجل أو الجماعة لا يكون من أهل الحديث، ولا من الطائفة المنصورة، وهم يعملون أجراء عند الطواغيت، وليسوا هم الذين يبذلون أشد البذل في المنافحة عنهم وإصباغ الشرعية عليهم، وليسوا هم تجار الورق بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليسوا هم صبية المكاتب الذين يتجسسون على الدعاة إلى الله تعالى، ويكشفون ستر المسلمين لأعداء الملة والدين، بل أهل الحديث غيرهم، وأحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم، برآء من هؤلاء، ووالله إنه لمن الظلم أن نجعل المجرمين كأهل الحديث.

من هم أهل الحديث؟

في هذا الزمن المتأخر وفي زمن تضارب المناهج في فهم الإسلام، وكلما قرأ المرء الكتابات التي تفرزها عقول وأهواء البشر، فإن المسلم السني يشعر بقيمة منهج أهل الحديث وطريقة فهمهم لدين الله تعالى.

بعد أن دخلت العجمة على أمتنا، وولج فيها من لم يتشرب حقيقة الإسلام، وبقي فيه شيء من جاهلية تراثه وقومه، تكلم هؤلاء في دين الله تعالى، تكلموا في تصورهم للألوهية وعلاقة البشر بها، وتكلموا في الرسالة المحمدية وعقائدها، وتكلموا في الفقه والتشريع .

ففي التوحيد ومسائل التصور والألوهية انشق الناس إلى معتزلة ومتكلمين، وفي الفقه والتشريع افترق الناس إلى ظاهرية وأهل رأي، وفي السلوك والتربية صار الناس إلى صوفية وزنادقة.

وتعددت المذاهب كالشيعة والخوارج، تختلط فيها الأقوال العقائدية بالتصورات السياسية، كل هذا الخليط المتنوع والمتضارب، جعل المجتمع الإسلامي نهباً لهذه الكثرة الداعية ببليغ القول إلى دينها وطريقها، في ذلك كله بقي أهل الحق على ما هم عليه من وضوح التصورات، وسلامة المنهج، والهدي الأول الذي عاشه الصحابة رضي الله عنهم، هؤلاء الأوفياء تميزوا عن غيرهم بأنهم أهل تسليم لما جاء به النص، فلا يعارضونه بشيء من عقولهم وقواعدهم، وإذا

أرادوا معرفة شيء غاب عنهم حكمه وإدراكه عادوا إلى النص، فاستناروا به، فكان لهم كما أرادوا، هؤلاء القوم هم أهل الحديث.

أهل الحديث في الفقه هم مقابل أهل الرأي والظاهرية. وأهل الرأي على درجات متفاوتة في بعدهم عن الحديث وهديه، والظاهرية كذلك. فأهل الرأي عمدوا إلى بعض النصوص التي صحت لديهم، أو إلى بعض القواعد التي تكونت من مجموعة نصوص متساوقة المراد، فجعلوها أصلا ومنهجا ليردوا عامة النصوص الأخرى عليها: وسأضرب على ذلك مثلا تاريخيا لأهل الرأي ومثلا معاصرا، ليتبين لنا الطريقة التي يتعامل معها الرأي في رد أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

المثل التاريخي: استقر لدى أهل الرأي أن الإسلام جاء لتعظيم البشر عن بقية المخلوقات، فالإنسان أعظم من الحيوان مهما زادت منفعة الحيوان وقيمته، وهي قاعدة صحيحة في مثل هذا الطرح، وقد جاء الحديث أن الغنيمة تقسم بين الراجل والراكب كالتالي: أن الراجل له سهم، والراكب له ثلاثة أسهم، وهي قسمة تدل في الظاهر على أن فارق السهمين هي للحصان، جاء أهل الرأي وردوا هذا الحديث لمخالفته قواعد الشريعة حسب ظنهم، وقالوا: هذه قسمة غير صحيحة، فأقل ما ينبغي للراكب هو سهمين لأنه لا ينبغي أن يعطى الحصان أكثر من الإنسان، ونحن هنا لا نريد أن نناقش هذا القول من وجهة نظر قياسية عقلية لأنه متهافت من جهتها، لكن يكفي أن يقال أن هذا قياس على خلاف النص فلا يلتفت إليه.

فالحق أن الأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتفاوتة في تعاملها مع الحديث والسنة، ونحن لا نشير هنا إلى طائفة معينة كأن يقول قائل: إن الكاتب يقصد مذهب الحنفية حين يقول: أهل الرأي، فهذا خطأ، مع أن الحنفية بمناهجهم صاروا علما على هذا المصطلح، وهم بحق كذلك، لكن غيرهم كان له نصيب من هذا الاسم، فبعض المالكية يردون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه على خلاف مذهب أهل المدينة، وهذا كله هو إعمال للرأي مقابل النص.

ولكن نشأ من رد الشريعة على وجه من وجوه الزندقة لا على وجه التأويل المعذور، أمثال "ابن الراوندي" الزنديق المشهور، ولا يظنن ظان أن وضع هؤلاء جميعا في مسمى أهل الرأي يجعلهم على مرتبة واحدة، كلا فإن هذا من الفهم السقيم الضال.

المثل المعاصر: يكثر المعاصرون قولهم في مسائل الخلاف والترجيح، أن هذا القول ملائم للواقع، أو أنه الأليق بأصول الشريعة، أو أن هذا القول أقرب إلى روح الشريعة، وهي مرجحات يراها السني تخالف النص الصحيح الخاص بالمسألة بكل وضوح وجلاء، فالفقيه الذي يقول بأن القول بأن زكاة الخضروات هو الصواب لأن هذا يلائم الواقع، أو لأنه الأنفع للغير حسب تعبيرهم، وهو يعلم أن زكاة الخضروات قد صح فيها الحديث، ولكنه لا يلتفت للنص ولا يعول عليه في ترجيح قول على آخر، ويزعم أو يظن أنه بمجرد وجود الخلاف السابق في المسألة يجعل للمسلم والفقيه حرية الاختيار بين الأقوال المعروضة دون حرج في مخالفة النص الصحيح، ولعل كتاب الشيخ محمد الغزالي "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " هو خير مثال على ما يقع في اتهام أهل الحديث بأنهم الأضيق فكرا ونظرا من قبل أهل الرأي المعاصرين.

الصور المعاصرة لأهل الرأي كثيرة جدا، وحديثنا هنا عن مناهج الفهم والتحليل لا عن الكشف عن الأقوال الفرعية الضعيفة، لأنه لا يعني أبدا صواب المنهج في الفهم والتحليل أن يؤدي بصاحبه إلى الصواب المطلق، وفي المقابل قد يصدق الكذوب، وعلى الجملة فإن عامة المنتسبين إلى الفقه في جماعة الإخوان المسلمين هم أرائيون، أي أنهم لم يهتدوا بنور الحديث والسنة، وعامة أفراد الجماعة لا يعولون على الأحاديث والنصوص، لكنهم يربون أفرادهم على ما يسمونه النظرة الشمولية للإسلام، وهي تعني التعامل مع القواعد العامة دون الحكم الخاص المعني بالمسألة، وهذه الصورة تكون أسيرة للعمومات، وتتعامل معها، بل وتحفظها عن ظهر قلب، وتنشئ في أذهانهم مجموعة من الأحكام لكل حادثة، فمثلا لو سئل فقيه من هؤلاء الآرائيين عن حكم الله تعالى في مسألة قتل المسلم بالكافر مثلا لأجاب بالإيجاب، والدليل عنده هو أن الله تعالى قد قرر في كتابه: أن النفس بالنفس، والكافر نفس، فلا بد من القصاص من قاتلها كائنا من كان هذا القاتل، مع أن العموم يرد على هذا العموم، فلو احتج فقيه آخر بقوله تعالى: {**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**}، لكان قوله مناهضا للقول الأول، ولكن على الجملة فاحتجاج الفقيهين بهذه العمومات ليس هو منهج أهل الحديث، إذ

أن المنهج الصواب هو البحث في حكم المسألة الخاص في النص ابتداء، حتى إذا لم يهتد الفقيه إلى هذا النص لجأ إلى العمومات.

فأهل الحديث في هذا الباب هم مقابل أهل الرأي، وهو حديث عن منهج علمي في التعامل مع النصوص فهما وتحليلا، ولكن لتعلق أهل الحديث بالنصوص واهتمامهم بها جعلهم يفرغون الكثير من جهودهم في الجمع والتحصيل لها، فتميزوا بهذا اللقب والاسم، مع أن الكثير من المنتسبين لأهل الحديث لم يكن له اهتمام خاص بهذا الفن من علوم الشريعة (أقصد علم الحديث) بل كان ضعيفا متميز الضعف في هذا الباب، وخير مثال على هذا النوع من الرجال هو ابن قتيبة الدينوري، فإنه يسمى خطيب أهل السنة، مقابلة للجاحظ الذي كان يلقب بخطيب المعتزلة، وابن قتيبة علم من أعلام أهل السنة، ورجل من رجالاتها إلا أنه لم يكن يميز ضعيف الحديث وصحيحه ولم ينشغل به، لكنه في الفهم والإدراك والتعامل مع النصوص على منهج أهل الحديث.

وفى المقابل فإن كثيرا ممن اشتغل بالحديث رواية وجمعا كان بدعيا في منهجه وإدارة سلوكه ومن أمثال هؤلاء "عمران بن حطان " فهو كما هو معلوم من الخوارج بل من غلاتهم، وقد روى له البخاري في صحيحه كرواية صدق وعدل في الحديث، لكن هذا لا يدخله في مسمى أهل الحديث أي الطائفة المنصورة، لأن الإطلاق يقصد به المنهج في الفهم والتحليل.

قبل أن ننتهي من تجلية المراد بأهل الحديث في الفقه والأحكام، فلا بد من دوام الدعاء لإمام أهل الحديث في عصره وكل عصر أعني الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي، الذي كان أهل السنة والحديث قبله لا يصمدون أمام أهل الرأي في مناظرتهم معهم، خاصة لقوة الآخرين في المنطق العقلي والحجاج، فجاء هذا الإمام فنصر السنة حتى كان يلقب هذا اللقب، هو "ناصر السنة" أو ناصر الحديث، وكان كتابه العظيم "الرسالة" هو اللبنة الأولى في رد قيمة النص وإلى ضرورة التعامل معه ومن خلاله، وليس بعيدا عنه، ولكن الشافعية المتأخرين لم يكونوا أوفياء لإمامهم حين قبلوا أولا أن تسمى طريقتهم في الأصول: بطريقة المتكلمين، وثانيا: حين سمحوا لرجل شافعي في الفقه وهو محمد بن محمد الغزالي (أبو حامد) المتوفى سنة 505هـ) أن يجعل المنطق الآرسطي هو أحد أعمدة الفهم لدين الله تعالى كما سطر ذلك في كتابه

"المستصفى في علم الأصول" وهو أحد أركان كتب الأصول عند المتكلمين، أو كما يسمونها ظلما طريقة الشافعي.

معالم المنهج عند أهل الحديث:

إن عماد هذا المنهج قائم على مطلق التسليم للنص المعصوم، ثم هو منهج مستقل في الفهم والتحليل، ووعدنا أن نتكلم هنا عن أهل الحديث وطريقتهم في المفاهيم والتصورات، وأنا أحاول جهدي أن أهرب من لفظ "العقيدة"، لأن هذا اللفظ ليس أثريا، وثانيا: لأنني أعتبر أن هذا اللفظ هو انتصار لمذهب المتكلمين في الفهم والتصور، وسبب ذلك أن هذا اللفظ يدل فقط على قضايا التصور التي ليس لها إفراز في الحركة والحياة، أو لنقل هكذا يفهمه أصحاب هذا اللفظ، وهو يقابل لفظ الفكر بإطلاق المعاصرين له، والبديل الشرعي لهذا اللفظ هو لفظ "الإيمان" و"التوحيد"، وهما لفظان يجمعان ق داخلهما أو في داخل كل واحد منهما قضايا التصور والتصديق، ومسائل الحركة والحياة، ولفظ العقيدة لا يقوم بهذا المطلوب، بل هو يدل فقط على مفاهيم التصديق فقط، وهذا أفرز في المسلمين أحكاما جديدة بدعية لم تكن عند الأوائل، وأهم هذه الإفرازات هو: تضخيم جانب التصديق على جانب السلوك والحركة، وصار معيار الناس في الحكم على بعضهم البعض هو بمقدار معرفته، وليس بمقدار هداه، والمعرفة في دين الله تعالى لا قيمة لها إلا لكونها طريقا لكشف الطريق للسالك، لا لتبجح القاعد الكسول، ولكن لفظ "الهدى" يحمل جانب المعرفة وجانب العمل والسلوك المطابق لهذه المعرفة، فالناس يقولون الآن عن فلان: إن عقيدته صحيحة، ويقصدون: إقراراته في مسائل التصديق والمعرفة، وهم بهذا لا يهتمون بما هو عليه من هدى أو ضلال في السلوك والعمل، والأصل الذي علمنا إياه القرآن، ونبهت السنة عليه كثيرا هو أن الرجل لا يكون مهتديا بعلم خاص لا يفرز عملا، ولا بعمل لم يسبقه العلم الصحيح، فكون "الرجل عقيدته صحيحة" لا يفهم منها أن هذا الرجل على هدى وصواب، وكذلك قول بعضهم: هذا أفكاره مستنيرة، وهي عند الصوفية: تساوي لفظ العارف، ويقصد بها أن الرجل عرف ربه بالفهم الصوفي، وهذا اللفظ ليس من ألفاظ المدح، لأن إبليس من أكابر العارفين، لكنه لم يهتد بهذه المعرفة،

وكذلك إبليس عقيدته صحيحة، وإبليس كذلك أفكاره مستنيرة، ولكنه ليس موحدا ولا مؤمنا.

أهل الحديث وبدعة الإرجاء: (الكفر والجحود والاستحلال)

أهل الحديث في مسائل التوحيد والإيمان هم مقابل أهل البدعة في هذا الباب، وأهم الفرق في هذا الباب هم الخوارج والمرجئة، والخوارج قد كثر حديث المعاصرين عنهم، مع أن أغلب هؤلاء المتحدثين لم يفهموا من الخوارج شيئا سوى أنهم المتشددون في كل باب، فكلما رأى أحدهم رجلا متشددا في باب من الأبواب اتهمه بالخارجية، ولو أننا قارنا ما فعل الإرجاء في أمتنا بمقدار ما أحدثته عقائد الخوارج لوجدنا أن الخوارج يهون أمرهم ولا يعدون شيئا أمام إفرازات عقائد المرجئة، فالكل قد سل سيفه وحربه في الخوارج المعاصرين - جماعة التكفير والهجرة - حتى من لا يحسن قراءة كتب العقائد والفرق، ولكن غلبة مذهب المرجئة وسيطرته على عقول الناس هذه الأيام، هو الذي جعل اكتشاف أمر الخوارج سهلا ميسورا، جماعة التكفير والهجرة محدودة العدد، محصورة التأثير، ولم يبق من آثارها إلا بقايا وشم يلوح ولا يظهر، ولكن هؤلاء الذين يتبجحون بانتسابهم إلى المرجئة تحت دعوى: "لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله " فمن الذي يتحدث عنهم ؟ ومن الذي يجرؤ أن يقترب منهم ولو في المنام ؟.

قولهم: لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.

1 - قال الخلال - جامع علم الإمام أحمد بن حنبل (ولم يدركه) -: أنبانا محمد بن أبي هارون أن إسحاق بن إبراهيم حدثهم قال: حضرت رجلا سأل أبا عبد الله - أي أحمد بق حنبل - فقال: يا أبا عبد الله، إجماع المسلمين على الإيمان بالقدر خيره وشره؟، قال أبو عبد الله: نعم. قال: ولا نكفر أحدا بذنب؟ فقال أبو عبد الله: اسكت، من ترك الصلاة فقد كفر، ومن قال "القرآن مخلوق" فقد كفر. ا. هـ. مسند أحمد (79/1). تحقيق أحمد شاكر..

قلت: إسناده صحيح. وفي المطبوعة محمد بن هارون، وهو خطأ. والصحيح ما أثبتناه.

2 - قال الخلال في السنة: قال أبو عبد الله - أحمد بن حنبل -: بلغني أن أبا خالد وموسى بن منصور وغيرهما يجلسون في ذلك الجانب فيعيبون قولنا، ويدعون أن هذا القول: أنه لا يقال (أي القرآن) مخلوق وغير مخلوق، ويعيبون من يكفر، ويقولون: إنا نقول بقول الخوارج. ثم تبسم أبو عبد الله كالمغتاظ. ا. هـ. الفتاوى الكبرى (479/6) بتحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا/ طبعة دار الكتب العلمية.

جعلت هذين الأثرين في المقدمة، إذ إن شيوع هذه القاعدة بين الناس قد جعلها في مقام النصوص المعصومة، وردها أو محاولة التنبيه على ما فيها من عموم مرفوض، سيكون متهما بالخارجية، تلك التهمة التي لا يحسن الجهلة سواها، فكلما سمع الجاهل أمرا جديدا عليه، يبادر إلى إنكاره والتنفير منه، والناس لا يتصورون حدوث الردة في المسلم، ويستبعدون وقوعه أو الحكم به، مع أن الفقهاء قد ذكروا الردة في أبواب الفقه المتعددة: فقد ذكروا الردة في باب الوضوء وأنها من نواقضه، بل ذكر بعض أهل العلم الردة في حالات لا يتصور حدوثها. قال ابن قدامة المقدسي في المغني: والردة تبطل الأذان إن وجدت في أثنائه. المغني مع الشرح الكبير (438/1). فهل يتصور المرجئ أن يرتد المؤذن في أثناء أذانه؟ ولهذا قال حامد الفقي في تعليقه على فتح المجيد: كثير من أدعياء العلم يجهلون: لا إله إلا الله، فيحكمون على كل من تلفظ بها بالإسلام، ولو كان مجاهرا بالكفر الصراح، كعبادة القبور والموتى والأوثان، واستحلال الحرمات المعلوم تحريمها من الدين ضرورة، والحكم بغير ما أنزل الله، واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله. ا. هـ.

وإذا أردت أن تعرف مقدار علم قادة المسلمين بالتوحيد، فانظر إلى ما كتبه سالم البهنساوي في كتابه "الحكم وقضية تكفير المسلم" (ص 171) يقول: إن الذين يستعينون بالصالحين من الأموات بندائهم أو التوسل بهم إلى الله لقضاء الحاجات لا يعتقدون قدرة الأموات على تصريف الأمر، وبالتالي فالحكم بكفرهم هو انحراف عن فهم حكم الإسلام. اهـ.

وسالم البهنساوي بكتابه هذا يمثل قمة الوعي والفهم لجماعة الإخوان المسلمين في فهمهم للتوحيد. فهل يرجى من هؤلاء خير؟ أو هل يرتقب منهم تجديد لما انهدم من بناء الإسلام العظيم؟.

وأغرب من هؤلاء هو من يعتقد أن فكر حسن البنا هو الفكر التجديدي لهذه الأمة في هذا العصر، وهو ينتسب للسلف والسلفية، ويرفع شعار أهل السنة والجماعة.

بل أغرب منهم كله من يزعم حمل فكر الجهاد وهو يعتقد أن الفارق بين جماعة الإخوان المسلمين وبين جماعات الجهاد كالفارق بين صحيح البخاري وصحيح مسلم، ولهذا فهم لا يستنكفون أبدا من الاتحاد معهم، لا ضد المرتدين، ولكن ضد الموحدين من إخوانهم، بل ويستخدمون مطية لهؤلاء المبتدعة في شتم إخوانهم وتسميتهم بالمكفراتية.

على كل حال إن اتهمنا بأننا خوارج، فقد اتهم أئمتنا بهذه التهمة من قبل، فكما رأيت في الأثر الثاني أن الإمام أحمد اتهم بأنه من الخوارج، وكذلك اتهم ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وأما اتهام محمد بن عبد الوهاب فأشهر من أن يذكر في هذه العجالة.

نعود إلى شرح عبارة: لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله. وأنا أقسم البحث إلى نقاط ليسهل فهم المراد.

الأمر الأول: إن كثيرا من القواعد الأصولية والعقائدية - كهذه القاعدة - تكون تد نشات في ظروف خاصة، لمعالجة هذه الظروف، ولا ينبغي للمسلم الفقيه أن يتعامل مع هذه القواعد كما يتعامل مع النص المعصوم، بل على الفقيه أن لا ينسى الأحكام الخاصة المتعلقة بالحادثة المعروضة أمامه، وقد بين الإمام الشاطبي في كتابه "الموافقات" شيئا من هذا، حيث نبه على أن الكليات لا تغني عن الجزئيات.

الأمر الثاني: كون هذه القاعدة نشأت في ظروف خاصة فهذا معروف، إذ أنها قبلت كقاعدة استقرائية في الرد على الخوارج، والخوارج بينهم وبين أهل السنة عموم وخصوص، واتفاق وافتراق، فالقدر الجامع بين أهل السنة والخوارج هو التكفير بالإشراك، وبالأعمال المكفرة، فأهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل، وكذلك الكفر قول وعمل، فكما يكفر المرء بعمل القلب وقوله، فكذلك يكفر بعمل الجوارح وقول اللسان، فالردة في تعريف الفقهاء هي:

قطع الإسلام بقول أو كفر أو اعتقاد أو شك، تال الحصني الشافعي: الردة في الشرع: الرجوع عن الإسلام إلى الكفر وقطع الإسلام، ويحصل تارة بالقول، وتارة بالفعل، وتارة بالاعتقاد، وكل واحد من هذه الأنواع الثلاثة فيه مسائل لا تكاد تحصر. ا.هـ. كفاية الأخيار-(123/2)، وكذلك قال الشيخ "مرعي الكرمي" في "دليل الطالب لنيل المطالب": ويحصل الكفر بأحد أربعة أمور: بالقول وبالفعل وبالاعتقاد وبالشك. ا. هـ. منار السبيل (256،257/2).

وهذا الجانب من التكفير يلتقي فيه الخوارج مع أهل السنة، أما جانب الافتراق: فأهل السنة لا يرون المعاصي على مرتبة واحدة، بل هي كما ذكرها الله تعالى في كتابه بقوله: {**وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان**} فهناك من المعاصي (القولية والعملية) ما هي كفر ومنها ما هو فسق ومنها ما هو عصيان، فمن أتى المكفر فهو كافر، والخوارج لا يرون المعاصي إلا درجه واحدة، وأنها كلها كفر بلا تفصيل، فحكم ساب النبي أو الساجد لصنم أو لابس الصليب هو كحكم الزاني والسارق وشارب الخمر.

الأمر الثالث: أهل السنة يعتقدون أن المعاصي غير المكفرة قد ترتقي إلى درجة المكفرة بأمرين:

1 – باعتقاد حل المعصية (وهو الاستحلال)، فإذا علم المرء أن الزنا قد حرمه الله، وهو يقول بحله فهو كافر بهذا الاعتقاد لا بفعل الزنا، فعل المعصية أو لم يفعلها، لأنه بهذا رد حكم الله تعالى وهو كفر ولا شك.

2 - بطاعة المشرك في حكمه: قال تعالى: {**ولا تكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون**} الأنعام 121، قال ابن كثير في تفسر قوله تعالى: {**وإن أطعتموهم إنكم لمشركون**}: أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فهذا هو الشرك كقوله تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله}ا.هـ. التفسير (171/2) وقوله تعالى: (**يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم خاسرين**} آل عمران 149. قال ابن جرير الطبري: إن تطيعوا الذين كفروا يعني الذين بجحدوا نبوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى، فيما يأمرونكم به،

وفيما ينهونكم عنه، فتقبلوا رأيهم في ذلك، وتنتصحوهم فيما تزعمون أنهم لكم فيه ناصحون. {يردوكم **على أعقابكم**} يقول: يحملونكم على الردة بعد الإيمان، والكفر بالله وآياته وبرسوله بعد الإسلام. ا.هـ. جامع البيان (4 /122).

الأمر الرابع: إذا اشتراط الاستحلال في المعاصي لتكون كفرا ليس في أي معصية بل في المعاصي التي لا تكون كفرا، وأما المعاصي المكفرة بذاتها فإنها تنقض أصل الإيمان سواء استحلها المرء أم لم يستحلها، أي حتى لو اعتقد أن الله حرمها فإنه يكفر ولا شك. قال أبو البقاء في كلياته: والكفر قد يحصل بالقول تارة وبالفعل أخرى، والقول الموجب للكفر إنكار مجمع عليه فيه نص، ولا فرق بين أن يصدر عن اعتقاد أو عن عناد أو استهزاء. ا.هـ إكفار الملحدين (ص 86).

الأمر الخامس: الذين يعتقدون أن شرط الاستحلال هو لجميع الذنوب - المكفرة وغيرهما - هم فرقة مبتدعة، وهم المرجئة، ولذلك يطلقون هذه القاعدة: لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا يقيدونها لا عقيدة ولا عملا، وهم - أي المرجئة - لم يقلون شرا عن الخوارج، والمرجئة يلتقون مع أهل السنة باشتراط الاستحلال في غير المكفرات.

ولغلبة الإرجاء فقد صارت هذه القاعدة " لا نكفر أحدا من أهل..." تعمل في جميع الذنوب المكفرة وغير المكفرة، وقد نبه العلماء على هذا الأمر، ولم يطلقوا هذه القاعدة، فقد رأينا الإمام أحمد كيف ردها، وقد نبه ابن أبي العز الحنفي في شرحه على الطحاوية على هذا الأمر قائلا: ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لا نكفر أحدا بذنب، بل يقال لا نكفرهم بكل ذنب كما تفعله الخوارج، وفرق بين النفي العام ونفي العموم. والواجب إنما هو نفي العموم. ا.هـ. شرح الطحاوية (ص 294،293).

هل الجحود هو الاستحلال؟ وهل عبارة الإمام الطحاوي في متن عقيدته: "ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه"، هل هي عبارة صحيحة أم لا؟، نقول وبالله التوفيق: بعض أهل العلم يسوي بين الجحود والاستحلال، ويجعلها بمعنى واحد، وهذا القول مقبول من وجه جعل الاستحلال جحودا، إذ أن المستحل (أي اعتقاد الحل لما هو محرم) هو جحود لحكم الله تعالى، ورد له، أما أن يكون الجحود هو عين الاستحلال فلا يستقيم من جهة اللغة والحال،

فالجحود هو الرد لعدم الإقرار وهذا يدخل فيه تحليل الحرام كما فيه تحريم الحلال، كما فيه كذلك رد الأخبار وعدم تصديقها، وعلى هذا فالجحود هو أشمل من الاستحلال، والجحود في عبارات السلف لا يتقيد بالعمل القلبي فقط كما هو أمر الاستحلال، بل هو شامل للعمل مطلقا، ظاهرا وباطنا، فقد يجحد الرحل بقلبه، وقد يجحد بعمله، وقد يجحد بلسانه، وقد يجحد باجتماع اثنين منهما أو بهم جميعا، قال ابن حزم في تعريف الكفر: وهو في الدين صفة من جحد شيئا مما افترض الله تعالى الإيمان به، بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معا، أو عمل عملا جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان. ا.هـ. انظر الأحكام (45/1) وأما قول الراغب الأصفهاني في مفرداته (ص 122) في تعريف الجحد لغة: "إنكارك بلسانك ما تستيقنه نفسك"، فهو تعريف قاصر. فالتكذيب المنافي للتصديق، والامتناع والإباء المنافي للانقياد كلاهما في لفظ الأوائل يدخلان في مسمى الجحد.

أما الجواب في تحقيق عبارة: "ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه" فهو:

أ - إن كثيرا من المسلمين يخلط بين سبب الكفر ونوع الكفر، فسبب الكفر هو العلة التي يناط بها التكفير، أما نوع الكفر فهو الدافع لحصول هذا الكفر، فالواجب على المسلم أن يعلق حكم التكفير - وهو حكم شرعي، مورده الشرع، ولا مجال للعقل فيه - على سببه لا على نوعه وشرح هذا الكلام كالتالي:

ذكر أهل العلم أنواع الكفر فقالوا: إن الكفر أنواع، فمنه كفر الإباء ومنه كفر الإعراض، ومنه كفر الجحود، ومنه كفر التكذيب، ومنه كفر الاستهزاء... وهكذا، فهذه وأمثالها مما ذكرها أهل السنة تبين سبب حصول الكفر من فاعله، ولا تبين لنا الفعل والعمل الذي كفر به فاعله، فقاتل النبي كافر بإجماع أهل الملة، وهذا سبب الكفر، ولكن لو أردنا أن نعرف ما هو الدافع للقتل لاختلفت من إنسان لآخر، فهذا قتله لتكذيبه أنه نبي، وهذا قتله حسداً له مع تصديقه له، وهذا قتله لاستكباره عن قول الحق الذي بعث به، فكما نرى أن الأنواع تختلف، ولكن السبب متحد، فهل نكفر الرجل بالنوع أم للسبب؟ الجواب هو التكفير يعلق على السبب المكفر بغض النظر عن بحثنا عن النوع الدافع لهذا السبب.

ومثال آخر: رجل داس المصحف برجله، فهذا سبب الكفر، ولو ذهبنا نبحث عن نوع الكفر لاختلفت في الناس كما هو حال قتل النبي، فالمسلم مطلوب منه أن يعلق حكم التكفير على السبب لا على النوع، وإن كانت الأسباب المكفرة مهما تعددت وتشعبت وعجز المرء عن حصرها، فإنها داخلة جميعها في أنواع الكفر، ولكن الحكم بالتكفير راجع إلى السبب لا النوع.

ب - أنواع الكفر عند أهل السنة والجماعة متعددة كما هو معلوم، وليست قاصرة، على نوع واحد، لأن الإيمان عندهم هو التصديق الملازم للإقرار والمتابعة، والكفر هو ضد التصديق وضد الإقرار، فضد التصديق هو الكذب والجحود والاستحلال والشك، وضد الإقرار والمتابعة يدخل الإعراض والاستهزاء، والإباء والاستكبار وغيرها. ولما كانت بعض الفرق البدعية وهم المرجئة يقصرون الإيمان على معنى التصديق فإنهم يقيدون الكفر بضده، وهو التكذيب والجحود القلبي والاستحلال والشك، فإنهم يشترطون في العمل المكفر (الذي سماه الله كفرا) أن يكون مصاحبا لهذه الأنواع المذكورة (وهي الجحود والاستحلال والشك)، ولذلك عندهم لابد من تحقق وجود التكذيب أو الجحود القلبي أو الاستحلال أو الشك المصاحب للفعل، وشرح ذلك: لو أن رجلا قتل نبيا فإنه عند أهل السنة كافر بغض النظر عن أمر قلبه، فقتل النبي كفر، سواء قتله لعدم تصديقه أو لعدم متابعته مع تصديقه، وأما المرجئة، فإن قتل النبي ليس عملا مكفرا بذاته، فلا بد من النظر إلى الدافع، فإن قتله لتكذيبه أو لجحده أو لشكه بنبوته فهو كافر، وأما إن قتله وهو معتقد بنبوته، مصدق لما جاء به، فالأمر عندهم حينئذ مختلف، فبعضهم لا يحكم بكفره مطلقا (وهؤلاء كفرهم أهل السنة) وبعضهم يحكم بكفره ظاهرا، مع اعتقاده إيمانه في الباطن والآخرة، وبعضهم سماه كفرا لقوله: إنه لا يتصور قاتل النبي صلى الله عليه وسلم إلا مكذبا لنبوته، إذ يمتنع تصديقه بنبوته وقتله إياه، فهؤلاء هم فرق المرجئة، وطبقاتهم في الأعمال المكفرة (انظر أقوالهم في "شرح العقائد النسفية" لسعد الدين التفتازاني، وفي "شرح جوهرة التوحيد" لإبراهيم الباجوري)، وأما أهل السنة فيقول إمامهم أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن راهويه: ومما أجمع على تكفيره وحكموا عليه كما حكموا على الجاحد، المؤمن الذي آمن بالله تعالى، وبما جاء من عنده، ثم قتل نبيا، أو أعان على قتله، ويقول قتل الأنبياء محرم، فهو كافر. ا.هـ. تعظيم قدر الصلاة للمروزي (930/2).

ومن الأمثلة كذلك الموالاة فقد سمى الله موالاة الكفار كفرا، قال تعالى: {**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**}، وقد ذكر ابن حزم أن الإجماع منعقد على إجراء الآية على ظاهرها، أي أن من تولى الكفار هو كافر مثلهم.

ومن الأمثلة على ذلك من دعا غير الله تعالى من الأموات والشياطين فإن هذا الفعل كفر وشرك، وأهل السنة يحكمون على فاعله بالشرك بغض النظر عن اعتقاده، أي الدافع لهذا الفعل، وأما المرجئة فإنهم يشترطون الاعتقاد بربوبية المدعو من قبل الداعي ليحكم بكفره وشركه، ولهذا رد عليهم ابن الوزير في كتابه "إيثار الحق على الخلق" (ص 419) قائلا: "وعلى هذا لا يكون شيء من الأفعال والأقوال كفرا إلا مع الاعتقاد، حتى قتل الأنبياء، والاعتقاد من السرائر المحجوبة، فلا يتحقق كفر كافر قط إلا بالنص الخاص في شخص شخص". ا.هـ.

ج - كلامنا المتقدم هو في الأعمال والأقوال المكفرة، وهي التي سماها الله كفرا، أو أجمع العلماء على تكفير صاحبها، أما الأعمال غير المكفرة بذاتها، فإنها لا بد لها من مصاحب يحكم على صاحبها بالكفر والمصاحب هو الذي يسمى بالاعتقاد، سواء كان جحودا أو استحلالا. فالبحث عن الجحود القلبي ليحكم على صاحبه بالكفر هو في الأعمال التي لا يكفر صاحبها بها، أي بمجرد عملها أو قولها.

وعلى هذا فإننا نخلص إلى النتيجة التالية، أن قول القائل: لا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه هي على معنى صحيح في وجه، وخطأ على معنيين آخرين:

أولا: المعنى الصحيح: أن شرط الجحود القلبي للتكفير هو للأعمال والأقوال التي لم يحكم الله تعالى بكفر صاحبها بمجرد اقترافها، بل هي الأعمال والأقوال النازلة عن درجة الكفر الأكبر.

ثانيا: أما الخطأ فحملها على معنيين اثنين:

1 - تفسير الأعمال المكفرة، وأنها لا تقع أبدا من صاحبها إلا بجحود، فصاحب الفعل المكفر هو كافر لأن عمله يدل على الجحود لزوما، وهذه الفرقة كما تقدم أنها من فرق الإرجاء، ولكنه يسمى عند العلماء إرجاء الفقهاء فهم يسمون ما سماه الله كفرا، ولكنهم يقولون عنه كفرا لدلالته على الجحود لزوما، وهؤلاء هم الذين قال عنهم أهل السنة أن الخلاف معهم

لفظي، ويقصدون أنهم يلتقون مع أهل السنة في تسمية الكفر كفرا، ولكنهم يختلفون معهم في تفسيرهم له.

2 - في التحقق من وجود شرط الجحود القلبي لتسمية الكفر كفرا، فإذا وجد الجحود فهو كفر، وإن لم يوجد فلا يحكم عليه بالكفر، ولا يسمى صاحبه كافرا، وهؤلاء من غلاة المرجئة، وهم الذين ملئوا الآن الأرض شرقا وغربا.

ومن أصرح الأمثلة على ذلك هو موالاة أعداء الله تعالى، فقد سمى الله موالاة الكفار كفرا، قال تعالى: {**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**}، وقد ذكر ابن حزم أن الإجماع منعقد على إجراء الآية على ظاهرها كما تقدم، أي أن من تولى الكفار هو كافر مثلهم، فهذا فعل كفر- أي الموالاة الظاهرة بالقتال معهم أو نصرتهم - وهو سبب من أسباب الكفر، سواء فعله المرء باعتقاد أو بغيره، سواء كان الدافع له هو حب المال أو السلطان أو مجرد النصرة والتأييد، وأما المرجئة فهم كما تقدم:

فرقة تكفر من تولى الكفار لأنه يدل على جحد الحق لزوما، وهؤلاء مرجئة الفقهاء، وفرقة تشترط العمل القلبي للتكفير. والعمل القلبي عندهم بتفسيرات متعددة، حيث يقولون إن الموالاة المكفرة هي موالاة الكفار على عقيدتهم ودينهم فقط، وبعضهم يفسرها بشرط المحبة القلبية.

وقد تبين لنا أن أمر الفرقة الأولى يهون أمرها، لأنها تلتقي مع أهل السنة بتسمية الكفر كفرا. ولكن المصيبة تكون مع الفرقة الثانية، التي لا تكفر حتى يتحقق أمر الموالاة الباطنة. وهي قضية غيبية تتعلق بأمر لا يطلع عليه البشر، فحينئذ لن يكفر أحد عندهم بموالاة الكفار أبداً حتى يعلن بلسانه ما أضمر في قلبه ولن يكون.

ولكن هاهنا أمر ينبغي التنبه له في موضوع الموالاة، وهو أن بعض الأعمال تدخل في الموالاة تبعا لا أصالة، فهي تحتاج إلى القرينة المكفرة.

الخلق والأمر والكون والشرع:

هناك من الأعمال ما هي داخلة في أصل المسمى وهي من أركانه (أي لا يصح المسمى إلا بها)، وهناك أعمال من واجباته، وهناك أعمال من مستحباته:

هذه قاعدة تسري على كل الكونيات التي خلقها الله تعالى من أعمال وأشياء، وهي تدل على أن أفراد الشيء أو العمل ليس على مرتبة واحدة، بل هي مراتب متعددة، ونحن في هذا الباب يخصنا ما هو شرعي، مع أن الكوني مهم وضروري، وتجليته مهمة من مهمات التجديد التي يجب على المسلمين بحثها والنظر فيها نظرة جديدة، أي أن تعيد الأمر على ما كان عليه وهو جديد في العصور الأولى، لأن تلك العصور هي عصور النموذج المحتذى، والصورة المثلى، (نبوة وخلافة راشدة) لحركة المسلمين في الحياة، ولا بأس هنا في هذه العجالة أن نعرج على ما هو كوني لبيان عظيم الفساد الذي دخل على أمتنا من هذا الباب، ثم لبيان أن الفساد في فهم الكوني، هو فساد في فهم ما هو شرعي، سواء بسواء، والعكس صحيح، لأن ما هو كوني صادر من الشرعي {**ألا له الخلق والأمر**} والتطابق بينهما حاصل لزوما، لأنهما من مصدر واحد، بل إن الشرعي لم يعرف صوابه من ذوي العقول إلا بعد فهم المهتدي لما هو كوني، والمهتدي يدرك ويعقل ويعتقد أن للكون خالقا وربا، وأن نواميس الكون والحياة هي من وضع قدير، قوي، قدوس،... {**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**} فقبل عرض الشرعي من الأنبياء على أصحاب العقول، كان هؤلاء قد أدركوا الأمور الكونية على ما هي عليها، فلما جاءهم الشرعي علموا أنه الحق، والحق هو مطابقة الشيء لحقيقة الواقع، أي أنهم أدركوا أن باعث هذا (الشرعي) هو واضع هذا (الكوني): فشهدوا حينئذ شهادة الحق، ومن هنا فإن أولئك المهتدين من الصدر الأول، هم أعظم الناس فهما للكون والحياة ونواميسها (حسب رتبة زمانهم)، وهم أعظم الناس فهما للدين والتشريع (حسب جميع الأزمنة). وهذا الفارق الذي أحسه بين من أخذ بالشرعي في الصدر الأول، وبين المتدينين في هذا الزمان المتأخر، فالأوائل اهتدوا هداية صحيحة، حيث علموا الحق في الأمرين (على ما هما عليه) - الكوني والشرعي- فسارت خطاهم سليمة، سديدة، مهتدية، ووصلوا إلى قيادة الدنيا والدين، وأما الأواخر فما أحس به وأشعره، هو أن أغلب المتدينين في هذا الزمان تدينهم تدين غنوصي عرفاني، وبمعنى أوضح تدين الهارب من الحياة، المنكر لسننها، تدين المتوهم بأن حركة الوجود مربوطة بحركة الغيب كارتباط ألعاب الدمى بحبال حركتها، ولا دور للإرادة البشرية فيها، ومن معالم هذه النكسات العقلية عند المتأخرين نفيهم ارتباط الأسباب بالنتائج،

فحيث ساروا في طريق ما ثم وصلوا إلى غير المطلوب والمراد، عادوا لهذه القاعدة الخبيثة ليبرروا بها فشلهم الذريع وسقوطهم المريع، حتى يصرفوا عن أنفسهم مساءلة القواعد التابعة لهم، والغريب من هؤلاء أنهم يرددون ليل نهار أن المؤمن عنده أمر زائد عن الأخذ بالسنة الصحيحة، وهو التوفيق الإلهي، فالكافر يأخذ بالسنن دون التوفيق، ومع ذلك يصل للنتائج المرجوة، والمسلم (هكذا يتوهم نفسه) أنه أخذ بالسنة والتوفيق، ومع ذلك لا يحصل على شيء من النتائج الكونية، وأنا هنا لا أتكلم عن الأجر الغيبي، ولكنى أخصص الحديث عن النتائج السننية المطلوبة للحركة الإسلامية وللعاملين للإسلام في هذه الحياة.

هذه صورة قبيحة لعدم فهم الأمر الكوني، وهي تبرز لنا أهمية البحث الواعي لقضية الأمر الكوني، كما تبرز لنا أهمية الوعي لما هو شرعي، وحيث انتكس أحدهما في نفس المرء فلابد أن يصاحبه انتكاس في القسم المشترك معه، وإذ الأمر كذلك، فإحياء الأمة لا بد له من إعادة تجديد (وأكرر أي إعادته لما كان عليه الأمر وهو جديد في صورته الأولى) لتوحيدي الشرع والقدر.

لو عرجت قليلا في هذه العجالة على انتكاس مفهوم توحيد القدر في أذهان المسلمي فربما يبرز شيئا من الانهيار الواضح لما تعيشه الأمة الإسلامية، وشيئا من أبعاد هذا الانهيار: لو رجعنا قليلا إلى القاعدة المتقدمة وهي قولنا: هناك أعمال داخلة في مسمى الشيء وهي من أركانه، وهناك أعمال من واجباته، وهناك أعمال من مستحباته: فكيف تفهم هذه القاعدة لتفسير ما هو كوني وقدري؟.

بكل وضوح وجلاء إن ما نبحث عنه هو التغير الجذري، والانقلاب الشامل، وهو في عرف المعاصرين، ما يسمى بالثورة، وبكل وضوح وجلاء: نحن لا نقر شيئا مما هو موجود، إذ إنه إما شر مطلق وإما شر مختلط، وإما بعض الخير، فرفضنا للشر بقسميه واضح سببه، وهو كونه شرا، وأما للخير الموجود (أي على مستوى الجماعة لا مستوى الفرد) فهو لارتكازه على منطلقات ورؤى جاهلية، أو اعتماده على مبادئ ليست من الإسلام في شيء، هذا التغيير الجذري والانقلاب الشامل ندرك تمام الإدراك أنها من أعقد ما يجابه الإنسان في حياته، وأنها من أصعب وأعوص ما يعتري البشر في حركة حياتهم، فحركة التغيير هي حركة تختلط فيها

الحياة بأسرها، وتتقاطع بدايتها حتى يخيل للمرء أنه في دوامة من الأمواج لا يحسن تمييزها أو الفصل بينها، وهي بحق كذلك، فألوان الطيف متداخلة مع أنها متباينة، وفي هذا الخضم المتلاطم يتساءل المرء من أين يبدأ؟ ويتساءل كذلك عن نهاية البداية؟ وما هو الرابط بين السبب (الحبل) وبين هذه النتيجة؟ هذا عن فهمك لطبيعة التغيير أو لفهمك عن سبل التغيير، ويبقى أمر يتعلق بهذا الشخص الذي يقوم بعملية التغيير، ومدى امتلاء نفسيته للحق الذي يملكه، وللباطل الذي يجابهه.

لو أردنا أن نعيد تلك الأعمال المتعددة (أركان وواجبات ومستحبات) لعملية التغيير (المسمى) فهل نستطيع أن نتبين التفريق بين ما هو ركن وواجب ومستحب، دون تحديدنا لكلية تعيد هذا المتعدد إلى واحد؟.

إن مما أدركه الأوائل (وهو إدراك فطري سنني معقد مع سهولته) أن القضية التي لا يمكن تنازل المرء عنها، وهي التي تحمل المرء على الرفض الكلي للخصم هو ارتباط الخصومة بما يسمى بالعقيدة والدين، فكل الخصومات يرجى برؤها وشفاء المرء منها إلا من خاصمك في الدين والعقيدة، وهي قضية واضحة المعالم، فالخصومة على المال قد تنتهي إلى الصلح، وعلى المتاع كذلك، وعلى أي شيء، وفي التاريخ عبر لتوضيح هذا الأمر تعجز هذه الورقات عن سردها أو استيعابها، ولكن هل رأيتم قوما ساوموا أو اصطلحوا على التنازل عن عقائدهم؟ الجواب بكل وضوح: النفي. فقضية الفكر والعقيدة لا يساوم المرء عليها، نعم قد يقتنع بضدها، ولكن ليست هي من معروضات الشراء والبيع، فإذا اقتنع المرء بصواب فكرته وأنها الحق، فلا بد أن يتحرك باتجاه الخصم ليغيره وليبدله إليه، وتتأزم الخصومة، بل وتؤتي أكلها إذا كان صاحب الفكرة مقتنعا بالضلال الكلي لخصمه، وإذا أردنا أن نفسر هذه القضية السهلة بما هو مفهوم للشباب المسلم فنقول: لو أن رجلا كان يعتقد أن ما هو عليه هو الإسلام الصحيح، وكان يعتقد في خصمه أنه مسلم ولكن ليس تام الإيمان بل مقصر ببعض الشيء، فما هي درجة مجابهة هذا المسلم لخصمه المقصر؟ الجواب واضح، وهو أن هذه المجابهة لن تكون شرسة، بل سيكون فيها نوع مهادنة، وستكون في وسط الطريق أنصاف الحلول السلمية والمصالحة، لكن إذا اعتقد المسلم أن من يجابهه هو كافر مرتد وأنه مشرك بالله، وليس هناك من شيء عنده مما هو في

تقييمه أنه حسن وجميل، فسيكون الصراع على أشده وتكون المجابهة في أعلى درجاتها، وهذا الصراع الذي يؤتي أكله، ويجني ثماره.

وجماعات الجهاد في العالم الإسلامي حيث طرحت نفسها بهذا الطرح، وهو أنها تسعى للتغيير الجذري والانقلاب الشامل، فلا يمكن لأفرادها الصمود إلا إذا اعتقدوا بدليل الشرع والقدر أن هذه الحكومات هي حكومات شرك وردة، وأن التخلي عن هذا التصور السليم سيرفع عن المقاتل سنة النصر القدرية بامتلاء النفس وثقتها، وسيرفع عنهم التوفيق الإلهي الحاصل بامتثال الأمر الشرعي، وسيصيبنا قوله تعالى: {**إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا**}.

إن الجماعة التي تطلب من أفرادها حمل السلاح ثم تحمل نتائج هذا المشروع، ولم تقنع أفرادها، أو لن تتبنى هي أن الخصم الذي تقاتله هو كافر، وأن المشروع سينتهي بأحد أمرين - تقاتلونهم أو يسلمون- كما قال تعالى في سورة الفتح، هي جماعة ستقنع في النهاية بأنصاف الحلول، ثم الجلوس على موائد المفاوضات الهزيلة، وحينها تحصل الهزيمة.

والمسألة ليست مصالح لتحقيق النصر بقدر ما هي أوامر إلهية - شرعية وقدرية- لابد من فهمها والاعتقاد بها. هذه مقدمة ضرورية لبحث كفر الحاكمين بغير شريعة الرحمن وردتهم.

الجماعات المعاصرة والإرجاء:

المسلم دوما يقوده الحكم الشرعي، وليس له موقف في قضية ما إلا بعد أن يطلع على حكم الله تعالى فيها، والأحكام الشرعية هي التي تعصم المرء من الأخطاء الذهنية والتصورية، وهي كذلك تمنع الكثير من الاختلافات بين البشر لأنه إذا ترك البشر وما هم عليه من رؤى وأفكار لكان لكل واحد فكر ورأي، ولتشعب الناس حول كل معضلة إلى فرق يصعب حصرها أو توقيفها، ومن هنا فإن الداعين إلى الوحدة بين الطوائف والفرق والجماعات، لا بد لهم من مراعاة الحبل الذي يدعون إليه، والوحدة ليست مقصودة لذاتها، وإنما المقصود هو الجامع الذي يلتقون حوله، وهو حبل الله تعالى كما قال سبحانه: {**واعتصموا بحبل الله جميعا**

ولا تفرقوا}. فمقصود الآية هو ليس مجرد الاعتصام وعدم التفرق، بل مقصود الآية: هو الاعتصام بحبل الله، وحبل الله هو دينه وشريعته.

وعامة الجماعات الإسلامية اليوم تخاف من الخطاب الشرعي المحدد، وتشعر بالثقل من تحديد الرؤى والمواقف بألفاظ شرعية واضحة، فهي تخاف من لفظي: الكفر والردة، وتخاف من لفظي: البدعة والضلال، وتخاف من لفظي: الفسوق والمعصية، لأن هذه الألفاظ هي ألفاظ محددة، وإذا أطلتها المرء فإنها تحمل في داخلها موقفا سلوكيا لابد أن يتبع هذا اللفظ (الحكم) ويسايره، وترك الحكم الشرعي يصبغ المرء والجماعة بميوعة فكرية وسلوكية، وهي بالتالي تتفرق وتتنافر، فجماعات التكفير والهجرة خرجت من عباءة الإخوان المسلمين شاءت الجماعة أن تعترف أم لا وجمد موقف الخوارج الجدد بفكر الإرجاء المنحرف، واضطربت القاعدة التنظيمية في تمييز نفسها إلى أي جهة تميل، وجمد بعض الأفراد من العمل التنظيمي في صفوف الإخوان المسلمين في بعض الظروف لأنهم لا يكفرون الحاكم الفلاني، فهم لا يرونه مسلما فاسقا، ثم دارت الدائرة وقد جمدوا من العمل التنظيمي مرة أخرى لأنهم يعتقدون كفره، ولذلك من أصعب الأمور على الباحث في هذه الجماعة أن يعرف خيطا جامعا لحكم هذه الجماعة على الواقع، ومثلهم تلك الجماعات التي ما زالت تدور في فلك الإخوان المسلمين مع شيء من التجميل والتزين، فالأستاذ محمد سرور زين العابدين وإلى اليوم يشتد غضبه إذا طلب منه الحكم الشرعي في الحكام، فيرد عليك بأنهم مجرمون، وإذا أعيد السؤال مع التنبيه على ضرورة بيان الحكم الشرعي - مسلم، كافر- فلا تجد منه إلا الغضب، وقد يبرر هذا الغضب منه أو من غيره، بأن الشيخ يخاف أن يكون السؤال من المخابرات والجواسيس، وكأن هذا الأمر مما يجوز للمسلم كتمه، أو هو من الأمور التي تدخل في دائرة السرية للجماعات المسلمة، مع أن مبدأ الجماعة الأم "الإخوان المسلمين" هو علنية الدعوة وسرية التنظيم، مع الاحترام والتقدير لمعنى هذه الألفاظ في المعاجم، ومشايخ السلفية المعاصرة لتفرغهم لبعض القضايا، وعدم اهتمامهم بالواقع الجديد، أو لنقل بكل صراحة لأنهم ما زالوا أسرى لقضايا لا تمت إلى زمانهم بصلة، فإن عباءة السلفية صارت حاوية على مذاهب بدعية منحرفة، فهذا محمد بن إبراهيم شقرة - تلميذ الألباني - ذكر في كتاب له بعنوان " مجتمعنا المعاصر بين التكفير الجائر والإيمان

الحائر" طباعة المكتبة الإسلامية في الأردن، وبعد أن تعالم على عباد الله تعالى بقوله: وإذا أفردت الكتابة بهذا الموضوع المهم الخطير، فلتعريف المسلمين على مختلف طرائقهم ومستوياتهم واتجاهاتهم بالمنهج العلمي الحق في دراسة المسائل، وحل المشاكل، وبخاصة في مثل هذه المسائل الشائكة. ا. هـ، يقول هذا السلفي المرجئ بعد هذا التعالم: الإنسان إذا نطق بالشهادة، وصدق بما قلبه، واعتقدها جازما، وآمن بحقها كله، فهو مؤمن وإن اجترح المعاصي كلها، ما ظهر منها وما بطن ما لم يصاحبها بجحود أو نكران. ا.هـ. (ص 37). وهذا القول هو مذهب غلاة المرجئة في الإيمان والتكفير، فكأنه يقول لا يضر مع الإيمان معصية، ولأنه يشترط الجحد في التكفير لجميع الذنوب، سواء كانت مكفرة أو غير مكفرة.

وفي كتاب آخر لتلميذ آخر، بل لتلميذين اثنين، سارا على درب الإرجاء المقيت في هذا الباب، هما: مؤلف الكتاب مراد شكري، ومراجعه علي حسن عبد الحميد الحلبي الأثري، هذا الكتاب هو "إحكام التقرير لأحكام مسألة التكفير" طبع دار العصيمي الرياض، حيث يقرر الكاتب والمراجع: أنه لا يوجد في الدنيا إلا كفر التكذيب لجميع الذنوب المكفرة وغير المكفرة، حيث يقولان: لا يكفر المسلم إلا إذا كذب النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وأخبر، سواء أكان التكذيب جحودا كجحود إبليس وفرعون، أم تكذيبا بمعنى التكذيب.ا.هـ. (ص 13).

وهذا القول هو قول غلاة المرجئة كذلك إذ أنهما لا يعرفان إلا كفر التكذيب والجحود، والغريب في الأمر أنهما يستشهدان بكلام لابن تيمية في "درء تعارض العقل والنقل" (242/1) حيث يقول: "وإنما الكفر يكون بتكذيب الرسول فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه مثل كفر فرعون واليهود". ا.هـ. فكيف فهما من كلام ابن تيمية ما قررا في الكتاب؟ الجواب: لا ندري، سوى أن نقول إنها المتابعة المقيتة للهوى وقلب الأمور لتوافق الاعتقاد الباطل، فابن تيمية يجعل الكفر كفرين: كفر التكذيب- وهو ما يتعلق بالأخبار-، وكفر الإعراض أو العناد - وهو ما يتعلق بالطاعة والانقياد. وهما يحصران هذين الأمرين بالتكذيب فقط ومع أن الكتاب "أحكام التقرير" من أجهل وأفسد ما وضع في هذا الباب، (موضوع التكفير)، إلا أن الشيء الجديد في هذا الاتجاه السلفي المنحرف هو ترك

الكتب السلفية في موضوع الإيمان والكفر، وعدم الاحتجاج بها، والإقبال على الكتب الخلفية المنحرفة في موضوع الإيمان، فمراد شكري وعلي الحلبي الأثري (الكاتب والمراجع)، لا يخجلان أبدا من الاستشهاد بأبي حامد الغزالي، ولا بمحمد بخيت المطيعي ولا بالعلامة عضد الدين الأيجي في "العقائد العضدية" وشارحها الدواني، وصغار الطلبة يعلمون أن هؤلاء إما أشاعرة أو ماتريدية، والفرقتان من فرق الإرجاء في باب الإيمان والكفر، وهكذا يكون اللعب على الحبال، ولو احتج أحد هؤلاء في باب الأسماء والصفات لردوا عليه قائلين: هؤلاء ليسوا على مذهب أهل السنة في هذا الباب، فكيف علموا هذا وجهلوا ذاك أم أنه كما قال الشاعر:

يوما بحزوى، ويوما بالعقيق، وبالـ عذيب يوما، ويوما بالخليصاء

وتارة تنتحي نجدا، وآونة شعب الغوير، وطورا قصر تيماء

بل الأعجب من ذلك كله هو أنهما ختما الكتاب بكلمة لأبي حيان التوحيدي في كتابه "الإمتاع والمؤانسة"، وأبو حيان هذا - يا قوم - من زنادقة الإسلام كما قال ابن الجوزي: زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي والتوحيدي وأبو العلاء المعري، وشرهم على الإسلام التوحيدي، لأنهما صرحا ولم يصرح. اهـ. وكان على رأي المعتزلة، سخيف اللسان، وكان كما قيل: الذم شأنه، والثلب دكانه (انظر ترجته في "معجم الأدباء" لياقوت و"بغية الدعاة"، وفي "لسان الميزان"). فأي سلفية هذه؟! وأي شيء بقي عند هؤلاء ليصح انتسابهم للسلف الصالح، أم أنها الدعاوى الفجة، والشعارات المكذوبة.

والشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على "العقيدة الطحاوية"، تحت قول الطحاوي: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله. يقول الألباني: "إن شارح العقيد الطحاوية نقل عن أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل، يزيد، وينقص، أن الذنب أي ذنب كان هو كفر عملي لا اعتقادي، وأن الكفر عندهم على مراتب، كفر دون كفر كالإيمان عندهم. (ص 40، 41).

وشارح الطحاوية لم يقل هذا الذي قاله الألباني، فقد ذكرنا سابقا تعليق ابن أبي العز الحنفي على هذه العبارة، وأن الشارح فرق بين الذنوب المكفرة والذنوب غير المكفرة، فقل

الألباني: إن الذنب أي ذنب كان هو كفر عملي، هو قول مخالف لما قرره الشارح بكل وضوح، وهذه العقيدة التي يقولها الألباني هي عقيدة المرجئة، بل غلاة المرجئة. وقد صرح بهذا في كتاب الشيباني "حياة الألباني وآثاره" حيث قال الألباني: ولكني أقول إن القضاء على الذين يحكمون بغير ما أنزل الله سواء كان حكمهم يؤدي بهم إلى الكفر الكلي أو العملي، لا يهمنا في كثير أو قليل هذا الفصل بين الأمرين، الآن من ناحية العقيدة، من الذي لم يكفر عند الله؟ هو الذي ينكر ما شرع الله. ا.هـ. (ص 518/ج 2). وهذا الذي قال الألباني خطير جدا، حيث جعل أمر تكفير الحكام أو عدم تكفيرهم أمر لا يهمه في كثير أو قليل، وأنا يأخذني العجب من هذا القول الخطير، وكأن أمر التكفير وعدمه أمر لا قيمة له في نفس الألباني، ونفوس تلاميذه، وأما قوله: إن الذي يكفر هو الذي ينكر ما شرع الله تعالى. فينبغي تقييدها في المعاصي غير المكفرة، أما المكفرة فقد بينا سابقا أن اشتراط الجحد فيها للتكفير هي عقيدة أهل الإرجاء. هذه هي مجمل تصورات الجماعات والتجمعات الإسلامية للواقع المعاصر، وهذه هي طرائقهم في البحث والنظر.

الفصل الثالث

الجهاد والتغيير

"نجائب النجاة مهيأة للمراد، وأقدام المطرود موثوقة بالقيود: هبت عواصف الأقدار في بيداء الأكوان، فتقلب الوجود ونجم الخير، فلما ركدت الريح إذا أبو طالب غريق في لجة الهلاك، وسلمان على ساحل السلامة " ابن القيم

"سئل الشافعي أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى"

حركات الجهاد في العالم الإسلامي (سلفية الرؤية والمنهج):

حين نتحدث عن حركات الجهاد في العالم الإسلامي، فإننا نقصد تلك التجمعات والتنظيمات التي قامت من أجل إسقاط الأنظمة الطاغوتية الكافرة في بلاد الردة، وإحياء الحكومة الإسلامية التي تقوم على تجميع الأمة تحت راية الخلافة الإسلامية، وبعيدا مؤقتا عن الحديث عن التوصيف الشرعي للواقع الذي تعيشه دار الردة التي قامت على أنقاض دولة الخلافة، فإننا نبدأ ببيان قرب بعض الجماعات من هذه الجماعات الجهادية، حيث نرى تجمعات وتنظيمات لا نستطيع أن ندخلها في الحديث عن حركة الجهاد بهذا المفهوم الذي تقدم، لأن هذه التجمعات يغلب عليها طابع عمل الحسبة، فهي تزاول أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل المجتمعات، وليس لها من تطلع واضح كما يظهر من أدبيات الجماعات في إقامة دولة الخلافة، وطبيعة عمل الحسبة يقوم على الاهتمام بما هو داخل المجتمعات من معاصي، فهذا رجل يشرب الخمر، وهذه امرأة سافرة، وصور أخرى كثرت في مجتمعاتنا، فتقوم هذه الجماعات بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من التغيير باليد، وعلى ضوء هذا العمل الشرعي تسارع الدولة المرتدة في ملاحقة هذه التجمعات، وإقامة القوانين الوضعية عليهم، وحينئذ قد يتأزم الصراع بين الدولة وهذا التجمع، فتبدو للناظر من بعيد كصورة تغير شامل لهذه الدولة، لكن قد يظهر عدم الوضوح عند هذه الجماعة حين تبدأ عملية شد الحبل بينهم

وبين الدولة، فقد يعلن بعض قيادات هذه الجماعات بأنه لو فتحت لهم الدولة العمل داخل المساجد، أو سمحت لهم بالعمل الدعوي فقد يخففون الوطأة في صراعهم مع هذه الدولة، وللأسف كثيرا جدا ما نرى بعض المناظرات بين ممثل الدولة المرتدة وبين هذه الجماعات تقوم على الخلاف في مشروعية التغيير باليد لآحاد الرعية، وهذا الأمر يكون خطابا وخلافا بين دولة مسلمة ورعاياها من المسلمين، وليس بين دولة كافرة مرتدة وبين جماعة تسعى لقلبها وتغييرها، ولكن هذا لا يمنع هذه الحركات من التقدم إلى موضع أمامي في هذا الصراع، وهو الموضوع المطلوب وذلك بتبين حقيقة الصراع بين الحركة الجهادية التي تقدم وصفها وبين هذه الدولة المرتدة، وهذا التقدم يتم عادة باحتكاكها خلال مسيرتها بتجمعات جهادية واضحة المعالم أو بسبب ظروف خاصة فتقترب هذه الجماعات من مفهوم حركة الجهاد الصحيح، ومما ينبغي التأكيد عليه وهو مهم جدا الاهتمام به وعدم نسيانه أو تغافله وهو أن حركات الجهاد ليست هي التي تحمل السلاح أو هي التي تؤمن بحمل السلاح فقط فهذا خطا منتشر بين كثير من الشباب الجهادي لأن حركة الجهاد هي الحركة الشمولية الحضارية، المنبثقة من مفهوم التوحيد الصحيح بشقيه توحيد العبادة وتوحيد الاتباع، وهي التي تحمل بعدا تاريخيا في فهمها بكبوات أمتنا الفكرية والنفسية وتملك الرؤية المستقبلية لعالم يسوده الإسلام بشمول عطائه، الظاهري والباطني، وباستغراق أحكامه الكبيرة والعامة ولذلك ليس من المقبول أبدا من حركات الجهاد (الأمل) أن لا تهتم بجانب التوحيد من جميع جوانبه لأننا نرى حركات جهادية نشأت في واقع فيه شرك النسك من عبادة القبور والقباب، و لم يظهر شيء من أدبيات هذه الجماعة يشير إلى هذا الشرك من قريب أو بعيد، وكأن هذا الأمر لا يعنيهم، كذلك تكون هذه الجماعات قد نشأت في مجتمعات غلب عليها التعصب المذهبي المقيت للمذاهب والطرق، فلا ترفع لهذه الأمور رأسا، وكأن هذه الحركات هي حركات سياسية لكنها اتخذت حمل السلاح وسيلة من وسائل العمل السياسي.

إن هذه الطروحات في معالجة الإرث التاريخي السيئ لأمتنا ومجتمعنا ضرورية جدا لحركات الجهاد، لأنها تصبغ هذه الحركات بالبعد الشرعي الذي يقربها من جيل الصحابة رضي الله عنهم.

إن الحركة الجهادية الأمل حركة سلفية التصور والرؤى، سلفية المنهج والطريق، بريئة كل البراءة من الإرث المنحرف في فكر الأشاعرة، والماتريدية، سليمة كل السلامة من آثار المنهج الصوفي الضال، لا تنتسب إلى أي مذهب وطريق إلا طريق الكتاب والسنة، بصيرة بحال أهل زمانها، تصبغ أعمالها بالبعد التعبدي لحركة الصحابي الأول في الأرض، إذا عرفنا هذا تبين لنا أن حركات الجهاد في العالم الإسلامي لم تصل إلى الأمل المنشود ولكنها إن شاء الله تشد الخطى نحوه، وقد رأينا إذا طال الزمن في مسيرة الحركات أن تتبين المثالب والأخطاء أكثر، فالحركة الجهادية في سوريا كانت مليئة بمثالب وأخطاء الإخوان المسلمين وقد حاول قادتها - رحمهم الله - أن يصححوا المسيرة خلال الأزمة فلم يدركهم الوقت، بل إنهم وقعوا في حفرة الارتباط بجماعة الإخوان المسلمين، فلم يخرجوا عن شعارهم بل تسموا باسم الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، وبرروا ذلك أن هذا وفاء للرجال الذين أناروا لهم الطريق بدمائهم أمثال سيد قطب وعبد القادر عودة ومحمد فرغلي وغيرهم، لكن ليس هذا الأمر مما يمكن أن يقع لولا عدم الوضوح بهذه الأمور التي سبق ذكرها من شروط حركة الجهاد الأمل.

نعم إن الحركة الجهادية تتنامى بفكرها ومنهجها (فقد كانت بعض الجماعات تطلق على العمل السري أنه بدعة معاصرة)، وتكتسب كل يوم مواقع جديدة، وخلال الطريق سيتساقط الذين يصرون على الوقوف بدون تقدم، كما توقفت الحركات الإسلامية عموما في التقدم نحو الأفضل، ومن الأمثلة الصريحة على ذلك صنيع الإخوان المسلمين، فقد كان سيد قطب رحمه الله تعالى هو النتيجة الجيدة، والموقع المتقدم بعد حسن البنا، لكن الجماعة بقادتها الجدد كانت أصغر من هذا الموقع، فأبت التنامي معه، ووقفت حيث هي، والحركة السلفية كذلك، فها هو سفر الحوالي ومعه سلمان العودة يمثلان الموقع المتقدم لحركة الإحياء في الجزيرة العربية، ولكن الكثير من مشايخ حركة الإحياء الأولى يأبون الإقدام الصحيح، وتشدهم مواقعهم الأولى، ومما يؤسف له أن القبول لهذا الإقدام يكون في أغلبه من خارج هذه الحركات، مع استجابة الكثيرين الذين لا يكونون حول المركز في هذه الجماعات، وحركات التصادم مع الطواغيت سيقع فيها ما وقع في هذه الحركات، فسيصبح دور هؤلاء القدماء هو البحث عن الأدلة في تمرير قول المتقدمين، وهي نفس الحفرة التي وقعت فيها أمتنا من أتباع الأئمة، بالقيام بدور

الشارح لكلام الإمام، ثم اختصار الشرح، ثم التعليق والتهميش وهكذا تبقى الدائرة حول مركز الشيخ، أو حول دائرة المؤسس.

وبقى أمر آخر بالنسبة لهذه الحركات (الجهادية)، وهو أن هذه الحركات كما تعتمد على شمولية الموضوع والنظرة، فينبغي لها وجوبا أن تنظر إلى شمولية المكان واتساعه، وأقصد بهذا أنه قد تفتح أماكن جديدة للجهاد في غير بلدها، وهذا المكان إما أن يكون وصفه مكان إعداد فقط، أو يكون الأمل فيه بتحقيق الهدف المرجو أكبر من غيره، حينئذ على الحركة الجهادية أن تنظر لنفسها كوحدة واحدة، ولأن طبيعة الصراع هو معركة، فالقائد هو الذي استطاع أن يحقق هذه المكاسب، أو أن يستفيد من الظرف الذي وقع له، وعلى الآخر إن كان قديما في وجوده أن يلتحق بهذا الأمل الجديد، وأن يسانده، بل إذا امتد الأمر وأخذ بعده المطلوب وجب عليه أن يكون جنديا لهذا القائد الجديد، وعليه أن لا يأتي ليقول للناس: أنا الأول، أنا السابق، فالمسالة ليست للسابق بمقدار حصول الفضل الإلهي لأحد حصل له مقدمات مساعدة لم تحصل لغيره.

ومن هنا يتبين لنا أن الحركات الجهادية كما أنها هي المتقدمة عن غيرها في فهمها لدين الله تعالى، وهي الأمل إن شاء الله تعالى، إلا أن سنة الله تعالى لا تحابي أحدا، فحيث حصل الإيمان حصل النصر، وحيث تخلف الإيمان الواجب فليس لأحد أن يلوم إلا نفسه.

الجهادية السلفية والأغيار:

إن أي حركة انتقالية أو تغييرية تحتاج في الوصول إلى أهدافها إلى مجموعة من العوامل الذاتية، وكلما كان صاحب الحركة جامعا لهذه العوامل كلما كان أسرع وأقوى في الوصول إلى النتائج والأهداف، والعكس صحيح، وقد قفزت الحركة الإسلامية السلفية المجاهدة بفضل الله تعالى خطوة عظمى في إدراك قيمة العوامل الذاتية، والإكثار من التنبيه عليها على خلاف ما جرت عليه أخلاق المسلمين وحركاتهم في هذا العصر من الحديث عن كثرة العوائق من الأعداء والمخالفين، في الصد والدفع لأهداف هذه الحركات، والفرق بين حركة ترى أن نصرها وهزيمتها مردها إلى (ما بأنفسها) وبين حركة ترى أن العلة هو (ما بغيرها) يفرز

سلوكيات متباينة بين الفريقين نرى بعض صورها على أرضية الواقع عند الحركات الإسلامية ننبه إلى بعضها:

1 - الحركة السلفية المجاهدة لا تصبغ على الواقع الشرعية تحت حجة (ليس في الإمكان أبدع مما كان) بل تسعى لتغييره ليصبح في المستوى المطلوب في حكم الشرع، فهي تصارع وتدافع وتجاهد، ومن خلال هذه المدافعة والمجاهدة تسعى إلى الوصول إلى المرتبة التي تستحق بها النصر والتمكين، فهذه الجماعة المتمردة على واقعها، تسعى إلى هدم الباطل فيه وإعلاء شأن الحق، دون مواربة أو تقية، أما الأخرى: فهي تقر المسلمين على ما هم عليه، ولا تسعى إلى رفع شأنهم، وإذا كلفتهم فإنما تكلفهم مع حادي الشهوة، وتدفع لهم الأجور العظيمة مقابل: لا شيء.

ومن أوضح هذه الشعارات الدالة على فقد الهدى والرشد عند هذه الجماعات وعدم الاهتمام برفع مستوى الحق عند المسلمين قولهم: (طريقك إلى الجنة عبر ورقة في صندوق الاقتراع)، فانظر حفظك الله إلى عظيم ما تطلب الحركة المجاهدة لتكون راشدا مقابل ما تطلب هذه الجماعة المنحرفة.

2 - الجماعة المنحرفة التي تقدم وصفها تسعى جاهدة إلى إرضاء الكفر واستعطافه في بلوغ المراد، فهي ترى أنها لا تستطيع أن تقدم أكثر مما هي عليه الآن، والمانع في الوصول حسب قولهم هو: الباطل، فالحل لذلك هو أخذ الإجازة والإشارة البيضاء من الكفر للوصول إلى الأهداف، فهي على حال واحد في طلب الترخيص من الباطل لتمارس عملها، وعلى هذا جرى أمر كثير من الحركات الإسلامية المنحرفة؟ انظر إلى جماعة "الإخوان المسلمين" في مصر، وإلى طول المدة الزمنية التي مكثت ومازالت ملقية نفسها على أعتاب الطاغوت ليرضى عنها، ليعطيها الإذن بممارسة العمل السياسي هناك، وانظر كذلك إلى تلك الرحلات المكوكية التي يقوم بها زعماء هذه الجماعات إلى أمريكا وفرنسا وبريطانيا ليثبتوا أنهم ألين من الحمل، وأنهم ديمقراطيون أكثر من حكوماتهم ودولهم، وانظر في المقابل إلى هؤلاء الشباب (الفتية) في تصديهم للكفر وعدم الركون إليه، ومنابذته على كل الأصعدة، مع علمهم الأكيد بما هم عليه من الضعف والعجز، وقلة ذات اليد وغيرها من جدب الموارد وقلة الناصرين، إلا أنهم مع هذا أدركوا أن

الباطل لا شيء، وما كان ولا صار إلا بغياب الحق أو ضعفه، فلا استرضاء للباطل ولا استعطاف له لبلوغ الهدف، ولكن بإزالة عوامل الضعف والعجز من داخلنا نبلغ أهدافنا.

3 - الجماعة المنحرفة تفرز من داخلها مجموعة من الفتاوى التي تلائم الحالة المزرية التي يعيشونها، فهم ضعفاء والطاغوت قوي لا يقاوم، فما هو الفقه الملائم لهذا الوضع؟، إنهم يشغلون أنفسهم بالتنقيب في طيات الكتب ليتصيدوا فتوى فيها الأخذ برخصة لتكون منهجا لهذه الجماعة.

والرخصة في الفقه الإسلامي هي حالة استثناء وليست أصلا، لكن هذه الجماعات تصنع من هذا الاستثناء قاعدة، وتجعله دينا يفرض على الأتباع التزامه، والخروج عليه شذوذ، فانظر إلى تلك الدراسات التي أفرزها هذا الاتجاه التي تجيز لهم الدخول في الوزارات الكافرة، ومع ما في هذه الأدلة من هشاشة إلا أنها أكثر ما تصلح أن يقال إنها استثناء من الأصل والقاعدة، لكن هذا الاستثناء هو المنهج عند هذه الجماعات، والقاعدة شذوذ.

وانظر كذلك إلى فقه الاستضعاف في مسألة كف الأيدي، فإن كتب الفقه مليئة بالقول أن الجهاد يشترط لوجوبه القدرة (وانتبه لكلمة الوجوب، وليس الجواز)، ففي حالة الاستضعاف وعدم القدرة ثم عدم القدرة على الإعداد، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها فقد صارت القاعدة (وهي وجوب الجهاد) عند هذه الجماعات انحرافا وشذوذا، وكف الأيدي مع الصبر الجميل هو الأصل والقاعدة.

أما الجماعات المجاهدة فهي أهدى سبيلا وأقوم قيلا، فإن منهجها التي تبني أفرادها عليه، وتجتمع من أجله وتنشره بين الناس هو الأصل، وهي مع ذلك لا تلغي الاستثناء ولا تتجاوزه، لأن الاستضعاف حالة استثناء، وفقهه هو فقه الاستثناء لا فقه الأصل والقاعدة.

الحركات الجهادية السلفية أحق بوصف الطائفة المنصورة:

جذور حركات الجهاد السلفية في العالم الإسلامي متشعبة ومتعددة، ولا تعود إلى جهة واحدة، وليس هناك من أحد يستطيع أن يزعم أنه صاحبها، ومن قدر الله تعالى الحسن لهذه الأمة المحمدية أن البلاد التي حكمها الإسلام قلما تجد بلدا يخلو من وجود حركة جهادية قامت من أجل قتال الطواغيت المرتدين منذ عشرات السنين، ولكن عدم التواصل بين هذه

الحركات، ثم ما يعقب عدم التواصل من عدم استفادة الواحد من الآخر، هو الذي يجعل الحركات الإسلامية وكأنها تعيش مرحلة طفولية في كل أدوارها.

الأسس الشرعية للعمل داخل المجتمعات الإسلامية:

المجتمع بين الإسلام والكفر(الردة)

وجود هذه الحركات الجهادية القتالية المنبثقة من تصورات ومفاهيم السلف الصالح يجعلها أحق الناس دخولا في مفهوم الطائفة المنصورة، لأن من شروط هذه الطائفة التواصل وعدم الانقطاع (لا تزال طائفة من أمتي...) وإذا أردنا - وهو مطلوب واجب - أن نبحث عن الأسس الشرعية التي تدفع هذه الحركات للنشوء والعمل في داخل مجتمعات الإسلام قبل غيرها، لوجدنا أن هذه الحركات تعتمد على القواعد التالية:

القاعدة الأولى:

أن الديار التي يعيشها المسلمون، وكانت قبل دار إسلام وأمان، قد انقلبت إلى دار كفر وردة، لأنها حكمت من قبل المرتدين، ولأن الكفر قد بسط سلطانه عليها من خلال أحكامه ودساتيره، وأدلة كفر هذه الطوائف وردتها هو الذي سنبحث عنه فيما يأتي من مقالات، ومما ينبغي الإشارة إليه لأهميته في هذا الموطن هو:

1 - حين نقول عن الديار هي ديار كفر وردة، فليس يعني هذا من قريب أو بعيد حكما على أهلها، فلسنا نقول بقول بعض فرق الخوارج: إذا كفر الحاكم كفرت الرعية، نعوذ بالله من الضلال، وأما أقسام الناس في هذه الديار فهم:

أ - مسلمون، وهؤلاء من علم إسلامه واشتهر، أو من قام بأعمال الإسلام الدالة عليه كتشهده أو صلاته أو تسميته على الذبيحة، لقوله صلى الله عليه وسلم: **((من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذاكم المسلم الذي له ذمة الله، وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته))** رواه البخاري عن أنس. وهذا كله بشرط عدم الإتيان بناقض من نواقض التوحيد.

ب - كفار أصليون، أو مرتدون، فالأصليون كالنصارى واليهود والمجوس وغيرهم، والمرتدون من دان من المسلمين بغير دين الإسلام كالبعثية والعلمانية والشيوعية وغيرها، أو من

أتى بناقض من نواقض التوحيد، كسب الله أو سب الرسول أو ترك الصلاة على الصحيح من قولي أهل العلم، ومن هذا الباب لا يقال للكافر الأصلي من يهود ونصارى أهل ذمة، لأن أهل الذمة في مصطلح أهل الفقه والدين هم الكفار الذين دخلوا بأمان المسلمين في دار الإسلام، وأما إذا عدمت دار الإسلام فليس لهم ذمة وعهد، بل هم كفار حربيون.

ج - أما مستور الحال من المسلمين، وهو من علم إسلامه بنسك من نسك المسلمين الدال عليه كما تقدم، ولم يعلم إنكاره لحكم المرتدين، فهذا مسلم صحيح الإسلام ولا يتوقف في شأنه، لأن من درجات الإنكار التي رضيها الشارع للمسلم هو الإنكار بالقلب لحديث: ((من رأى منكم منكرا فلغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)) رواه مسلم عن أبي سعيد. فاحتمال وجود الإنكار في القلب، وعدم متابعة الكافرين والرضا عنهم يوجب على المسلم أن يحكم بإسلامه للدليل الدال عليه، وللبراءة الأصلية واستصحاب الحال، وهذا فارق بين أهل السنة وبين جماعات التوقف والتبين، فإن هؤلاء يحكمون على مستور الحال بالتوقف في أمره حتى يتبين لهم حاله، وعلى هذا فلا يتوقف في أئمة المساجد والمصلين إلا إذا اشتهر إمام مسجد ما، بالشرك مثل عبادة القبور وموالاة المرتدين وغيرها من النواقض. أما مجهول الحال ممن لم يعرف منه شيء يدل على إسلامه، ولم يعرفه الشخص الذي يريد أن يتعامل معه كأن يناكحه، فالأولى حينئذ سؤاله عن دينه، وسؤال الآخرين عنه ليتوثق من كونه مسلما، لئلا يكون كافرا أصليا أو مرتدا.

2 - حين نقول عن الطوائف الحاكمة أنها طوائف كفر وردة، فهذا يستدعي منا أن نعرف الطائفة من هي؟.

معرفة الطائفة يعرف من خلال معرفتنا علة الردة الحاصلة، فالردة سببها هو توسيد حق الألوهية والحاكمية لغير صاحبها الحق، وهو رب العالمين، فهذه هي علة الردة في هذه الطوائف، مع أن كثيرا من الطوائف في هذه المجتمعات قد ارتدت لغير هذا السبب، كالشيوعيين والعلمانيين وتاركي الصلاة، وعباد القبور، ولكننا هنا نتكلم عن الطائفة المالكة للشوكة والقوة والمنعة، فعلة كفر هؤلاء الذي اجتمعوا من أجله وتمالؤوا عليه هو التشريع،

فالمشرع للباطل ومقنن هذا التشريع والحاكم به وحاميه، والداعي له ومزينه هم الذين نطلق عليهم "طائفة الردة".

3 - هل حكمنا على الطائفة أنها طائفة ردة يستلزم كفر وردة جميع أفرادها عينا، ثم الحكم عليهم بالخلود في جهنم؟. بحث هذه المسألة متشعب والأدلة فيه تحتاج إلى توقف ودراسة، ومن المعيب حقا اتهام من قال بكفرهم عينا أنهم أهل غلو وبدعة أو اتهام الذين يتوقفون في أعيانهم أنهم أهل إرجاء وبدعة، فهذه المسألة من مسائل التصور، ومن المسائل التي يحتمل فيها الخلاف، وهي تعود إلى مسألة إعمال الموانع، موانع التكفير في الطائفة الممتنعة. لا إلى مسألة أن الموالاة الظاهرة لا تكفر حتى نتحقق من وجود الموالاة الباطنة، فصاحب هذا القول هو من غلاة المرجئة كما تقدم. ولكن هذا لا يمنعنا من الحكم على الكثير من أفرادها بالكفر والردة لتحققنا من امتناع وجود هذه الموانع فيهم، فهؤلاء الذين يتخصصون بالتعامل مع الجماعات الإسلامية من قوى الأمن في طوائف الردة، حيث يدرسون الشريعة دراسة مستوعبة ثم يحفظون منها أكثر من الذين يتخرجون من المعاهد العلمية كالأزهر أو كليات الشريعة، وهم يفعلون ذلك من أجل مناظرة الاخوة خلال التحقيق معهم، فلا أدري ما هو المانع الذي يمنع إلحاق وصف الكفر بهم عينا، وقد يتحقق البيان وينتشر، فتتمايز الصفوف، فيعلم كل جندي أنما هو يدافع عن أنظمة الكفر ضد جند الإسلام، فالقول بعدم تكفير أعيان الجند هي مماحكة، وقد يدخل أمر مكفر آخر في الطائفة غير ما تقدم من علة اجتماعها مثل انتشار سب الله والرسول في هذه الطائفة، فبعض البلاد قد غلب على جندها سب الله أو الرسول أو دين الإسلام، فهؤلاء كفار عينا ولا كرامة.

القاعدة الثانية:

وجوب جهاد هذه الطوائف، وعدم موالاتها أو نصرتها، فإذا تبين لنا أن هذه الطوائف هي طوائف ردة وكفر، وجب على المسلمين جميعا - وجوب جهاد الدفع - أن يقاتلوا هذه الطوائف حتى تزول أو تعود إلى الإسلام، وحكم قتال هذه الطوائف هو حكم قتال الدفع، وهو فرض عين، ولا شرط لوجوبه سوى القدرة، فإذا عدمت القدرة وجب الإعداد، فليس هناك من حال تجيز للمسلم أن يخرج عن هذه الأحكام - جهاد الطائفة أو الإعداد لهذا الجهاد

- مع التنبيه أن القدرة هي شرط وجوب لا شرط صحة، فمن قاتلهم وقد أيقن بهلاكه وعدم حصول الغلبة فهو مجاهد مأجور غير مأزور، فإن عدمت القدرة على الإعداد وجبت الهجرة، فإن عدم القدرة عليها وجبت العزلة، وحينها يكون الأمر النبوي الماثل في حديث حذيفة - أمين سر النبي صلى الله عليه وسلم - هو الواجب اتباعه.

هبات حركة الردة على أمتنا ليست جديدة في هذا العصر، وليست هي أول مرة بل هي قديمة قدم الإسلام، ومعالجات الأمة من علماء وقادة لها واضحة المعالم، دقيقة التفاصيل، ولكن الشيء الجديد لهذه الظاهرة في العصر الحديث هو حالة الهروب من المواجهة، ومحاولة التهوين من شأنها، والتقليل من خطرها، على الرغم أن هذه الهبة الجديدة هي أخطر مواجهة أصيب بها الإسلام، ومع وضوح وجلاء هذه الهبة الجديدة إلا أن غلبة فكر الإرجاء المنحرف منع مشايخنا من اكتشافها أو استبصارها كما هي بكل أبعادها وجذورها، ثم غلبة فكر الجبر المنحرف منعت من اكتشف شيئا منها أن يقوم لها كما ينبغي لها في دين الله تعالى وشرعه، وكما في سنته سبحانه وتعالى في كونه.

إن تسمية طوائف الردة بهذا الاسم، أو انقلاب الدار من دار إسلام إلى دار ردة مبسوط في كتب الفقه بكل جرأة ووضوح، فلماذا الهروب من المواجهة؟ ولماذا يتصور البعض أن ما تقوله حركات الجهاد القتالي السلفية ضد طوائف الردة بدع من القول وزور؟.

إن الإرهاب الذي يمارسه مشايخ السلطان، ثم مشايخ الإرجاء، فعوام المسلمين الذين ينعقون كالببغاوات، هي التي تجعل الكثير يمارس عملية دفن الرأس في الرمل، مخافة الاتهام بعقيدة الخوارج، أو الغلو والتطرف، حتى صارت أعظم المكفرات يوجد لها عند هؤلاء تخريج أنها لا تستلزم كفر المعين، فهؤلاء الذين يسبون الله والرسول والإسلام في كثر من المجتمعات، ثم يوجد من يقول: إنه لا بد من استحلال الساب حتى يكفر، أو يقول لعله جاهل بحكم السب!!.. إلى آخر هذه القائمة، وكأن هؤلاء المؤولة لا يرون كفرا ينشأ من ردة وتغير دين!!، فكيف يتصور من هؤلاء أن يبصروا ما تقوله حركات الجهاد القتالي السلفية؟!.

وإن من آخر ما تفتقت عنه ذهنية هؤلاء المبتدعة نبذ من يقول بكفر الحكام المبدلين لشريعة الرحمن وطوائفهم بجماعات التكفير، فحيث ذكر فلان من هؤلاء يقال: هذا تكفيري،

أو كقول بعضهم بلهجته العامية: المكفراتية، وأنت لو رحت تسأل هذا الجاهل عن معنى هذا اللفظ لما درى بماذا يجيب، ولم يدر هؤلاء الجهلة أن التكفير هو شق الإسلام الذي لا يصح إسلام المرء إلا به، إذ أن المسلم يبدأ إسلامه بكلمة التوحيد لا إله إلا الله وشق هذه الكلمة لا إله كفر بكل الآلهة الباطلة، وكفر بعابديها، وكفر بأوليائها، كما قال سبحانه وتعالى: {**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى**}، فهل الإسلام إلا كفر بالطاغوت وإيمان بالله؟ ثم ألا يعلم هؤلاء أن عدم تكفير الكافر كفر بالله تعالى، وقد وصل الأمر بحال هؤلاء أن يتوقفوا في كفر اليهود والنصارى، ويزعمون أنهم جهلة، فسبحان من قسم العقول فأضل أقواما، وهدى آخرين.

قلنا إن هبات حركات الردة على أمتنا ليست بجديدة، ففي آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم أطل مسيلمة برأسه، وزعم نزول الوحي عليه، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم: مسيلمة الكذاب، وظهر كذلك مرتد آخر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وغلب على أهل اليمن وهو الأسود العنسي، قام له رجل صالح يسمى فيروز الديلمي مع جماعة من جند الإسلام فقتلوه في حركة عسكرية انقلابية، وأعادوا اليمن إلى حظيرة الإسلام، أما أمر مسيلمة فقد امتد أمره، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وشاعت حركة الردة حتى عم شرها الجزيرة العربية، فزعم قوم النبوة، فتنبأت سجاح بنت الحارث، ولقيط بن مالك الأزدي، وكذلك طليحة (وقيل إن طلحة ارتد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فوجه النبي صلى الله عليه وسلم ضرار بن الأزور إلى عماله على بني أسد في ذلك، وأمرهم بالقيام في ذلك على كل من ارتد)، وعاد الناس إلى ما كانوا عليه من أمر الجاهلية فتحللوا من فروض الشريعة، فمنهم من تركها جميعا، ومنهم من أنكر الزكاة، وزعم أنها تجب للرسول صلى الله عليه وسلم فقط، وليس لأبي بكر حق فيها، ومنهم من أعلن أنه سيؤديها بنفسه، ولن يؤديها إلى أبي بكر الصديق، وظن ضعاف الإيمان أن سيف الإسلام قد نبت شفرته بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاغتنموا الفرصة للخروج من هذا الدين، وغلبت الردة على الجزيرة العربية، و لم يبق على الإسلام إلا مكة والطائف وجواثى بالبحرين والمدينة، فعمت الردة القبائل والقرى والتجمعات، فقام لها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم حق القيام، ونشطوا في صدها ومنعها، ورفعوا لها رأس

الجد والجهاد، ورؤي من أبي بكر رضي الله عنه صلابة لم تعهد فيه من قبل، حتى أن الرسل كانت تأتيه بالأخبار السيئة التي يرهب منها الرجال فما كان منه إلا أن يأمر بالمزيد من الحرب والنار، حتى قال ضرار بن الأزور: فما رأيت أحدا ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم أملأ بحرب شعواء من أبي بكر، فجعلنا نخبره - أي أخبار الشر عن الردة وعظمها - ولكأنما نخبره بما له لا عليه. وكانت وصاياه للجند تدور حول جز الرقاب بلا هوادة أو تباطؤ، حتى أنه رضي الله عنه حرق رجلا يسمى إياس بن عبد الله بن عبد يا ليل ويلقب بالفجاءة، لما خدعه في أخذ أموال لجهاد المرتدين، ثم لحق بهم، أو على الصحيح، صار بها قاطع طريق، ودارت رحى الحرب شاملة كل الجزيرة، ولم يجزع أحد من أصحاب رسول الله منها، بل كانوا رجالها وأهلها، حتى عادت الجزيرة إلى حكم الإسلام وسلطانه.

كذاك الدهردولته سجال فيوم من مساءة أو سرور

لبث قليلا تأتك الحلائب يحملن آسادا عليها القاشب

كتائب يتبعها كتائب

وفي غفلة من أهل الحق وضعفهم غلب قوم من المرتدين على المغرب، ثم على مصر، وهم الاسماعيليون العبيديون، فقد تأسست الدولة العبيدية في المغرب، وقوي شأنها، فبدلوا الشريعة، وغيروا الأحكام، فقام لها جهابذة الإسلام في المغرب من علماء المالكية الأفذاذ، فقاتلوهم بلا تردد، وعندما قام أبو يزيد الخارجي، وكان على مذهب الإباضية، تردد بعض الناس في قتال المرتدين تحت راية الخوارج، فكان نداء الأئمة العلماء يوم ذاك: نقاتل تحت راية من آمن بالله ضد راية من كفر بالله، نعم قاتلوا تحت راية الخوارج، ضد المرتدين الزنادقة، ولبس الإمام الجهبذ - حية الوادي - المصحف في عنقه، وخرج مقاتلا للمرتدين حتى استشهد، وفي تلك الفترة أفرز علماء المالكية أصحاب سحنون من الفتاوى العظيمة ما تعد غرة في تاريخ أهل العلم من أمتنا، وعلم المرتدون أن أرض المغرب ليست بأرض استقرار وهناء، فوجهوا هاديهم إلى مصر فغلبوا عليها، واستقر لهم الحكم في مصر بمساعدة الصوفية الخبيثة التي مهدت لهم الطريق، حتى أنهم دخلوا الفسطاط بغير حرب وسيف، وبقي أمرهم في مصر إلى ثلاثة عشر متخلفا (كما قال السيوطي)، حتى جاء صلاح الدين الأيوبي، وأنقذ مصر من العبيديين، وأعادها إلى

سلطان الإسلام، وكان من جرأة علماء المغرب، وصلابتهم في الحق أن كفروا كل خطيب خرج على المنبر يخطب لبني عبيد، أو يوهم الناس أنهم مسلمون، وهي فتوى عظيمة الشأن جليلة القدر، أجمع عليها أهل زمانها، ومدحها القاضي عياض المالكي، وأشار إليها باحترام الإمام شمس الدين الذهبي في "سير أعلام النبلاء"، وقد قمت بتحقيق هذه الفتوى، ودراسة ظرفها، والرد على الشبه التي سيثيرها الجهلة حولها، والفتوى قد طبعت في ورقات مستقلة.

وحركات الردة لا تفتأ تطل برأسها وتنشئ لها دولا ومعاقلا، فالإسماعيليون أقاموا لأنفسهم دولة في اليمن، قضى عليها صلاح الدين، وأقاموا لهم معقلا خطيرا في قلعة آل موت، وقد اشتهروا باسم الحشاشين أو الفداوية، وبقيت مصدر إزعاج وقلق للمسلمين، وكانوا يمارسون طريقة الاغتيال ضد خصومهم، فاغتالوا بعض أهل العلم، واستطاعوا أن يقضوا على خليفة من خلفاء بني العباس، وحاولوا اغتيال صلاح الدين فلم يفلحوا، وبقي أمرهم يشتد وقلعتهم جد منيعة حتى قضى عليها التتار خلال هجومهم على العالم الإسلامي. وليس هذا فحسب بل حركات الردة التي غزت أمتنا تحتاج إلى دراسة شاملة، تهيئ قبول المسلم لهذه الظاهرة، وأنها ليست بالجديدة، وأن معالجات أهل العلم لهذه الظاهرة ليست بالأمر المحدث الجديد.

قوى العلمنة (الردة) وفكر الإرجاء :

إن هذه الردة المعاصرة هي من أخطر ما واجهت الأمة، وهي عميقة الجذور، متشعبة الوجود، ومع شدتها وخطورتها، إلا أن القليل من أهل البصيرة أدركها حق إدراكها، أو رفع لها رأس الجهاد والاستشهاد، وسبب هذا الجهل بحقيقة هذه الردة أنها جاءت على فترة من الجهل بحقيقة التوحيد، وبحقيقة العبودية لرب العالمين، فخلال عقود طويلة سرت في الأمة جرثومة الإرجاء الخبيثة، وأختها جرثومة الجبر، وكان معهما الصوفية تغذيهما بقيح الفكر وصديده، وهي مع ذلك ترتكز عليهما في بث تصورها الرذيل عن الكون والحياة، حتى صارت هذه الأمراض وكأنها جزء من طريقة تفكير المسلم لا تنفك عنه، ولا يعيش إلا بها.

والآن كيف استثمرت العلمانية (الردة) فكر الإرجاء وارتكزت عليه؟.

طبقات المرجئة:

على الرغم من أن طبقات المرجئة ليست على نسق واحد، وطريقة واحدة، إلا أنها تلتقي جميعا في عدم إدخال الأعمال البدنية في مسمى الإيمان، فبعضهم يرى أن الإيمان هو القول، وبعضهم يرى أن الإيمان هو التصديق القلبي، وآخرون يرون أن الإيمان قول اللسان وتصديق القلب، إلا أنها جميعا لا تعترف أن الأعمال البدنية داخلة في مسمى الإيمان، وترتب على ذلك إرجاء في التكفير، فهناك إرجاء في مسمى الإيمان، وإرجاء في التكفير، وقد ذكرنا طبقات المرجئة، في التكفير، وقلنا إنها ثلاث طبقات في التكفير بالأعمال المكفرة، فهناك طبقة لا تطلق الكفر على من سماه الله كافرا لعمل من الأعمال أو قول من الأقوال مطلقا، وهؤلاء كفرهم أهل العلم، وهناك طبقة لا تكفر بالعمل المكفر أو القول المكفر حتى تتحقق من وجود الاستحلال والجحد، وهؤلاء كفرهم بعض أهل العلم كالإمام أحمد - رحمه الله تعالى - كما ذكر شيخ الإسلام في كتابه "الإيمان الكبير"، وهناك الثالثة: وهي تكفر من كفره الله تعالى من الأعمال المكفرة، وتفسر كفره بسبب الجحد أو الاستحلال، وتقول إنه لعلم الله تعالى أن هذه الأفعال لا تقع إلا من مستحل أو جاهل فقد كفره الله تعالى، وواقع المذاهب المتأخرة التي غلبت على الأمة، أنها تبنت القول الأول والثاني، وقليل من يقول بالقول الثالث، فأغلب المدارس المذهبية على القول الأول والثاني، فالإرجاء لا يعلق أحكام الإيمان على الأعمال، فالناس مسلمون بغض النظر عن أعمالهم، والحكم على الإيمان متعلق بمسائل التصديق والتصور، وما من دين على ظهر الأرض سواء كان سماوي الأصل والوضع، أو أرضي النشوء، إلا وهو يحمل في داخله شقين فيما يتعلق بأتباعه وأصحابه: الأول: شق يتعلق بالتصور والتصديق. والثاني: شق يتعلق بالأحكام والتكاليف، فالنصرانية المحرفة مثلا، فيها شق يتعلق بالتصور والتصديق مثل عقيدة الخطيئة والفداء والصلب، وأما الأحكام فهناك بعض الأحكام فيما يخص قانون الحرب! إذا ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر لكنها فيما يتعلق بجملة الأحكام ترتكز على قاعدة "دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر"، وهي قاعدة تجعل لقيصر الحق أن يفرض من الأحكام ما يحب ويرضى، وأما ما كان لله من أمور التصور وبعض أعمال النسك

كالصلاة فهي تعود إليه لا لغيره، ولو أخذنا الشيوعية كمثل آخر، فإنها تحمل في داخلها قضايا تتعلق بالتصور والتصديق مثل نفي عالم الغيب، ومنها قضايا تتعلق بالأحكام والأقضية كالاشتراكية في الاقتصاد، والإباحية في الاجتماع، والدكتاتورية في السياسة والحكم، ولذلك ففي دين الله تعالى تسمى الشيوعية دينا، ولكنها دين باطل كافر، والنصرانية دين لكنها دين باطل كافر. ولفظ الدين قد يطلق على شق التصور والتصديق منفردا، كما يطلق على شق الأحكام والقضاء منفردا، لكن إن أطلق - أي لفظ الدين - من غير تقييد كان شاملا للطرفين. فالشيوعية دين، والاشتراكية دين، والدكتاتورية دين، وهكذا.. وقد اكتشف مشايخنا، وكذلك أمتنا أن الشيوعية كفر وردة، وسبب هذا الاكتشاف المبكر أن الشيوعية تعارض قضايا التصور والتصديق. وهو شق يعلق الإرجاء عليه أحكام الإيمان والكفر. فلو سألت سائلا: لماذا تكفر الشيوعية؟ لقال لك: لأنها لا تؤمن بالغيب. ومع ذلك: لما اكتشفت الشيوعية أنها لم تثمر في الأمة الإسلامية لمصادمتها قضايا التصور، فإنها الآن بدأت تتنازل عنها مقابل نشر قضايا الأحكام والقضاء - الاشتراكية والإباحية والدكتاتورية - ونجحت خطتهم، فقد توقف المسلمون ومنهم المشايخ تكفير الشيوعي، فهذا عدنان سعد الدين - من الإخوان المسلمين السوريين - في لقاء معه مع إحدى الصحف يعترف بوجود الشيوعي المسلم، وأنه لا يستطيع أن يكفر كل شيوعي، فبعض الشيوعيين يصلون الصلوات الخمس، وكذلك الشيخ السلفي محمد بن إبراهيم شقرة - بعد زيارته لموسكو قبل سقوط الشيوعية - اعترف أنه لا يستطيع أن يكفر الشيوعيين لأنه اكتشف أن بعض الشيوعيين الحمر يصلون.

قلنا: إنه من السهل أن يعلق مشايخنا أحكام الكفر والردة على شق التصور والتصديق (وهو ما يسمى بالاعتقاد)، لأنه هو الذي يتعلق بمسمى الإيمان عندهم، وعليه فقط يعلق حكم الكفر كذلك. وأما شق الأحكام والقضاء، لما كان لا يدخل في مسمى الإيمان عند المرجئة، ولا يعلق عليه حكم الكفر والردة، فإن من فرض منهجا يتعلق بالأحكام والقضاء دون تدخل في التصور والتصديق فلن يكفره أحد، أو يكتشف ردته إلا من برأه الله تعالى من جرثومة الإرجاء الخبيثة، وعلى هذا لما جاءت العلمانية - وهي دين - ولم تقترب من قريب أو بعيد في مسائل التصور والتصديق، بل تركت للناس حرية اختيار هذا الشق، وربما دعمت اختيارك

وساعدتك، فكونك تؤمن بالغيب أو لا تؤمن بالغيب، أو كون الرجل يصدق باليوم الآخر أو لا يصدق، يؤمن بعذاب القبر أو لا يؤمن، كل هذه الأمور وغيرها بدءا من وجود الله تعالى إلى أي قضية في مجال التصديق والتصور (الاعتقاد) فإن العلمانية لا تعارضك في ذلك كله، ولكنها تتدخل بقوة فيما يتعلق بشق الأحكام والقضاء، فهي تفرض دينها في السياسة، وتطرح دين الديموقراطية، وهي تفرض دينها في الاجتماع، وتطرح دين الحرية الاجتماعية، وهي تفرض دينها في الاقتصاد، وتطرح دين الرأسمالية. فالعلمانية دين شامل لكل الحياة، كالشيوعية والنصرانية والبوذية... الخ. إلا أنها في مسائل التصور والتصديق تترك للناس حرية اختيارهم (لعقائدهم) مع شيء من الهامش لبعض أعمال النسك، إذا فهمنا هذا أدركنا أن العلمانية استطاعت تمرير نفسها على أمتنا لعدم مصادمتها الشق الذي يعلق عليه المرجئة حكم الإيمان وحكم الكفر، وتبقى مسألتها دائرة في دائرة المعصية فقط، إذ يمكن للرجل أن يكون علمانيا، ولا يقدح ذلك في شيء من إسلامه وعقيدته، وقد يكون الرجل ديمقراطيا مسلما، ورأسماليا مسلما،... الخ هذه القائمة السوداء. ولا يرى أن هناك مصادمة في هذه الثنائية! فمن هو هذا الرجل الذي يستطيع أن يطلق وصف الكفر على رجل يصوم ويصلي ويؤمن بالغيب، ويصدق ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ويؤمن بأن القرآن كلام الله، ويبكي إذا ذكرت النار، ويفتتح كلامه بالحمد له والصلاة وغيرها، ولكنه يمارس العلمانية في شق من أحكامها وقضاياها، ويتبناها منهج حياة، كالديمقراطية أو الرأسمالية أو الحرية الاجتماعية؟ بل من الذي يستطيع أن يكفر رجلا يؤمن بعلمانية الدولة على قاعدة اختيار الشعب لسلطاته الثلاث: التشريعية، والقضائية، والتنفيذية؟.

ومن هنا استطاعت العلمانية (الردة) أن تبسط سلطانها على المسلمين دون أن تجد اعتراضا من مرجئة المسلمين، إلا اعتراضا بمقدار تسمية ما يقوم به العلماني من أعمال أنه عاص لله فقط، ولكنه لا يخرج من دائرة أهل الإسلام، بل ربما يرد عليك المرجئ أن هذه المعاصي التي تقترفها الدولة لا تزيد عن كونها شبيهة بمعاصي الحجاج بن يوسف الثقفي، أو بمعاصي دولة المماليك أو الدولة العثمانية. فدولتنا فيها الخمر وفيها الربا وفيها الزنا وكذلك الدولة العباسية والمملوكية والعثمانية؛ ونحن نقر أنها معاصي وذنوب، ولكن أن يتعلق بهذه المعاصي كفر

وإسلام، فهذا لا يجوز، وهذا الحكم انحرافه كبير في فهم الدين أولا، وانحراف آخر يوازيه في فهم الواقع الذي أطلق عليه الحكم.

الخوارج والتكفير:

مما ينبغي تبيينه وتوضيحه، تلك الألفاظ التي شاعت على ألسنة الناس، يطلقونها نبزا لخصومهم، ويلوكونها بألسنتهم دون إدراك واضح لمفاهيمها ومعانيها، من هذه الألفاظ لفظي: الخوارج والتكفير، فما هي حقيقة هذه الألفاظ.

أما لفظ الخوارج، فهو لفظ قديم، وجد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد شاع كثيرا هذا اللفظ في كتب الفرق والمذاهب، وأغلب هذه الكتب تفسر هذا اللفظ على غير تفسيره، وتشرحه على غير حقيقته.

فالخوارج في أغلب كتب المذاهب والفرق المتأخرة تعني: من خرج عن الإمام العدل وهذا خطأ لا صواب منه.

فإن مجرد الخروج عن الإمام العدل بتأويل يسمى بغيا، وجماعتهم هم البغاة، وقد يكون البغاة خوارجا ليس لخروجهم عن الإمام العدل، ولكن لعقيدتهم في الناس.

وقد يكون الرجل خارجيا، والجماعة من الخوارج، ومع ذلك لا يتم لهم الخروج عن الإمام المسلم العدل.

فالخوارج لهم مذهب محدد تجتمع فيه هذه الصفات:

1 - التكفير بمطلق الذنوب والمعاصي: فهم يرون جميع المعاصي على مرتبة واحدة، هي مرتبة الكفر الأكبر، مع اختلافهم في الصغائر، فبعض الخوارج يرى كفر فاعلي الصغائر، وبعضهم لا يكفره، وعلى ضوء هذا المذهب نشأت مجموعة من الفرق الخارجية تقترب منه أو تبتعد، فالإباضية مثلا لا يسمون فاعل الكبيرة كافرا بالله، بل يسمونه كافرا بالنعمة، مع التقائهم مع بقية الخوارج بالحكم على آخرة الرجل إن مات على كبيرة أنه خالد في جهنم وليس معرضا للمشيئة كما هو مذهب أهل السنة.

2 - وانبثق عن هذه العقيدة المغالية استحلال دم المخالف وتكفيره، فتكفيرهم صاحب المعاصي (الفاسق الملي) ترتب عليه استحلال دمه لكونه مرتدا عندهم، فالمخالف لهم كافر مباح الدم، ومن لا يدخل في إمرة إمامهم وجماعتهم هو كذلك، لأنهم بعدم دخولهم - أي الناس - في جماعتهم وفي طاعة أميرهم داخلون في إمرة فسطاط الكفر، وبقائه في فسطاط الكفر (إمرة غيرهم من المسلمين) يحكم عليه بالكفر، وبهذا الحكم يبيحون دمه وعرضه وماله.

3 - ومن عقائدهم وجوب الخروج على فسطاط الكفر (إمارة غيرهم من المسلمين)، فكثر منهم إراقة دماء المسلمين، وشن المعارك ضد الدولة المسلمة، وبقي أمرهم على هذا الشأن حتى طمس أمرهم نور العلم، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أمر الخلافة، أذن لهم بالدخول في أمصار المسلمين، ودخول المساجد، ومقابلة العلماء، ثم مناظرتهم، حتى تبين لهم الحق، فرجعوا عن ترك مواطن العلم ومظانه، وبهذا خف أمرهم وبقيت لهم جيوب صغيرة وهي موجودة إلى اليوم في بعض المناطق، وبقيتهم على مذهب الإباضية.

وقد استخدم لفظ الخوارج بطريقة فجة من قبل السلطات السياسية في اتهام الخصوم، ووجد من يؤيدهم من بعض المشايخ، وسبب استخدام هذا اللفظ وجوده في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتنفيره صلى الله عليه وسلم من أصحابه - أي الخوارج -، ثم في هذه الأحاديث الحجة لدى هذه السلطات لقمع خصومها، حيث حث صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث على قتل هذا الصنف من المبتدعة، ومما ينبغي معرفته أن ذكر الخوارج في الحديث النبوي ليس لأن الخوارج أعظم الفرق البدعية شرا وضلالا، بل لأنهم أول الفرق ظهورا في المجتمع الإسلامي.

وبسبب ذلك ظن البعض أن أمر الخوارج أعظم من غيرهم فإننا نرى بعض التجمعات الإسلامية المعاصرة تعلن البراءة -كل البراءة - من الخوارج، أو من اقترب من فكرهم، ومع ذلك لا يتورعون أبدا من الانضواء تحت راية الشيعة الرافضة، وإذا حوججوا أجابوا بأن الشيعة الروافض مسلمون ومن أهل القبلة، ولكن على فرض قبول قولهم بأن الشيعة الروافض من أهل القبلة، فهل الخوارج - فيما تزعمون كثيرون - من غير أهل القبلة؟.

وهل شر الخوارج يصل إلى شر الشيعة الرافضة؟.

ثم يقال لهذه التجمعات المسلمة: كيف قبلتم التحالف مع الشيوعيين والقوميين والبعثيين (وهم كفرة مشركون بلا جدال) ثم أعلنتم البراءة - كل البراءة - من الخوارج - حسب زعمكم - ؟.

بل كيف دخلتم في موالاة من سب دين الله ونبزه بالرجعية، وذبح المسلمين وهتك أعراضهم، ونشر الرذيلة وباع الأمة، ووالى اليهود والنصارى وأعداء المسلمين، ثم صببتم جل غضبكم على الخوارج - حسب زعمكم وظنكم -؟.

كيف لعقولنا أن تقبل ما تفعله جماعة الإخوان المسلمين واضطرابها فيما قلنا؟.

ثم كيف يريدون منا أن نقبل ما يفعله سلفيو (آخر زمن) من موالاتهم لصدام البعثي الكافر ضد الشيعة الروافض، يرفعون صدام وحزبه إلى مقام صلاح الدين، وحربه إلى قادسية سعد بن أبي وقاص، ثم بسبب غزوه للكويت يعود صدام إلى حظيرة بعثيته وكفره.

ومن الكلمات التي استخدمت شعارا لضرب الخصوم، ولتنفير الناس منهم لفظ التكفير، وهو لفظ يلصق بالمرء فيقال: فلان من جماعة التكفير. وقد استخدم هذا اللفظ مق قبل أجهزة المخابرات بإطلاقه على جماعة شكري مصطفى الذي سمى جماعته: "جماعة المسلمين"، حيث كان يرى أنه هو وجماعته هم المسلمون فقط، وغيهم كافر أو متوقف فيه.

الخوارج والتكفير:

مما ينبغي تبيينه وتوضيحه، تلك الألفاظ التي شاعت على ألسنة الناس، يطلقونها نبزا لخصومهم، ويلوكونها بألسنتهم دون إدراك واضح لمفاهيمها ومعانيها، من هذه الألفاظ لفظي: الخوارج والتكفير، فما هي حقيقة هذه الألفاظ.

أما لفظ الخوارج، فهو لفظ قديم، وجد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد شاع كثيرا هذا اللفظ في كتب الفرق والمذاهب، وأغلب هذه الكتب تفسر هذا اللفظ على غير تفسيره، وتشرحه على غير حقيقته.

فالخوارج في أغلب كتب المذاهب والفرق المتأخرة تعني: من خرج عن الإمام العدل وهذا خطأ لا صواب منه.

فإن مجرد الخروج عن الإمام العدل بتأويل يسمى بغيا، وجماعتهم هم البغاة، وقد يكون البغاة خوارجا ليس لخروجهم عن الإمام العدل، ولكن لعقيدتهم في الناس.

وقد يكون الرجل خارجيا، والجماعة من الخوارج، ومع ذلك لا يتم لهم الخروج عن الإمام المسلم العدل.

فالخوارج لهم مذهب محدد تجتمع فيه هذه الصفات:

1 - التكفير بمطلق الذنوب والمعاصي: فهم يرون جميع المعاصي على مرتبة واحدة، هي مرتبة الكفر الأكبر، مع اختلافهم في الصغائر، فبعض الخوارج يرى كفر فاعلي الصغائر، وبعضهم لا يكفره، وعلى ضوء هذا المذهب نشأت مجموعة من الفرق الخارجية تقترب منه أو تبتعد، فالإباضية مثلا لا يسمون فاعل الكبيرة كافرا بالله، بل يسمونه كافرا بالنعمة، مع التقائهم مع بقية الخوارج بالحكم على آخرة الرجل إن مات على كبيرة أنه خالد في جهنم وليس معرضا للمشيئة كما هو مذهب أهل السنة.

2 - وانبثق عن هذه العقيدة المغالية استحلال دم المخالف وتكفيره، فتكفيرهم صاحب المعاصي (الفاسق الملي) ترتب عليه استحلال دمه لكونه مرتدا عندهم، فالمخالف لهم كافر مباح الدم، ومن لا يدخل في إمرة إمامهم وجماعتهم هو كذلك، لأنهم بعدم دخولهم - أي الناس - في جماعتهم وفي طاعة أميرهم داخلون في إمرة فسطاط الكفر، وبقائه في فسطاط الكفر (إمرة غيرهم من المسلمين) يحكم عليه بالكفر، وبهذا الحكم يبيحون دمه وعرضه وماله.

3 - ومن عقائدهم وجوب الخروج على فسطاط الكفر (إمارة غيرهم من المسلمين)، فكثر منهم إراقة دماء المسلمين، وشن المعارك ضد الدولة المسلمة، وبقي أمرهم على هذا الشأن حتى طمس أمرهم نور العلم، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أمر الخلافة، أذن لهم بالدخول في أمصار المسلمين، ودخول المساجد، ومقابلة العلماء، ثم مناظرتهم، حتى تبين لهم الحق، فرجعوا عن

ترك مواطن العلم ومظانه، وبهذا خف أمرهم وبقيت لهم جيوب صغيرة وهي موجودة إلى اليوم في بعض المناطق، وبقيتهم على مذهب الإباضية.

وقد استخدم لفظ الخوارج بطريقة فجة من قبل السلطات السياسية في اتهام الخصوم، ووجد من يؤيدهم من بعض المشايخ، وسبب استخدام هذا اللفظ وجوده في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتنفيره صلى الله عليه وسلم من أصحابه - أي الخوارج -، ثم في هذه الأحاديث الحجة لدى هذه السلطات لقمع خصومها، حيث حث صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث على قتل هذا الصنف من المبتدعة، ومما ينبغي معرفته أن ذكر الخوارج في الحديث النبوي ليس لأن الخوارج أعظم الفرق البدعية شرا وضلالا، بل لأنهم أول الفرق ظهورا في المجتمع الإسلامي.

وبسبب ذلك ظن البعض أن أمر الخوارج أعظم من غيرهم فإننا نرى بعض التجمعات الإسلامية المعاصرة تعلن البراءة -كل البراءة - من الخوارج، أو من اقترب من فكرهم، ومع ذلك لا يتورعون أبدا من الانضواء تحت راية الشيعة الرافضة، وإذا حوججوا أجابوا بأن الشيعة الروافض مسلمون ومن أهل القبلة، ولكن على فرض قبول قولهم بأن الشيعة الروافض من أهل القبلة، فهل الخوارج - فيما تزعمون كثيرون - من غير أهل القبلة؟.

وهل شر الخوارج يصل إلى شر الشيعة الرافضة؟.

ثم يقال لهذه التجمعات المسلمة: كيف قبلتم التحالف مع الشيوعيين والقوميين والبعثيين (وهم كفرة مشركون بلا جدال) ثم أعلنتم البراءة - كل البراءة - من الخوارج - حسب زعمكم - ؟.

بل كيف دخلتم في موالاة من سب دين الله ونبزه بالرجعية، وذبح المسلمين وهتك أعراضهم، ونشر الرذيلة وباع الأمة، ووالى اليهود والنصارى وأعداء المسلمين، ثم صببتم جل غضبكم على الخوارج - حسب زعمكم وظنكم -؟.

كيف لعقولنا أن تقبل ما تفعله جماعة الإخوان المسلمين واضطرابها فيما قلنا؟.

ثم كيف يريدون منا أن نقبل ما يفعله سلفيو (آخر زمن) من موالاتهم لصدام البعثي الكافر ضد الشيعة الروافض، يرفعون صدام وحزبه إلى مقام صلاح الدين، وحربه إلى قادسية سعد بن أبي وقاص، ثم بسبب غزوه للكويت يعود صدام إلى حظيرة بعثيته وكفره.

ومن الكلمات التي استخدمت شعارا لضرب الخصوم، ولتنفير الناس منهم لفظ التكفير، وهو لفظ يلصق بالمرء فيقال: فلان من جماعة التكفير. وقد استخدم هذا اللفظ مق قبل أجهزة المخابرات بإطلاقه على جماعة شكري مصطفى الذي سمى جماعته: "جماعة المسلمين"، حيث كان يرى أنه هو وجماعته هم المسلمون فقط، وغيهم كافر أو متوقف فيه.

التكفير الذي ذمه السلف؟:

من المعلوم أن التكفير حكم شرعي، إذ يجب على المسلم أن يكفر من كفره الله تعالى، وهو مرتبة موجودة ولا شك، وإذا قلنا إن التكفير حكم شرعي، فإنه لا دور لدليل العقل فيه البتة، فلا يجوز للمسلم أن يكفر أحدا إلا بدليل سمعي، أو باجتهاد، أي بقياس على الدليل السمعي، كما قال ابن القيم في نونيته:

الكفر حق الله ثم رسوله بالنص لا بقول فلان

من كان رب العالمين وعبده قد كفراه فذاك ذو كفران

وقد ظن من لا خبرة له أن التكفير حكم في المطلق، ولا يجوز فيه التعيين، بمعنى: يجوز لك أن تقول: من فعل هذا الفعل أو قال هذا القول، أو اعتقد هذا الاعتقاد كافر، لكن إن وقع هذا الفعل أو القول أو الاعتقاد من هذا الشخص، أي من شخص معين، فلا يجوز لك أن تقول فلان كافر.

وهذا خطأ وشذوذ عن منهج السلف، فإن السلف كثيرا ما أطلقوا لفظ التكفير في حق أعيان على وجه الخصوص، وإليك بعض الأمثلة:

1 - قال البخاري: دخلت على الحميدي (شيخ له) وأنا ابن ثمانية عشرة سنة، وبينه وبين آخر اختلاف في حديث، فلما بصر بي الحميدي قال: قد جاء من يفصل بيننا، فعرضا علي،

فقضيت للحميدي على من يخالفه، ولو أن مخالفه أصر على خلافه، ثم مات على دعواه، لمات كافرا.[1] ا.هـ.

2- قال ابن تيمية: ولم يمدح "الحيرة" أحد من أهل العلم والإيمان، ولكن مدحها طائفة من الملاحدة، كصاحب "الفصوص" **ابن عربي** وأمثاله من الملاحدة الذين هم حيارى.. فخرج هؤلاء عن العقل والدين، دين المسلمين واليهود والنصارى. ا.هـ.[2]

3- قال **محمد بن عبد الوهاب** في رسالة له: نذكر لك أنك أنت وأباك مصرحون بالكفر والشرك والنفاق... وأنت وأبوك لا تفهمون شهادة أن لا إله إلا الله، أنا أشهد بهذا شهادة يسألني الله عنها يوم القيامة، إنك لا تعرفها إلى الآن ولا أبوك، ونكشف لك هذا كشفا بينا لعلك تتوب إلى الله، وتدخل في دين الإسلام إن هداك الله. ا.هـ.[3]

والأمثلة لا تكاد تحصر في تكفير الأئمة للمعينين.

ولكن مما ينبغي التنبيه إليه أن حكم التكفير هو كالحكم القضائي، فإنه لا يطلق إلا بعد تحقق شروط التكفير في المعين، وانتفاء الموانع الشرعية التي تمنع لحوق التكفير فيه.

والخطأ في التكفير يقع بأسباب منها:

1 - عدم ثبوت التهمة على المعين، فقد ينسب قول أو فعل أو اعتقاد مكفر لمعين، ولا يكون هذا المعين فاعلا لهذا المكفر.

2 - التكفير بالأفعال والأقوال المحتملة غير الصريحة، والتي تحتاج إلى معرفة قصد القائل والفاعل حتى يتبين المراد منها، ومنه التكفير باللوازم.

و أما التكفير المذموم، وهو الذي يقع من أقوام يستحقون الدخول في مسمى الخوارج، وهم بحق خوارج هذا العصر، وهم أهل ضلال وفتنة فهم:

1 - من يعتقد أن الأصل في الناس الكفر، وأن الأمة كلها عادت إلى الكفر والشرك، فهو يرى كفر عموم الناس من غير تفريق ولا توضيح.

---

[1] – سير أعلام النبلاء (401/12).

[2] – الفتاوى الكبرى (59/5) طبعة دار الكتب العلمية.

[3] – الدرر السنية – حكم المرتد (ص 61،62).

قال **ابن عبد الوهاب** رحمه الله تعالى: ما ذكر لكم عني أني أكفر العموم فهذا من بهتان الأعداء. اهـ.

وشرح أبناؤه هذه العبارة بقولهم: كلام الشيخ في قوله أنا لا نكفر بالعموم، فالفرق بين العموم والخصوص ظاهر، فالتكفير بالعموم أن يكفر كلهم عالمهم وجاهلهم، ومن قامت عليه الحجة ومن لم تقم، وأما التكفير بالخصوص فهو أن لا يكفر إلا من قامت عليه الحجة بالرسالة التي يكفر من خالفها، وقد يحكم بأن أهل هذه القرية كفار، حكمهم حكم الكفار، ولا يحكم بأن كل فرد منها كافر بعينه لأنه يحتمل أن يكون منهم من هو على الإسلام، معذور في ترك الهجرة، أو يظهر دينه ولا يعلمه المسلمون. اهـ.

فالذين يعتقدون كفر الأمة تعميما، ويرون أن الأصل في الناس الكفر في هذا العصر، هم أهل بدعة وضلال، وهم الذين يستحقون الدخول في مسمى خوارج هذا العصر، أما من يكفر رجلا لتحقق التهمة فيه، ثم لعلمه بقيام الحجة عليه، ولأمر صريح لا يحتمل تأويلا ولا غموضا، فهو من المكفرات الواضحة التي لا تحتاج إلى تبين القصد منها، فهذا هو دين الإسلام وغيره بدعة وضلال.

والتعميم شر كله، فإن الأمة ما وقعت في التخبط وعدم الفهم عن دين الله تعالى إلا بالشعارات العامة التي يحملها أهل الجهل على العموم دون فهم لمعانيها، أو دون تقييد لها، وهي كما قال ابن القيم:

فعليك بالتفصيل والتبيين فالإطلاق والإجمال دون بيان
قد أفسدا هذا الوجود وخبطا الأذهان والآراء كل زمان

2 - من يكفر بمطلق الذنوب والمعاصي كما هو مذهب الخوارج، فإنه كما تقدم سابقا أن الخوارج يرون جميع الذنوب على مرتبة واحدة، هي مرتبة الكفر الأكبر.

وهؤلاء كذلك مبتدعة ضلال، وردود أهل السنة عليهم تملأ الكتب.

3 - ومن الداخلين في مسمى خوارج هذا العصر " التكفير" وهم مبتدعة ضلال، هؤلاء القوم الذين يكفرون المخالف لهم، والذين لا يدخلون في طاعتهم وجماعتهم، فهؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم جماعة المسلمين، دون سواهم، والخارج عنهم وكذلك المخالف لهم كافر، هؤلاء

من شر أنواع أهل البدع، لأنهم حينئذ لا يتورعون عن قتل مخالفيهم، بل يرون قتل المخالف أكثر قربة وأجرا من قربة قتل الكافر الأصلي أو المرتد.

ولقد رأينا قسما من هؤلاء فوجدناهم من أرذل الناس خلقا، وأفسد الناس نية، وعامتهم يغلب عليهم التقية، إذ يقابلونك بوجه لا يعبر عن شيء من بواطنهم، وهم يصرحون ليل نهار، أن الجماعات الإسلامية وخاصة المجاهدة هي حجر العثرة التي تقف أمام فكرهم المبتدع، وضلالتهم الخبيثة.

وعلى المرء أن يتقى ربه في إطلاق الأوصاف المنفرة، ولا يطلقها جزافا دون تبين وتحقق. وليعلم المسلم أن أمر هذا الدين عظيم، وليس هو مما يمكن للمرء أن يتخذه وسيلة للانتصار على خصومه بالهوى والظن، فإن الخصومة ينبغي أن تكون انتصارا لدين الله تعالى، مع تذكر المرء ربه في كل ما يقول ويذر.

وإن العبد الذي علم منهج أهل السنة على ما هو عليه، ودرسه حق دراسته، وقام له في نفسه حق القيام، ثم علم مأخذ أهل البدع وضلالاتهم، ليأنف من أن تنسب له هذه الألقاب البدعية الخبيثة كالخوارج والتكفير، وإنا نعوذ بالله أن نكفر الناس بالعموم أو بالظن والهوى، كما نعوذ بالله تعالى أن نرضى مذهب الخوارج البدعي، ولسنا ممن يقتنص زلات أهل العلم ليشهرها بين الناس، ولكن حيث صارت العمائم طريقا لستر كفر الطاغوت على الناس، فلا يسع من هو أدنى مما نحن عليه أن يسكت، فكيف يسع من علم شيئا من الحق أن يسكت عنه أو يستره؟ وهل فاعل ذلك إلا شيطان أخرس؟!!.

ثم إن ما نعتقده نقوله، ولا نزمزمه ولا نزخرفه، وحيث كفرنا بكل طواغيت الأرض، ولم نخف ذهاب وظيفة أو راتب، ثم لم نخف سحب جنسية أو جواز سفر، فلن نرهب أحدا إلا خالقنا ومولانا، وهو الذي بيده مقاديرنا ونواصينا.

شرعية جماعات الجهاد وآلية التغيير:

إن شرعية جماعات الجهاد في العالم قامت على عمد، كل واحدة منها تكفي لوجوب الاجتماع لإحياء الجهاد والعمل به دون تردد أو مواربة، وتجعل الخارج عن هذه الجماعات

المجاهدة واقع لا شك في إثم ووزر لتقصيره في العمل على إدراك هذه العمد، والإعانة على إحيائها وتنميتها.

إن عقيدة الجهاد في دين الله تعالى قد واجهت من قبل الكفر وأزلامه الهجوم إثر الهجوم، وقد علم أن الكفر بكل صوره لا يمكن زلزلة أركانه وإزالته من مكانه إلا بالقتال، وأنه لا يمكن لدولة من الدول أن ترسخ أركانها وتثبت وجودها إلا بعد دماء وأشلاء، فلا يوجد دولة على ظهر الأرض اليوم وغدا وبالأمس، ذات استقلال ومنعة إلا بعد حروب وحروب، وقتال يأخذ من فلذات أكبادها، ودم شبابها ما تشيب له العثانين، وعلى الناظر أن لا يغتر بما يسمى بالديمقراطية في العالم الغربي، إذ حين يرى بعضهم سهولة ويسر تناوب الأحزاب على السلطة، وتخلي الحكام عن كراسيهم يظن أنه بإمكان المسلمين أن يصلوا إلى الحكم عن هذا الطريق، وهذا خطأ جسيم، إذ أن هذه الأنظمة لم تستقر على الحال إلا بعد حروب طاحنة بين حملة هذه الفكرة (الديمقراطية) وبين خصومهم، وما من دولة تشكلت (وهي مستقلة) إلا بعد حروب مع خصومها.

فأمريكا زعيمة العالم الديمقراطي الحر، الجامعة تحت رايتها ولايات عدة، لم توجد على هذا الشكل من العقيدة السياسية والوجود الجغرافي الممتد إلا بعد حروب أهلية طاحنة بين الشمال والجنوب، حروب أكلت الأخضر واليابس، حتى تم غلبة أحد الفريقين على الآخر، فتواضع المنتصرون على هذا الشكل من النظام السياسي، وهذه الصورة من الحياة.

وكذلك أوروبا وما اشتملت عليه من دول وحكومات، فإن هذه الحكومات لم تتشكل على هذا النسق إلا بعد حروب داخل القارة وخارجها، قدم فيها كل فريق الغالي والنفيس، حتى خلصت إلى أحد الفريقين، فتواضع المنتصرون على هذا الشكل من الأنظمة وهذه الصورة من الحياة.

ولو سألنا أنفسنا: لماذا يحق للغرب أن ينشر عقيدته عن طريق القوة والسلاح كما تصنع أمريكا وأوربا ولا يحق لخصومه ذلك؟.

هؤلاء الذين يريدون نشر الأفكار، ثم يريدون لهذه الأفكار أن تكون في سدة الحكم والسلطان ثم لا يسيرون في ركاب حملة السلاح والمقاتلين، هؤلاء أشبه بالفلاسفة السفسطائيين حيث تضيع صرخاتهم هباء.

مناهج التغيير في فكر الانحطاط:

إذا كان أهل الإسلام قد اتفقوا على إزالة طاغوت مرتد، فما هي الطريقة التي يمكن لهم فيها أن يزيلوا هذا الطاغوت عن كرسيه؟.

الذين يطرحون منهج تربية الناس على الإسلام حتى يكثر عدد الإسلاميين، فيتم التغلغل والسريان من غير تعليمهم فن القتال والحرب، بل جل همهم أن يكونوا حملة أسفار أو أذكياء سياسة، أو صوام نهار وقوام ليل، وحفظة قرآن وحديث (وهؤلاء مراتبهم تمتد بين طرفي النقيض من صوفي إلى سلفي وبينهما إخواني)، فهل يعجز الطاغوت أن يوجد في ركابه مائة رجل، بيدهم السلاح والقوة، فيميلون على زوامل العلوم فيبقرونها، وعلى أذكياء فن الممكن فيفسدون فنونهم، وعلى العباد فيقطعون مسابحهم يخربون مساجدهم ؟. إنه لا يوجد عاقل على وجه الأرض تحرر من أوهام، الخرافة وجبرية المبتدعة، وغنوصية الصوفية، يطرح طريقا لإزالتهم غير طريقة الجهاد.

لكننا ما زلنا نشم رذائل فكر الانحطاط الذي ولج إلى أمتنا بعد خير القرون تحت أسماء براقة، فإن لمشايخنا رأيا آخر في التغير نسوق بعضه:

1 - الشيخ السلفي أبو بكر الجزائري وطريقته الجنائزية:

للشيخ طريقة جديدة تستحق أن تدخل تحت باب الاكتشافات الحديثة. يقول عن طريقته البديعة: إن أفضل طريقة لإصلاح حكامنا، هو أن نجمع أعدادا غفيرة من المطالبين بضرورة الإصلاح، ثم نشد رحالنا متوجهين إلى قصر ولي الأمر. فنحط رحالنا وننيخ ركائبنا أمام بيته - عفوا قصره - ثم نبدأ بالنشيج والبكاء، فإذا خرج علينا ولي الأمر بطلعته البهية، ووجهه الوضاء المشرق، وسألنا عن سبب بكائنا قلنا له: والله لن نبارح عتبة قصرك حتى تزيل المنكرات وتحكم بشريعة القرآن...، لا شك أن ولي الأمر قلبه رؤوف رحيم، بل هو رجل لا

يرضى لشعبه الوفي أن يبكي (قال الشيخ باللفظ: هو قلب الحاكم حجر؟) النتيجة أن الحاكم العادل سيرضخ لمطالبنا ويستجيب لبكائنا وحينها سيحكم بالقرآن.

2 - أما نظرية البعض الآخر من مشايخنا ومفكرينا فهي طريقة توصف باسم "صندوق العجائب" وصندوق العجائب هذا اكتشفه الناس مؤخرا، تقول نظرية الصندوق:

يحكى أن حاكما يختلف عن جميع رؤساء العصابات، فهو رجل يحترم نفسه لكن العلة فيمن حوله، فقد زورت عليه حاشيته أن جميع الشعب يريده ويحبه، ولا يرضى بديلا عنه، ومن دلائل صدقه أنه في كل فترة زمنية يعلن للناس أنه على استعداد ليتخلى عن الكرسي إذا أراد شعبه ذلك، وحتى يعرف رأي الناس صنع صندوقا ليضع الناس فيه آراءهم.

تقول الحكاية إن الرواة اختلفوا في النتيجة، فبعضهم يجزم أن الصندوق كان عجيبا، إذ أنه يستطيع أن يقلب جميع الحروف على الورق إلى كلمة واحدة فقط "نعم للرئيس".

وبعض الرواة لم نستطع سماع روايته لأنه كان في السجن.

3 - أما النظرية الثالثة فتقول إن واقعنا خير واقع فليس في الإمكان أبدع مما كان.

الحكم بغير ما أنزل الله:

الصورة والمفهوم في مجتمعات معاصرة

قال رب العزة: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} المائدة.

ما رأيت من آية في هذا العصر اختلف الناس حولها، كما اختلفوا في هذه الآية الكريمة، وكل فرقة من الفرق المعاصرة تبني على هذه الآية المفاهيم التي تريد، والتأويلات التي تحب، فقائل يقول: إن الحكم بغير ما أنزل الله كفر عملي، والكفر العملي عنده ليس له إلا معنى واحد وهو الكفر الأصغر، وبالتالي فمن ترك حكم الله تعالى فهو عاص من العصاة، ولا يخرجه هذا الفعل إلا باعتقاد الرد لحكم الله تعالى، وزعم صاحب هذا القول أن إخراج من ترك حكم الله تعالى من الإسلام هو مذهب الخوارج الذين يكفرون بمطلق المعاصي والذنوب.

وقائل يقول: إن هذه الآية ليست نازلة في المسلمين بل هي لليهود أو لغيرهم، فحملها على أهل الملة المحمدية حمل على غير محملها، وآخر وآخر.، إلى غير هذه التأويلات المتضاربة

والمختلفة، وحتى تنجلي صورة هذه الآية في أذهان المسلمين فإنني أقدم لها بمقدمات، عسى أن تقرب المراد وتيسره، فأقول وبالله التوفيق:

1 - الآية تتكلم عن حكم من ترك الكتاب والسنة، ولا تتكلم عن حكم من حكم بغير الكتاب والسنة، والتفريق بينهما جد مهم، فلو أن القاضي عرضت له مسألة ليقضي فيها، فترك الحكم فيها مع علمه بحكم الله تعالى في النازلة، فهو المعني بهذه الآية، ولكن هذا القاضي لو حكم فيها بغير ما أنزل الله تعالى لكان جامعا لأمرين أولاهما: ترك الحكم بما أنزل الله، وثانيهما: الحكم بغير ما أنزل الله تعالى. وهما مناطان مختلفان، إذ أن الثاني متضمن للأول، بخلاف الأول فهو ليس متضمنا للثاني.

2 - دلت السنة النبوية على وجود الكفر الأصغر، و لم يرد الكفر الأصغر في الكتاب العزيز، بل قال الإمام الشاطبي: إن أحكام القرآن كلها غائية، وأما السنة ففيها الغائي والوسطي، فعلى هذا: لا يوجد في القرآن لفظ الكفر الذي يحمل على الكفر الأصغر، نعم: ورد الكفر في القرآن على عدة معان، ذكر بعض أهل العلم أنها خمسة[1]. ولكن لا يوجد فيها ما يدل على أن في القرآن لفظ الكفر المحمول على الكفر الأصغر.

3 - التفريق بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر الوارد في السنة النبوية له عدة طرق، من أهمها ما ذكره ابن تيمية في كتاب "الإيمان الكبير": أنه لو ورد الكفر معرفا فإنه لا يحمل إلا على الكفر الأكبر، وأما إذا جاء الكفر منكرا، فحينئذ يرجع إلى بقية الطرق لمعرفة المراد منه، هل هو كفر أكبر أم أصغر ؟.ا.هـ.

الحكم بغير ما أنزل الله، فيه صور داخلة فيه دخولا كليا، وصور داخلة فيه دخولا جزئيا، فمن الصور التي تدخل فيه دخولا كليا بإجماع الأمة هي:

أ - **التشريع**: قال الشاطبي في الاعتصام (2/ 61): كل بدعة - وإن قلت - تشريع زائد أو ناقص، أو تغيير للأصل الصحيح، وكل ذلك يكون ملحقا بما هو مشروع، فيكون قادحا في المشروع، ولو فعل أحد مثل هذا في نفيس الشريعة عامدا لكفر، إذ الزيادة والنقصان فيها أو التغيير. قل أو كثر كفر، فلا فرق بين ما قل منه أو كثر. ا.هـ. فالشاطبي يقرر أن مطلق

[1] – انظرها في "نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر" لابن الجوزي (2/119 – 120).

التشريع كفر، ولا فرق بين القليل والكثير، لأن معنى التشريع هو رد لأمر الله تعالى وحكمه، وهذا كفر بإجماع الملة. قال ابن تيمية: "والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان مرتدا بالاتفاق".[1] ا.هـ. ويقول الشنقيطي: "وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض، فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض"[2]. ا.هـ.

ب - رد حكم الله تعالى إباء أو امتناعا من غير جحود ولا تكذيب: قال الجصاص: "إن من رد شيئا من أوامر الله تعالى، أو أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة القبول والامتناع عن التسليم".[3] ا.هـ.

ج - من التزم غير حكم الله تعالى: قال ابن تيمية: "ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر، وقال: فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن".[4] ا.هـ. وقال محمد بن إبراهيم آل الشيخ في رسالة تحكيم القوانين في أقسام الكفر الأكبر الداخل في هذه الآية: وهو أعظمها، أو أشملها، وأظهرها: معاندة الشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية، إعدادا وإمدادا، و إرصادا، وتأصيلا، وتفريعا، وتشكيلا وتنويعا، وحكما وإلزاما ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات، مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة، وغير ذلك، فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم الكتاب والسنة، من أحكام ذلك القانون، وتلزم به، وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم، فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة لشهادة أن محمدا رسول الله بعد هذه المناقضة. ا.هـ.

---

[1] - مجموع الفتاوى (267/3).
[2] - أضواء البيان (84/4).
[3] - أحكام القرآن (214/2).
[4] - منهاج السنة (131/5).

أما الحالات التي تدخل في الآية دخولا جزئيا فمنها:

أ - اقتراف المعاصي والذنوب غير المكفرة، من غير رد لحكم الله تعالى، أو استحلال للمعصية، فهذا داخل في مسمى الحكم بغر ما أنزل الله تعالى، ولكن دخوله في حكمها كدخوله في مسماها، ونعني أن دخوله في الآية من باب احتجاج الأعلى على الأدنى، إذ أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحتجون بالآيات النازلة في الكفار على المسلمين لا تكفيرا لهم - والعياذ بالله - ولكن من باب دخول هذا الفعل المحذور في هذه الآية دخولا جزئيا، كما قال القرطبي: لا يستبعد أن ينتزع مما أنزل الله في المشركين أحكام تليق بالمسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه في احتجاجه على كثرة النعم بين أيدي الصحابة في عصره بآية {**أذهبتم طيباتكم في الحياة الدنيا**} فهذه الآية نص في الكفار، ومع ذلك فهم عمر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة ولم ينكر عليه أحد من الصحابة. وكذلك قال الشاطبي في "الموافقات" فانظره وكذا في "الاعتصام" وهذه المعاصي تسمى كفرا أصغر أو تسمى بريد الكفر وهي التي إذا كثرت ربما تنتج الغائي عند الموت وهو كفر المآل[1].

2 - جور الحاكم وطغيانه وظلمه، وهو كظلم الحكام المسلمين لرعيتهم بأخذ أموالهم المعصومة على جهة السياسة من غير حجة شرعية، أو كظلمهم بجلد ظهورهم وتحميلهم ما لا يقدرون عليه، فإن هذا الصنف كسابقه، هو كفر أصغر، ومعصية من المعاصي، ويجوز الاحتجاج بالآية المتقدمة على هذه الأفعال لا تكفيرا لأصحابها، ولكن من باب دخول أصحابها دخولا جزئيا في مسمى هذه الآية، أي أنه كفر أصغر ومعصية من المعاصي المذمومة.

فهذه الآية كما ترى على ظاهرها، فمن دخل فيها دخولا كليا كان كافرا بالله تعالى، ومن دخل فيها دخولا جزئيا فيصيبه بمقدار ما اقترف.

والناس في هذه الآية طرفان ووسط:

أ - الطرف المغالي: وهم الخوارج. وهم الذين يرون أن المعاصي والذنوب على مرتبة واحدة، فكل من عصى الله تعالى فهو داخل في هذه الآية دخولا كليا فهو كافر ومشرك، وبذلك كفروا أصحاب الجمل وصفين، ومعسكر علي ومعسكر معاوية رضي الله عنهما، فهؤلاء

---

[1] – انظر الإيمان الأوسط لابن تيمية، فإنه مهم.

كفروا القسم الثاني (الداخلين فيها دخولا جزئيا لا كليا)،وهذا القسم الثاني هو الذي قال في حقه ابن عباس رضي الله عنهما: كفر دون كفر، وليس من قبيل حمل الآية على معنى واحد وهو الكفر الأصغر إذ أن ظاهر الآية كما تقدم لا يمكن حمله إلا على الكفر الأكبر.

ب - طرف التفريط: وهم المرجئة. وهؤلاء لا يرون الحكم بغير ما أنزل الله على جميع وجوهه وحالاته إلا كفرا أصغرا، ولا يكفرون القسم الأول إلا بشروطهم الباطلة، كشرط الاستحلال والجحود والتكذيب، ويحتجون بجهل فاضح بقول حبر الأمة - ابن عباس رضي الله عنهما -: كفر دون كفر.

وهؤلاء كغيرهم من أصحاب القول الأول أهل بدعة وضلال.

قول وسط: وهو قول أهل السنة والجماعة، وهو أن الآية على ظاهرها، وبمقدار دخول الرجل في مسماها داخل في حكمها.

موجبات وجود حركات الجهاد في العالم (1):

جماعات الجهاد قامت على عمد كل عمود فيها كاف في جعل هذه الحركات واجبة الوجود والحدوث، وليعلم المسلمون أن الانضمام لهذه الجماعات ليس نافلة من القول، وليس هو موسمي الوقوع، بل هو واجب على كل مسلم، أي واجب أن يعمل المسلم في عمل جهادي، إما أن يدعو إلى الجهاد أو يعد له، أو يعمل به، ولا ينفك هذا الوجوب إلا بدليل شرعي خاص، أي كون الرجل من أصحاب الأعذار، الذي عذرهم الشرع الكريم، أي فكرة في الوجود لا يمكن أن تعمل نفسها في الحياة إلا من خلال جماعة، إذ أن الجماعة هي اللبنة الأولى لأي عمل أو مهمة.

فما هي موجبات حركات الجهاد في العالم الإسلامي؟.

نقصد بحركات الجهاد تلك الجماعات المجاهدة داخل دار الإسلام السليبة، وليس خارجها، وهي الجماعات المجاهدة العاملة لإعادة رأس المال، وليس هذا إنكارا لغيرها، ولكن حديثنا عن جهاد الدفع، وهو جهاد واجب على كل مسلم. أما موجبات حركات الجهاد في ديار الردة فهي:

1 - إعادة العقد الجامع لشتات المسلمين، أي دولة الخلافة الضائعة: فلما سقطت الخلافة انفرط عقد الأمة، فلم تعد تستحق اسم الأمة، نعم هناك مسلمون في أرض الشتات، وهناك عباد وقوام، وزوامل علم وحجاج، وذاكرون وذاكرات، ولكن كل هؤلاء لا يدخلون أبدا في مسمى الأمة، فلا يوجد هناك أمة إسلامية، لأن أول مقومات الأمة لا توجد بين هذه الحبات المتناثرة بلا ضابط، ولا حبل جامع، ونعني بها وجود الدولة، فليس للمسلمين دولة ولا شوكة ممكنة، ولا منعة حافظة، وقد بذل الكفر جهودا متتالية في دفع دولة الخلافة وإسقاطها، كر المرة تلو المرة، حتى كان له ما أراد، ولكن والحق يقال: إن العوامل الداخلية في دار الإسلام، عوامل الهزيمة والانحطاط، هي السبب الرئيسي لإسقاط هذه الدولة، فليس ما عمله الكفار بمعادل ما عملته الأمة بنفسها، فلو نظرنا نظرة فاحصة إلى صورة المجتمع الإسلامي في دار الإسلام قبل إزالتها، لوجدنا أن هذه الدار كانت تفيض بعوامل الانحطاط والتخلف، ومن أهم هذه العوامل: فساد التصور العقدي، إذ انتشرت في الأمة جرثومة الصوفية، التي ما دخلت في أمة من الأمم إلا جعلتها أثرا بعد عين، الصوفية التي شغلت الناس في الوصول إلى حالة العرفان والجذبة، فأرهقت المرء المسلم في سعيه لهذه الخيالات الجنونية، وعطلت المسلم عن البحث والنظر، لأن الصوفي يظن أنه بمجرد وصوله لهذه المرتبة سيدرك حقائق الأشياء، وسر الكون، فلا ضرورة إذن للسعي والجد في اكتشاف سنن الكون والحياة، لأن الصوفية تؤمن أنه بمجرد كون الرجل وليا عارفا فإنه سيملك ناصية هذا الكون، فيتحكم في سننه من أمراض وظواهر كونية من ماء ونار ومطر ورعد، وسيكون مالكا لإكسير الحياة وسر الأشياء، وسيسيطر على حجر الكيمياء، هذا الحجر الذي يستطيع مالكه أن يغير الأشياء وحقائقها، فبه ينقلب الحديد ذهبا، وبه تنقلب المياه جواهر ودررا، فأفسدت النظر إلى الكون والحياة. انتشرت الصوفية في الأمة وتغلغلت فيها إلى الصميم، ولا يقولن قائل: إن الصوفية لم تكن شائعة، أو أنها كانت محصورة في بعض جوانب الحياة، فهذا خطأ شنيع، لأن الصوفية كانوا قادة الحياة، وسادة المجتمعات الإسلامية، بل إن الصوفية وإلى الآن هي التي تسيطر على عقول قادتنا ومشايخنا، فهذا سعيد حوى يريد أن يعيد إحياء الأمة عن طريق التربية الصوفية، فيؤلف للناس كتابا في هذه التربية الروحية، ويدعو الشباب إلى الدخول في

مدارس إحياء الربانية، ويقصد بها السلوك على يد مشايخ الصوفية، بل إن أكثر القادة تحررا من القديم بكل ما فيه من خير وشر، لم نسمع منه كلمة واحدة، ولا رأينا له مشروعا في تحطيم هذا المرض الخبيث، فهذا حسن الترابي يعيش في مجتمع تغلغلت فيه الصوفية إلى الصميم، ومع ذلك لم نسمع منه كلمة واحدة نحوها، بل ولا اهتم من قريب أو بعيد بجوانب الشرك التي تنتشر في مجتمعه.

إن البعد الداخلي في الإنسان المسلم، وفي الجماعة المسلمة، ما لم يتحرر من هذه المخلفات النتنة فلن نخطو الخطوة الصحيحة إلى أهدافنا، وهذا يجعلنا نكرر المرة تلو المرة أن جماعات الجهاد ليست تلك الجماعات التي تحمل السلاح فقط، بل هي جماعات التجديد لما اندرس من معالم هذا الدين، وهي جماعات التجديد أي إعادة صورة الإسلام إلى الحالة التي كان عليها وهو جديد في أول أمره.

إن طرح الجهاد كمشروع وحيد لإحياء الأمة هو الواجب، لأن الجهاد هو الإطار الذي يحرر المسلم من أهواء نفسه ومن مخلفات مجتمعه، ومن انحرافات مذاهب البدع، لأن الجهاد هو الحامل لروح التمرد على كل ما هو فاسد في داخلنا، فالمجاهد اليوم لن يكون كذلك إلا بعد أن يتحرر من سلطة الكهنوت القابعة على صدر الأمة باسم العلم والعلماء، هذه السلطة التي تضرب بسيف الدين كل من حاول أن يستخدم عقله الذي طال الزمن عليه بالتغير والإقصاء، هذا الكهنوت الذي لم يخرم غرزا مما عند النصارى برهبانهم واليهود بأحبارهم، إن هذا الصنف من البشر وأقصد بهم طبقة الكهنوت هم من أرذل خلق الله، وهو الجدار الأول الذي يمنع المسلم من استعمال حقه في استخدام عقله الذي كرمه الله به، وهو الجدار الأول الذي يمنع المسلم من تحرير إرادته في أن يتقدم الخطوة الأولى نحو أهداف الإسلام الصحيحة، نعم لو قدر لرجل مسلم يحترم عقله أن يرى شيخ الأزهر وهو يتكلم في إحدى محطات التلفزيون لأيقن أنه لا نهضة لأمتنا، ولا خروج من مأزقها حتى ترفع شعار: اقتلوا آخر حاكم مرتد بأمعاء آخر قسيس خبيث.

كان دور العالم دوما اكتشاف الخطأ مبكرا قبل غيره، لأنه الأقدر بما أوتي من موهبة ربانية، وعطاء إلهي في أن يتقدم الصفوف في كل شيء صحيح، وكان دوره دوما الرائد الذي

لا يكذب أهله في تضحيته بنفسه، ليكون وقودا لشعلة الصلاح في مجتمعاتنا، أما أن يكون دور العالم إسباغ الشرعية على الفساد، وإطلاق عبارات الشرع المدحية على الشر والضلال، فهذا تزوير وانحراف، وجريمة لا تعدلها جريمة، وهي أعظم جرما من الاتجار بالمخدرات، لأنه يسوق الرذائل تحت أسماء جميلة حسنة، وهذه الجريمة هي أول جريمة بدأها إبليس في التاريخ الإنساني حين سمى شجرة المعصية شجرة الخلد وملك لا يبلى.

إن أمراض الأمة المشتتة بحاجة إلى جهود مضنية، وإلى قادة مخلصين، ليتم إحياء الأمة على منهج صحيح صائب، لأننا اليوم نعيش على مرقب عال، نرقب مستقبلا يتناوشنا فيه العدو من جانب، هذا المستقبل الذي حاول فيه العدو أن يرسم معالمه ليكون حسب سياسته ومراده، وهو يملك أدوات التطبيق، فهو الذي يملك المال والقوة، فعنده الآلة العسكرية الرهيبة، وعنده العديد من الاحتمالات التي يمكن أن يستعملها متى يريد، وفوق ذلك في أمتنا التربة الصالحة لهذه الاحتمالات الكفرية الخبيثة، أما عدتنا نحن، فليس هناك من شيء سوى الحق إن جردناه عن شوائب الأفكار المنحرفة، وعلمناه على حقيقته كما هو من غير بدع الإرجاء والجبر، ومن غير هوى الآراء والأفكار، وعلينا أن نملك عقيدة الجهاد، وروح الجهاد، ونفس الجهاد، هذه العقيدة التي تهون أمامها الصعاب، وتتصاغر في وجهها الجبال، هذه الروح التي تنطوي على حب الموت والرغبة فيما عند الله، والترفع عن الدنايا والصغائر، والزهد في الدنيا، هذا النفس إن ملكناه أو تملكناه كنا أعاصير لا تبقي للكفر أثرا، ولا للظلام وجودا.

الجهاد والدولة الإسلامية المقبلة:

الشوكة والتمكين

الدولة المنشودة التي ستقوم عن طريق الجهاد، هي الدولة الوحيدة التي تملك الشرعية، وهي الدولة التي ستعبر بحق عن حقيقة هذا الدين، وذلك للأسباب التالية:

كثير من أهل العقل حينما يفكرون بالدولة الإسلامية المقبلة، فإنهم يصورونها، أو يتصورونها على شكل الدولة المعاصرة العلمانية، بكل ما فيها من هياكل ومؤسسات، وإنما يجعلونها إسلامية ببث بعض الألوان الباهتة على هذه الهياكل ليتم صبغها بصبغة إسلامية،

وعلى ضوء هذا التفكير فإنهم يجابهون بمجموعة من الأسئلة الحرجة عن صورة الدولة الإسلامية، هذه الأسئلة التي تدفعهم لتقديم التنازلات الفقهية، وذلك بالبحث عن الآراء الشاذة للفقهاء لتلائم صورة الدولة المعاصرة، وهذه المسائل تبدأ من عقيدة الدولة إلى أصغر شيء فيها:

يسألونهم عن الديمقراطية والتعددية الحزبية: ومهما يحاول مشايخنا فإنهم ولا شك أمام خيارين: أولاهما: الخروج من الإسلام، وذلك بالفتوى أن الدولة الإسلامية تجيز التعددية الحزبية، لأن التعددية الحزبية تعني جواز الأحزاب الكافرة والمرتدة، هذه الأحزاب التي سيسمح لها أن تمارس نشاطات الدعوة إلى الكفر والشرك، وهي التي سيسمح لها كذلك بالبلوغ إلى الحكم، وحيث أجاز الشيخ هذا الفعل فإنه جدير بلفظ: كافر ومرتد.

والغريب من هؤلاء المشايخ أنهم بلغوا إلى حالة من الانهيار الخلقي والفكري في توهم أدلة التعددية الحزبية إلى درجة لا يمكن أن تخطر على بال مسلم: فهذا شيخ يستدل على وجود الأحزاب الكافرة في الدولة الإسلامية بوجود المنافقين زمن دولة الرسول صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء المنافقون (وهم كفار على الحقيقة) كانوا يمثلون حزبا سياسيا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفهم، فلم يمنعهم من ممارسة حقهم الحزبي.

وشيخ آخر يقول: بوجود الخوارج زمن علي بن أبي طالب، وأن عليا رضي الله عنه لم يمنعهم من ممارسة حقهم الفكري، وإنما قاتلهم لحملهم السلاح ضد المجتمع المسلم، فالخوارج بصورتهم الحقيقية هم كصورة الحزب السياسي المعاصر.

وشيخ آخر يستدل بوجود المعتزلة والروافض... الخ في داخل المجتمع الإسلامي، وهؤلاء أحزاب معارضة سياسية.

وأنا والله يأخذني العجب من هذه الآراء والدلائل، لا لضعفها ولكن لقلة حياء أصحابها، ولا أدري عن هؤلاء المشايخ أينظرون إلى المرآة كل يوم أم لا؟ لأني أجزم أن الذي فوق أكتافهم ليس شيئا يسمى العقل، بل هو شيء آخر يوجد عند بعض خلق الله تعالى.

إن من حق الناس أن يسألوا جماعات الإسلام الديمقراطي (وهي ثنائية تعادل الإسلام المسيحي، والإسلام اليهودي، والإسلام البوذي). أقول إن من حق الناس أن يسألوا هذه

الجماعات عن التعددية السياسية في دولتهم بعد استلامهم الحكم، ذلك لأنهم وصلوا الحكم عن هذا الطريق، وبعد توقيعهم واعترافهم على هذا المبدأ، فهل يجوز لمن وصل بهذا الطريق أن يلغيه أو يتجاوزه؟. وأما الخيار الثاني: فهو استخدام المعاريض.

سيسألون عن المرأة وحريتها الشخصية، وعن الأقليات الدينية، وعن الموسيقى، وعن علاقة حسن الجوار مع الدول الأخرى، وعن بقائهم تحت حكم الأمم المتحدة، وأسئلة أخرى لا تنتهي، وهم في الحقيقة على حق في هذه الأسئلة، لأنهم يعرفون ما معنى دولة الإسلام، فهي حاضرة في أذهانهم كدولة بديلة لكل ما هو موجود في هذا العصر، حاضرة في أذهانهم أنها دولة القوة، ودولة الفضيلة، ودولة الدعوة والجهاد، ومن حقهم أن يروا هذه الدولة متناقضة مع كل ما يعيشونه من رذائل ومفاسد، لكن مشايخنا لهم رأي آخر، فقد استطاعوا بكل ذكاء أن يلبسوا الكفر إسلاما، والرذائل فضائلا.

إذا قامت دولة الإسلام عن طريق الجهاد فهي قد اكتسبت شرعيتها من القوة التي يملكها أهلها، قوة وشوكة ومنعة وصلت إلى حد التمكين، ومن حق القوي أن يفرض ما يريد، فهو الذي يكتب التاريخ، وهو الذي يرسم معالم الحياة.

نعم إن القوة هي التي تكتب التاريخ والحياة، وأنا أعلم أن البعض ممن خدعتهم مظاهر الحياة سيقول غير هذا، ولكن هذا التاريخ أمامكم بماضيه وحاضره، اقرؤوه، وعوه، فهل تجدون أمة من الأمم، ودولة من الدول قامت من غير قوة، ثم حافظت على نفسها من غير قوة؟ لقد أنزل الله الحديد فيه بأس شديد، والأفكار لا تحمى إلا بالبأس والحديد. فإذا قامت دولة الإسلام عن طريق الجهاد، ولن تقوم بالجهاد حتى تحرق كل الرذائل في طريقها، فالجهاد هو النار التي ستقضي على كل بذور الشر في مجتمعنا، فإذا قامت الدولة بالحرب والقتال، فليس من حق أحد أن يطالب في رسم معالم دولتنا ومجتمعنا، وحينئذ سيحكم الإسلام الذي نعرفه، لا الإسلام الهجين الدخيل.

خلال مرحلة الجهاد: ستطهر الأرض من غربان الشر، وأبوام الرذيلة، ستلاحق هذه المسوخ التي تسمى كذبا وزورا بالمفكرين، وسيصفى الرتل تلو الرتل: العلمانيون، والشيوعيون، والبعثيون، والقوميون، وتجار الأفكار الوافدة، نعم نحن نعرف أننا لن نصل حتى نعبد الطريق

بجماجم هؤلاء النوكى، وليقل العالم أننا برابرة، فنحن كذلك لأن البربر في عرف هذا العصر هم الذين يدافعون عن حقوقهم، ويطالبون بحقهم في الحياة (وللذكر فإنه لا يجوز للمسلم أن ينبز أخاه بالبربري، لأن البربر قبائل مسلمة، وهذا من التنابز بالألقاب، ومن أخلاق الجاهلية). وسيقولون عنا: أنتم أعداء الحضارة. نعم نحن أعداء حضارة الشيطان، وقتلة رموزها ورجالها. وسيقولون عنا: إرهابيون، نعم نحن كذلك، لأن الشر لا يخنس إلا بالسيف والنار. أما هؤلاء المشايخ الذين يتحللون من كل فضيلة مخافة الاتهام بالعنف والإرهاب والدكتاتورية، فلن يرضى عنهم اليهود ولا النصارى، حتى يخلعوا اسم الإسلام كذلك.

هاهم يتسابقون في اكتشاف الأقوال الشاذة الفاسدة، ليقدموها إلى العالم أنها تمثل الإسلام الأصيل، فما الذي جنوه؟ ملئوا الدنيا جعجعة إن الإسلام هو الديمقراطية، فهل سمح لهم بتكوين حزب سياسي؟، بكوا على أعتاب بابه السنين والأيام فما جنوا غير الخزي والعار. إن أشد الدول ديمقراطية لن تستطيع أن تكون بديمقراطيتها كما يريد راشد الغنوشي في دولته الديمقراطية، فما الذي جناه هو وحركته من طاغوت تونس؟ راشد الغنوشي يتحدى أن يوجد في برنامجه السياسي بند تطبيق الشريعة الإسلامية، وليس همه حين يستلم الحكم أن يطبق الشريعة، بل همه نشر الحرية، وتوفير فرص العمل، فهل بعد ذلك كله رضي له الكفر أن يمارس حقه في أن يعيش؟!!.

خلال مرحلة الجهاد: ستقطف رؤوس الصحفيين المفسدين في الأرض، فنحن لسنا بحاجة إلى سحرة فرعون، وليسمنا الناس أعداء الفكر والرأي، فنحن رأينا من حرية قوانينهم ما تشيب منه العثانين.

نعم: لن أحدثكم بهذه الفضائل التي جنيناها في زمن الديمقراطية والحرية والنظام العالمي الجديد، لكن يكفي أن نقنع أنفسنا أننا في هذا الزمن المتقدم والمتحضر: قد أكلنا السمن والعسل، ونمنا في أوطاننا بأمن واطمئنان، وكنا سواسية كأسنان المشط، فمن قال لكم أيها المغفلون إن فلسطين قد ضاعت، فاليهود أبناء عمومتنا، ومن حق ابن العم أن يأكل من قصعة ابن عمه!

الطريق إلى الدولة كونا وشرعا:

الديمقراطية والشرعية

إن الدولة الوحيدة التي تملك الشرعية وتمثل صورة الإسلام الصحيح، وتنطوي على جوهره هي الدولة التي تقوم عن طريق الجهاد (القتال).

فلو سأل سائل: لو أنه قدر لبعض التجارب الديمقراطية أن توصل الإسلام إلى سدة الحكم، فهل يعني هذا أن الحكم لا يسمى إسلاميا؟.

وقبل الجواب على هذا التساؤل فإنه ينبغي أن يعلم أن دولة الإسلام الضائعة لن تقوم بهذا الطريق الشركي، وعلى الإسلاميين الديمقراطيين أن يكبحوا جماح أحلامهم في تحصيل الخير أو بعضه عن طريق البرلمان والديمقراطية، مع أن أصحاب هذا المنهج تختلف تصوراتهم في توصيف أسباب دخولهم البرلمان: فلو أخذنا الديمقراطيين الإسلاميين من الإخوان المسلمين في الأردن وسألناهم عن سبب ولوجهم هذا الطريق لرأينا العجب العجاب: فهذا الدكتور همام سعيد يعلن: أننا لن نسعى إلى أن نكون الأغلبية في البرلمان الأردني. ا.هـ. وهذا شيء يضحك منه الديمقراطيون في العالم أجمع، لأن كل كتلة برلمانية في العالم تسعى إلى تكوين الأغلبية للوصول إلى الحكم، أما تعليل الدكتور همام سعيد - وهو من "الإخوان المسلمين" - لعدم السعي لتحصيل الأغلبية في البرلمان فيقول: حتى لا نصبح مشرعين، إذ أن التشريع كفر، وإنما نحن معارضة، نوصل كلمة الإسلام للبرلمان ولأصحاب الشأن. ا.هـ. والصحيح أن السبب الحقيقي هو: أن الأغلبية في البرلمان الأردني (مجلس النواب) لا قيمة لها، ولا أهمية لها في الثقل السياسي الأردني، لأن القانون الأردني لا يوجب على الدولة أن تقبل بالتنازل عن السلطة لشيء يسمى الأغلبية البرلمانية، فلو فرضنا أن عدد الإخوان المسلمين بلغ في البرلمان الأردني 80/80 أي أنه يسيطر على جميع مقاعده، فلا يلزم أن للإخوان المسلمين الحق في تشكيل الحكومة الوزارية، بل هم سيبقون في عداد المعارضة، وتصور الدكتور همام ليس هو تصور جميع الديمقراطيين هناك، فإن مراتب النظر إلى البرلمان ودور حركة الإخوان المسلمين في البرلمان تتفاوت إلى درجة

رهيبة تصل إلى أن بعضهم ينظر إليه من حيث أنه من خلال البرلمان يستطيع أن يقضي حوائج عشيرته لما يمثله البرلمان من ثقل وجاهي عشائري.

وفي لقاء بين إخواني أردني وإخواني يمني رأى الناس فارقا عجيبا بين نظرة كل واحد إلى البرلمان ودور الحركة الإسلامية فيه، فالبرلماني الأردني يرى كفر النظام، وأن البرلمان هو طريق للتغير الشمولي، وأنه سيساعد أو سيقوم بذاته في عملية التغيير الانقلابي للدولة. الإخواني البرلماني اليمني انتفض لهذه النظرة، فهو يرى أن أعضاء الإخوان المسلمين في البرلمان اليمني هم جزء من تشكيلة الدولة الشرعية في اليمن، فكيف سينقلب الرجل على نفسه، فالإخوان جزء من الدولة فكيف سيغيرون أنفسهم، إذا فالبرلمان جزء من الدولة لترشيدها ولأداء دور داخل الكيان لا خارجه ولا لقلبه.

جبهة الإنقاذ الجزائرية كان لها رؤية أخرى للدخول في المسار الديمقراطي الشركي (ونحن نصر ونؤكد أن هذا المسار شركي كفري لأن البرلمان هو مالك السيادة التشريعية في النظم العلمانية وهو عندنا في دين الله تعالى لله رب العالمين، ومن لم يفقه هذا لم يفقه شيئا من الواقع أو الوحي)، وهي رؤية كانت بمجملها في لفظين "المطالبة وإلا المغالبة" أو حسب قول مسئول فيهم بقوله: إذا قالوا انتخاب انتخبنا وإلا قاتلنا.

ومجمل قولهم أنهم سيدخلون في اللعبة الديمقراطية لثقتهم أن الشعب سينتخبهم فيبلغوا إلى درجة تخولهم أن يغيروا الدستور، ومع أن الجبهة هي كاسمها: خليط غير متجانس، كل حسب رؤيته ومفهومه، وفيها من عوامل الانهيار الذاتي مما يجعلها غير قادرة على الخروج برؤية واضحة للأحداث والعقبات، ويدل على ذلك أمران: أولاهما: أزمة الخليج، وثانيهما: ضرب الدولة وتشتت الجبهة إلى ما هي عليه الآن، ولا أدري لم يجعل بعض الناس ممن يكفر بالديمقراطية جبهة الإنقاذ حالة خاصة تخرج عن زمرة الديمقراطيين الإسلاميين، فهم يتكلمون عن الإخوان وديمقراطيتهم بكثير من الحماس الناقد، فإذا اقتربوا من جبهة الإنقاذ كاعوا ورجفوا، وكأنها ليست على النسق والتساوي مع الآخرين من الديمقراطيين، ولعل الخطاب الثوري الذي كان يردده علي بن حاج هو الذي جعل هؤلاء يخرجون الجبهة عن هذه الزمرة، وهذا خطأ

كبير لأن العلة التي تلحق الجماعة بهذه الزمرة متحققة في الجبهة كما هي متعلقة بغيرها من النهضة والإخوان والجماعة الإسلامية الباكستانية وغيرها من الجماعات السالكة طريق الديمقراطية.

هذا التغاير في الهدف، والتغاير في التوصيف للعمل الديمقراطي يجعل هؤلاء القوم من أبعد الناس عن تحصيل الهدف، وذلك لعدم تصورهم له أو معرفتهم بحقيقة الأسلوب لا من الوجهة الشرعية ولا من الوجهة الواقعية.

لكن لو افترضنا جدلا أن فرقة من الفرق وصلت إلى سدة الحكم عن طريق الديمقراطية وحكمت الشريعة فهل يكون الحكم إسلاميا بهذه الطريقة؟ الجواب بكل وضوح: لا، فكل قانون وإن كان يلتقي مع الشريعة الإسلامية في حده ووصفه وفرض عن طريق البرلمان وخيار الشعب لن يكون إسلاميا، بل هو قانون طاغوتي كفري.

لماذا هذا؟.

أي حكم حتى يكون شرعيا إسلاميا لا بد من النظر إلى أركانه وأهم أركانه هو النظر إلى الحاكم ومن هو؟ فإن كان الحاكم (المشرع) هو الله كان الحكم إسلاميا، وإن كان الحاكم (المشرع) غير الله كان الحكم طاغوتيا كافرا. ومن هنا فإن الأخلاق الصحيحة التي يدعو إليها الدين النصراني لا تعتبر إسلامية، لأن الجهة الحاكمة (المشرعة) لهذا الحكم ليست الجهة الحاكمة للحكم الشرعي. فالحكم الشرعي يكتسب قوته لأنه صادر ممن له الحق في إصدار هذا الأمر وهو رب العالمين، وحتى يكون شرعيا لا بد أن يكون تكييفه شرعيا وإلا فلا. والحكم الصادر عن البرلمان يكتسب قوته من مالك السيادة في النظام الديمقراطي، فقد يكون الشعب فقط وقد يكون الشعب والملك معه أو الأمير وهكذا، فلو صدر قانون منع الخمر من البرلمان فهو قانون تكييفه الشرعي قانون كفري طاغوتي، وإذا قال الحاكم نحن حرمنا الخمر لأن الله أمرنا بهذا لكان قانونا مسلما. وللتمثيل نقول: ما الفرق بين النكاح والسفاح من وجهة شرعية مع أنهما يعبران عن حقيقة واحدة؟ النكاح جائز لأنه بكلمة الله - كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((واستحللتم فروجهن بكلمة الله)) وكلمة الله هنا معناها حكمه وليس العقد كما يقول البعض -، والسفاح تم بكلمة أخرى غير كلمة الله تعالى، فكان حراما وإثما.

فالقانون الصادر عن البرلمان مصدر بكلمة: باسم الشعب، أو قرر مندوبو البرلمان، فهو قانون طاغوتي اكتسب قوته من إله باطل.

أما القانون الإسلامي فهو المصدر بكلمة باسم الله. فالذين يبحثون عن تحكيم الشريعة الإسلامية عن طريق البرلمان عليهم أن يراجعوا أركان الحكم الشرعي، وكيف يكون إسلاميا، وكيف يكون الحكم طاغوتيا كافرا؟.

قلنا إن الحكم الصادر عن مجلس الشعب أو البرلمان لا يسمى إسلاميا وإن كان يلتقي مع الحكم الشرعي في صورته وظاهره، وعلى هذا فلو أن مجلس الشعب قرر تحريم الخمر على الشعب فإن هذا القرار لا يعد إسلاميا وإن التقى مع الشريعة الإسلامية في صورة النهي وتحريم الخمر، وسبب ذلك أن الحكم الشرعي لا يكون شرعيا إسلاميا إلا إذا كان تكييفه شرعيا إسلاميا.

حقيقة الحكم الشرعي:

إن أركان الحكم الشرعي داخلة في تعريفه حيث قال الفقهاء الأصوليون: إن الحكم الشرعي هو: خطاب الله تعالى للمكلفين بالوضع أو الاختيار أو الطلب، فأركانه أربعة وهي: الحاكم والمحكوم عليه والمحكوم فيه ونفس الحكم[1].ا.هـ. فإذا اختل ركن من هذه الأركان لا يسمى شرعيا، والحاكم هنا هو الله تعالى، قال الغزالي: أما استحقاق نفوذ الحكم فليس إلا لمن له الخلق والأمر، فإنما النافذ حكم المالك على مملوكه، ولا مالك إلا الخالق[2].ا.هـ. قال الآمدي شارحا هذا الأمر: الحكم الشرعي ليس هو نفس الوصف المحكوم عليه بالسببية، بل حكم الشرع عليه بالسببية[3]. ا.هـ. وقال الغزالي: فالحكم الشرعي خطاب الشرع وليس وصفا للحكم ولا حسن ولا قبيح ولا مدخل للعقل فيه ولا حكم قبل ورود الشرع[4].ا.هـ. وقول الغزالي خطأ من وجه وهو كون الحكم الشرعي لا يدرك حسنه وقبحه إلا بالشرع، بل الصحيح يدرك حسنه وقبحه بالعقل. وأما قوله: "ولا حكم قبل ورود الشرع" فهو صواب خلافا للمعتزلة .

---

[1] – المستصفى (83/1).
[2] – (نفس المرجع السابق).
[3] – الإحكام (182/1).
[4] – المستصفى (8/1).

إذا الحكم الشرعي ليس فقط نفس الحكم أي صورة الحكم، بل هو خطاب الشارع بهذا الحكم، فمن فعل فعلا لوجه من الوجوه. غير وجه امتثال الشريعة الإسلامية، فإن فعله لا يدخل في مسمى الحكم الشرعي، فباذل المال للفقراء والمساكين لا يمكن إدخاله في قوله تعالى: {**ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا**}. لأن الله سبحانه وتعالى عقب بعدها قائلا: {**إنما نطعمكم لوجه الله**} أي أنهم امتثلوا هذا الأمر لأنه صادر من الله تعالى، وهم يفعلونه امتثالا لأمره، ورغبة فيما عنده، فهؤلاء هم منفذون للحكم الشرعي، فالحكم الشرعي هو خطاب الله تعالى، وما لم يكن المحكوم منفذا الحكم لأنه أمر الله تعالى فليس من الناجين من عقوبة ترك الأمر أو اقتراف النهي. والشارع في دين الله هو السيد الحقيقي، أي من له حق السيادة على البشر، فهو الخالق لهم وهو الحاكم عليهم، ولذلك من أسماء الله تعالى السيد - كما جاء في الحديث الصحيح - وهو يسمى كذلك حق التأليه، فالإله هو السيد، ولا يكون السيد مطلقا حتى يكون إلها حقيقيا، ولذلك من مبررات اعتقادنا أن سيدنا وإلهنا هو الله، اعتقادنا أننا ملك له، ولولا هذا الملك الحقيقي ما قبلنا سيادته، ومن مقتضيات هذه الملكية التي بررت السيادة إصدار الأوامر التكليفية التي ترتب عليها إثابة الطائع ومعاقبة المخالف.

حقيقة البرلمان:

المنظومة الديمقراطية على اختلاف صورها تقوم على إسناد حق السيادة لغير الله، وهذه المنظومة منبعثة من العقيدة العلمانية التي ترى أن الناس أحرار في إصدار التشريعات التي يرونها تناسب عقولهم ومعطيات حياتهم، وقد أفرزت العلمانية في الدول المرتدة في بلادنا قانونا أوجب سلوك هذا الطريق، فالشق السياسي من العقيدة العلمانية يفرض اعتقاد وسلوك المنهج الديمقراطي الذي يرى إسناد حق السيادة للشعب، ومعنى السيادة في المفهوم الديمقراطي هو نفس معنى السيادة في الدين الإسلامي، حيث يقول دهاقنة القانون الوضعي إن السيادة: سلطة عليا مطلقة (لا سلطة فوقها) لها الحق في تقييم الأشياء والأفعال، وتقييم الأشياء بتحسينها وتقبيحها وتقييم الأفعال بتحليلها وتحريمها.

والمنظومة العلمانية هي التي أعطت البرلمان حق إصدار التشريعات، فأركان الحكم الديمقراطي هي نفس أركان الحكم الشرعي أي الحاكم والمحكوم عليه والمحكوم فيه ونفس الحكم. والحاكم هو السلطة التي فوضها الشعب (كونه الحاكم الأصلي) في إصدار القوانين، فحين يصدر قانون من البرلمان أو مجلس النواب أو مجلس الشعب فإنه يكسب قوته بكونه صادرا من السيد الحاكم، فهو حاكم شعبي برلماني ديمقراطي علماني، أي هو في دين الله تعالى حكم شركي طاغوتي.

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا هو أن الأحكام الصادرة من البرلمان قد اكتسبت قوتها من طرفين في البرلمان وليس من طرف واحد، هذان الطرفان هما الأغلبية والمعارضة، فالمعارضة وإن عارضت القانون قبل صدوره إلا أنها ملزمة به بعد إقراره بالأغلبية، وهي قد أكسبت القانون قوة بكونها جزء في البرلمان المشرع، فعلاقة الأعضاء في البرلمان (أغلبية ومعارضة) علاقة تضامنية، فلولا وجود المعارضة لما اكتسب القانون قوته في المفهوم الديمقراطي، فالإسلاميون وإن زعموا المعارضة في البرلمان فهم جزء من المشرع، والقانون يصدر باسمهم كما يصدر باسم الأغلبية المؤيدة، وهم شركاء في إصدار القرار وإكسابه القوة الدستورية ليكون شرعيا دستوريا قانونيا، صادرا من الشعب صاحب السيادة، فلو صدر قانون إباحة الخمر للناس فالإسلاميون - المعارضة - وغيرهم هم أصدروا هذا القانون كما أصدره الأغلبية الموافقة لأن علاقة القانون بهم واحدة بعد صدور القانون وإن اختلفت مواقفهما قبل إقرار القانون.

ولو صدر قانون حرمة الخمر للناس فلا يجوز أن يقال إن الحكومة قد قررت تطبيق الحكم الشرعي، لفقده التكييف الشرعي كما قدمنا.

العلمانيون يفهمون هذه المعادلة، فهل حقا يجهلها المسلمون الديمقراطيون؟.

إبعاد الحكم الشرعي في الحكم والقضاء مر في مراحل متعددة، ولا نستطيع هنا أن نحيط بها إحاطة تامة ولكن الملاحظ بوضوح القضية التالية:

كان الأوائل من دعاة العلمانية - فصل الدين الإسلامي عن الحكم والقضاء - يؤطرون لنظريتهم من خلال المصادر الشرعية، فعلي عبد الرازق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" اعتمد في رؤيته هذا الفصل على مجموعة رؤى ذاتية أسقطها على الكتاب والسنة والحقبة النبوية والفترة الراشدة، فقد ادعى أن الإسلام لا يوجد فيه سلطة زمانية تمثل بالخلافة والملك

والسلطان، واستدل على هذا بالكتاب والسنة نفسها، فعلى عبد الرازق ومجموعة أخرى تلته في هذا المضمار كانت تقنن لهذه الرؤية الكفرية من النصوص الشرعية، وفعلوا ذلك لعلمهم أن أي إحلال لغير حكم الله تعالى في هذه المسألة في ذلك الوقت لن يكون مقبولا بحال من الأحوال، وعلى جميع المستويات، ولما صار أمر هذا الفصل حقيقة واقعة، وأينعت ثماره في المجتمعات المتحولة بدأ العلمانيون طرح قضيتهم على صيغتها الصحيحة، هذه الصورة لا تبحث في إشكالية فهم الإسلام بنصوصه لهذه القضية (علاقة الدين بالدولة) ولكن صار الإشكال الآن مطروحا على صورة واضحة وهي: لمن الحكم؟. أي من له الحق في إصدار التشريعات والقوانين، الله أم الإنسان؟ وفي آخر إصدار لكبار العلمانيين في المجتمعات المتحولة تم طرح هذه القضية كمحور مفصلي بين الإسلام والعلمانية. الإسلام مصدره الوضع الالهي، والعلمانية مصدرها الوضع البشري. هذان الكتابان هما "العلمانية من مفهوم مختلف" للدكتور عزيز العظمة، والكتاب من إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية. والكتاب الثاني هو "الأسس الفلسفية للعلمانية" للدكتور عادل ضاهر من إصدارات دار الساقي. لندن.. والكتابان يمثلان عمدة الفكر العلماني وفلسفته، وبنيا أركان المفارقة بين الإسلام والعلمانية على هذه القضية:

يقول **عادل ضاهر**: فإذا تبين مثلا، أن المعارف المطلوبة لتنظيم المجتمع لا يمكن حتى من حيث المبدأ اشتقاقها من المعرفة الدينية، إذن على افتراض أن هناك نصوصا قرآنية تؤيد هذا القول بوجود علاقة بين الدين والدولة في الإسلام فإنه سيكون لزاما علينا في هذه الحالة أن نؤول هذه النصوص على نحو يجعل هذه العلاقة، في أفضل حال، علاقة تاريخية لا أكثر وإلا نقع في التناقض.1 ا.هـ.

ويقول **عزيز العظمة**: ليس هناك مجال وسط بين العلمانية والعداء للعلمانية تقطن فيه الديمقراطية أو العقلانية، فهما لا ينفصلان عن أسس العلمانية التي أكدها في معرض ذم أمر نقاد العلمانية: الدعوة إلى التحرر من القيود الدينية على المعرفة، وافتراض الكون مستقلا

□ - (ص 12).

تفسيره، قواه وأنماط انتظامه الخاصة والحركة غير المنقطعة للطبيعة والمجتمع، ومقالة التطور المستمر الذي ينتفي معه ثبات القيم الأخلاقية والروحية1.ا.هـ.

المجالس الشعبية والانتخابات:

الحكم الشرعي على الرغم من تفاوت نيات الوالجين في العملية الانتخابية التشريعية، وعدم وضوح تصوراتهم لها، واختلافاتهم في تحديد المراد منها، فإن هذه النيات لا قيمة لها في تحديد الحكم الشرعي لهذه العملية الشركية.

إذا توضح التوصيف الشرعي لواقع مجلس الشعب (البرلمان)، والتوصيف الشرعي مبني على أصلين هما: معرفة حقيقة البرلمان كما يريده أهله، وثانيهما: معرفة حكم الله تعالى في أمثاله، ثم عرفنا أن البرلمان مجلس شركي طاغوتي، لأن فيه إسناد حق التأليه لغير الله تعالى، فهو المشرع في الديانة العلمانية، فهل يجوز للمسلم أن يدخله بنية أخرى تخالف حقيقته؟ وبمعنى أوضح: لو قال رجل مسلم: أنا أعرف حقيقة البرلمان والديمقراطية، وأنهما كفر وشرك، ولكن لا أتعامل مع البرلمان من وجهة نظر أهله له ولكن أتعامل معه من وجهة نظري أنا، فأنا لا أوافق على العلاقة التضامنية فيه؟ وأنا فقط أريد أن أبلغ كلمة الحق فيه وعلى منبره، وأريد أن أقلل الشر في التشريع الوضعي، وأريد.. وأريد..؟ فهل لهذه الأقوال اعتبار؟ وبمعنى أكثر وضوحا: هل فتوى بن باز في جواز الدخول في البرلمان إذا كانت نية الداخل في الإصلاح وتبليغ الشريعة صحيحة أم باطلة؟.

نقول: إن هذه النيات لا قيمة لها، ولا أهمية لها في تغيير التوصيف الشرعي لهذه العملية ولا للقائم بها وعليها.

وللتفصيل نقول:

1 - متى تعتبر المقاصد في الأفعال المكفرة؟. الأفعال المكفرة تنقسم إلى قسمين من جهة دلالتها على التكفير:

القسم الأول: صريح في دلالته.

□ - (ص 310).

القسم الثاني: احتمالي في دلالته.

أما القسم الأول فلا ينظر فيه إلى المقاصد والنيات، ومثاله من سب الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم فهذا فعل كفر وردة، بغض النظر عن قصده، لأن هذا الفعل لا يحتمل إلا معنى واحدا وهو الخروج من الإسلام، فلو قال رجل أنا أسب الله ومع ذلك فأنا أعترف بألوهيته وربوبيته، فلا قيمة لقوله هذا، لأن ذات السب ناقض للتأليه في كل وجه، ومما ذكره أهل العلم كذلك للتفريق بين تبيين القصد أو عدم تبيينه سب الصحابة رضي الله عنهم، فإن من سب أحدا من الصحابة فإنه لا يكفر (إلا من اتهم عائشة رضي الله عنها بالفاحشة فإنه يكفر لتكذيبه القرآن)، لأن من سب أحدا من الصحابة له وجه وهو عدم التكفير، كما كان بعض الصحابة يسب بعضهم بعضا لأمر اجتهادي أو لأمر دنيوي، أما من سب جميع الصحابة فإنه لا وجه لسبه إلا أنه مبغض للإسلام وأهله ولا وجه له آخر يحتمله، وكذا قاتل النبي فلا يقال له: هل قتلته وأنت مكذب بنبوته أم مصدق لها ولكنك لا تريد متابعته؟. أم هل قتلته نفيا لنبوته أم لقضايا شخصية بينك وبينه؟ وسبب عدم النظر إلى المقصد أن الفعل لا يحتمل إلا معنى واحدا وهو الكفر والدلالة على الكفر (ولا نقصد هنا بقولنا الدلالة على الكفر أي على الكفر القلبي بمعنى نفي التصديق كما تقول المرجئة). فإذا كان الفعل لا يشير إلا إلى اتجاه واحد فلا قيمة للمقاصد، أما إذا كان الفعل محتملا فلا بد من سؤال الفاعل عن قصده، ومثاله: لو أن رجلا سب دين رجل مسلم فهل نكفره بمجرد سب الدين؟ أم إننا لا بد أن نسأله عن مراده في كلمته هنا؟ فإن قصد دين الإسلام فهو كافر، وإن قصد دينه (أي سلوكه والعمل الذي ينتهجه) فلا يكفر لهذا المعنى، ومن الأمثلة القوية على هذا الأمر حكم الجاسوس؟ فقد اختلف العلماء في حكم الجاسوس المسلم فبعض أهل العلم يرى أن هذا الفعل مكفر وفاعله مرتد، وحكمه حكم المرتد، وبعضهم يرى أن هذا الفعل ليس من أفعال الردة المكفرة، فحكمه دائر بين قتله حدا وبين تعزيره، والأقوال الثلاثة في مذهب أحمد؟ والصحيح أن الجاسوس المسلم دائر بين هذه الأحكام، فقد يكون فعله دالا على الردة وقد يكون معصية من المعاصي لا تخرج صاحبها من الإسلام، وهنا للتمييز بين الجاسوسين لابد من تبين القصد، والقصد وإن كان أمرا قلبيا إلا أنه يمكن معرفته بالقرائن، كقول الفقهاء في التمييز بين القتل

العمد وشبه العمد، إن الفارق بينهما هو القصد، فإذا قصد الرجل القتل فهو عمد، وإن لم يقصد فهو شبه العمد: وطريقة معرفة القصد هي الآلة المستخدمة في القتل، فإن كانت الآلة مما يقتل بها عادة فهو قاصد، وإن كانت الآلة لا يقتل بها عادة، فهو غير قاصد، فقد عرف القصد بالآلة أي بالقرينة، وكذلك الجاسوسية فلا بد من القرينة لنعرف فاعلها هل هو مرتد أم لا، إن فهمت هذه حل إشكال مسألة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ورسالته إلى قريش، فقرائن الحال من سابقته في الإسلام وكونه من أهل بدر ثم صيغة الرسالة تدلان على أن الفعل بقرائنه لا يفيد حكم الردة.

2 - هل لا بد من شرط نية الكفر ليكفر الرجل؟.

من المعلوم شرعا أن عدم القصد هو مانع من موانع التكفير بعد ثبوت تهمة الفعل على الفاعل، فما المقصود بقولهم: عدم القصد مانع من موانع التكفير؟.

إن المقصود من قولهم هذا: عدم قصد الفعل، وليس قصد الكفر، فمن فعل فعلا مكفرا وهو قاصد له فهو كافر سواء قصد الكفر أو لم يقصد، وأدلة اعتبار عدم القصد مانع من موانع التكفير كثيرة منها: حديث فرح الله تعالى بتوبة العبد، وقول الرجل: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، قال صلى الله عليه وسلم: ((أخطأ من شدة الفرح)). فهذا الرجل قال قولا لم يرده، وأخطأ فيه، ومع أن قوله كفر إلا أنه لا يعود على قائله حكم القول لأنه لم يقصد هذا القول وإنما أراد غيره، فذهل ذهنه عنه فأتى بضده وللتفريق بين قصد الفعل وقصد الكفر نضرب هذا المثال: لو أن رجلا داس على المصحف وهو لا يدري؟ لكونه لا يراه كأن يكون في الظلمة، فهذا رجل لم يقصد الفعل فلا يقال له كافر لدوسه على المصحف، لكن لو أن رجلا داس المصحف عالما بفعله، وأنه يدوس على المصحف (كلام الله) فإنه يكفر سواء أراد بفعله هذا أن يعبر عن خروجه عن الإسلام أم لا، فربما يدوسه غضبا من أحد لقراءته له، وربما يدوسه ذهولا عن اعتقاده فيه، وربما يدوسه مع تصديقه أنه كلام الله، تلهيا وتلعبا، فهذا الرجل وإن لم يقصد الكفر، فإنه يكفر ولا شك. ومما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في "الصارم المسلول" أن القليل من البشر ممن ينوي الكفر، بل أغلبهم حين كفره لا ينوي الخروج من الإسلام، ولكن هذا القصد لا يمنع خروجهم من الإسلام.

وعلى هذا فالنيات لا تنفع في رفع الحكم الشرعي وتغيير وصفه.

حكم المشاركة في الانتخابات التشريعية:

لكن هاهنا مسألة وهي: هل يعني الكلام المتقدم أن كل من شارك في العملية الانتخابية التشريعية كافر ولا عذر له؟.

الذي أعتقده أن الجواب يأتي بالنفي، وسبب ذلك:

1 - أن واقع العملية الانتخابية التشريعية كما هي في دستور أصحابها لم تتضح لكثير من علية القوم من علماء ومشايخ وقادة، فهي لا زالت في عالم المجهول، فعذر الجهل واقع لا شك، وعلى الإخوة الذين تبين لهم حقيقتها تمام التبين أن لا يعاملوا الناس على هذا الأساس، فما "يزال الأمر يحتاج عند الآخرين لكشف وتبيين، وخاصة أن أمرها هو من الحداثة الجديدة التي لم يتكلم عليها السلف حتى تكون واضحة للأمة، والجهل بالواقع مانع من موانع لحوق الحكم، فلو أن رجلا قال كلمة يظنها مدحا وهي في حقيقتها قدحا، فإنه لا يؤاخذ بها لجهله بحقيقتها كالعجمي في لغة العرب، والعربي في لغة العجم.

2 - إن الفتاوى الكثيرة لمشايخ ينظر إليهم الناس كأمناء على منهج السلف بجواز الدخول في العملية البرلمانية تجعل هذه المسألة من المشتبهات على الناس، فقد قامت جريدة خاصة بحزب الإصلاح اليمني بتجميع أقوال المشايخ الذين أجازوا هذا الطريق الشركي خلال حمى الانتخابات البرلمانية اليمنية مما أوحى للقارئ أن المسألة لا خلاف حولها، فهذا ناصر الدين الألباني (وقد قيل إنه غير رأيه) وهذا ابن باز وابن عثيمين وعبد الرحمن عبد الخالق، ويوسف القرضاوي ومحمد الغزالي.. وغيرهم ممن لا تحصيهم هذه الورقات كلهم أجازوا لمن أراد الإصلاح أن يرشح نفسه للبرلمان، وأوجبوا على الناس (وجوبا) أن ينتخبوا الأصلح، مما يجعل هذه المسألة من المشتبهات، وقد تبين من كلام السلف وخاصة من كلام ابن تيمية أن مثل هذه المسائل التي تدق أو تخفى يعذر بها المرء.

ولكن لا تمنع هذه الأعذار لحوق حكم الكفر بالبعض لإبائه واستكباره بعد علم الأمر ووضوحه.

ثم هناك مسألة وهي: هل الحكم القضائي يعامل الناس باعتقاداتهم أم باعتقاد القاضي والحاكم؟.

أهل السنة والجماعة لا يعاملون المخالفين بعقائدهم الباطلة، ولا بالتزاماتهم البدعية، فالخارجي وإن كان يكفر مخالفيه بالذنوب غير المكفرة، فإنه لا يجوز للسني أن يحكم على الخارجي بالكفر إذا اقترف كبيرة من الكبائر، بحجة أن هذا الرجل قد كفر حسب مقتضى عقيدته، فهذا خطأ، فإن السني يعامل الناس باعتقاده هو لا باعتقادات الناس الباطلة البدعية.

والقاضي يحكم على المذنب باعتقاده هو لا باعتقاد المذنب: فلو أن رجلا ترك الصلاة بحجة أن تارك الصلاة في بعض مذاهب العلماء لا يكفر، ثم رفع هذا الرجل إلى القاضي وكان القاضي يرى كفر تارك الصلاة، فإن القاضي يحكم بكفره، ولا ينظر إلى اعتقاد المرء في ترك الصلاة، ثم لو كان هذا الرجل حنفيا مثلا وهو لا يعتقد أن تارك الصلاة حكمه القتل، فإن القاضي يحكم بقتله ردة، ولا عبرة باعتقاد المذنب، فنحن لا نعامل الناس بمذاهبهم الباطلة، ولا بموازينهم الردية، بل عند أهل السنة من الحق ما يكفيهم ويغنيهم عن أخذ باطل الآخرين وأقوالهم الضعيفة.

الدولة الإسلامية بين الحلم والحقيقة:

يتهمنا خصومنا أننا أصحاب أوهام وأحلام، وأننا حين نتحدث عن دولة الإسلام القادمة، وأنها دولة هجرة وعزة أننا نتحدث عن أضغاث أحلام، لكننا بفضل الله تعالى الأقدر على فهم سنة الله تعالى في الحياة، والذين أتعبتهم رقابهم وهي تنظر إلى حضارة الكفر بانبهار وانهزام هم الذين لا يفهمون سنة الله تعالى في الحضارات وسقوطها، وإذا أردنا أن نستشرف المستقبل الذي نرتقبه لهذه التركيبة لحضارة الشيطان، ومن خلال معطيات أولية، وحتى نحضر أنفسنا لهذا المستقبل، فإن هذه المعطيات الحقيقية تقول لنا التالي:

1 - قوة أي دولة تكمن في مركزيتها، والعالم بلا شك الآن يمثل قرية صغيرة، عاصمتها حضارة الشيطان في الغرب، وعلى الخصوص في هذا الوقت أمريكا، واستناد كافة الولايات في

العالم قائم على المركز، منه يستمد قوته، ومنه يكتسب هيبته، مع التنبيه على أن بعض أطراف هذه الدولة العالمية ضعيفة الصلة بهذا المركز، ومن خلال هذا الضعف تكتسب حركات الجهاد مواقعها وتحافظ على نفسها من الانتهاء والتلاشي، وهذه البور الضعيفة تمد هذه الولايات المهمة عصارة الحق ببقاء صوت الإسلام والتوحيد والجهاد مدويا وحاضرا في نفوس مادة الجهاد وهم الشعوب، هذا المركز العالمي عوامل الفناء الحضاري قائمة فيه وبقوة، وحديث القرآن عن سبب الفناء الحضاري هو بسبب ما بالأنفس من فساد عقدي، وانهيار خلقي، ومظالم اجتماعية، وهي نفس صرخات العقلاء في هذه الحضارة ك"توينبي" حين يصرخ في بني قومه أن مجتمعاتهم إلى زوال، ولا بد من التنبيه إلى نقطة مهمة بها تفترق هذه الحضارة في هذا الزمان عن بقية الحضارات وهي تسارع الدورة الاجتماعية من المبتدأ إلى السقوط - وهو داخل في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسارع الزمن - فما كان يحتاج من الوجهة الاجتماعية إلى سنة صار يحتاج إلى أقل منها بكثير، وهذا بسبب اكتشاف السنن الكونية التي أعانت حركة الإنسان، وجعلت تحقيق إرادات قلبه ممكنة الحصول وبسرعة فائقة، ثم لعل هذا قريب الشبه بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم على علامات الساعة وأنها في آخر الزمان تتسارع كحبات العقد منفلتة من عقالها وحبلها، وهذا يفيدنا أن السقوط سيكون مفاجئا حتى لأكثر الناس إساءة ظن بهذه الحضارة، {فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) ولعل انفجار أوكلاهوما كشف لنا شيئا عن التيارات الخفية المتنامية داخل هذه المجتمعات، والتي ستكون البدائل الحقيقية لهذه المركزية الصارمة، لأن الروابط بين المركز وغيره تتزايد ضعفا وهشاشة، وقبل انفجار أوكلاهوما ما حصل في لوس أنجلوس من ثورة فجرها الرجل الأسود ضد الظلم والقهر المفروض عليه في مجتمعه وأهل بلده، أما في أوروبا فالكلام عليها يطول من كشف هذه التيارات الخفية، ويكفي أن نعلم أن تيارات التعصب الديني والعرقي قد أوجدت لها مقاعد داخل السلطات التشريعية في البرلمان وغيره، بل إن بعضها قد صار أمل وصوله إلى الحكم وشيك الوقوع.

2 - عند سقوط هذه الدول من مركز وولايات ما هو البديل؟ وبعيدا عن الأوهام والأحلام نقول لن تسقط ولاية كاملة بيد بديل واحد سواء كان إسلاميا أو كفريا، فالبديل

هو التوحش، وسبب هذا الجزم أنه لا يوجد تجمع واحد قادر أن يحتوي هذه الثمرة الناضجة إلى جرينه، والذين يتصورون أن الإسلام هو البديل الوحيد لهذه الحضارة الشيطانية، واهمون، وسبب وهمهم أنه لا يوجد مقدمة موضوعية لهذا الأمل، وليس هذا حديثا عن الإسلام وقدرته، ولكنه حديث عن المسلمين وعجزهم، وحتى تكون الصورة أقرب إلى الأذهان فبين يدي الباحث عدة أمثلة تبين لنا عجز الحركات الإسلامية عن تلقي الثمرة وهي ساقطة سقوطا حرا علاوة على عجزهم من قطفها بأنفسهم، هذه الأمثلة: هي أفغانستان، والولايات الإسلامية الخارجة من الحكم الروسي.

أما أفغانستان: قد شاركت الحركات الإسلامية في سقوطها، وقد سقطت، لكن هل كان المسلمون وعلى الخصوص أهل السنة والجماعة عندهم من المقدمات ما يؤهلهم لوراثة هذه الثمرة.. النظرة تكفي الجواب.

أما الولايات الإسلامية الخارجة من الحكم الروسي: فقد سقطت مركزية الحضارة الشيوعية وتناثرت حباتها، فهل يوجد حبة واحدة من هذه الثمار وقعت بيد المسلمين؟ سوى طاجكستان، مع أن الفرحة لم تتم.

وفي هذا الوقت لو سقطت أي حلقة من حلقات الردة في العالم، هل يوجد عند الحركات الإسلامية القدرة على تلقي التساقط ليكون وارثا له؟، وهل تملك هذه الحركات المقدمات الموضوعية لهذه الوراثة؟.

لو تصورنا هذه اللحظة أن المملكة السعودية ضعفت مركزيتها الآن وانتهى حكم آل سود، فكيف هو التصور الموضوعي لهذا الإرث؟ الجواب: بكل وضوح لن يكون من الوارثين أحد يسمى (الوارث الإسلامي) بل ستكون بدائل جاهلية جديدة، كما هي البدائل الحاصلة في الصومال حين سقوط الدولة.

وأنا ضربت مثالا بالجزيرة العربية كون العلمنة فيها إلى الآن لم تصل إلى أهدافها داخل الشعوب، مع وجود مقدمات جاهلية خادمة لخصومنا مثل القبلية وغيرها، أما إن ضربت مثلا بتونس فالصورة قاتمة ولا شك، كون عرى الإسلام قد هدمت من أصولها في الشعوب علاوة على الحكم والقضاء.

3 - هذا التوحش الذي سيكون وارثا لهذه الولايات بعد انفلاتها من المركز يوجب علينا عدة أمور أهمها:

أ- بناء تنظيمات مسلحة، قادرة على الترقي من مرحلة شوكة النكاية إلى شوكة التمكين، وإن كانت هذه التنظيمات تحمل من اسمها: القلة وعدم الانتشار إلا أنها حتى تقود هذا التوحش ثم تعيد صياغته من جديد فإنها بحاجة إلى السلاح والقدرة على إدارة التوحش، أو بمعنى آخر على إدارة الفوضى. وهذه التنظيمات وإن كانت في كثير من البلاد في هذا الوقت ليست بقادرة على تحقيق تقدم نوعي، أو حتى كمي، فإن وجودها قد يزدهر بدخول عوامل جديدة على هذه المعادلة الخاسرة، ثم لأن هذه التنظيمات هي الخط الرئيسي في الدفاع عن إسلام الأمة وتوحيدها، ثم هي بنكايتها الضيفة تعطي هامشا جديدا لحركات البلاغ والدعوة داخل مجتمعاتنا المتحولة، فانشغال حكومات الردة بحركات الجهاد المقاتلة يشغلهم عن الوعاظ والمدرسين ومشايخ التربية، وخطباء المساجد عملا بالقاعدة العقلية: ارتكاب أخف الضررين. وهذه التنظيمات واجبة القيام على الأمة أصلا.

ب - التوحش أو الفوضى ستعم العالم، وخاصة في بلادنا. أما الغرب فهم موصوفون أصلا بالقدرة على قيادة هذه الإدارة في بلادهم تاريخيا وهم المقصودون بقول عمر بن الخطاب: "وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة" والحديث في صحيح المسلم.. هذا التوحش - أو الفوضى- القادم على العالم سيجزئ الدولة الواحدة إلى تجمعات صغيرة تختلف من تجمع لآخر من حيث رابطتها، فبعضها قلبي، وبعضها فكري، وبعضها مذهبي، وبعضها طائفي، كما كنا نرى في لبنان وأفغانستان والصومال، وكما سنراها لاحقا في كثير من البلاد، إما بصورة جماعية وهو الأقوى نظرا، وإما على صورة تتابع في سقوط متتالي.

هذا التوحش يوجب علينا تعلم فن إدارة هذا التوحش، وهو سلاح ذو حدين - أقصد التوحش -، إما أن يجتثنا أو نفيد منه. وإفادتنا منه تكون بسبب ضعف المركزية مما يجعل لحركات الجهاد هامشا من الحركة غير المراقبة، من تدريب وإعداد وتنظيم، كما حصل في أفغانستان، وهنا لا بد من التنبيه على ضلال دعوة بعض قادة الحركات المهترئة بوجوب الحفاظ على النسيج الوطني، أو اللحمة الوطنية، أو الوحدة الوطنية، فعلاوة على أن هذا القول

فيه شبهة الوطنية الكافرة، إلا أنه يدل على أنهم لم يفهموا قط الطريقة السننية لسقوط الحضارات وبنائها.

ثم هذا التوحش يوجد للغرباء مأوى يستترون فيه بعيدا عن طلبات اللجوء إلى بلاد الغرب، هذا إذا استطاعت حركات الجهاد أن توجد لها مكانا في قطعة الجبن المتناثرة.

ج - القدرة على إعادة التشتت إلى لحمة جديدة تحمل صورة الإسلام الصحيحة، وهذا يستدعي وجود قادة لهم نظر ثاقب في الإدارة والحرب، وحتى أقرب الصورة أكثر فإن القارئ الباحث يستطيع أن يستطلع شيئا مما هو مقبل من خلال معرفته معرفة حقيقية لواقع المجتمع الإسلامي قبل الحروب الصليبية وخلالها وبعدها، فإنه قد يعيد التاريخ نفسه إذا وجدت نفس المعطيات، والمعطيات متشابهة هاهنا وليست متطابقة.

د - وبقيت هنا نقطة وهي السؤال الذي تقدمت الإشارة إليه وهو: كيف سيعالج الغرب حالة الفوضى التي ستجتاحه؟.

ولأن الجواب له علاقة بواقع مجتمعاتنا فلا بد من الإجابة عليه.

عادة الغرب أنه كلما تضخمت مشاكله الداخلية، وضاقت موارده الاقتصادية، واضطربت معالم بنائه، وتزايد العاطلون عن العمل وتزايدت حدة اللصوصية والجريمة، فإن الغرب بطريقة ذكية يتقنها، يوجه المشاكل إلى حالة استنفار نحو خصومه التقليديين في المشرق الإسلامي، وهذا مصداق حديث رسول الله صلى الله عليه وسل : ((**والروم كلما كسر لها قرن ذر لها قرن آخر**))، لكن يبقى السؤال: من الذي سيكسر هذا القرن؟.

موجبات وجود حركات الجهاد في العالم (2):

ومن عمد موجبات جماعات الجهاد في العالم الآن: **فك العاني (الأسير)، ونصرة المظلوم، وردع الظالم:**

المتمعن لقصص الأنبياء في القرآن الكريم يجد للأنبياء عليهم السلام قضية محورية يلتقون حولها جميعا، ويدعون الناس إليها، ألا وهي كلمة التوحيد، ثم إننا نرى كذلك أن النبي كان يأتي ويحمل قضية أو قضايا مهمة مع التوحيد، وكانت تشكل هذه القضية الأخرى امتحاناً

لموضوع الاستجابة لألوهية الله على عباده، فلوط عليه السلام كان مع دعوته للتوحيد داعيا إلى التخلص من الرذائل الخلقية المعروفة مثل إتيان الذكران والتبارز بالضراط في المجالس، وهي التي قال فيها الرب سبحانه وتعالى: {**وتأتون في ناديكم المنكر**}، فهذه القضايا التشريعية تشكل الامتحان لمدى الاستجابة لكلمة التوحيد، ولقضية تأليه رب العالمين.

وقد حدثنا القرآن الكريم كثيرا عن **موسى عليه السلام**، وتكررت أحاديث القرآن عن هذا النبي العظيم، وهو من أولي العزم من الرسل، وكانت قضية التوحيد مدار دعوته، وحمل معها قضايا مهمة أخرى، ومن أهم هذه القضايا التي نازع موسى عليه السلام الأرباب الباطلة بها إخراج بني إسرائيل من حكم الطاغية: قال تعالى: {**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ**}الأعراف.

وقال تعالى: {**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى**} طه.

ثم حكى الله تعالى هذه القضية في سورة الشعراء آمرا موسى وهارون عليهما السلام: {**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**}.

فهذه قضية حكاها القرآن الكريم في ثلاثة مواطن، قضية إخراج بني إسرائيل المعذبين من حكم فرعون الطاغية، وهي كذلك هاهنا في هذا العصر، قضية مهمة، عظيمة القدر؟ قضية إخراج المساجين والأسرى والمعتقلين من سجون أهل الكفر والشرك، ومن سجون ا لمرتدين.

والسجن هو إحدى صور العذاب التي يمارسها الطغاة ضد الموحدين، قال تعالى على لسان فرعون: {**قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ**} الشعراء، وقال تعالى: {**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**}الأنفال.

وهنا نكتة بديعة على الأنبياء، وهم أعظم الناس قدرا وأرفعهم منـزلة وأوثق الناس بربهم، هذا الفعل هو الهروب والتخفي، فموسى عليه السلام خرج من مصر أول الأمر {**خائفاً يترقب**} ثم خرج ببني إسرائيل على وهدة من عيون فرعون وقومه، وكذلك خروج محمد صلى الله عليه وسلم من مكة متخفيا خوفا من قريش وبطشها، ولم يعتبر هذا الصنيع قادحا في حق هؤلاء الأنبياء، أو خادشا في رجولتهم وعصمتهم وعظمتهم، أقول هذا الكلام تنبيها على ما سمعت من أن بعض قادة الأحزاب الإسلامية الديمقراطية لما عرض عليه الهرب وقد حضر جند الطاغوت للقبض عليه في مقر حزبه أنف هذا الفعل، واعتبره خادشا لشرعية وجوده، وقال: أنا رئيس حزب شرعي ولست لصا حتى أهرب، ولعله كذلك أنف وترفع أن يتدلى بحبل من مكتبه ليخرج من الشباك حتى لا يقبض عليه جند الطاغوت، وهذه النفسية مصيبة ولا شك، فهي تدل على أن قادة العمل الإسلامي الديمقراطي هم من أبعد الناس عن نفسية الرجل المقاتل، أو نفسية الرجل الواعي لطبيعة الصراع بين الحق والباطل.

فالسحن أحد أساليب الطغاة في ردع الدعاة والمصلحين، والسجون الآن تعج بكثرة الموحدين فيها، وقد تبجح الكفر الآن وعربد بما لم يكن له مثيل في يوم من الأيام، فما هو السبيل الشرعي والكوني لردع هؤلاء المجرمين عن غيهم؟! وما هو الطريق الشرعي والكوني لإخراج هؤلاء المساجين من معاقل الطغاة؟ إنه ولا شك الجهاد في سبيل الله تعالى.

وفك العاني واجب شرعي على المسلمين حيث وقع لقوله صلى الله عليه وسلم: ((**فكوا العاني وأطعموا الجائع، وعودوا المريض**))[1]. قال ابن حجر: قال ابن البطال: فكاك الأسير واجب على الكفاية وبه قال الجمهور[2].ا.هـ. ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لأن أستنقذ رجلا من أيدي الكافرين أحب إلي من جزيرة العرب). وروي أن الحجاج بن يوسف الثقفي غضب على واليه في السند غضبا شديدا، وذلك بسبب امرأة أسرت من المسلمين

[1] - رواه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه.

[2] - فتح الباري (193/6).

وأدخلت إلى بلاد السند فجهز الجيوش المتواصلة، وأنفق بيوت الأموال حتى استنقذ المرأة وردها إلى أهلها ومدينتها.[1]

وفك العاني المسلم صورة من صور الولاء بين المسلم وأخيه المسلم.

وليعلم أن ما يعانيه المسلم السجين هو شيء يفوق الوصف والخيال، حتى أنهم قديما كانوا يعدون السجين كأنه منفي من الأرض، وأنه خارج الحياة. يقول الشاعر:

إذا جاءنا السحن يوما لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

والحضارة الشيطانية المعاصرة ابتكرت من الأساليب الوحشية لتعذيب خصومها شيئا يفوق الخيال، وليس سجين اليوم مجرد رجل محبوس في جب فقط، مع أن مجرد هذا الحبس عذاب شديد، ولكنهم يمارسون على هذا السجين ألوان العذاب وصنوف القهر ما الله به عليم، فإذا علمنا هذا تبين لنا الواجب الشرعي الملقى على عاتق الأمة في تخليص هؤلاء الأسارى، جاء في "القوانين" لابن الجوزي: يجب استنقاذهم (أي الأسارى) من يد الكفار بالقتال، فإن عجز المسلمون عنه وجب عليهم الفداء بالمال.[2]

قال ابن تيمية في الرسالة الماتعة المسماة ب "الرسالة القبرصية"، يدعو فيها صاحب قبرص إلى الإحسان إلى أسارى المسلمين عنده، ويبين سعيه الجاد في استخلاص أسارى المسلمين بل وأسارى أهل الذمة يوم ذاك، قال: وقد عرفت النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم قازان... فسمح بإطلاق المسلمين، ثم بين بعدها طلبه في إطلاق أسارى أهل الذمة.

هذه النصوص وغيرها تبين مدى الواجب الملقى على المسلمين في إطلاق أسارى المعتقلين والمساجين من سجون المشركين والمرتدين، ولقد بلغ عدد الموحدين الذين نقم منهم الطاغوت طهرهم وعفافهم وإيمانهم بالله تعالى الأعداد الكبيرة، ففي مصر لوحدها عدد المساجين من الجماعات المسلمة في سجون الطاغوت المصري أكثر من خمسين ألف سجين، علاوة على أولئك الشباب الذين ما يكاد الواحد منهم يخرج حتى تدركه مسالحة (شرطة) الشرك وتعيده مرة

---

[1] - عن الموالاة والمعاداة (327/1).

[2] - (ص 172).

أخرى، وهنا نقطة مهمة، وهي أن المسلم المجاهد عليه أن يسعى إلى عدم تسليم نفسه إلى مسالحة المشركين الملاعين في بلادنا، بل عليه أن يسعى جهده أن يفر منهم وإلا فليقاتل حتى يقتل.

الأسر والحبس والابتلاء:

مذاهب في التغيير

هل السجن مرحلة ضرورية للداعي؟ وهل هي مرتبة ممدوحة، الداخل فيها خير من غيره بدخول هذه المرحلة؟.

مما لا شك فيه أن طريق الدعوة محفوف بالمخاطر والابتلاءات، قال تعالى: {**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**} العنكبوت. ذلك لأن الداعي يأتي للناس بالجديد من الأمر، ويدعوهم لترك عوائدهم وإيلافهم، بل ويسفه ما هم عليه من نهج وطريق، وهذا أمر كبير على الناس، لأنه يطعن في مسلماتهم وعظائم عقائدهم، ولهذا فإن الداعي يجابه بقوة وعنف، وبسبب هذا الابتلاء تتميز الصفوف، ويفيء الناس إلى مقاماتهم الحقيقية دون لبس أو تزوير، فالابتلاء يعرف مقامات الناس، والبقاء للصابر، قال تعالى: {**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**}السجدة. قال ابن تيمية - رحمه الله - في تفسيرها: بالصبر واليقين تنال الإمامة.ا.هـ. فالصبر يمنع التهور، واليقين يمنع اليأس والقنوط، فالداعي له قوتان تحصنانه من الخطأ، قوة تدفعه وهي اليقين، وقوة تريثه وهي الصبر، يقين على الموعود القادم، وصبر على البلاء الواقع، والبلاء والامتحان ظاهرة في كل الدعوات، وهي تكتنف المتمردين، سواء كان تمردهم بحق أم بباطل، فليس الأنبياء أو أتباع الأنبياء هم فقط من لقي العنت في سبيل دعوته، بل كل من أتى للناس بجديد، ولكن ما يميز أهل الحق من غيرهم في هذا الباب هو أن تعب الأنبياء وأتباعهم هو في سبيل الله {**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ**}، وأما غيرهم فتعبهم وبال عليهم كما قال تعالى: {**عاملة ناصبة تصلى نارا حامية**}، وكما قال تعالى: {**إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم**

حسرة ثم يغلبون، **والذين كفروا إلى جهنم يحشرون**}الأنفال، فالابتلاء ظاهرة في مسيرة الدعوات لأن وجود الأعداء من مظاهر نصرة الله لأوليائه، قال تعالى: {**وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن**}الأنعام، ومظهر من مظاهر اسم الله تعالى: **المنتقم**. واختلاف الناس سنة كونية، وكذلك تدافعهم ليتحقق لكل واحد أهدافه التي يسعى إليها، والمعادلة بين الطرفين بحصول النصر والهزيمة مبسوطة في القرآن، وما من أمر إلهي إلا وهو عامل من عوامل النصر، وما من مخالفة للشريعة إلا عامل من عوامل الهزيمة.

والسجن إحدى مظاهر الابتلاء، وصورة من صور العذاب التي يهدد بها كل طرف الآخر، كما قال فرعون مهددا موسى عليه السلام: {**لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين**} الشعراء. وقد كان إحدى اختيارات قريش في عذابها لرسول الله صلى الله عليه وسلم: {**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك**}الأنفال. لأن السجن صورة من صور العذاب النفسي والبدني، فهو تقييد لإرادة الإنسان، ومانع له من ممارسة مدنيته وإنسانيته، ثم هو بالنسبة للداعي أشق وأتعب لأنه يفصل بين الداعي والمحيط الذي يحتاجه لدعوته، فعمل الداعي هو النور في الناس، وتعليمهم الخير، وكسب أتباع لدعوته، وترقية لأفراد دعوته في الطريق، فالسجن حرمان من هذا كله، إذ أنه يعزل الداعي عن محيطه ليمنعه من التأثير والكسب.

وفي هذه الغربة المعاصرة حيث بدأ الدعاة يدعون إلى الله، وتمت سنة المدافعة بين فريق الحق وفريق الباطل، وملأ الطاغوت السجون بالدعاة، وتكررت صور الابتلاء وإلى الآن، كانت التجربة الأولى أن دخلت مجموعات السجون، فماذا صنع فيهم السجن؟.

كان السحن وعاء تشكل لونه بلون الداخل فيه، فبعضهم انتكس ووقع، وهؤلاء على الأغلب قلة لا يؤبه بها، ولكن الأغلب خرج من السحن وهو يحمل ذكريات الألم والعذاب، وخرج ليكتب للناس مذكرات كربلائية مليئة بالبكاء والنواح حاول كل واصف فيها أن يستدر عواطف القراء نحوه، وأن يكسب شفقتهم عليه، وقد وجد أدب داخل المكتبة الإسلامية يمثل هذا النوع من الفنون، من البكاء والنواح الكربلائي، وكان القصد من هذا هو تعليق النياشين (الأوسمة) على الصدور بأن هذا قد عذب وضرب، ولم يخرج من الآن من هذا

الصف المبتلى دراسة أو دراسات تكون زادا للجيل القادم من هذه التجربة، فالسجن بلاء: إما أن يكسر، أو يعصر، أو يثمر فيخرج صاحبه منه منقى من كل الشوائب، شوائب الأفكار، وشوائب النفس، فترتقى مدارك المرء، وتنصقل نفسه في تطورها وتربيتها، فالممتحن لا يمدح إلا بمقدار استفادة المرء منه، لا من حيث هو في نفسه ممدوحا مرغوبا، فقد ينتكس المرء فيه، وقد يخرج منه كما دخل جهلا وعماء وسوء خلق، وقد يرتقي فيه، وكل هذا بحسب المرء ونظره إلى ما تمر به الحياة من مظاهر وظواهر، فليس السجن مرتبة مدحية، ولا هو بالذي يطلبه المرء ليكون الأفضل بين أقاربه، ولكن ينظر إلى مقدار اكتساب المرء من هذه التجربة.

السجن (أو المدرسة اليوسفية) عند أنصار فلسفة مذهب ابن آدم الأول:

جرى بعض الباحثين على تسمية السجن بالمدرسة اليوسفية - نسبة يوسف عليه السلام - والحق أن القرآن لم يحك لنا شيئا عن أهمية السجن ليوسف عليه السلام، ولم يذكر لنا شيئا عن أثر هذه المدرسة - إن كانت مدرسة - على يوسف عليه السلام، بل الذي اهتم به القرآن هو:

1 - أن يوسف عليه السلام اشتغل بالدعوة إلى الله في السجن، ولم يشغله السجن عن هذه المهمة، بل كان يستغل أصغر الأمور ليوجه أنظار أهل السجن معه إلى تأليه الله وتوحيده، قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}يوسف.

2 - محاولة يوسف عليه السلام الخروج المبكر من السحن وذلك حين قال لصاحبه: {وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}يوسف.

3 - حمده لله تعالى أن أخرجه من السجن، قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ}يوسف.

4 - قبوله دخول السجن - إن كان لا بد منه - على تبديل المواقف وتغيير المبادئ {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}.

وهذه الأمور وغيرها ليس فيها شيء يتعلق بأن يكون السجن مدرسة، يتخرج المرء منها شهادة يتميز بها المرء عن غيره، ولكن مما لا شك فيه أن من دخل هذا الامتحان فصبر فهو خير من غيره ممن دخله ولم يصبر.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن نذكر هنا أن هناك مدرسة حديثة معاصرة، مقطوعة النسب، لا تلتقي في شيء مع منهج خير القرون، هذه المدرسة تدعو إلى غريب القول، وعمدة هذا القول يقوم على فلسفة تبرير الابتلاء كطريق على المرء أن لا يسعى للخروج منه بنفسه، أو يدافعه ويعاديه، وكان أول قطر هذه المدرسة كتاب يسمى "مذهب ابن آدم الأول" للسوري **جودت سعيد**، وهو يعد نفسه من مدرسة **مالك بن نبي**، ثم تتابع القطر فكان من عمد هذا المذهب كتاب آخر اسمه "ظاهرة المحنة" لخالص جلبي. تقول هذه المدرسة: إن سبب سقوط الحركة الإسلامية وعدم تقدمها إلى مواقع جديدة نحو أهدافها هو تبني الحركة للعنف ضد خصومها وانتهاجها العمل السري، فتبني الحركة للعنف والسرية أعطى لخصومها المبرر أن تضربها وتقضي عليها، والطريقة المثلى للخروج من هذا المأزق هي التالي:

1 - أن تبتعد الحركة الإسلامية عن نفسية الصدام ضد خصومها وأن تتعامل معهم كما تعامل ابن آدم الأول مع أخيه حين قال له: {**لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**}. وتطور الاحتجاج لهذا المذهب حتى وصل إلى الاحتجاج بطريقة غاندي ضد خصومة الإنجليز.

2 - على الحركة الإسلامية أن تجعل من السحن سبيلا إلى حالة جماعية بها يتم التثقيف والتربية ومن خلاله يتم مد الفكرة إلى الآخرين.

تنتهي هذه النظرية بالخلاصة التالية: أن الخصم سيمارس العقاب تلو العقاب ولن يحابه إلا بالسلبية في الرد، وبالصفح الجميل، وبعد أن يدرك الخصم أنك لن ترد عليه ستثور في نفسه عقدة الندم ويلقى السلاح ويولي منهزما، وحينئذ سيقع النصر الموعود...

إن من غرائب الأقوال في هذا الزمان، وهو من الحادثات التي نبتت ولا يعرف لها سلف في التاريخ - سلف مؤمن أو كافر - مذهب غريب، يدعو للعجب من القول، يدعو إلى نبذ العنف ووسائله وأهمها السرية، والعنف والمقصود به الجهاد والقتال. يقول هذا التيار:

إن سبب انتكاسة الحركة الإسلامية، وعدم حصولها على أهدافها أو الاقتراب منها، هو تبني الحركات الإسلامية للعنف، فحيث تبنت الحركة العنف فإنها أعطت الخصوم المبرر لضربها والإجهاز عليها، فلو أن الجماعات الإسلامية واجهت عنف الدولة بالصبر وكف الأيدي، واحتملت الأذى، فإن الدولة بعد ممارستها العذاب تلو العذاب على المسلمين ستصاب بعقدة الندم، وبعدها ستلقي السلاح جانبا، وبعدها سيكون وصول الإسلام إلى الحكم سهلا ميسورا!.

قال جودت سعيد: (وهو إمام هذا المذهب المعاصر وصاحب كتاب "مذهب ابن آدم الأول":

أ - أؤكد أن لا نمارس العنف بجميع أشكاله، ونتقبل العنف الذي يصدر من الآخرين بصدور مفتوحة، وأن نجعلهم يملون من ممارسة العنف بصبرنا على تحمله، وعدم مقابلة العنف بأي عنف، وإنما نقابل العنف بقوله تعالى: {**لا تطعه واسجد واقترب**}، وبقوله تعالى: {**كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة**} وبقوله تعالى: {**لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين**}، بهذا نقابل العالم[1]. ا.هـ.

ب - ينبغي فورا أن نقلص ونتخلص نهائيا من الجيش والسلاح، وخاصة الأسلحة المتطورة[2].ا.هـ.

ج - الجيش والسلاح عقبة في سبيل تحرير الأمم.

---

[1] - سلسلة فانظروا (عدد 43 ص 2) – وهي رسالة موجهة إلى الشباب المسلم في الجزائر.

[2] – المصدر السابق (ص 3).

2 - يجب على الحركة الإسلامية تبني السلم، وأفضل صور السلم هو الديمقراطية الغربية، يقول جودت سعيد: نحن ينبغي أن لا نرفض الديمقراطية، وإنما ينبغي أن نزيدها فعالية، وذلك بنشر المعرفة والعلم، لأن الديمقراطية إن لم يكن وراءها علم ومعرفة في فستعجز عن حل المشكلات[1].ا.هـ.

وعلينا أن نقبل بالديمقراطية حتى لو أدت إلى إزالة الحكم الإسلامي إن وجد. يقول جودت سعيد: الذي أريد أن أذكر به هنا هو ماذا سيفعل المسلمون في المستقبل إذا بدأوا يخسرون الإمارة بالديمقراطية؟ هذا ينبغي أن يكون في البال ماذا سنفعل؟، هل نقبل ترك الحكم بالديمقراطية؟ أم نصير مثل الذي يعمله الآن السكارى بالكراسي؟... ويواصل قائلا: ينبغي أن نصبر ونتذكر قوله تعالى: {**ولنصبرن على ما آذيتمونا**}... الخ [2].

3 - ترك أي إشارة أو كلمة فيها عداوة لأعداء الدين. يقول جودت سعيد: أن نكون شهداء لله وقوامين بالقسط مع الذين يسيئون إلينا وعلينا أن ندرب أنفسنا أن نكون كذلك، ونتواصى بذلك، ونتواصى بالصبر عليه، حتى أننا لسنا في حاجة أن نطلق لفظ العدو عليهم وإنما اختلفنا في التفسير، والله تعالى علمنا أن نقول: {**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**}ا.هـ.[3]

4 - على الحركة الإسلامية أن تقبل التحدي وذلك بالذهاب إلى السجون والرضا بذلك وعدم الاعتراض عليه:

أ - انظر كتاب ظاهرة المحنة لتلميذ جودت سعيد وهو الدكتور خالص جلبي كنجو.

ب - يقول جودت سعيد: إذا أخذ واحد من المسجد لأنه علم الناس في المسجد، فلنملأ مكانه ونقبل التحدي، ونقبل السجن[4].ا.هـ.

ويقول كذلك: لا نضرب، لا نهرب، لا نطالب بالإفراج عن المسجونين، بل نطالب أن يأخذونا نحن أيضا إلى السحن.ا.هـ.[1]

---

[1] – السابق (ص 2).

[2] – السابق (ص 3).

[3] – السابق (ص 8).

[4] – السابق (ص 4).

5 - عدم الاهتمام أو الاستدلال بالكتاب والسنة وإنما العقل، يقول جودت سعيد: إنني لم أعد ترهبني قعقعة الكلمات: الروح، النفس، أو الله، أو الرسول، أو قال فلان وفلان (وهي حسب السياق، قبل هذه الجملة يعني قال الله، قال الرسول) نريد أن نتحدث ماذا يحدث لنا، وكيف يحصل الفهم؟ وكيف نعرف ما فهمناه أننا فهمناه، وكيف يحدث الفهم؟ وكيف انتقلت إلى هذه الأفكار؟ دعونا من الحديث عن السماء، ولنبحث في الأرض، لنعد إلى الإنسان المولود على الفطرة.ا.هـ.[2]

ويقول: إن الذي سيعلمنا ليس القرآن، وإنما نفس حوادث الكون والتاريخ هي التي ستعلمنا.ا.هـ.[3]

ويقول: فالمرجع ليس الكتاب وإنما العودة إلى الحدث أو الشيء.ا.هـ.[4]

ويقول: إن صخرة ما أدل على نفسها من كلام يقال عنها حتى لو كان كلام الله.ا.هـ.[5]

ويصف أوامر الله بالقتال بأنها خرافية، يقول: نسأل الله أن يثبتكم، وأن لا يفلت الزمام من أيديكم، وأن لا تستسلموا للأوامر الخرافية (أي أوامر العنف حسب تعبيره) ا.هـ.[6]

وفي لقاء مع خالص جلبي لأحد الاخوة قال له: أنا أسجد للعقل.ا.هـ.

وكلام جودت سعيد في معرض الأمر الشرعي، وليس الخلق الكوني فانتبه.

هذه خلاصة أفكار هذه المدرسة، مدرسة كف الأيدي والرضا بالصبر - من كتاب "مذهب ابن آدم الأول".. إلى كتاب "ظاهرة المحنة"-.

أما الرد عليهم: فإن أول ما يقفز لذهن المسلم السني أمام هذا الغثاء هو القصة التالية: ذكر الذهبي في "ميزان الاعتدال" أنه ذكر لعمرو بن عبيد (من أئمة المعتزلة) حديثا يخالف هواه، رواه الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال

- السابق (ص 5).
- سلسلة نشرة فانظروا (عدد 40 ص 43).
- السابق (ص 7).
- (السابق ص 7).
- السابق (ص 7).
- فا نظروا (43 ص 9).

عمرو: لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعته من زيد بن وهب لما صدقته، ولو سمعت ابن مسعود يقوله لما قبلته، ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله عز وجل يقول هذا لقلت: ليس على هذا أخذت ميثاقنا.ا.هـ. فهؤلاء القوم لا ندري من أين نبدأ معهم، فهم كما قال جودت سعيد: "لا ترهبهم الكلمات حتى لو كانت كلمات الله"، وهم لا يكنون أي احترام لكلام السلف، بل قد صرح أنه قد اكتشف شيئا لم يعرفه الصحابة رضي الله عنهم، يقول جودت سعيد: إن المسلمين سواء في زمن أبي ذر أو الآن لم يفهموا هذا جيدا.ا.هـ.[1]

وعامة احتجاج هذه الطائفة بما فعل غاندي.[2] ومما فعل الخميني[3]، وبما فعل عبد السلام ياسين إمام جماعة العدل والإحسان المغربية، لأن هذا هو الحدث أو الشيء الذي ينبغي أن يعد مرجعا وليس المرجع هو القرآن كما يقول جودت سعيد، إذن فهؤلاء القوم لا يرجى لهم عودة لأن البدعة قد استحكمت فيهم كما يستحكم داء الكلب بصاحبه، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: ((لا يرجعون إلى الإسلام حتى يرتد السهم إلى فوقه))[4]. فلا يعود البدعي عن بدعته، وإن عاد فلا بد من علوق بعض الشيء فيه ولا يخرج منها إلا بنوع خاص من العلم، والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

وهؤلاء القوم يتذكر المرء معهم قوله تعالى: {**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**}، هذا هو اعتقادنا في أئمتهم، وليعلم الناس أن العقل الذي يزعمونه هو عين الهوى، ولذلك فإن أمثالهم سماهم أهل السنة قديما بأصحاب الأهواء، وإن زعموا أنهم أهل العقل والمنطق، لأن مدار أمرهم على رغبات النفوس والتشهي، وليس على اتباع الحق، وإلا فما معنى قولهم: أنا لم تعد ترهبني الكلمات.. الله أو الرسول أو قال فلان أو قال فلان؟.

---

[1] – فانظروا (عدد 43 ص 5).

[2] – مقدمة الطبعة الثانية لكتاب ظاهرة المحنة.

[3] – ظاهرة المحنة، وسلسلة فانظروا عدد 43.

[4] – انظر فتح الباري (ج 295/12) وما بعدها.

مذهب ابن آدم الأول: العقل والنقل بصورة معاصرة

ما الفرق بين قول أهل الأهواء قديما أن العقل هو اليقيني والنص هو الظني، وقول جودت سعيد: فالمرجع ليس الكتاب وإنما نفس حوادث الكون والتاريخ. بل قوله أشد افتراء وكذبا.

إذا كان اعتقادنا في هؤلاء أنه لم يبق منهم مفصل إلا دخله الهوى، فنرجو أن يكون حديثنا مع من بقي فيه بعض الخير، أو بعض خوف من كلمات الله تعالى، وسنأتي على عمد احتجاجاتهم الشرعية بدءا من قوله تعالى: {**لئن بسطت إلى يدك ...**} الخ الآية، لنرى كيف هي في شرع الله ودينه؟.

من حجج هذا التيار البدعي استدلالهم بقوله تعالى على لسان ابن آدم: {لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} المائدة (68 - 69). واحتجوا بهذه الآية على أن مذهب الفطرة في الإنسان السوي هو عدم صد من أراد إيذاءه بل كف اليد عنه، مما سيدفع الخصم المعتدي إلى ترك السلاح جانبا والاحتكام إلى العقل، ثم إثارة كوامن الخير التي ستدفعه إلى الندم وعدم البطش بخصومه، وهذا كله سيجعل العاقبة للحق والصواب، وهو الإسلام كما يعتقد هذا التتار، هذا هو خلاصة ما يريده كتاب جودت سعيد "مذهب ابن آدم الأول" وكتاب "ظاهرة المحنة" لخالص جلبي. ويزعم هذا التيار أنه عقلاني في هذا المبدأ إلى مشاشه، وأنه يحتكم في صواب هذا المنهج ليس إلى التفسير البياني (اللغوي) للقرآن، ولكن إلى الفطرة أو إلى التاريخ والواقع، وأن العقل ومقتضياته تلزم الجميع بصواب هذا المنهج وأن خلافه جهل وخرافة، ومرض عصبي، يدفع المرء ليفكر للاحتكام إلى السلاح والقوة في فض الخصومات بين أصحاب المذاهب الفكرية، سواء القابض على السلطة أو غيره من الخصوم المقهورين.

الرد على احتجاجهم بهذه الآيات القرآنية له عدة طرق، وكلها تتدافع بنفس القوة والتدليل، ولكن الغريب في هذا التيار أصوله التي يتعامل بها مع الوحيين، فالأمة قد أجمعت

أن الحكم الشرعي مأخذه الكتاب والسنة، وأن هذا المصدر نزل باللغة العربية، فأصول تفسير هذا المصدر وقواعد فهمه تعود إلى قواعد وأصول هذه اللغة، وليس هناك من قواعد يحتكم إليها في ذلك سوى قواعد البيان العربي، إلا ما أحدثه أبو حامد الغزالي من إدخال قواعد علم المنطق إلى أصول الاستنباط، وقد عاب العلماء عليه، وشنعوا القول على صنيعه هذا، وكان أشدهم نكارة الإمام أبو عمرو بن الصلاح الشافعي رحمه الله تعالى، وأما قبل ذلك فإن الأمة مجمعة على تنزيل الكتاب والسنة على أصول البيان العربي، قال الإمام الشافي - رحمه الله تعالى - في كتابه العظيم "الرسالة": البيان اسم جامع لمعان متشعبة الفروع، فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه، متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض، ومختلفة عند من يجهل لسان العرب.ا.هـ.[1]

ثم شرع الإمام الشافعي رحمه الله في تفصيل أنواع البيان في الوحي، وقسمها إلى أقسام:

1 - ما أبانه لهم نصا ولا يحتاج لغيره.

2 - ما أحكم فرضه بكتابه (وأحكم هنا بمعنى أجمل أصله) وبينت السنة تفصيله - أي هيئته -.

3 - ما أتت به السنة وبينته ولم يأت به في الكتاب نص محكم.

4 - ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد.

ثم شرع في تفصيل هذه الأنواع واحدة واحدة، واستخلص منها أدلة الحكم الشرعي وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وهذا القسم الرابع من أقسام البيان هو الذي تنكره الظاهرية، ومن جهلهم به حكموا أن مستويات البيان في الدلالة واحدة لا فرق بينها، أي بين ما يعلم نصا وما يعلم اجتهادا، واختلاف الناس في توسيع دائرة السنة وتقنين الشروط في الأخذ بها هي التي تفرق الناس بين أثريين وآرائيين، فكلما وضعت ضوابط أكثر على السنة كلما قل الأخذ بها، وبهذا تتسع دائرة الرأي، وكلما أكثرنا الأخذ بالسنة تقلصت دائرة الرأي، وقاعدة الشريعة تقوم على الاتباع وتقليل الرأي والاجتهاد.

---

[1] - ص 21.

نعود إلى ما سمي بقواعد البيان التي سميت بعد ذلك بأصول الفقه، كون أصول البيان وقواعده هي نفسها قواعد استنباط الحكم الشرعي، فكلما زاد الرجل معرفة في البيان وقواعده كلما ازداد معرفة بمراد الوحي، قال الإمام الشافعي: لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت الشبه التي دخلت على من جهل لسانها.ا.هـ.[1] فمن جهل لغة العرب ثم فسر الوحي على أي جهة كان وبأي قواعد أخرى فقد أخطأ وإن أصاب، قال الشافعي: ومن تكلف ما جهل ولم تثبته معرفته كانت موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة والله أعلم، وكان لخطأه غير معذور إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب منه.ا.هـ.[2]

هذه القواعد التي قالها الشافعي لم يخالف فيها أحد من أهل الملة قبل يومنا هذا إلا ما تقوله الباطنية، وهي التي تجعل الرابط بين اللفظ والمعنى ليس هو الوضع اللغوي، وإن قواعد استنباط الحكم الشرعي من اللفظ ليست هي قواعد البيان، بل هي عندهم راجعة إلى سلطة أخرى غير سلطة البيان، مثل قواعد شيوخهم، وهؤلاء لا خلاف بين أهل الملة في كفرهم وزندقتهم، حتى المعتزلة لا يفترقون عن أهل السنة في هذه القاعدة، وهو وجوب إرجاع تفسير النصوص إلى قواعد البيان العربي، يقول الجاحظ وهو معتزلي: للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخرى، ولها حينئذ دلالات أخرى، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل.ا.هـ.[3] فهو يجعل البيان العربي أساس وقاعدة تفسير ولكنه بصفته معتزليا شط في فتح باب، أو لنقل وسع بابا كان ضيقا، وهو أن الأصل في الألفاظ الحقيقة ولا يصار إلى غيرها إلا على استحالة حملها على الحقيقة ووجود القرينة وهو الذي سماه المتأخرون المجاز - فإنه قال: ولتلك الألفاظ مواضع أخرى ولها حينئذ دلالات أخرى...الخ قوله. ولكن لم يختلف معنا المعتزلة في أساس سلطة

---

1 - ص 50 فقرة 169.

2 - ص 52.

3 - كتاب الحيوان (4 ص 289).

البيان، فيقول الزمخشري: وما يميز به - أي إنسان - من سائر الحيوان من البيان هو المنطق - أي الكلام الفصيح المعرب عما في الضمير.ا.هـ.[1]

أما اكتشافنا لأهل البدع فعن طريق معرفتنا مغايرتهم في فهمهم للنص عن قواعد البيان فاكتشافنا لهم يتم بإرجاع أنفسنا وأنفسهم لما فهمته العرب، وعامة ضلال أهل البدع يكون بسبب جهلهم بقواعد اللغة العربية، ولهذا قال الحسن رضي الله عنه عن المبتدعة: من العجمة أوتوا. وقال عمرو بن العلاء - من أئمة أهل السنة - لعمرو بن عبيد - إمام المعتزلة في عصره - لما ناظره في مسألة خلود أهل الكبائر في النار، واحتج ابن عبيد أن هذا وعد، والله لا يخلف وعده، يشير إلى ما في القرآن من الوعيد على بعض الكبائر والذنوب بالنار والخلود، قال له ابن العلاء: من العجمة أوتيت، هذا وعيد لا وعد، وأنشد قول الشاعر:

وإني وإن أوعدته أوواعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وقال بعض الأئمة فيما نقل البخاري وغيره: إن من سعادة الأعجمي أو الأعرابي إذا أسلما أن يوفقا لصاحب سنة، وإنه من شقاوتهما أن يمتحنا وييسرا لصاحب بدعة.ا.هـ.[2] فالبدعي أساسه الأول هو ترك الأصول العربية، ثم أساسه الثاني: ترك المحكم إلى المتشابه، وهذا الثاني في الحقيقة عائد إلى الأول، لأن من أصول البيان رد الفروع إلى الأصول، واتفاق البيان وعدم اختلافه إذا صدر من حكيم. روى الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التفسير أن عائشة رضي الله عنها قالت: ((تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأؤلئك الذين سماهم الله فاحذروهم)).[3]

والمتشابه هاهنا ليس ما يذكر في كتب الأصول، ولكن شيء تختلف درجته في عدم دلالته على المراد في نفسه، فمنه ما يحتمل أكثر من معنى، ومنه مما لا يعلم حقيقته - لا تفسيره

[1] - الكشاف (4 ص 442).

[2] - الرسائل والمسائل النجدية (ج 2 ص 10، 11).

[3] - صحيح البخاري (ج 5،ص 166).

- إلا الله وليس هذا موطن تفصيل ذلك. لكن أهل البدع يتركون ما لا يفهم منه إلا مراد المتكلم إلى ما يحتمل عدة معاني (حيث وضع ابتلاء للناس وهو ما تنكره الظاهرية)، ولكن هذا المتشابه لم يترك للناس من غير بيان فلا بد من رده إما إلى المحكم أو إلى خاصه، فيأتي أهل البدع إلى هذا المتردد إلى معنيين أو أكثر فيصرفه إلى ما يريده هواه، فأولئك هم طالبوا الفتنة، والواقعون فيها.

مدرسة كف الأيدي أتت بالعجيب من القول:

1 - أسندت حق تفسير الكتاب والسنة للواقع والتاريخ (وهو الحكم القدري) ولم ترجع حق التأويل إلى اللسان العربي، بل احتقرت اللسان العربي كما تقدم من كلام جودت سعيد، وهذا الذي قالته هذه المدرسة باطنية جديدة، فلو قال طبيب كافر إن بعض الخمر قد ثبت أنه يشفي بعض الأسقام، وثبت هذا بحكم التجربة والواقع، وسيرورة التاريخ لوجب علينا أن نجيز القليل من الخمر ولا نلتفت لما فهم أهل البيان من كلام رب العالمين.

2 - يؤدي هذا الأمر في هذه المدرسة إلى تفسير النصوص تفسيرا جديدا، ويجعل للألفاظ العربية التي تكلم الله بما في القرآن معان جديدة لم يعرفها الأوائل، مما يلتقي هذا الأمر مع أهل الحداثة الجدد - أو الزنادقة الجدد -. وهذا التجديد ستفرضه اكتشافات الناس للواقع والتاريخ كما يزعم هذا التيار...

الآيات المخبرة عن ابني آدم ووضعها في شرعة الإسلام لها جانبان من النظر، جانب يلتقي معها، وجانب يفترق عنها، أما ذكر الجانب المتفق معها فمعلوم اضطرارا وروده، ولكن قد يسأل سائل: ما فائدة أن يذكر القرآن الكريم جانبا من هذه القصة والحدث ولا يريد من الأمة المسلمة أن تتبعه وتقتدي به؟ وبعيدا عن قول أئمتنا السابقين أن شرع غيرنا ليس شرعا لنا، أو قول بعضهم إن شرع من قبلنا شرع لنا، والخلاف الدائر حول هذا المصدر، فإن هذه الآيات فيها التأكيد العظيم على أن شريعة الإسلام التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم هي أكمل الشرائع، وأحق الشرائع اتباعا ((فوالله لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي)) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما جانب الاتفاق فهو:

1- إن خطاب ابن آدم الصالح لأخيه الآخر، هو خطاب عِلمَ الأخ من أخيه أن تخويفه بالله قد يردعه ويرده، وإلا فلو علم أن نفس الأخ غير متهيبة لخطاب التخويف من الله لما خاطبه به، ولكان هذا الخطاب عبثا لا قيمة له، ثم تبين أن هذا الخطاب لم يجد نفعا، ولما تبين أن هذا الخطاب لم يجد نفعا كان لا بد من تغيير التشريع ليوافق الحق، وهو عدم التمادي في الظلم، أو الاسترسال في تحقيق أهواء النفوس بقتل الخصوم، وهذا هو جانب الافتراق كما سيأتي لاحقا، إذا فمقالة الرجل الآخر: "اتق الله" لن تفعل مفعولها إلا في نفس ترهب الله وتخافه، وهذا من جنس قول مريم عليها السلام للملك الذي جاءها بالروح عيسى عليه السلام: {**قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا**}، فالاستعاذة بالرحمن لن يخفرها التقي وهي استعاذة بكلمات الله الكونية لما خفي عن الإنسان من الجن وغيره وهذه تمنع البر والفاجر، واستعاذة بكلماته الشرعية لما يراه الإنسان ويحسه، فحين يقول المرء أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق فإن المقصود بها الكلمات الكونية وليست التشريعية، فلو قال رجل مسلم لكافر: أعوذ بالله منك، وأراد الكافر قتله فإن هذه الكلمات لن تنفعه، أما إذا قالها لمسلم فإنها تنفعه، كما نفعت كلمات المرأة التي لقنت أن تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أعوذ بالله منك، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك))، فإنها نفعت مع من يعلم أن خفر ذمة الله تعالى جريمة ومعصية توجب العذاب، فمريم عليها السلام قيدت نفع كلماتها - أعوذ بالله منك بكون السامع تقيا، أما إن كان فاجرا فإنه سيخفر ذمة الله تعالى.

نعود إلى خطاب ابن آدم لأخيه: {**إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك**}، هذا تهديد لمن يعلم قيمة الإثم ويؤمن أن وراء هذا الإثم عقابا، وهو الرادع في قلب المؤمن، أما الكافر والعاصي الجاهل الناسي فلن تردعه هذه الكلمات.

فالمؤمن هو الذي يخاطب بكلمات الله الشرعية لأنها عظيمة القيمة في قلبه، وأما غيره فليس له إلا كلمات الله الكونية.

المؤمن يقال له: اتق الله، وعليك أن تخاف اليوم الآخر فيتذكر كما قال تعالى: {**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**}، وأما الكافر فهو الذي {**إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم**}، فيتمادى في غيه وعصيانه.

المؤمن تردعه كلمات الله، والكافر تردعه اللطمة وإن لم تنفع فالركلة، فإن لم تنفع فالإرهاب {**ترهبون به عدو الله وعدوكم**} فإن لم ينفع فقوله تعالى: {**واقتلوهم حيث ثقفتموهم**} ولن يردعهم إلا أن تخضب الأرض بدمائهم {**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...فشرد بهم من خلفهم**}. وإعمال كلمات الله التشريعية بالتخويف للكافر هزل بآيات الله تعالى، وإعمال كلمات الله الكونية مع من يرتدع بالكلمات التشريعية ظلم وتجاوز للحد، ولكل له مكانه.

مدرسة الصبر وكف الأيدي تريد منا أن نقول للنصيريين وهم في ذروة حماسهم وسكرتهم: اتقوا الله!!، فهل جربت هذه المدرسة ماذا يقول المرتدون في بلادنا وهم يعذبون الشباب المسلم فتخرج كلمات الاستغاثة من الشباب قائلا: أنا لائذ بالله أو ملتجئ إليه، فماذا كان ردهم؟: ألم يخبرنا أولئك أنهم ردوا عليهم قائلين: لو حضر الله إلى هنا لسجناه معكم. (أستغفر الله وأتوب إليه).

لو أن المرتد دخل بيتك ليزني بأهلك فهل تمنعه من فعلته الشنيعة بقولك: اتق الله؟!، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ولمن زنيت بأهلي لن أحقد عليك ولن أسميك عدوا، إني أخاف الله رب العالمين؟!.

بل سأذهب معكم إلى بعد آخر، لو أن المشركين من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هزيمة بني قريظة، فحكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه أن يقتل رجالهم، فلو أن يهوديا؟ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليكف يده عن قتلهم: يا محمد اتق الله فينا!! فماذا سيكون جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ سيقول له: أنا بأمر الله الذي أتقيه أقتلكم، ولولا تقوى الله ما حكمت فيكم هذا الحكم.

هذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يقول له الناس عند توليته عمر بن الخطاب من بعده: أستخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه فكيف إذا خلا بهم،

وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك، فقال أبو بكر: أبالله تفرقني (تخوفني)؟. إذا لقيت الله ربي فسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك.ا.هـ.[1]

واليهودي يعتقد أنه بقتله الأمميين يرضي ربه، وكذا النصيري والدرزي، وكل ملة تتعبد إلهها بخصومتها للآخرين.

ولو ذهبنا نستعرض التاريخ الإنساني والإسلامي عن حالة واحدة تؤيد اتجاه هذا الفريق لما وجدنا، بل إن الآية ضدهم، فإن تخويف ابن آدم لأخيه لم يمنعه من قتله، والعرب تفهم هذا، فإنها قالت: القتل أنفى للقتل، والله تعالى قال: {**ولكم في القصاص حياة**} ولكن القوم: قال الله، قال الرسول، كلمات لم تعد تخيفهم، فليأتوا لنا بحالة واحدة درست دراسة علمية تؤيد سبيلهم.

2- إن مما قاله ابن آدم الصالح لأخيه: إني أخاف الله رب العالمين، فالمانع له عن بسط يده لأخيه حتى في رد عدوانه عليه هو خوفه من الله تعالى، فهو يتعامل مع شرع مأمور به، وهو أنه لو بسط أخوه يده له بالقتل فعليه أن لا يبسط له يده لقتله، امتثالا لأمر الله تعالى، فهل مسلم اليوم يستطيع أن يقول ذلك، وهو مأمور بقوله تعالى: {**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء**} فأمر الله تعالى المسلم أن يقاتل من بينه وبينهم عهد لمجرد ظهور بوادر الخيانة، فكيف من لم تكن بينه وبين المسلمين عهود ومواثيق؟!!.

ألم يقل سبحانه وتعالى: {**إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم**} فجعل كف اليد وترك القتال سببا موجبا لعذاب الله تعالى، فأين هذا من ذاك؟! .

ألم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل أن يفقأ عين الناظر إليه في بيته دون إذنه؟، وقال : ((**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**))، فهل انقلبت صورة الحجر التي تفقأ عين الظالم إلى ورود في نفسية هذا التيار في هذا الزمان؟!.

أليس هذا هو عين تأويل البعض لقوله صلى الله عليه وسلم: ((**احثوا في وجه المداحين التراب**))، فكان من تأويل بعض فقهاء السلاطين لهذا الحديث أن الذهب من التراب، والسلاطين يطبقون أمر الله تعالى، فمن مدحهم حثوا في وجهه الذهب امتثالا لأمر النبي صلى

---

[1] – الطبري.

الله عليه وسلم، فصار التراب ذهبا!، وصار فقء العين يعني أن تعلق على ياقته الوردة حتى تخجل عينه فيغلقها، فهذا هو عين الفقء!!.

هكذا تنقلب الأوامر الشرعية إلى تأويلات جديدة تشابه تأويلات الباطنية.

آيات ابن آدم تصور لنا الحقيقة التالية:

رجلان قد اختلفا: رجل يخاف الله فترده الكلمة والموعظة، ورجل لا يخاف الله فوعظ وخوف بالله تعالى فلم يرتدع، فلا بد من ردعه ورده حتى لا يتمادى في غيه وظلمه، إذن لا بد من شيء آخر غير كلمات الله التشريعية، وهي كلمات التكوينية، فتطور التشريع ليوافق الحق المطلق، وهو ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا جانب الافتراق.

قصة ابني آدم عليه السلام ككل القصص القرآني فيها من العبر والعظات التي تؤكد حكمة الرب سبحانه وتعالى، وتؤكد الحق المطلق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قلنا إن في قصة آدم جانبا يفترق عن شريعة الإسلام، وهو جانب كف اليد عن المعتدي إذا أرادك بسوء وظلم، وقد نستطيع القول إن هذا الجانب كذلك لا يفترق عن شريعة الإسلام، وهو كف اليد عن المسلمين حتى لو أرادوك بظلم وشر، وأن تكن كما قال صلى الله عليه وسلم: (**كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل**)، وهذا قطعا وجزما هو مع المسلمين من بني عقيدتك ودينك، فالحديث الأول يذكر في زمن الفتن الواقعة بين المسلمين، وكذلك الحديث الثاني، أما مع غير المسلمين فلا بد من استحضار قوله صلى الله عليه وسلم: ((**لا يجتمع كافر وقاتله في النار**)) وهو حديث فيه الترغيب في قتل الكافر، فكلما قتل المسلم من الكافرين كلما باعد الله بينه وبين جهنم، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتنافسون في قتل أعداء الله تعالى كما في قصة ابني عفراء مع أبي جهل، فهما جانبان يحضران في نفس المسلم في الوقت ذاته {أعزة على الكافرين} {أذلة على المؤمنين} لكن لو قلنا أن شريعة ابن آدم الأول كانت تمنع بسط اليد إلى أي أحد كائنا من كان فما هو وجه ذكرها في القرآن؟ ولماذا تذكر بعض الجوانب في قصص الأنبياء في القرآن الكريم مما لا تلتقي مع شريعة الإسلام؟ فما هي الحكمة في ذلك؟.

إن المقارنة بين الشريعتين شريعة الأوائل وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم - مهمة من مهمات القرآن الكريم، لأن فيها من الله تعالى على عباده في أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنه لم

يشرع لهم إلا الأفضل، ولم يعطهم إلا خير ما عنده سبحانه وتعالى في علاه، فالأوائل استؤمنوا على كتبهم فخانوها وبدلوها، فدل هذا التبديل والتحريف أن الناس لن يكونوا أوفياء لكتبهم، فمن الله تعالى على هذه الأمة بأن نزع منها حق الحفاظ على الكتاب وألزم الرب جل في علاه نفسه بأن يحفظه {**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**} وكان الأوائل يقتلون أنبياءهم، فعصم الله نبي هذه الأمة من أعدائه {**والله يعصمك من الناس**} ومسيرة الأنبياء مع أقوامهم دلت على أن كل نبي أتى إنما أعطاه الله سبحانه وتعالى ما ظهر لمن قبله أنه محتاج إليه، ولو تفرغ بعض طلبة العلم ليرى تطور منهج الأنبياء في الدعوة لرأى العجب العجاب، ومع أن هذا التطور شرعي ورباني، أي أنه وضع إلهي، ولكن مع توقيفه إلا أن الله سبحانه وتعالى يعلم عباده فوائد ما فرض عليهم من تطور جديد من خلال تجربة النبي السابق، لتظهر حكمة الله تعالى في التشريع الجديد، وليشعر النبي وأتباعه أن هذا الفارق كان له ما يبرره من حكمة الله تعالى، وهذا كله من رحمة الله تعالى بعباده.

لقد كان سبحانه قادرا {**لا يسأل عما يفعل**} أن يقيم هذه الحياة في أسس وجودها القائمة على الصراع بين إرادة الله سبحانه وتعالى وبين إرادة الشيطان، إرادة الله تعالى التي تقدم للناس الحق، وتجزي على الخير الأجور المضاعفة، وبين إرادة الشيطان التي تقدم للناس الباطل، وتجزي أتباعها يوم القيامة {**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا**} وقوله لهم: {**وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم**} وغيرها من عبارات البراءة والإبعاد، لقد كان الله قادرا أن يقيم هذه الحياة على هذا الصراع من غير المقدمة التي تمت في السماء والتي تبرر هذا الصراع على الإنسان، لكن الله سبحانه وتعالى حكيم ورحيم بعباده، فإنه قدم لهم هذا الصراع مع مقدمة كونية حقيقية لتكون أدعى لقبولهم وأرجى لاستجابتهم، فسبحانه في علاه يدعوهم إلى الحق بكل الصور التي تدفعهم للقبول والرضا، إذ سبحانه لا يشرع لعباده من أمر إلا ويقطع لهم من الحقائق الكونية التي تثبت لنفوس البشر التواقة للمعرفة أن ما قاله وشرعه موافق لما خلقه وأبدعه، {**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ**} وهذا قد حدث مع حركة الأنبياء وسيرتهم مع أقوامهم، فما من نبيّ إلاّ وقد أغنى النّبيّ القادم بعده بتجربة يتواصل معها القادم ليعطي ثمرة أن يكون أكثر ونتيجة أعظم، ولذلك

فليس من الغريب أكثر الأنبياء أتباعاً هم آخر الأنبياء، موسى وعيسى ومحمّد عليهم الصّلاة والسّلام، وعدد أتباعهم كثرة على التّوالي، وأكثرهم تابعاً هو محمّد صلى الله عليه وسلم، فها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله تعالى كما دعا نوح عليه السّلام مدّة ثلاثة عشر سنة في مكّة فلم يستجب له إلاّ القليل كما قال عن نوح {**وما آمن معه إلاّ قليل**}. ومحمّد عليه السّلام في دعوته على منهج نوح لم يستجب له إلاّ القليل، فشرع لهم طريقاً آخر في الدّعوة وهو اجتماع كلمة الحقّ مع القوّة والسّيف، فبهذه الطّريق دخل النّاس في دين الله تعالى أفواجاً، هكذا ينبغي أن نفهم قصص الأنبياء في القرآن، وهي صورة المقارنة بين طريقة الأوائل وطريقة محمّد صلى الله عليه وسلم ليعلّم أتباعه أنّهم هم الأقوى طريقاً والأسلم منهجاً، فلا يحيدون عنه لأنّهم يرون نتائج الطّرائق الأولى ونتائج طريقة المتأخّر، وللتّدليل على هذا الذي قدّمتُ أذكر هذا الأمر وهو أنّ لوطا عليه السّلام في صراعه مع قومه تمنّى أن يكون معه شيء آخر في دعوته إلى الله غير الكلمة الحسنة في مجابهته لقومه الكافرين، قال لوط عليه السّلام: {**لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد**} هذه العبارة التي قالها لوط تحمل معها الدّعاء والرّجاء، إذ يتمنّى أن تكون معه قوّة لتساعده في الدّعوة لأنّه اكتشف أنّه لا بدّ أن يكون مع الكلمة قوّة يقاتل بها وركن شديد يؤوى إليه، فهذه تجربة نبويّة لا بدّ أن يستثمرها النّبيّ اللاحق وذلك بتشريع ربّانيّ. فكان الذي بعده لا بدّ له من ركن شديد يأوي إليه، قال صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأ الآيات السّابقة {**لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد**} قال: ((رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عزّ وجل - فما بعث الله بعده من نبيّ إلاّ في ثروة من قومه))، فدلّ هذا على تطوّر مسيرة الأنبياء في دعوتهم إلى الله بطريقة سننيّة، فإذا جاء تشريع جديد فهو بيّن الضّرورة، واضح السّبب.

لماذا ذكرت قصّة ابني آدم في القرآن الكريم؟:

لقد ظهر من قصّة ابني آدم أنّ النّفوس البشريّة لا ترتدع بالكلمة، ولنقل إن الكثير منها لا ترتدع بالكلمة وهو الأصل في النّفوس، وأنّه لا بدّ أن يشارك الكلمة الحسنة التي تقنع العقل بالصّواب عصاً تردع النّفس الرّاغبة في الشّر، لأنّ الإنسان قد يقتنع بالحقّ ويعلمه ويدركه، ولكن يمنعه من اتّباعه هوى النّفس وشهواتها، فلا بدّ من علاج القسمين: الفكر والنّفس،

فالفكر يعالج بالموعظة والذّكرى والمجادلة، والنّفس ترتدع بالعصا والسّيف، والرّهبة من العقاب، وهذا هو الصّواب في التّربية كما أمر صلى الله عليه وسلم راعي البيت أن يعلّق العصا في بيته ليراها أهله تخويفاً لهم من ارتكاب المخالفات، وتجربة ابن آدم الأوّل كشفت لنا هذا الأمر، فهذا أخ شقيق (وجود العاطفة النّسبيّة الصّلبيّة) تدفعه نفسه إلى قتل أخيه رغبة في الشّهوة النّفسيّة، فيعظه أخوه {**إنّي أخاف الله**} ويخوّفه العقاب {**فتكون من أصحاب النّار**}، ولكنّ هذه الشّهوة أعمته عن العاطفة الأخويّة، وعن الموعظة العقليّة وعن رؤية العقاب الآجل، فقتله {**فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله**} ثمّ ذهب بعد ذلك نادماً {**فأصبح من النّادمين**}، لكنّ المعصية قد وقعت وقتل ابن آدم الصّالح. فهل تشريع ابن آدم الأوّل نفع في منع وقوع المعصية؟ أبداً لم ينفع. إذن لا بدّ من تشريع يمنع من وقوع المعصية.

كلمات الله التّشريعيّة، والعاطفة الجبلّيّة موانع ولكنّها ليست كافية، فجاء التّشريع الأخير، الخاتم لكلّ تشريع وفيه الحقّ المطلق بردع العاصي عن معصيته {**وإمّا تخافنّ من قوم خيانةً فانبذ إليهم على سواء**} و{**فشرّد بهم من خلفهم**} و{**فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان**} و {**وما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض**} و{**ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله**} و{**واغلظ عليهم**} و{**وليجدوا فيكم غلظة**} و"قد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات"،[1] حتّى وصل الأمر أن ترتعد فرائص الأعداء بمجرّد سماع اسم المسلمين، وهذا تفسير قوله صلى الله عليه وسلم: ((نصرت بالرّعب))، لأنّ المسلمين هم قوم يتقرّبون إلى الله بذبح أعداء الله، فالذّبح سجيّتهم، وبه يكون العالم سالماً من المعاصي والذّنوب إلاّ فيما قدّر الله سبحانه وتعالى.

فشريعة محمّد صلى الله عليه وسلم هي التي تمنع وقوع المعاصي واستفحالها:

- رجل سرق تقطع يده، فصاحب شهوة السّرقة سيتحسّس يده ألف مرّة قبل أن يمدّ يده إلى دراهم غيره..

- رجل يزني يرجم أو يجلد، فصاحب الشّهوة ستموت شهوة الجنس عنده بمجرّد تذكّره حرّ الحجارة أو ألم السّياط أو ذهاب سمعته بين النّاس..

---

[1] – وذلك في حكم سعد بن معاذ في بني قريظة في قتل رجالهم.

- رجل يريد أن يرتدّ سيجفّ حلقه خوفاً قبل أن يستطرد ذهنه مع هذا الهاجس الشّيطانيّ.

أمّا شريعة ابن آدم الأوّل فقتلته، فأيهما أهدى سبيلا.. ((**أمتهوكون أنتم، والله لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلاّ اتّباعي**))، فاتّباع سبيل ابن آدم الأوّل في مطلق كفّ اليد عن الكافرين وأعداء الدّين.. تهوّكٌ وضلال.

العنف والسرية ومذهب كف الأيدي:

هل صحيح أنّ سبب انتكاسة الحركة الإسلاميّة بمجملها في الوصول إلى أهدافها هو تبنّيها منهج العنف واعتماد السرّيّة وسيلة في الحركة والعمل؟.

هذا ما يحاول خصوم المنهج إثباته وتقريره، وهم لهم طرق عدّة في إثبات هذه المقولة.

هؤلاء الخصوم تتفاوت درجاتهم في فهمهم للمنهج الصّداميّ، فبعضهم يرى أنّه بمجرّد تبنّي الحركة الإسلاميّة للعمل السّياسيّ أو كما يسمّيه بعضهم الكفاح السّياسيّ يصبح المنهج صداميًّا يعطي المبرّر للطّواغيت بضرب الحركة، وبعضهم مثل جماعة التّبليغ يرى أنّ مجرّد الحديث في السّياسة طريق مهلك للعمل الإسلاميّ، لأنّنا بذلك ندقّ نواقيس الخطر التي يتخوّف منها الطّغاة، ومن أعجب ما نرى ممّن ينتمي للإسلام أن نرى بعض المشايخ وخاصّة ممّن ينتمي للتّيّار السّلفي ويتدثّر بشعاره يعلن ويجعل وليّ الأمر في مرتبة لا يجوز أن يتحدّث عنها أحد بنقد أو تقويم، ولكن هل صحيح أنّ سبب ضرب الطّغاة للحركة الإسلاميّة تبنّيها العنف ؟.

إنّ طرح القرآن الكريم لعمليّة الصّراع بين الحقّ والباطل كطريق حتميّ في هذا السّبيل يجعلنا نثق أنّ البلاء لابدّ أن يقع على أيّ وجه من الوجوه، وأنّ الحقد الذي يكنّه الطّغاة لأهل التّوحيد قضيّة لا مفرّ منها ولا مهرب، لأنّ الباطل بذاته يكره الحقّ ويحقد عليه ولا يحتاج لمبرّر آخر لضربه وسحقه، فهذه علاقة جدليّة حتميّة لا مفرّ منها في لقاء الحقّ والباطل وفي تضاربهما.

ثمّ تعالوا إلى أرض الواقع لنرى أيّ نوع من العنف تبنّت الحركة الإسلاميّة حتّى كان ضربها عملاً لا مفرّ منه من قبل الطّغاة ؟.

إنّ جماعة "الإخوان المسلمين" هي التّجربة التي يحاول من خلالها أصحاب مدرسة كفّ الأيدي الاعتماد عليها في تقرير مبدأ أنّ استخدام العنف سبب شقاء العمل الإسلاميّ، هذا على الرّغم من أنّ هذه المدرسة لا تفتأ المرّة تلو المرّة، بمناسبة وغير مناسبة الإعلان أنّ بينها وبين منهج العنف عداء مستحكم أصيل، بل وتذهب أكثر من ذلك، وذلك بإعلانها أنّها لن تخرم موادّ الدّستور والقانون في أيّ عمل من أعمالها أو تصرّف من تصرّفاتها، وهي قد قبلت بكلّيّتها نتائج العمل الدّيمقراطيّ، حتّى أنّ رجلاً من رجالهم في برلمان الكويت يعلن بعد فوز الحكومة في إحدى قوانين الردّة والكفر فيقول هذا البرلمانيّ: لقد قبلنا بالدّيمقراطيّة كحكمٍ فعلينا أن نرضى بنتائجها. لكن هل الضّربة التي تلقّتها جماعة الإخوان المسلمين من عبد النّاصر هي بسبب تبنّي الجماعة لمنهج العنف ؟.

الجواب بكلّ وضوح: لا وألف لا، فإنّ الجماعة منذ مؤسّسها ومرشدها الشّيخ حسن البنّا إلى أن ضربت زمن الرّجل الثّاني في قيادتها وهو المحامي الهضيبي لم تخرم العمل السّلميّ قِيد - بكسر القاف لا بفتحها - أنملة، فقد كان الشّيخ البنّا واضحاً في عدم تبنّيه العمل الصّداميّ ضدّ الحكومة المصريّة بقيادة ملوكها الكفرة، فهو الذي أمر جماعته أن تخرج لاستقبال فاروق بعد عودته من إحدى أسفاره، وأمرها في هذا الاستقبال أن تهتف له لتأييده وبرّر ذلك بقوله: إنّ على العالم أن يعرف أنّ الشّعب المصريّ يحبّ مليكه، ومعلوم أنّ الأستاذ حسن الهضيبي هو الذي أمر بحلّ الجهاز الخاصّ، وهو الجهاز العسكريّ الذي كان حسن البنّا قد أنشأه من أجل قتال الإنجليز، وهنا لا بدّ من وقفة وهو أنّ كلمة الجهاد التي ترفعها جماعة الإخوان المسلمين على معنىً واحد، ومفهوم قاصر، وهو جهاد الأجنبيّ: أي أن يجاهد المصريّون الإنجليز، ويجاهد الفلسطينيّون اليهود، ويجاهد الأفغان الرّوس، أمّا جهاد الكافر العربيّ أو المرتدّ العربي فهذا لا يدور بخلدهم، فهو ليس له وجود في أذهانهم بسبب عدم وجود المقدّمات الشّرعيّة لهذا النّوع من القتال وهو فهم التّوحيد على أساس فهم الصّحابة رضي الله عنهم، فالقائد الذي لا يفتأ يوزّع الرّحمات والدّعوات بدخول الجنان للطّواغيت أمثال عبد النّاصر والسّادات وغيرهما وأقصد الأستاذ عمر التّلمساني، لا يمكن أن يكون على بصيرة واضحة لفهم التّوحيد الذي بعث به الرّسل، فجماعة الإخوان المسلمين التي تتّهم أنّها أفرزت الفكر الجهادي، أو كما

يزعم تيّار الضّلال والبدعة، تيّار مدرسة ربيع المدخلي وفريد المالكي وقد انضمّ إليهم أخيراً في تلك الزّفّة "جمعيّة إحياء التّراث الإسلاميّ" عن طريق مجلّتهم الضّالّة "الفرقان"، هذا التّيّار المتدثّر بلحاء السّلفيّة كذباً وزوراً يتّهم جماعة الإخوان المسلمين أنّها مصدر الفكر السّلفيّ الجهاديّ، فإنّها هي التي أوصلت الشّباب المسلم إلى تكفير الحكّام، نقول إنّ جماعة الإخوان المسلمين بريئة من هذه التّهمة، لأنّ الجماعة بكلّ أدبيّاتها لم تدْعُ إلى شيء من ذلك البتّة، فسيبقى السّؤال إذاً قائماً، لماذا ضربت جماعة الإخوان المسلمين؟ هل لتبنّيها العنف مع الحكّام؟ وأعود وأقول إنّ مفهوم العنف والصّداميّة مختلفة درجته عند تيّار كفّ الأيدي، فهو متفاوت بين الأستاذ محمّد سرور مثلاً وبين جماعة التّبليغ، فالأستاذ سرور عند جماعة التّبليغ مثلاً هو صداميّ المنهج، وطريقه مهلكة لأنّه بسلوكه لطريق العمل السّياسيّ عن طريق البيان والتّبليغ يعطي المبرّر للدّولة لضربه وتصفيته، بل إنّ الأستاذ سرور بما هو عليه من سلوك طريق السّلامة ونبذ القتال، ونبزٍ لجماعات الجهاد في العالم الإسلاميّ بأقبح الأوصاف متّهم من التّيّار المذكور - تيّار السّلفيّة المزعومة - بأنّه من الخوارج، وهذا قاله أحد أعمدة هذا التّيّار وهو الشّيخ عبد الله السّبت، وهكذا تدور الدّائرة.. سرور يتّهم جماعات الجهاد بالخارجيّة، وسرور متّهم من جماعة السّلفيين المزعومة بأنّه خارجيّ، بل إنّ الشّيخ عبد الرّحمن عبد الخالق متّهم عند البعض بأنّه يحمل فكر الخوارج، وهو يدعى ضالا فقط لأنّه أجاز للسّلفيين في الكويت أن يتكتّلوا وينتظموا ويمارسوا العمل السّياسي، وهكذا تصبح السّاحة هي ساحة شعارات جوفاء لا يعقل النّاقل لها وكذلك النّاطق شيئاً من مفهومها ومدلولها. إنّ مجرّد وجود جماعة تدعو إلى الله تعالى، وتدلّ النّاس على الخير، وتنشر في النّاس الفضيلة جماعة لن تكون مقبولة من قبل الطّواغيت، ولن ترضى عنها حكومات الرّدّة في عالمنا المليء بالشّياطين، إنّ حكّامنا لا يحتملون وجود الأطهار بين أظهرهم، وهذه نفسيّة المرتدّ، لأنّها مشتقّة من نفسيّة الشّيطان الذي قال: {**لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم**}، فهؤلاء يجب عليهم أن يقضوا على الخير، سواء تبنى هذا الخير العنف أم لم يتبنّاه، وهو يجب عليه أن يتبنّاه ليحمي نفسه أوّلاً وليدمّر معاقل الشّياطين التي تمنع وصول الخير إلى النّاس.

في بلدة كانت تسمّى إسلاميّة، رئيسها خرّيج الجامع الأزهر بالشّهادة العالميّة في علم الأصول، انتخبه النّاس يوماً لأنّه رجل متديّن، هذا الحاكم المرتدّ (عالم أصول) يمنع في بلده أن يتحدّث المشايخ في المساجد عن حرمة الخمر، ويمنعهم أن يتحدّثوا عن الحجاب، ومن خالف فمصيره السّجن والتّعذيب، وهو يسهّل الدّعارة بدرجة عالية حتّى أني سألت أحد الصّالحين في تلك البلدة عن سبب عزوف المتديّنين من الزّواج من بني جلدتهم، فأجابني شاكياً إنّه من الصّعب جدّاً أن تجد في بلدتنا عذراء.

هذا الحاكم يلاحق النّاس بسبب طهرهم وعفافهم.

وفي النّهاية..

إن حملت السّلاح ستقتل..

وإن ركعت ستقتل..

إذاً احمل السّلاح ومت عزيزاً، وربّما تنادى في الأعالي: فلان شهيـد.

جوهر الخلاف بين مدرسة الجهاد والسلام :

بقليل من التّمعّن والنّظر يتبيّن للفاحص أنّ الخلاف بين مدرسة كفّ الأيدي والصّبر وترك العنف والعمل الصّداميّ، وبين المدرسة الجهاديّة السّلفيّة ليس خلافاً على باب من أبواب الفقه، وليس الخلاف حول مسألة فقهيّة، يسع النّاس الخلاف فيها، بل الخلاف حول منهج ومنهج، بل يصل الخلاف إلى مستوى طبيعة الفهم للإسلام وجوهره، حيث تنظر بعض التيّارات المذكورة إلى الإسلام من بعد إنسانيّ يعظّم فيها الإنسان إلى درجة التأليه، وهذا يفرز صورة تعطي للعقل الإنسانيّ حقّ إلغاء النّص تحت دعاوى أصوليّة كثيرة، مثل مدرسة "الغائيّة" أو مدرسة "المصلحة" التي ينسبونها كذباً وزوراً للإمام أبي إسحاق الشّاطبيّ، وأمّا المدرسة الجهاديّة فهي تتعامل مع القضيّة من بُعد واحد، وهو بعد العبوديّة لربّ العالمين، وبه تلغى الأهواء التي تسمّى زوراً بالعقل والمنطق.

أعمدة المدرسة المذكورة التي مثّل صورتها الأوضح جودت سعيد وتلامذته، تبيّن لنا فساد ما قالوا في فهمهم للقصص القرآني، وقبل ذلك فساد منهجهم في التّعامل مع الوحي، والمنهج

الأصوليّ التّحليليّ للنّص، الذي أوصله إلى درجة الدّعوة إلى إلغاء قدسيّة النّص، وكذلك في فهمهم للسّنن القدريّة التي تتبجّح المدرسة أنّها رائدة هذا الباب وذلك أنّهم زعموا أنّهم أصحاب دعوة إلى الدّراسات السننيّة في المجتمع والنّفس، ولا أدري إلى أيّ درجة من الفهم الثّاقب وصلوا في تحليلهم لحركة الخميني، التي زعموا في أبحاثهم أنّ حركته ومنهجه في رمي الورود ضدّ الدّبّابات، وإلقاء الابتسامات ضدّ فوّهات البنادق هي التي ضمنت النّجاح لحركته ضدّ الشّاه وشرطته السّرّيّة "السّافاك"، وجيشه الذي كان يحضّر كخطّ أوّل ضدّ الغزو الرّوسيّ من قبل الإدارة الغربيّة! هل هذه النّتيجة التي خرجوا بها هي ممّا يستحقّ أن يدخل في باب البحث العلميّ ؟ أو لنَقُل في مرتبة الكلام الذي يُستحقّ أن يحترم؟.

هل صحيح أنّ غاندي (أستاذ المدرسة الأوّل) بحركته السلميّة السلبيّة المزعومة هي التي ضمنت له النّجاح ضدّ الآلة الإنجليزيّة في الهند ؟! فأوصلته إلى تحقيق أهدافه وذلك حين أصيب الجنديّ الإنجليزيّ بعقدة النّدم فألقى السّلاح جانباً وترك الهند وشأنها؟! أصحيح أنّ هذه هي الدّراسات السننيّة الواعية التي تتعامل مع الحدث باحترام وتقدير؟!.

لا أدري والله أمام هذا الغثاء ما أقول؟ وأنا لست هنا بصدد دراسة حركة الخمينيّ لأنّي أعتقد وإلى الآن أنّ حركته في التّغيير كانت كجبل الثّلج الطّافي على الماء، إذ يمثّل الجانب المخفيّ منه أكثر بكثير من الجانب الطّافي، وحركة الخميني ولا شكّ أصابت الكثير من الرّؤوس المفكّرة، والقيادات الحركيّة بالصّدمة، إذ ظنّوها هي النّموذج الأصلح في التّغيير، فبعض الحركات خرجت بنتيجة اعتماد نظريّة حركة الجماهير، وأنّ الشّعوب هي الرقم الصّعب، وهي القادرة على خوض المعركة، وتحقيق النّتائج، ولو أردنا أن نردّ على هذه النّتيجة بصورة مقابلة لها تنقضها لرأينا أنّ تجربة الإنقاذ في الجزائر مثّلت الجانب السّلبيّ لهذه النّظريّة، وأنّ الجماهير كعدد لا تشكّل الرقم الصّعب في التّغيير، فلو قال قائل أنّ العمل النّخبويّ الطّليعيّ هو القادر على تحصيل النتائج لاحتجّ بآلاف التّجارب الانقلابيّة في العالم القديم والحديث، فليس بمثل هذه الأبعاد الفكريّة السّاذجة تناقش حركة التّغيير الانقلابية، لأنّ أعظم الباحثين والعاملين في هذه المسألة سيقول لك: إنّ أعظم النّاس إدراكاً لطبيعة عدوّه وحقيقته، ولطبيعة واقعه لن يستطيع أن يجزم بنتائج الحركة الثّوريّة الانقلابية، بل إنّ النّبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم لم يكن

يدري ما يفعل به، ولولا الوحي الإلهيّ المبشّر بحصول الظّفر لما كان لبشر - أيّ بشر - أن يخبرنا جزماً بنتيجة حركة التغيير وسبب ذلك أنّ حركة التغيير الثوريّ الانقلابيّ هي من أشقّ ما يقع في الوجود من تفاعلات، وعناصر هذا التفاعل تشمل عناصر الوجود بأكمله، ثمّ إنّ من عناصر هذا التّفاعل الإنسان، وهو ليس بعنصر جامد خالي الإرادة، فإلى أيّ درجة سيضمن القائد هذا الرقم المتغيّر، والجماهير على مدار التّاريخ ضعيفة الإدراك، يسيطر عليها عقليّة وغريزة القطيع، فبلمسة ذكيّة تصبح الهتافات في اتّجاه معاكس إذا فقد اللاعب بعض بريقه أو إذا دخل عامل جديد على هذا التّفاعل الواقع.

حركة الخميني حركة معقّدة، دخلت فيها الكثير من العناصر، المعلوم منها والمجهول، الأصيل فيها والدّخيل، فكيف لعقلي الصّغير، ولنفسيّتي التي تحلّل الأشياء تآمريّاً أن أقبل القول أنّ الخميني بإخلاصه - مع كفره - قبلت منه فرنسا أن يركب من مطاراتها وينطلق كمخلِّص لمجتمعه من نير العبوديّة للغرب، من غير أن يقدّم الخمينيّ شيئاً من إخلاصه لشعبه مقابل هذا الصّنيع الفرنسي، بل الدوليّ.

نرجوكم: قليلاً من احترام العقل يا أصحاب العبوديّة للعقل والمنطق، لأنّه ليس من العقل ولا من المنطق أن يقول لي جودت سعيد ومدرسته أنّه بمجرّد أن أمر الخمينيّ الشّعب الإيرانيّ أن يواجه جيش الشّاه بالورود والقبلات حصلت المعجزة ووقع النّصر وتحقّق السّرّ الذي لم تكتشفه الحركات الإسلاميّة!!.

ويقال كذلك بمثل هذا القول في استشهادهم بحركة غاندي ضدّ الاحتلال الإنجليزيّ للهند، ويقال هنا على الخصوص: لماذا ألغت هذه المدرسة ما كان ظاهراً كنور الشّمس ضياءً ووضوحاً، وهو أنّ غاندي صنيعة إنجليزيّة أوجدوها لتحقيق الهدف بسلب المسلمين حقّ قيادة الهند ورئاستها، إذ من المعلوم أنّ حركة الجهاد في الهند كانت على أشدّها بقيادة العلماء المسلمين من مدرسة "ديوبند" ومشايخ أهل الحديث، فإنّه قد علم القاصي والدّاني أنّه لم يُطلق طلقة واحدة ضدّ الإنجليز في الهند إلاّ من قبل المسلمين، فحركة التّحرّر من الاستعمار كان المسلمون وقودها ودثارها، وأدرك الاستعمار الإنجليزيّ أنّه لا بدّ من ترك الهند، ولا بدّ من وجود بديل وراءه يحقّق له أهدافه، وهي صورة تكرّرت في كلّ البلاد، فلا بدّ من صنع الصّنم، فكان

غاندي، حيث طبّلت له صحافة الغرب وأظهرته بصورة القدّيس المخلص؛ رجل وطنيّ يلبس من قطن بلاده، ويلتحف بلباس القدّيسين والزّهّاد، والأطمّ من ذلك هي عنـزته، هذا الحيوان السرّ، الذي يصرّ غاندي على اصطحابها في كلّ أسفاره حتّى وهو في أوروبّا إذ أنّه يصرّ أن لا يشرب إلاّ من لبن عنـز بلاده، وهي مهزلة تقتلك من القهر، لما فيها من احتقار للعقل، والأدهى من ذلك أنّ النّاس يهلّلون - طبقاً لعقليّة القطيع - ويعظّمون هذا القدّيس القادم من رحم الغيب "غاندي"، لكن دعوني - بصفتي رجلٍ قرّر أن لا يلغي عقله - أن يسأل بعض الأسئلة، وهي أسئلة بريئة شهد الله:

1 - هل كانت عنـزة غاندي تأكل أم أنّها لا تأكل؟.

2 - هل كانت عنـزة غاندي تبرّز وتتغوّط أم أنّها من أصحاب السرّ؟.

3 - هل كانت العنـزة تدفع أجرة الطّائرة في سفرها من الهند إلى أوروبّا أم لا؟.

ولا أدري هل فهمت الأسئلة أم أنّها أسئلة صبيان كما يريد أن يجعلنا جودت سعيد ومدرسته؟.

مذهب ابن آدم الأول والتصوف الفكري :

إنّ ملاحقة أهل البدع وكشف سترهم هو منهج أهل الحقّ، وخاصّة إذا صار البدعيّ داعياً إلى بدعته، مزيّناً لها أمام النّاظرين، إنّ الخلاف الحاصل بين جماعات الجهاد السّلفيّة وبين غيرهم من جماعات العمل الإسلاميّ الأخرى خلاف منهجيّ، وليس خلافاً فرعيّاً، ومدار الخلاف حول الصّواب في فهم السّلف لتوحيديّ الشّرع والقدر، ثمّ حول المنهج الأصولي في فهم النّصّ وتحليله، والذين يريدون أن يهوّنوا من شأن هذا الخلاف جديرون بأن يخرجوا من زمرة الفقهاء لواقع المناهج المطروحة على السّاحة، ومن زمرة أهل البصيرة لمناهج السّلف في التّوحيد والأصول.

لعلّنا أطلقنا القليل من النَّفَس في مناقشة مدرسة مذهب ابن آدم الأوّل كما يسمّون أنفسهم، وسبب ذلك هو أنّ هذا المذهب تستقي منه أغلب جماعات نبذ العنف والعمل الصّدامي، فبعضهم يستقي منه حتّى التّضلّع، وبعضهم يأخذ منه لمّة أو لمّات، بحسب ما يلائمه

من الهوى والاستحسان، وقد رأينا كيف تقلب هذه الجماعات حقائق الوجود، وتقريرات الفطرة، وكان من أبرز ما دعت إليه من هذا الباطل ما قاله جودت سعيد، وكذا تلميذه خالص جلبي من أنّنا علينا أن لا نرهب السّجن، ولا نعاديه، ولا نطالب بإخراج المساجين من إخواننا، بل علينا أن نطالب بأن يذهبوا بنا نحن كذلك إلى السّجن، وقولهم هذا واضح تمام الوضوح في مخالفته لفطرة الإنسان السويّ، فإنّ الإنسان السّويّ يكره القيد ولا يشتهيه، بل يحاول جاهداً أن يخرج منه إن وقع فيه، ولكن حيث أثّر قيح الفكر الصّوفيّ في كلّ جوانب الحياة، فغاير بين الحقائق، فشتم الصّواب وعابه، ومدح الخطأ وشجّع عليه، وهذا الذي قالوه ينسجم تمام الانسجام مع نتائج الفكر الصّوفيّ، فنحن نعلم ما يمدح التّلاميذ به شيوخهم هذه الأيّام، حيث يقولون مثلاً: إنّ شيخنا - حفظه الله - لا يقرأ الصّحف ولا يسمع الرّاديو ولا ينظر إلى التّلفزيون.. و....، فشيخنا مشغول طوال وقته بين كتب الأوائل!!.

وهذا الذي قالوه يعيب الشّيخ ويحقره أكثر ممّا يمدحه، وقد وجد كذلك من يمدح العزوبيّة في العلماء، لأنّ انشغالهم في العلم منعهم من الزّواج، أو أنّهم كما قالوا آثروا العلم على الزّواج، ولا ندري كيف يُمدح المرء بأن يجاهد نفسه ليغيّر فطرته وبشريّته؟! فهل يقوى؟! الجواب: بالنفي.. بل نجزم أنّه يضيع الأوقات الكثيرة من تفكيره بهذه الفطرة التي فطر عليها أكثر من انشغاله في بيته وزوجه إذا كان محصناً (هذا إن كان سويّاً)، ويكفيه مدحاً أنّ الشّارع أطلق على المتزوّج لفظ المحصن.

وهكذا بفضل الفكر الصّوفيّ تنقلب الحقائق، ومن أراد المزيد فعليه بكتب طبقات الأولياء ليرى العجب العجاب أمثال كتاب: "جامع كرامات الأولياء" ليوسف النّبهاني، و"الطبقات الكبرى" للكبريت الأحمر الشّعراني وأمثالها.

فها هو جودت سعيد وتلميذه ومدرسته يريدون من الأمّة ومن الأئمّة ومن الدّعاة إلى الله أن يذهبوا إلى السّجن باختيارهم، فهل قولهم هذا ممّا يستحقّ أن يناقش من وجهة نظر شرعيّة، أم أنّ الأولى بنا أن نناقشه من باب دخوله في أقوال المكلّفين أو المعذورين؟! أظنّ الثّانية هي الأولى مع مثل هذه الأقوال، لكن ما يجب أن نقوله ونذكّر به هؤلاء النّوكى بحقيقة السّجون في العالم المرتدّ، وهل يجوز للمسلم وقد علم حقيقتها أن يقول مثل قولهم، مع التّذكير

مرّة أخرى أنّ رسالة جودت سعيد التي قال فيها هذا القول رسالة موجّهة للشّباب المسلم في الجزائر إبّان حمى الدّعوة إلى إحياء الدّولة الإسلاميّة.

إنّ السّجن في العالم المعاصر وخاصّة في بلاد الردّة لم يعد حبسا فقط، حيث يوضع المرء في جبّ يمنعه من ممارسة بشريّته في الحياة وحركتها، فيمنع من أهله وبيته وعمله، بل صارت السّجون آلاما لا تقوى لها النّفس البشريّة بحال، وعلينا على الدّوام أن نتذكّر صنائع المرتدّين مع المسلمين في كلّ وقت وحين، لتبقى قلوبنا ونفوسنا مليئة بالبغض لهم، وعدم التّفكير البتّة بالعفو عنهم أو مسامحتهم، وإن أقلّ ما يحكم فيهم إذا ظفر المسلم بهم هو حكم سعد بن معاذ - رضي الله عنه - في حلفائه من بني قريظة، حيث حكم أن تقتل مقاتلتهم، وكلّ من بلغ منهم الحلم، وتسبى نساؤهم، وتغنم أموالهم، وهو حكم الله تعالى من فوق سبع سماوات، إن ما نراه من ضعف ذاكرة قادة الحركات الإسلاميّة مع خصوم الإسلام جدّ مؤلم، ولا يتلاءم مع طبيعة المعركة بيننا وبين هؤلاء المرتدّين.

الإسلام بين منهجين :
الجهاد وابن آدم الأول

كان ممّا قالته هذه المدرسة، ودعت النّاس إليه ترك أيّ إشارة أو كلمة فيها عداوة لأعداء الدّين، حيث يقول جودت سعيد: أن نكون شهداء لله وقوّامين بالقسط مع الذين يسيئون إلينا، وعلينا أن ندرّب أنفسنا أن نكون كذلك، ونتواصى بذلك، ونتواصى بالصّبر عليه، حتّى أنّنا لسنا في حاجة أن نطلق لفظ العدوّ عليهم، وإنّما اختلفنا في التّفسير، والله تعالى علّمنا أن نقول: {وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين}.ا.هـ. هذا الذي قاله جودت سعيد تمارسه الكثير من الحركات المنتسبة للإسلام، فالإخوان المسلمون ما زالوا يردّدون صباح مساء أنّ النّصارى إخوانهم، كما ورد في بيان لهم تحت عنوان: "بيان للنّاس"، وما مؤتمرات الحوار بين الأديان إلاّ صورة مثلى لمثل هذا الانحراف الخطير، وهؤلاء القوم يمارسون هذه الأخلاق التي يزعمونها حسنة، ولكنّها على حساب الإسلام، فالإسلام هو الذي يجني الثّمار السّيّئة لهذه الأفعال القبيحة، وهذه المقولة وغيرها من المقولات تؤكّد ما قلنا مراراً من أنّ هؤلاء القوم

يفقدون الفهم الصّحيح للبّ هذا الدين وجوهره، وحكمته التي إن لم يفقهها المرء فقد الرّشد كلّه، واضطربت رؤاه وتصوّراته، وجوهر الدّين قائم على العبوديّة لربّ العباد، وأنّ الإنسان عبد لهذا الإله الحقّ، فليس له من قول يراه، ولا مذهب ينتحله سوى ما أراده الله تعالى له، فهو لا يقدّم قولاً على قول الله سبحانه وتعالى، ولا يؤثر رابطة على رابطة عبوديّته لربّ العالمين، فإذا أخطأ المرء هذه القضية أخطأ الدّين كلّه، وتظهر حينئذٍ المفارقة بين منهج عبودية الله ومنهج متّبع الهوى والرأي الذّاتي.

من فهم الأولى وآمن بها، واعتقدها على ما هي عليه فإنّه يحارب الخلق ويعاديهم، أو يحبّهم ويواليهم بمقدار قربهم من الله تعالى أو بعدهم عنه، فهو يحارب من حارب الله، ويعادي من كفر بالله.. {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر}. وقوله صلى الله عليه وسلم: ((وقاتلوا من كفر بالله)). فعلّة حركته العدائيّة نحو مجموعة من الخلق هي عداؤهم لله تعالى، ولو كانت هذه المجموعة من أكثر النّاس إحساناً له وعطفا عليه كأن يكون والده أو والدته، فإنّ المسلم لا ترتجّف يده قط وهو يذبح والده أو أخاه أو ابنه إن وقف هؤلاء مع صفّ الكفر، أي صفّ العداء لله تعالى، وهو كذلك يحبّ من أحبّ الله تعالى، ويدافع عنه، وسيؤثره على نفسه وإن كان من قوم لا يعرفهم أو يعرفونه، إذا فهمت هذه النّكتة فإنّ المرء لا يسأل عن موقف ظهر منه التّناقض بين إحسان قوم له وبين سعيه الجادّ في قتالهم وقتلهم، فعلّة حرب المسلم للنّاس جميعاً هو كفرهم بالله تعالى، لأنّهم يسبّون الله سيد المؤمنين، وحيث سبّ سيّد العبد، فإنّ على العبد أن ينتقم لسيّده لأنّه لا يرضى لسيّده وحبيبه أن يتطاول عليه أحد، أو أن يتّهمه أحد بما ليس فيه، كأن يقول: إن سيّده وحبيبه وإلهه ثالث ثلاثة، أو أنّ فيه بعض صفات النّقص كادّعاء الشّريك له، أو اتّهامه بعدم قدسيّة حكمته في شرعه وقدره، أمّا إذا كان الرّجل من الصّنف الثّاني، وهو من عامل النّاس على أساس معاملتهم معه فإنّه شاء أم أبى سيكون قد سيَّدَ ذاته، وألّه هواه، وهو لا يلتفت إلى جانب رضى الله تعالى عن الخلق أو غضبه عليه، وهذا هو مظهر تأليه الإنسان لذاته أو لغيره من البشر، وهذه النّقطة هي التي أوجدت الفقه السّيء في أمّتنا نحو الجهاد والقتال، فالجهاد في ديننا في سبيل الله تعالى، أي أنه متعلّق برضى الله وغضبه، فنحن نقاتل من أغضب الله ولو أحسن إلينا أو ادّعى

الإحسان، ونحن نكفّ عمّن رضي الله عنه، ولو أساء إلينا كلّ الإساءة، وهذا يظهر بوضوح في مسألة الخروج على الحاكم الكافر، فإنّه بمجرّد أن يكفر الحاكم، يجب الخروج عليه، وبذل النّفوس رخيصة في سبيل ذلك، بغضّ النّظر عن كون الحاكم خرج عن الإسلام في نفسه، ولم يتعدّ كفره إلى غيره أم خرج من الإسلام وتعدّى كفره إلى غيره، فعلّة الخروج هي الكفر بالله تعالى، الذي أمرنا بهذا الأمر، هو الذي أمرنا أن نصبر على جور الأئمّة إذا وقع على الرّعيّة كقوله صلى الله عليه وسلم: ((وأطع أميرك وإن جلد ظهرك وأخذ مالك))، وعلى أساس هذا الأمر ادّعى قوم عدم وجود جهاد الطّلب، وقصروا الجهاد على جهاد الدّفع، وهذا الذي قالوه لم يقله أحد من الأوائل كما قدّمنا عند مناقشتنا لمحمّد سعيد رمضان البوطي، وهذا هو الذي دفع أقواماً إلى إنكار حدّ الردّة، حيث زعموا أنّ الردّة التي يقاتل النّاس عليها هي الخروج المسلّح ضدّ الدّولة، وليس هو الكفر بالله تعالى، وجعلوا يخبطون في الظّلمات بتأويلات فاسدة مثل قولهم: إنّ قتال أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه للمرتدّين لخروجهم عن الدّولة وحكم أبي بكر، أي قتال سياسيّ حسب تقسيمهم، وليس هو قتال من أجل حقّ الله تعالى، فأنت ترى العلّة في الخلاف ليست فرعيّة في فهم النّصوص على غير محلّها، ولكن في فهمهم لحكمة الدّين وحقيقته، فهو خلاف بين منهج ومنهج، والخلاف بينهما أشد من خلاف أهل الحديث والمعتزلة، لأنّ أغلب ما قاله المعتزلة قاله هؤلاء وأشدّ منه كذلك، وموقف هذا التّيّار من منهج أهل الحديث معروف، سطّر في كتب أصحابه.

هذه المدرسة التي تضلّعت بالرأي الفاسد، والأصول البدعيّة اضطرت لتوافق منهجها أن تقول بترك عداوة أعداء الملّة والدّين، وكلام جودت سعيد المتقدّم هو في حقّ الفرانكفونيين العلمانيين في الجزائر وليس مع جماعة من أهل السنّة والجماعة. حتّى أننا لسنا في حاجة أن نطلق لفظ العدو عليهم، وإنّما اختلفنا في التّفسير، وهذا الذي قاله لا ندري أقاله لحظة جذبة عرفانيّة أم صحو وإفاقة؟ فما هو الشّيء الذي اختلفنا في تفسيره ؟ أهي آيات الله تعالى التّشريعيّة التي اختلفنا حولها؟ إذ أنّ العلمانيين في ذهنية هذا المفكّر قوم أخطأوا في تفسير القرآن الكريم وأنزلوا آياته على غير محلّها ؟.

ثمّ هل قضيّة إظهار عداوتنا لأعداء الله خاضعة للرّأي أم هي من أسس توحيد المسلم؟. إنّ الله سبحانه وتعالى بعث محمّدا صلى الله عليه وسلم لهدم الأوثان وتجريد الطّواغيت من قداستها الزّائفة وهذا لا يقع إلاّ بعيب الآلهة الباطلة، فقد كان منهجه صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى الله بيان ضلال ما عليه البشر من عبادة غير الله تعالى، فقد عاب آلهتهم، وسبّ آباءهم، وسخر من أوثانهم، لأنّه لا يتمّ التّوحيد الحقّ إلاّ بالبراءة من الطّواغيت وعبّادهم كما قال إبراهيم عليه السّلام لقومه: {إنّا برءاء منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّى تؤمنوا بالله وحده}. وهذا الذي قاله أبو الأنبياء عليه الصّلاة والسّلام قاله في زمن الاستضعاف، وقلّة النّاصرين، وهو الذي فعله نبيّ الرّحمة والملحمة، فأمر البراءة من الكافرين وعبادتهم ليس ممّا يدخل في باب المصلحة، فإنّ إبراهيم عليه السّلام قال: {وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء}، فقدّم العداوة وهي أمر ظاهر بيّن غير ظنّي على البغضاء وهي أمر قلبيّ خفيّ، ثمّ ليعلم المسلم أن قوله للعلمانيين: إنّنا اختلفنا معكم في التّفسير، هو تصويب لعبادتهم ودينهم، وهو افتراض وجود الصّواب عندهم، وهذا أمر لا يقوله مسلم، فإنّ المسلم الموحّد يجزم بكفر ما عليه العلمانيّون، وهكذا يظهر الخلاف مرّة أخرى بين منهج العبوديّة لربّ الأرباب، وبين منهج تأليه البشر وأهوائهم، فإذا علّق المسلم بغضه للكافرين بكونهم أعداء لله فلن يرضى إلاّ بأن يرمي الحقيقة في وجوههم، ولا تدخل المصالح في هذا الباب البتّة، وأمّا إذا اتّبع المنهج الآخر فإنه سيبقى جاهداً لإرضاء خصوم الحقّ وأعداء الدّين.

وههنا نصيحة لطلاّب الحقّ وناشديه أن لا يلتفتوا إلى أقوال المعاصرين ولا ينتبهوا لها إلاّ بعد عرضها على منهج الأوائل، فإنّ حقيقة الدّين في الاتّباع وترك الابتداع، وهذا أصل من أصوله التي لا يقوم إلاّ بها، وحيث ظنّ المرء أنّه قادر بذكائه أن يبتدع ديناً جديداً فهو على خطر عظيم، وإن زعم انتسابه إلى الإسلام، فعليك أخي المسلم بمنهج الأوائل فالخير كلّه في اتّباع من سلف.

موجبات وجود جماعات الجهاد في العالم (3) :

من موجبات وجود جماعات الجهاد في العالم كون الجهاد هو السبيل الأجلى والأقوى في تجلية حقائق الرجال وقدراتهم، فبه تمحّص النفوس، فتظهر على حقيقتها، فيقدَّم حينئذ من يقدِّمه الجهاد، ويؤخَّر من يؤخِّره الجهاد.

إنّ أمراض الحركات الإسلامية كثيرة جداً، وإنّ من أعظم أمراضِها التي تعاني منها وصول أنصاف الرجال أو أرباعهم أو أعشارهم إلى القيادة بسهولة ويسر، فبعض الجماعات تقدِّم الأكثر ثراءً ومالاً، وبعضها يقدِّم الأكثر مرتبةً في الوظيفة أو العشيرة، وبعضها يقدّم الأبلغ خطاباً وبياناً، وهذه ليست من ميِّزات القيادة في شيء، بل إنّ تقديم هذه الأوصاف لعلّةِ هذه الأوصاف يجني على الحركة ويقضي عليها، وهذا هو الواقع والحاصل في الحركاتِ الإسلاميّة فإنّ مما يلاحظه الناظر لبعض الحركات الإسلاميّة التقليديّة أنّه كلما ارتفع الرّجل في السلّم القيادي داخل الجماعة كلّما سَفُلَ تديّنه، وقلّت صلته بحقائق هذا الدّين، وصار أقرب إلى الفسق منه إلى الإيمان، فأنت تنظر إلى جماعة من الجماعات التي ملأت الدنيا شهرة وصيتاً ثمّ تحاول أن ترى شيئاً يميّز القيادة في علمها أو دينها أو قدرتها الإداريّة فلا ترى إلاّ مسوخاً من الرّجال، إذا تكلّم أتى بالمصائب، وإذا قرر أودى بالجماعة إلى المهالك، ولسنا بحاجة إلى التّذكير أنّ مراقباً لهذه الجماعة في بلدٍ من البلاد مُنع من اللقاءات الصحفيّة بعد لقاء - مصيبة - مع إحدى الصّحف حيث ظهر أنّه لا يصلح إلاّ وراء بسْطة (طاولة) من بسطات بائعي البَندورة، وإذا حوججت الجماعة لماذا هذا ؟، قالوا لنا: هذا قائد رمز فقط، وليس بيده شيءٌ من حقائق الإدارة والقيادة، ولا أدري كيف تقبل الجماعات الإسلاميّة بمثل هذه الألاعيب (أن تسمي رجلاً من الرجال رمزاً)؟، وكيف يقبل هذا الرجل إن كان رجلاً أن يكون رمزاً؟!.

في بلد من بلاد الردّة سمِّيت قيادةٌ من قياداتِ الجماعة الإسلاميّة المذكورة بـ "الشّركة" أي أنّ مجلس الشورى سمّي بشركة فلان (قائد الجماعة): لأنّ قيادة الجماعة كلّها من أسرة هذا القائد، فهذا من بلده، وهذا زوج ابنته، وهذا نسيبه وهذا شريكه، وهذا صاحبه، فحقّ للقواعد أن تسمّي قيادة الجماعة بشركة هذا المراقب العام لهذه الجماعة في هذا البلد.

الجماعات المعاصرة: الاختراق والتراص

حين تصبح الجماعة مهمّتها توصيل الرجال (رجالها) إلى البرلمان، فمن المقدّم حينئذٍ في هذه الجماعة؟:

1 - لأنّها تحاول جاهدة لكسب أصوات العشائريين، ورجال القبائل فإنّها ستتغاضى عن الكثير من المواصفات والميّزات في الرجال مقابل أن تبحث عن رجل تدفع له عشيرته أصواتها، فحينئذٍ المقدَّم هو رجل عشائريّ.

2 - ولأنّها بحاجة إلى المال من أجل الدعاية الانتخابية فإنّها ستقدّم الرجل الأكثر مالاً، وستتغاضى عن الكثير من الصفات الشّرعيّة للعدالة حتى تستفيد من قدراته الماليّة.

هذه الخروق وغيرها تجعل وصول الوصوليين والانتهازيين والنّفعيين والعملاء إلى القيادة سهلاً وميسوراً، وقد كان، وهذا حال الكثير من التنظيمات والتّكتّلات والتّجمّعات الإسلاميّة، حتّى المراكز الإسلاميّة لو نظرنا إلى القائمين عليها لرأيناهم على الحال الذي تقدّم وصفه.

وحتّى لا أبتعد في ذكر المطلقات فسأمرّ على بعض الحوادث التي تبيّن حال قيادات العمل الإسلامي، وهي في الحقيقة أسئلة موجّهة إلى هذه الحركات لتجيب عليها، وهي أسئلة عليهم أن ينظّفوا أنفسهم من تَبِعاتها قبل أن يتطاولوا بأنفسهم كالدّخان في اتّهام الآخرين، وادّعاء العلميّة والموضوعيّة، أو ادّعاء تصفيّة الصّف من المنافقين والمخابرات:

أ) هناك رجل مصريّ، هرب من مصر إلى بلاد الشّام واسم هذا الشّخص نجيب جويفل، ظهر بعد ذلك أنّه رجلٌ مخابراتيّ من الدرجة الأولى، هذا الشّخص كان له مهمّة تغيير القيادة في بلاد الشّام - الأردن وسوريّا ولبنان - وقد نجح، فقد أزال الشّيخ أبي قورة من الأردن عن منصب المراقب العام، وعيّن غيره في ليلة ليلاء ولم يُعرف إلى الآن سرّ التّغيير، وحدث كذلك في سورية ولبنان؟.. الرجاء كشف سرّ نجيب جويفل.

ب) حين يعترف القائد المنظّر، شيخ المشايخ أنّه جلس مع ضبّاط مخابرات من أجل دعمه لنشر كتابه "وجاء دور المجوس" الذي نشره بغير اسمه، أجاز لنفسه أن يتعاون مع الدّولة السّعوديّة ضدّ الشّيعة الرّوافض، فماذا يسمّى هذا الفعل.

نعم إنّ تصفية الصّف المسلم مهمّةٌ عظيمة، ولكن من الجهل الفاضح، والعلميّة المفقودة تبني القول: إنّ جماعات العنف المسلّح، والجهاد القتالي هي الأكثر عرضة للاختراق، فليس هناك من مقدّمات موضوعيّة لهذا الحكم القطعيّ، ثمّ أليس القول إنّ جماعة من الجماعات حين تجعل القيادة تؤول مباشرة إلى الأكبر سنّاً مثلاً، هي جماعة تؤول قيادتها إلى غير مقدّمات شرعيّة معتبرة، ثمّ لقد كان هناك اختراق لكلّ الصّفوف ولكن لو رأينا النّتيجة التّالية لتبينت لنا مقاصد الاختراق عند كلّ جماعة لنعرف قيمة كلّ جماعة على حدة.؟

- اختراق الجماعات الأخرى يؤدي بهؤلاء العملاء إلى القيادة والسّيادة والرّياسة.
- اختراق جماعات التوحيد والجهاد يؤدّي إلى الموت والقتل.

الابتلاء والامتحان

لو أراد باحث منصف أن يرى خصيصة تميز بها الصادقون في هذه الأمة، وشارة جمعت العلماء الأفذاذ لرأى بكل وضوح أن هذه الخصيصة والميزة هي الابتلاء، وهذا مصداق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل)).. و((يبتلى الرجل على قدر دينه))، ولكن ما يلاحظه المرء كذلك بوضوح أن وصول القيادة في هذا الزمان، واعتلاء منصة الزعامة (أعني في الحركات الإسلامية) هو طريق لا يمر أبدا عن طريق الابتلاء والامتحان، بل يمر عبر طريق لا يعبر بحق عن صدق الرجل وانتمائه لهذا الدين.

وعلى ضوء هذا يجوز لنا أن نسأل بعض الأسئلة البريئة مع بعض المقدمات الضرورية:

1 - الذين يطالبون الأمة باحترام العلماء لكونهم ورثة علم السلف، ولكونهم رفعوا راية السلف، لو قلنا لهم التالي: لماذا كان ينتهي أمر السلف دوما بالسجن أو القتل أو النفي مع أنهم يعيشون في ظل دولة إسلامية؟، ولماذا زعماء وزاعموا وراثة السلف ينتهي بهم الأمر في

دولة مرتدة كافرة أن يكونوا وزراء ومقربين عند قادة هذه الدول؟ هل انقلبت السنة الكونية في حقهم؟ أم أن الجواب يكشف عوار ممثلي راية السلف المزعومة؟.

2- الذين يريدون أن يصفوا الصف المسلم من المنافقين والوصوليين ديدنهم الحديث عن كشف ما هو مكشوف، وفضح ما هو مفضوح، أي ما فضحه الخصوم لانتهاء مهمته، فلماذا لا يمارسون فنونهم العبقرية في كشف ما لم يكشفه الخصوم، وفضح ما لم يفضحه أهله؟

3 - إن إطلاق الشائعات الصبيانية في حق الخصوم يتقنه كل جاهل وموتور، لأنه سلاح تستجيب له الأمم الغبية الجاهلة، وهو لا يملك قوة دفع كما يملك قوة إثبات، فإذا قيل عن أحد أنه مخترق فهو لا يستطيع دفع التهمة، ولكنها قمة أدعى للقبول في زمن العجائب والصغائر.

لماذا حين تطلق الشائعات لا يذكر معها الرهان الذي أمر الله عز وجل بإقامته عند كل دعوى؟!.

أمام هذا الواقع المرير، وهو واقع يفرز ولا شك السلبيات أكثر مما يفرز الإيجابيات، لأن المُلك فيه للشيطان وحاشيته، وهو يدفع بضلالاته بقوة نحو المجتمعات، أمام هذا الواقع ما هو السبيل الأقوم لإفراز الثقات، ومعرفة حقائق الرجال دون لبس وتزوير، كذلك دون هروب من الحقيقة نحو الرمل للاختفاء؟.

إن الجواب على هذه الأسئلة يدعونا أن نرجع إلى النموذج المحتذى في تعريفنا بمنهجهم في معرفة الرجال وأحوالهم وقيمتهم.

لقد كان في الصحابة رضي الله عنهم علماء، وكان فيهم الأعرابي البوال على عقبيه (كما قال الذهبي).

لقد كان في الصحابة رضي الله عنهم الأثرياء، وكان فيهم من يقع في صلاته لشدة فاقته وفقره.

لقد كان في الصحابة رضي الله عنهم الشاعر البليغ، وكان فيهم العيي.

لقد كان في الصحابة رضي الله عنهم الصانع الخبير، وكان فيهم من يخسر في كل تجارة يمارسها.

القيادة : العلماء والجهاد

لقد كانت صور الصّحابة تتنوّع وتختلف في قدراتهم ونماذجهم ولكن كان هناك شيء واحد يجمعهم جميعاً بلا استثناء، ورابط يحوزهم بلا شذوذ، هذا الرّابط هو الجهاد في سبيل الله تعالى.

بل إنّنا نرى أنّ أغلب مسائلِ العلم التي علّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم- سواء كانت في التّجارة أو بقيّة الأحكام - إنّما تعلّمها الصّحابة رضي الله عنهم وهم في حال الجهاد في سبيل الله تعالى.

وأنا لا أستطيع أن أُكثر الأمثلة، أو أستوعب بعضها في ذكر النّماذج التي تشهد لهذه القاعدة، أو لهاتين القاعدتين، لكنّي أدعو طلبة العلم وغيرهم إلى فتح وقراءة صحيح البخاري مثلاً (وهو أفضل نموذج لما أقول)، ويقرؤوه بتمعّن وتدبّر، ويحاول كلّ واحد أن يجمع سبب الحديث الوارد، بمعنى أن يذكر الزّمن الذي قيل فيه الحديث، وأين قيل، وسوف يرى أنّ أغلب مسائل الفقه في عموم الحياة كانت تقالُ في الجهاد في سبيل الله تعالى، وهاك بعض الأمثلة:

- قوله صلى الله عليه وسلم لجابر رضي الله عنه في ترغيبه أن يتزوّج البكر: ((هلاّ بكراً تلاعبك وتلاعبها))، قالها صلى الله عليه وسلم خلال قفلةٍ من غزوة.
- فقه التّيمّم من الجنابة أُخذ من حادثةٍ في غزوة.
- حكم زواج المتعة، كان كلّه في الغزو من تحليل وتحريم مؤبّد.
- جواز شركة الأبدان أُخذ من حديث يتعلّق بجواز الشّركة بين المجاهدين في الغنيمة.

والأمثلة أكثر من أن تحصى، وهي تدلّ دلالةً واضحةً أنّ عمل الأمّة التي ينبغي أن تعمل به - وكلّ عمل آخر هو تبع له - الجهاد في سبيل الله تعالى.

ولمّا كان عمل الأمّة بمجموعها - إلاّ من استثناه الشّارع الحكيم سبحانه وتعالى - هو الجهاد في سبيل الله، فكان المقدّم فيها هو أتقنهم لهذا العمل، وأكثرهم قدرةً على خوضِ غماره، فكان المُقدّم هو المجاهد في سبيل الله تعالى، وهكذا كان حال قادة الأمّة من خلفاء وأمراء،

فلا يوجد خليفةً في تاريخنا الطّويل إلاّ وكان مقاتلاً مجاهداً، وفي أعلى مرتبةٍ من مراتبِ هذا العمل العظيم.

هارون الرّشيد، هذه الشّخصيّة العظيمة، والتي ملأها الكذّابون أخباراً مزيّفة عن بذخه ولهوه وقصفه، لو علموا حقيقته، لخجلوا من أنفسهم أشدّ الخجل، ولكنّهم في الحقيقة لا يخجلون.

هارون الرّشيد كان يغزو عاماً ويحجّ عاماً، وكان ينام على حصانِ جهاده حتّى تقوّست رجلاه من كثرة ركوبه عليه، ومات وهو في غزوة "الصّائف" جهة المشرق، وهو يجاهد في سبيل الله تعالى. لو قال قائل: لكنّه كان كثير المال، عنده الجواهر بالأطنان، والذّهب بالأرطال، والمال لا يُعَدّ بين يديه. قلنا له: صدقْت وهكذا كانت الأمّة، غنيّة مثلهُ، فلم يكن غنيّاً وأمّته لا تجد لقمة الخبز، كما هو حال الظّلمة والمتكبّرين، ثمّ قلنا لهم كذلك، هذا كلّه من فضل الله تم بالجهاد في سبيل الله، حيث أورثه الله تعالى بالجهاد ديار الظالمين، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((جعل رزقي تحت ظلّ رمحي)).

نقول هذا الكلام ردّاً على من يحاول أن يبحث عن القيادة الصّحيحة الحقّة للتّجمّعات الإسلاميّة، وكذا التّنظيمات والتّكتّلات، فلن نستطيع شئنا أو أبينا أن نفرز قيادة حقيقيّة إلاّ في الظّرف الصّحيح لهذا الإفراز، هذا الظّرف هو الجهاد في سبيل الله. حين يبرز قائد تلتقي حوله الجماعة في ظروف الشّدائد والأهوال، والمصابَرة والمكابَدة، وهي ظروف قاسيةٌ، تكشف المعادن على حقيقتها، حينئذٍ يكون معدن القائد خالٍ من الشّوائب والكدَر، فهُو قائدٌ حقيقيّ يستحقّ هذا المنصب، بل المنصبُ يتشرّف به ويفخر، لكن في زمن الدّعة والخمول، وفي زمن المهانة والرّذيلة، وظروف الخسّة والعار، يأتي لنا شيخٌ معمّم جلّ ما يملك هو إتقانه صنع الكلمة الحماسيّة، أو المنمّقة، فيأسرُ ألباب السّامعين، فيسارعُ الغثاء إلى تسييده وتأميره، فهل هذا هو الطّريق الحقيقيّ في اكتشاف القيادة الصّائبة؟ أو حين يَطْلُع علينا رجل ملك البريق الدِعائيّ، سواء بقدرته على إنشاء مجلة أو نشرة أو جريدة، بها واستطاع أن يشرف على الناس، فيعرفونه كاتبا مرموقا، أو سياسيا خبيرا، فهل هذا هو الطريق الصائب للقيادة الحقيقية؟.

هذه أمثلة وعليك أن تقيس عليها، لتعلم أن القيادة الحقيقيةَ إنما تُعلم بالجهاد في سبيل الله تعالى، في زمن الصِّعاب والشدائد.

القيادة في القرآن:

عرض القرآن الكريم لنا نموذجا رائعاً لاستخلاص الشَّهد من بين ركام الاخلاط، وكان هذا العرض والتصوير مثلا حيّاً وحقيقياً في تعليم الأمّة كيف يخلص هذا الخلوص، وكيف تميز الصّفوف، وكيف تعرف مقاديرُ الرّجال، وهذا الحدَث التاريخيّ كما عرضه القرآن العظيم فيه الردّ الجليّ الواضحُ على الطّرق المُبتدعة في إعداد الكوادِر، أو صنع الكفاءات، إذ أنّ الكثير من أصحاب الأفكار الهجينة المعاصرة يطرحون طريقة بدعيّة أو طرقا بدعيّة في الأمة، وهم في دعواتهم هذه التي سيتبيّن لنا أمرها وحقيقتها إنما هم يفرغون الشباب المسلم من الطاقات الإبداعية الحقيقيّة.

يحاول أصحاب التربية المزعومة أن يوجدوا الأدلّة على طريقتهم في صنع الأمّة، ورجال الأمّة، وتراهم يصرخون في كل وادٍ أنّ الأمّة والشّباب المسلم بحاجة إلى تربيةٍ وإعدادٍ قبل أن يوضع في معترك البلاء والامتحان، ولعلّ أبرز أدلّة هذا التيار البدعي هو احتجاجهم بحادِث **طالوت عليه السلام**، وها نحن نعرض هذا الحادث كما صوره القرآن ليتبيّن بجلاء أبلج أن هذا الحدث عليهم لا لهم، وهو في الحقيقة عُمْدةٌ من عُمد حركات الجهاد، ودليلٌ من أدلّتها أنّ حركة الجهاد هي التي تربي الأمّة وتُبرز القيادات، وتعرّفنا بمقادير الرجال.

في سورة البقرة حديث مطوّل عن بني إسرائيل، وكان من كلام الله تعالى في هذه السّورة عن بني إسرائيل بعد موسى عليه السّلام [البقرة من آية 246-252]: {ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيٍّ لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله} وفي الآية كما نرى أنّ الذين طلبوا الملك هم "الملأ"، والملأ في القرآن وصف لا ترتاح له النّفس، فبمجرّد ذِكر الملأ وإطلاق هذه الصِّفة على قوم تتوجّس خيفة، وترتقب أوصاف شؤم وقبح (راجع كلمة الملأ في القرآن الكريم)، وليس من عادة الملأ أن يطلبوا خيراً، وإن طلبوه فهو لأمر خبّئ في أنفسهم، وأنا هنا لا أدري لماذا فرّق الملأُ بين النبيّ والملك المقاتل، وسنّة الله جاريةٌ في الأنبياء سواء كانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم أنّ النّبيّ في أتباعه هو الحاكم والقائد والقاضي، وكان هذا الأمر في بني إسرائيل أوضحَ وأجْلى، والحديثُ النّبويّ يشهد لذلك لقوله صلى الله

عليه وسلم: ((كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء)) فهل هذا الطّلب المشروط في الملأ مقدّمة لنعرف أنّ الذين طلبوه هم "ملأ"، لا يخرجون عن هذا الوصف وإن تزيّنوا بغيره، هذا أمرٌ يحتاج إلى بحثٍ ونظر وإن كان هذا هو الذي تطمئنُّ إليه النّفس في هذا الوقت، بل إنّ هذه السّرعة في كشف حقيقتهم في ختام الآية تنبئك عن هذا الذي قلناه، قال الله تعالى: {فلمّا كتب عليهم القتال تولّوا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين}.

ثمّ جاءت الآيات تكشف لنا هذا الإجمال وكيف تمّ فرض القتال وكيف سار الحدَث واستقرّ على حاله.

{وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعة من المال}.

هذا الكلام الربّانيّ يؤكّد لنا أنّ الابتلاء كان للملأ، الملأ الممتلئ مالاً.. الملأ طلبوا ملكاً. ولمّا كان الله عليماً بالظّالمين، فهو قد علم سبحانه أنّ هؤلاء القوم يطلبون ملكاً فقط، لا ملكاً مقاتلاً، وعُمْدة الحقّ لديهم في إقرار الملك وقبوله هو أن يكون ممّن له سعة من المال ولو حاولنا تصوّر النّفسيّة الحقيقيّة للملأ، ومحاولاتهم الزّائفة والذّكية في ستر مبرّر القتال لاتّضح لنا الشيء الكثير، فهم طلبوا أوّلاً: {ملكاً نقاتل في سبيل الله}، ولمّا حاججهم النبي وذكّرهم بعورات نفوسهم.. {قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا} فكان جوابهم على قوله هذا مؤكداً لما قال: وهو أنّ ما علمْت من أنفسنا حبّه والشّغف به هو سبب طلبنا للقتال {قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرِجنا من ديارنا وأبناءنا}.

إنّه حديث الملأ، وهو حديث لكشف الملأ، وهذه المقدّمة تدلّك على ما سيأتي وراءها من أحداث تكشِف الملأ على حقيقتهم.

{فلما فصل طالوت بالجنود} هذه الآية تحمل في طيّاتها معنى تخلُّف الملأ، وفيها إشارة إلى أن الملأ قد سقط في أيديهم فنهم من لحق بالركب فسار جندياً، ومنهم من تخلف ليبقى تحت وصف الملأ، فحيث ذهبَت حقيقتهم عن الموقع - الفصل - ذهب وصفهم، فمن فُصِل به فخرج معهم سار تحت وصف جديد هو "الجنود"..

فصل طالوت {بالجنود}، وطالوت عيّن مَلِكاً بقرارٍ لا دخل للجنود ولا للملأ فيه، بل ببعثٍ إلهي {إنَّ الله قد بعثَ لكم طالوت ملكاً} مبرّر البعث {بسطَةً في العلمِ والجسم}، القوّة والأمانة. جاء امتحانٌ تشريعيٌّ لا دخل للبشر فيه وهو قول طالوت : {إن الله مبتليكم بنهرٍ فمن شرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنّه منّي إلاّ من اغترف غرفةً بيده} فهذا أمرٌ تشريعي من وضعٍ إلهي، وليس استحسانا بشريّا لشروط يضعها أصحاب التّصفية المزعومة، والتربية المدّعاة، فكيف يجوز للناس أن يشترطوا شروطا للجهاد ما أنزل بها من سلطان؟ وما هي الأدلة على هذه الشُّروط البدعية؟ فهذا شيخٌ يريد من الأمّة أن لا تجاهد حتى يصبح قيام الليل ديْدنها بلا تخلّف أحد منها، وهذا شيخٌ لا يُجيز الجهاد للأمّة حتى تحفظ الأربعين النوويّة، وهذا شيخٌ يشترط للجهاد أن تصبح الأمّة منظِّرةً في السياسة وفهم الألاعيب الدولية، وهذا شيخٌ يوجب على الأمّة قبل الجهاد أن تنبذ المذهبيَّة وإلا سيكون جهادها في سبيل المذاهب الأربعة وهذا.. وهذا..، شروطٌ ما أنزل الله بها من سلطان، ثم هنا نقطة يدور البحث عليها، وهي: هل طالوت عليه السّلام اشترط شروطاً قبل إعلان الجهاد؟ أم أنّ شروطه على جنوده كانت بعد الفصل بالجنود؟ وهذه نقطة مهمّة لأنّ الحدث يدلّنا على أنّ ابتلاء القائد لمعرفة حقيقة جنوده واختبارهم في قدراتهم، وفي مدى تحمّلهم للصّعاب والأثقال كانت في مسيرة الجهاد، ومن خلال حركته مع جنوده، لا كما يريد مشايخنا في هذا الزّمان، وهو أن يمتحنهم وهم على فُرشِهم الوثيرة، فشتّان بين إخلاص ونقاءٍ حقيقيّ يخرج من وسط الملمّات والمحن، وبين إخلاص مزيّفٍ يخرج من امتحانات الولاء للقيادة، وابتلاءات تسليم الرّأس كالببّغاء دون وعيٍ وإدراك فتصبغ عليه القيادة لباس القُرب والنّجاح.

إنّ معرفة طالوت لحقيقة جنوده كانت من خلال مسيرته وحركته للجهاد في سبيل الله تعالى، وهذا الذي نقوله وندعوا النّاس إليه بفضل الله تعالى ورحمته، ونحمدُ الله تعالى أن عافانا من أمراض الآخرين وتصوّراتهم العليلة.

ثمّ خلص من خلص إلى المواجهة ضدّ جالوت وجنوده بعد محنة النّهر والشُّرب منه، ثمّ محنة الكثرة والقوّة الماديّة، ولم يذكر لنا القرآن الكريم أنّ محنة الكثرة العدديّة أسقَطَت بعض القوم، بل إنّ الوصف المدْحيّ لهم كان قبل ابتلائهم برؤية كثرة عدوِّهم، حيث قال الله تعالى

بعد حادثة النّهر: {فلمّا جاوزه هو والذين آمنوا معه}، فوَصْف الإيمان هنا وصفٌ مدحيّ، لكنّ الإيمان مراتب متفاوتة وليس على درجة واحدة.

قال تعالى: {فهزموهم بإذن الله، وقتل داود جالوت وآتاه الله المُلك والحِكمة وعلّمه ممّا يشاء}.

حصل المقدور الإلهيّ بنصر المؤمنين ووقع الوعد الإلهيّ {كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصّابرين}، ومن حدَث المعركة، ومن وسط ملمّاتها، ومن حركة الجهاد عرف النّاس داودَ عليه السّلام، ونحن المسلمين نعتقد أنّ النّبوّة اختيار واصطفاء، وقد عاب السّلف رحمهم الله على الإمام ابن حبان البستي صاحب الصّحيح، حين قال: "إنّما النّبوّة العلم والعمل"، حيث لمحوا فيها إلغاء الاختيار والاصطفاء الإلهي، ولكنّنا نجزم أنّ الإمام ابن حبان لم يرد هذا، وأنا أقدّم هذا حتّى لا يخرجَ علينا زاعمٌ بأنّ معنى ما نقول هو إلغاء الاختيار، ولكنّا عرفنا من خلال الآيات أنّ داود عليه السّلام برز بعد {وقتل داود جالوت}. فجمع الله تعالى لداود ما تفرّق قبل الحدث بين النّبوّة والملك {وآتاه الله الملك والحكمة}. نعم! عندما قتل الجنديّ داود الكافرَ جالوت كانت مقدّمة الاختيار.

{قتل} فاجتباه الله تعالى، فهل عقل مشايخنا هذا: قتل، قتل، قتل...؟ فليت مشايخنا يعيدون لنا تفسير وتجليَة كلمة "قتل". قال صلى الله عليه وسلم: ((لا يجتمع كافر وقاتله في النّار)) رواه مسلم.

ومن أجل أن تفهم أمّة محمّد صلى الله عليه وسلم كلمة "قتل"، وأنّها منهجٌ ربّانيّ سليمٌ سديد، أتبَع الله سبحانه وتعالى الحدث كلماتٍ عظيمة جليلة شريفة {ولولا دفع الله النّاس بعضهم ببعضٍ لفسدت الأرض} فلو لم يقتل داود جالوت لبقيَ جالوت وجنوده يصولون ويجولون، ويُهلكون حرث النّاس ونسلهم، ولكن لمّا منّ الله تعالى على الأمة بتعليمها قتل الطواغيت، كان عليهم أن يشكروه، لأنّه سبحانه وتعالى ذو فضل على العالمين، كما قال سبحانه في خاتمة الآية: {ولولا دفع الله النّاسَ بعضهم ببعضٍ لفسدتِ الأرضُ ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين}. نعم، ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين، فمنهم من يشكرُ فضله ويرضاه، ومنهم من

يرفضهُ ويأباه، ويذهبُ يتخبّط في الظّلمات باحثاً عن كلمة أخرى غير قوله {فهزموهم}.. {وقتل..}

{تلك آيات اللهِ نتلوها عليك بالحق وإنّك لمن المرسلين}.

القيادة : الجهاد بداية ونهاية

هذه القصّة التاريخيّة ومن حديث القرآنِ الشَّيق عنها كشفت لنا أن الجهاد هو بداية الأمر وهو نهايته، وهو منهج الله تعالى في ابتلاء الناس، لتكتَشِف الأمة حقيقتها.

وفي النهاية نخلص إلى النتائج التالية:

1 - الملأ يناورون، والجهاد يكشفُ حقيقتهم، وليس بغير الجهاد تُكشف حقيقة الملأ، الملأ الممتلئ فلسفةً ومناورة، والملأ الممتلئ تبجُّحا وتيها.

2- طالوت يعرف حقيقةَ جنودِهِ خلال مسيرته وحركته للجهاد في سبيل الله تعالى، وليس بعيداً عن أرض المعركة والحركة ونحوها.

3- الإيمان لا يتنافى مع بعض ما يعتري النفس من خوفٍ ووجل، وليس هذا الخوف والوجل مبرراً لترك إعلان الجهاد في سبيل الله تعالى.

4- قيادة داود عليه السلام برزت من وسط المعركة، ومن خلالها، وبعد برهان حقيقي أنه من عنده القدرة على إصابة الرأس -جالوت- فهو يستحق أن يكون الرأس.

5- إنَّ العلم الشرعي شرْطٌ من شروط القيادة الجهاديّة، لأن الجهاد حركةٌ مضبوطة بضوابط الشّرع وأوامر الإله جل في علاه.

6- إنّ شعيرة الجهاد فضل إلهي، ومنّة ربانية، ويجب علي الأمة أن تقبل فضل الله ومنّته، ومن أعرض عنها فهو الخاسر المغبون.

إنّ من أشدّ القضايا معاناة لدى الحركة الإسلاميّة هي عدم وجود القائد المناسب، والرمز الصّحيح للتيّار والحركة، وعلى الرّغم من وجود المدّة الزّمنيّة المناسبة لإفرازه إلا أن الخطوات ما زالت متعثّرة وفاشلة، ونحن نرى الشّباب المسلم من أشدّ النّاس احتراماً لمسئوليْه وقيادته مازال بعيداً عن القيادة، غير مختلط بها، حتّى إذا عايشها وخالطها اهتزّت لديه الثّقة، وسقط الاحترام، وبدأت صيحاته تتعالى في بيان أخطاء مشايخه وقيادته، وهذا يؤكّد أنّ إفراز القيادة

بالطّرق التي اتّبعَتها هذه الحركات هي طرقٌ فاسدة وخاطئة، ومن أجل الحفاظ على صورة الشّيخ المحترم، والقائد المقبول يحاول بعضهم إحياء الطّريقة الصّوفيّة في التّعامل مع الشّيوخ، لكنّها تكون مغلفة بغلاف العمليّة أو السّلفيّة، أو التّبريرات الإداريّة التي اشتقّت من نظم جاهليّة لا تمتّ إلى الإسلام بصلة، فالمحاولات المتكرّرة في إضفاء صفةِ القداسة على القيادة لم تعد تدوم طويلاً أمام اختبارات القرب والتّعامل بين القواعد والقادة، ومن صمد منهم أمام هذه الضّغوط القسريّة من القادة، بغضّ الطرف عن النّظر إلى أنوار الشّيوخ والقادة فإنّه سيخرج صورة شوهاء من رجلٍ باع عقله وإرادته لمثل هؤلاء القوم، وحينئذٍ فإنّ الحركة تصبح مجموعةً من الأبواق التي تسير وراء ناعقٍ واحدٍ فقط، هذه الصّورة هي أقرب ما نرى في الواقع من تركيبة الجماعات الإسلاميّة.

القيادة والقاعدة (التلميذ والشيخ):

المشكلة الواضحة هي كيف توفّق الجماعة المسلَّحة المهتدية في إيجاد الاحترام بين أفرادها على العموم وبين قواعدها والقيادة على الخصوص، وبين وجود المدى الأقصى من القدرة على احترام العقل الذّاتي والإرادة المستقلّة؟ وقد يظهر لبعض قاصري النّظر استحالة وجود هذه التّركيبة، واعتقادُ الاستحالةِ مردّه إلى عدم فهم أحد طرفي المعادلة، فقد يُدخِل البعض صوراً أو ممارساتٍ خاطئة إلى مفهوم الاحترام والتّقدير، وبالتّالي يجعل من أضداد الاحترام عدم وجود هذه الممارسات والسّلوكيّات.

عندما يناقش التّلميذ شيخه في مسألةٍ من المسائل، ويراجِعه فيها إلى أقصى درجات المراجعة بل المناظرة، فهل هذا الفعل يضادّ الاحترام والتّقدير ؟.

هل مراجعةُ بلال رضي الله عنه المتكرّرة والصّلبة لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه في مسألةِ الاختلاف حول الأرض المفتوحةِ، هل يُعمل فيها بالخراج كما هو رأي عمر، أم تُقسّم على الفاتحين كما جرت السنّة وأصرّ على تطبيقها بلال، هل هذه المراجعة فيها ما ينبئ عن فقدان درجة (أيّ درجة) من درجات الاحترام بين شخص القائد وأتباعه؟.

هل استنكار سعد بن معاذ رضي الله عنه لمّا فهم من وجوب إحضار أربعة شهود حال رؤيته لزنى الزّوجة، وحلفه الأيمان المغلّظة أنّه لو رأى ذلك ليضربنّ ما بين رجليها هو ممّا لا يدخل تحت باب احترام الرعيّة للقيادة؟.

ثمّ تعالوا أيّها القادة لنحاسبكم، وأنتم ملأتم الدّنيا صياحاً بوجوب محاكمةِ ومحاسبةِ المتسبّبين بمصائب الأمّة وهزائمها؟.

تعالوا أيّها القادة لنحاسبكم عن أحداثِ حماة، ومن هو المتسبّب بهذا الكمّ من المصائبِ والبلايا؟ ألم تدعوا الليالي الطّوال أن يخلّصكم الله تعالى من عدنان عقلة، لأنّه بدأ يسير في الآفاق داعياً إلى كشف المجرمين والمنافقين والوصوليين والنّفعيين والجبَناء وقادة الفنادق، وسماسرة المال وقطّاع الطريقِ إلى الله؟.

لماذا احمرّت أنوفكم - غضباً ظالماً - ضدّ كتاب "التّجربة السّوريّة" لمؤلّفه عمر عبد الحكيم مع أنّه لم يُظهر من الحقائق إلاّ بمقدار رأس الإبرة، وإلاّ فالحقائق ينبغي أن تؤدّي بكم إلى المشانق لو كان هناك قاعدة تَفهَم دين الله تعالى، وتتعامل مع الأمورِ بشرعيّةٍ وموضوعيّة.

ثمَّ لماذا لا يفتح ملفُّ حزب النّهضة بقيادة راشد الغنّوشي بطريقة علنيّةٍ ليعرِفَ النّاس حقيقة ما جرى في تونس فتوضع النُّقاط فوق الحروف، فيعرف القائد المزيّف من القائد اللعوب، لماذا تلصق هذه الصّور الزّائفة ضمن لوحة الإسلام العظيم، بل لماذا كتب علينا أن لا نرى إلاّ قائداً ورمزاً مزيّفاً عاجزاً عن قيادة دجاجة لا قيادة أمّة؟.

إنَّ الاحترام والتقدير للقيادة الواعية أمرٌ تفرضه القيادةُ بنفسها، وذلك من خلال مسيرتها المظفَّرة نحو أهداف الجماعة وانتصاراتها.

الإمام أحمد ابن حنبل - رحمه الله تعالى - لم يخطب الخطب الرنّانة، ولا أصدر البيانات المطوَّلة طالباً من النّاس احترامه وتقديره، بل موقفه وصلابته في الحق، وتفانيهِ في سبيل السنّة ودين الله تعالى هو الذي جعله للناس إماماً وفرض اسمه على أهل السنّة والجماعة.

شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - بفعاله وجهاده جعل خصومه قبل تلاميذه ومحبِّيه يُقِرُّون له بالفضل والرِّفعة، لأنّهم رأوا رجل المواقف، لا أبواق كلامٍ وصراخ.

الأمَّة والقاعدة والأتباع يحترمون علماءهم وقادَتهم عندما تفرضُ القيادةُ نفسها بمواقفها وفعالها ونزاهتها.

إنّني أعلم أقواماً (من الشباب المتحمس) كان يرجو نظرة من بعض الأسماء الرنّانة من القادة المفكرين، وكان يعتبر مجرَّد الجلوسِ في محاضرةٍ لهذا الشيخ أو القائد أو المفكّر هي من أشدِّ القُربات إلى الله تعالى، ولكنّه بعد تجربةٍ مُرّةٍ كشفت هذا الغثاء على حقيقته صار يعتقد أنَّ قتل هؤلاء القادةِ من أفضَلِ القُربات إلى الله تعالى.

لماذا هذا ؟.

السبب واضحٌ جليّ، لأن الواقع كشف أن هؤلاء القادة تُجّار كلامٍ، وأبواقُ صراخ، حتى إذا جاء دَوْر النّزال والتّجربة تعرّت حقائقهم، وكُشِف أمرهم.

وإذا كان الجهاد يعرّ فنا بالرّجال، إذ هو من أدقّ الموازين في هذا الباب، فإنّه كذلك الفرقان الذي يقسّم النّاس إلى أقسامها الحقيقيّة، فبه تميّز الصّفوف، فيتبيّن فسطاط الإيمان، كما يتبيّن فسطاط الكفر والنّفاق، فيؤوب النّاس إلى منازلهم التي يرتضونها لأنفسهم، ومعلوم أنّ الفتن والابتلاءات تكشف النّاس، وتخرج مخبوء نجواهم، إذ صدق من قال: "إنّ الحرب حصاد المنافقين"، وبها كذلك يتّخذ الله الشّهداء، والشّهادة باب جليلٌ لا يفتحه الله تعالى إلاّ لأوليائه المقرّبين.

الجهاد: مراتب الولاية والقرب والنفاق والبعد

من قرأ السّيرة النّبويّة قراءة متفحّصة، يرى فيها هذا الذي قلناه، إذ أنّه ما من معركةٍ خاضها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ وأظهرت رجالاً في مرتبة الولاية والقرب، كما وأظهرت رجالاً في مقام النّفاق والخِزي، فالجهاد هو الذي يكشف حقائق المخادعين والمتخاذلين، لأنّ بذل النّفوس هيّنة في سبيل هذا الدين لا يقوى عليه إلاّ المرتبط بهذا الدين ارتباطاً حقيقيّاً، ومن تمثّلت له الدّار الآخرة بين عينيه، يراقبها أنّى توجّه أو قال أو فعل، كما مدح الله تعالى الصّادقين من عباده بقوله: {إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدّار} وهي في سورة ص، ذلك بعد أن تكلّم الله تعالى عن داود وسليمان وأيّوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم

الصّلاة والسّلام، وذكر سبحانه وتعالى مِنَنه عليهم، جعل سبحانه وتعالى علّة هذه المِنَن، وسبب إغداقها أنّهم أخلصوا أنفسهم للآخرة، حبّاً وعملاً، قال مالك بن دينار: "نزعنا من قلوبهم حبّ الدّنيا وذكرها وأخلصناهم بحبّ الآخرة وذكرها"، إذ أنّ هذا الدّين لا يرفع الله به إلاّ من آمن به حقّ الإيمان، وصبر على ما يلقاه من الفتن والأهوال، ثمّ تيقّن على موعود الله تعالى وأنّه آت لا ريب فيه، كما قال تعالى: {وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون}. قال ابن تيميّة - رحمه الله تعالى - تفسيراً لهذه الآية: "بالصّبر واليقين تنال الإمامة".

ففي غزوة الأحزاب حيث جمع النّاس حشودهم، وتكاتفوا يداً واحدةً على بلدة صغيرة هي طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومهاجره، واضطربت النّفوس، وزُلزِلت، ورأى النّاس الموت بأمّ أعينهم [الآيات من 9-27 من سورة الأحزاب]. قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً} الأحزاب 9.

أمّا الجنود فهم الملائكة، ولم تقاتل الملائكة يومئذٍ، وإنّما عذّب الله الكافرين بالرّيح، ففي الصّحيحين عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: ((نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور)). وأمّا تفاصيل حركة رياح الصّبا فقد روى ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: "قالت الجنوب (أي ريح الجنوب) للشّمال (أي ريح الشّمال) ليلة الأحزاب: انطلقي ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت الشّمال: إنّ الحرة لا تسري بالليل، وكانت الرّيح التي أرسلت عليهم الصّبا".

ثمّ فصّل الله تعالى أمر المعركة وما جرى فيها، فقال جلّ وتعالى: {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا} الأحزاب 10.

إنّها الفتنة، إنّه الابتلاء والتّمحيص، حيث تظهر القلوب ما بها لشدّة الضّغط عليها، {زاغت الأبصار}: أي تحرّكت عن مكانها لشدّة الخوف والرّعب، و{بلغت القلوب الحناجر}: وكذا زالت القلوب عن مكانها لشدّة خفقانها واضطرابها، فالعيون تتحرّك بحركة القلوب، إذ العين لم تعد ترى بوضوح وجلاء، والقلب لم يعد يفكّر بسلامة وثبات، وهذا كلّه بسبب شدّة الخوف،

وهو خوف لم يسلم منه أحد، فقد حدّث حذيفة بخبر أصحاب رسول الله ? في هذا الشّأن شيئاً عجيباً، قال فتىً من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمـان رضي الله عنه: يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه؟. قال حذيفة: نعم يا ابن أخي. قال: كيف كنتم تصنعون؟. قال: والله لقد كنّا نجهد. أي نتعب بصحبته تعباً شديداً، وذلك أنّه صلى الله عليه وسلم كان صاحب همّة عالية، وعمل دءوب، ونفس لا تكلّ، وكان أصحابه رضي الله عنهم لمحبّتهم له يحاولون اللحاق به، والتّشبّه بفعاله، فكانت محاولاتهم هذه تصيبهم بالتّعب والجهد، وكذا القائد الحقيقيّ لا يرضى من رجاله الدّون، ولا يقبل في رعيّته إلاّ فعال الرّجال ووَثباتهم، وأمّا أولئك القوم الذين يصنعون من أتباعهم أبواقاً لهم، ومقلّدين لحضرتهم، فلن ينفعوهم شيئاً في يوم كريهةٍ وسدادِ ثغرٍ، ولقول حذيفة رضي الله عنه معنىً آخر، وهو أنّه كلّما وَضُح الحقّ وكان قويّاً جليّاً كلّما كان الباطل كذلك جَلداً واضحاً جليّاً، ولم يكن الحقّ جليّاً واضحاً قويّاً في يوم من الأيّام كما كان في عهد محمّد صلى الله عليه وسلم، وكذا كان الكفر في عهده سافراً عن وجهه القبيح، فكان هذا يُلحق بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهد والتّعب، فقال حذيفة: "يا ابن أخي والله لقد رأيتني ليلة الأحزاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((من يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنة))، فما قام منا رجل، ثم صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوناً من الليل، ثمَّ التفت إلينا، فقال مثله، فسكت القوم، وما قام منّا رجل، ثم صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوناً من الليل، ثم التفت إلينا، فقال: ((هل من رجل يقوم فينظر ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنة))، فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد".

{وتظنون بالله الظنونا}: فالمنافقون ظنّوا بربّهم شرّاً، وبالإسلام بهتاناً، إذ أنّهم قالوا: {ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً}، يقولون: "يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله، هذا والله غرور"، وها هم اليوم يقولون: كيف لنا مع ضعفنا وقلة حيلتنا، وهواننا على الناس أن نعيد دولة الإسلام؟ وكيف لنا ونحن لا نستطيع أن نعبد الله تعالى آمنين أن ينقلب حالنا إلى حالٍ تخشانا فيه قوى الكفر والشّرك في مشرق الأرض ومغاربها ؟. لكنّنا نقول: إنّها الوعود الإلهية، إن أخطأَتْنا نحن فهي واقعة لا شك فيمن ثبت

على الطريق، وواصل المسير، ولم تُضعفه الأيّام والشّهور، بل ازداد ثباتاً ويقيناً، وما شدة الصعوبات إلا دليلٌ على صواب الطريق، وإذا كان طريق الجهاد وهو طريق الدّم والخطفِ والسجن، فإنّه كذلك طريق العزّة والنّجاح، وإذا كانت الطّرُق الأخرى هي طرُق السّهولة والمناصب، فإن نهايتها الذلّة والخِزْيُ والشّنار. وطائفة منهم قالت: يا أهل يثرب لا مقام لكم على الإسلام فارجعوا، أو لا مقام لكم في القتال فهزيمتكم محقّقة، فارجعوا إلى منازلكم، وبدأوا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهروب وترك المواجهة يقولون: {إن بيوتنا عورة} أي مكشوفةُ الجانب، لا نستطيع منعَ الدّاخل إليها، فكذّبهم الله تعالى قائلا: {وما هي بعورة إن يريدون إلاّ فراراً}، وهكذا النّفوس المريضة، والقلوب الخاوية من الإيمان، تبحث لها عن الحجج الواهيةِ الضعيفة لترك المواجهة، ولعل هؤلاء يبحثون عن الحجج الأصولية في إسقاط فريضة الجهاد تحت دعوى المصلحة الموهومةِ الزائفة، ولكنّ حقيقةَ الحال أنهم لا يريدون الجهاد، ويخشون نتائجه، قال تعالى: {ولو دُخِلت عليهم من أقطارها ثمّ سُئِلوا الفِتْنة لأتَوها وما تلبّثوا بها إلا يسيرا ولقد كانوا عاهدوا الله من قبلُ لا يولُّون الأدبار وكان عهد الله مسئولا قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتّعون إلا قليلا قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً}.

إن هؤلاء القوم لا يقيمون للفضائل شأناً ولا لدين الله رأساً، همّهم بطونهم، وشُغلهم أهواءهم، ودليل ذلك أنه لو دخَلت جيوشُ الأحزاب عليهم في المدينة، ثم طلبت منهم الجيوش أن يُشركوا بالله تعالى ما احتبسوا، ولا تلكّؤوا، بل لأقبلوا على الكفر بالله طيّبة بالشرك قلوبهم، فهم يدورون مع من مُلك المنصب والمال، ويراقبون حَركته، حتى يبرمجوا أنفسهم على اتّجاهه، ليس لهم اختيار إلاّ اختيارُ الحاكم، إن أسلم الحاكمُ أسلَمنا، وإن كفَر الحاكمُ كفَرْنا، ولا يُقبِلون على الإسلام إلا بالوعود الممتلئةِ ذهباً وكنوزاً، ومناصبَ وتشريفاتٍ، ولهذا قالوا قولتهم: {ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً}، فهم اعتنقوا الإسلام لوعوده الدنيوية، أليس هذا يعلّمنا أن لا نفرش الورود والرياحين للناس في دعوتهم للإسلام ؟ ثم أليس هذا خطأ تلك الجماعات التي قالت للناس: انتخبونا، وسنطعمكم السَّمن والعسل،

وسنبني لكم المساكن الفاخرة، وسنسهّل لكم معايشكم وحَيَاتكم، فلمّا أصابهم بعضُ اللأواء، فإذا هم أمام شاشاتِ التّلفزيون يتبرَّأون من الإسلام وأهله، ويتساقطون على الطِّريق الواحد تلو الآخر، ألا ما أتعسَ العبد الذي يُريد أن يشتري بإسلامه منصباً وجاهاً، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: ((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد من حرص الرّجل على المال والشّرف لدينه)).

يا قوم! أين عهودكم؟ أين بيعتكم مع الله؟ ألم تقسموا من قبل أن لا تولّوا يوم الزحف، بل تثبتوا ثبات الصادقين؟!.

القدوة والأسوة في الجهاد:

اعلموا أنّ الجهاد لا يقرِّب أجلاً، فلو كنتم في بيوتكم لبرز الموت إليكم، ففرارُكم لن ينفعكم، ومتاعُ الدّنيا قليلٌ زائل، والذين يظنّون أنّه بالجهاد قد توحّش الخصم، أو ازدادت شروره، وكثْرةُ قتْله للموحّدين والضّعفاء هو جدّ واهم، لأنّه سواء حملتم السّلاح وقاتلتم على دينكم وأعراضكم، أو أنّكم تركتم السلاح وأعلنتم صباح مساء أنّكم ضدَّ العُنف والقتال، فلن يغيّر هذا من الحقيقة شيئاً، وهذه الحقيقة تتجدّد كلّ يوم، فها هي جماعة الإخوان المسلمين تُساق في مصر إلى السجون، وترمي بنفسها تحت أقدام الكفرةِ المرتدّين وترجو نظرةَ رِضى من قبل وزير الداخلية المصري أن يسمح لها بلقائه، لتشرح له حقيقتها، بل إنها لترجو منهم أن يسمح لوسيط بينهم أن يدخل عليه ويشرح له أنّ جماعة الإخوان جماعة سلميّة، لا تنتهج العنف، بل تتبرّأ منه صباح مساء، ونحن نقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، وإنّنا والله لنشعر بالخِزي من هذا الموقف، فهل وصلت المهانة والذّلة بهذه الجماعة إلى هذا الدّرك الأسفل ؟، إنّه لشتّان بين موقف جماعات التّوحيد والجهاد وجماعة الإخوان المسلمين!! الدّكتور أيمن الظّواهري مع ضعفه وعجزه، يلقي الكلمات كالحمم وكأنّها طلقاتُ مِدفع محمرّ الجَوانب نحو الرّئيس المرتدّ وحكومته، وتَحمِل كلماته الأمَل أنّ فتح مصر لا بدّ منه، وأنّه قريب، مع أنّ الجميع يعلم إلى أيّ درجة هو ضعيف عاجز، لكنّها آيات الله ما زالت تتجلّى في هذا العصر: {ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب

قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً}، نحسبه كذلك ولا نزكّي على الله أحداً.

إنّ الرّجال مواقف، فانظر يا عبد الله أين موقفُك، وإنّ الإيمان ليستعلي بذاته حتّى لو كان حبيس السّجن، أو طريحَ الفراش، أو فقير الجَيب، أو مطاردَ الحال.

إنّه ليستعلي في السّجن بخلوته، ومع القتل بشهادته، ومع النّفي بسياحته، ذلك هو الإيمان، وإنّ النّفاق مخذول مع منصبه وشاراته وأمواله وحشمه، لأنّه النّفاق!! {قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلاّ قليلاً أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حدادٍ، أشحّة على الخير، أولئك لم يؤمنوا فأحبط أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا}.

أرأيت أخي: هم، هم، في البأساء والضّرّاء، معوَّقون ومعوِّقون، فإذا أتوا إلى مواطن النّزال أتوا قليلاً، من أجل الرّياء والسّمعة، حتى يرجع الواحد منهم إلى بلدته ويخطب آلاف الخطب، ويجمع آلاف الدّنانير، في الحرب ينصحون بترك المعركة، وفي السّرّاء إيذاء ورميٌ بسوءِ الأقوال من كلِّ جانب، عيونهم مفتّحةٌ، مجهريّة البصر في النّظر إلى الأخطاء والسّقطَات حتّى يسيروا فيها شرقاً وغرباً، لكنّها كلَّةٌ تعِبَة عن رؤية الخير وإبصاره، جيوبهم منتفخة، كريمة على نفسها وعيالها، يبني الواحدُ منهم كأنّه مخلّد، ويجمع المال باستكثار يظهر عليه، حتّى صار الواحدُ منهم يعَدّ من أثرياء بلده، وصارت أموالهم محطّ تندّرٍ من قبل الأعداء والخصوم، بنوكُهم تسجّل في بلاد الـ "واق واق"، تأتيهم هباتُ الملوك وشيكاتُ الهدايا بملايين الرّيالات، من أجل فتاوى رخيصة وخطب قبيحة.

لقد تكلّم الله بهذه الآيات والكلمات، وهي كأنّها صورة كونيّة للحدث، كلمات الله تنقلنا نقلات سريعة، وكذا حدث الأحزاب، اختلطت فيه صورة المشركين {جاءتكم جنود}.. {جاءوكم من فوقكم}، وصورة مشاعر النّاس جميعاً بصورة خاطفة: {وتظنّون بالله الظّنونا}، ولم يتكلّم الله عن مشاعر الكافرين شيئاً، بل يكفي أن يقول عنهم أنّهم جنود، جنود فقط، فلم يتكلّم شيئاً إلاّ عن حركتهم الظّاهرة: {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم}. ثمّ شرع القرآن في وصف المؤمنين، حيث انتظرنا وصفاً مُسهباً: {هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلزِلوا زِلزالاً شديداً}،

لفتة سريعة، كلمات مفعمة بالبيان، وتحتاج إلى ما وراءها، ولكنّ سرعة المعركة تقتضي سرعة الوصف، وفجأة تنتقل إلى المنافقين، كلمات الله إلى المنافقين، وتحدّث، وكأنّهم في معزلٍ عن أرضِ المعركة، مشاعرهم خاصّة، وأقوالهم خاصّة، جسْمٌ غريب، يتوقّف عندهم حديث المعركة ليحكي لنا أصولهم السّابقة، ومعالمهم قبل الحدث، وكيف يعالجون الأحداث بتعليقاتهم وتحليلاتهم، ويفضح الحديث علّة حركاتهم وسكناتهم، وكأنّ المعركة ما جاءت إلاّ لهذا الأمر، وهو فضح المنافقين وكشْف عوراتهم.

ووسط ذلك كلّه، فجأة يلقي الرّب جلّ في علاه علينا هذا التقرير والإحكام قائلاً: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً}21، وعلى الرّغم من أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة المؤمنين في الأمور كلّها، وعلى الرّغم أنّ هذه الآية حجّة في وجوب اتّباع النّبيّ صلى الله عليه وسلم، إلاّ أنّ علينا أن نتوقّف أمام سِياقها، وسِباقها، فقد قرّر الله هذه الأسوة من خلال حديثه عن المعركة، وتفاعلات النّاس حولها، نعم أسوة لنا بلباسه، وأسوة لنا بصلاته، وأسوة لنا بمأكله، وأسوة لنا بشأنه كلّه، لكنّ الحديث عن الأسوة انطلق من وسط فتنة الأحزاب، وغبارِ المعارك، وصلابة القرارات، فأين المتحدّثون عن الأسوة بحبّه لبياض الثّياب، وكثرة التّطيّب، وذراع الذّبيحة، .. و!.

ليعلموا أنّ حديث القرآن عن القدوة والائتّساء كان من خلال حديثه عن غزوة الأحزاب.

إنّه النّبيّ لا كذب   إنّه ابن عبد المطّلب

وبعد أن قرّر الله تعالى حُكم الأسوة والقُدوة، وأنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فحيث أنه صبر فعليكم أن تصبروا، وتقاتلوا، فلا ينبغي لكم أن تتركوه وحده في مواطن القتال والنـزال، بل لا يجوز لكم أن تستأذنوه في ترك القتال كما قال الله تعالى: {لو كان عرَضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتّبعوك ولكن بعُدَت عليهم الشقة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم حتّى يتبيّن لكَ الذين صدَقوا وتعلَم الكاذبين لا يستأذِنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين إنّما يستأذنُك الذين لا يؤمنون بالله واليومِ الآخر وارتابت قلوبُهم فهم في رَيْبهم يتردّدُون} التوبة. ذلك لأنّ الاستئذان هو هروب من نصرة دين الله تعالى، وخذلٌ

له، ولا ينبغي للمسلم أن يخذل دين الله تعالى، أو يَتَوانى عن نصرته، وإنّه من البيان الضّروري أن تكون الأُسوة في هذا الباب أعني باب الصّبْر على القتال ودوام الارتباط به عملاً وفِكراً، ودعوةً، وتحريضاً، وردّاً على شبه المثبِّطين والمخذِّلين، أو المعوِّقين له بإسقاط أحكامه في أي عصر من العصور.

إن القيام بهذا الأمر أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوى عليه إلا المتعلّق بالآخرة، الرّاجي لأجْرِها أن يُصيبه، ولعذابِها أن يخطِأَه، والذّاكرُ لربّه تقويةً لقلبه، وتطميناً له من أن يهتزّ أو يرتجف كما قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون} الأنفال، لأن الأُسوة في هذا الباب تكاليفها شاقّة عالية، يرى المرءُ آثارها بأمّ عينَيْه، ويعيشُ هذه التكاليفَ لحظةً بلحظة، فهو معذَّبٌ من طواغيت الأرض، أو مطاردٌ غَريب، أو محاصَرٌ محْبوس، أو مهدّدٌ يرْقب الموتَ في كلِّ آن، ومثل هذا الحال لن يصبِر عليه إلا من قام به من أجل الآخرة، واستعان على هذا الصبر بذكر الله تعالى، وبهذا يتحقق التوافق بين ذكر الأسوة وبين ذكر وصف القائم بها، وذلك بخلاف المتأسِّي به في غير هذا الباب، إذ أنّه قد تجتمع رغبة النّفس وشهوتُها مع الأسوة في أبواب أخرى كثيرة معلومة لدى القاصي والدّاني، لأنّ الأسوة في هذا الباب لا تكلِّف كثيراً، ولا تصابر النّفس نفسها عليها، بل تقوم عليها راغبةً فرحةً، لا تخاف شيئا لترجو غيره، ولا تضطرب فتحتاج إلى الاطمئنان.

{ولمَّا رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما من المؤمنين رجالٌ صدَقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحْبهُ ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلا}.

الابتلاء والوعد بين المنافقين والكافرين:

بعد أن وصف الله تعالى المنافقين وأحوالهم، وذكر حركة الكافرين من الالتفاف حول المدينة، وبعد أن وصف الله تعالى عِظَم الزّلْزلة على قلوب المؤمنين {هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلزلوا زِلزالاً شديداً} أخبرنا الله تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم، وماذا كان تفسيرهم لحدث الأحزاب وكيف كان فقههم له، {هذا ما وعدنا الله ورسوله}، إنّ جمع الأحزاب هو

وعدُ الله ورسوله؟، وانظر أخي في الله تعالى إلى أدب الصحابة رضي الله عنهم حين سمُّوا الابتلاء وعداً، مع أن لفظ الوعد يحمِل البِشارة وليس النِّذارة، والأحزاب نِذَارةٌ، فكيف سمّوا الابتلاء وعداً ؟!.

إنّ تسميةَ الابتلاء وعداً من تمام الفقه والفهم، لأن وعود الله تعالى بحصول الخير، وقدوم البِشارات لا تتمُّ إلاّ بعد الابتلاء والتّمحيص، فحيث رأى المؤمن الابتلاء قادماً إليه، فهو رابطٌ له ولا شك بما سيأتي بعده، وهو وقوع الوعد، لكن بعد اتِّخاذ الموْقف الصّحيح، وفي كلامهم رضي الله عنهم موقِفُهم من الحدث، فحيث قالوا: إن هذا الابتلاء هو وعد لله تعالى، فهو موقف منهم أنَّهم سيصبرون عليه، ويعالجوه وفق أحكـامِ الله تعالى، ذلك ليخرجَ من الابتلاء إلى الوعد، وإلا فإن الابتلاء سيكون مقدّمة الوعيد لا الوعد.

فهم رضي الله عنهم نظروا إلى نتيجة الابتلاء وخلاصته، وذلك من خلال موقفهم من الحدث، فالفتنة يسقط بها المرء، فتكون عذاباً على صاحبها كما قال المنافقون: {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً} فهؤلاء محجوبون بحجاب الهوى والشّهوة، وكذلك بحجاب البلادة والجهل، حيث ظنّوا أنّ الوعودَ الإلهية تقدم على أطباق الذّهب والفضّة، بلا امتحان وابتلاء، وبدون تمحيص واختبار، فحيث وقع البلاء زاغت قلوبُهم عن الحقّ، وخرجت منهم كلمات الشرِّ والسّوء، وأمّا المؤمنون فقد تذكّروا قوله تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتِكم مَثَلُ الذين خَلَوْا من قبلكم مسّتهمُ البأساءُ والضرَّاءُ وزُلزِلوا حتّى يقولَ الرّسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب} البقرة. فالوعود لا تأتي بلا مقابل، بل لا بدَّ من أن تأتي لمن يستحقّها {وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً} وأنت أخي المسلم ترى أن الله فرّق في كلامه المجيد العظيم وصف المؤمنين حيث قال سابقاً: {هناك ابتُلي المؤمنون وزُلزِلوا}، ثمّ وصفَ المنافقين ثمّ عاد سبحانه وتعالى إلى ذكر المؤمنين، وأظنّ أنّ حكمة هذا - وهو ذكر وصف المنافقين بين وصفٍ سابقٍ للمؤمنين ووصف لاحقٍ لهم - إنّما هو تبيينٌ لحال المنافقين وأنّ وجودهم بين المؤمنين هو الذي اقتضى ذكرهم بين وصفين للمؤمنين، وهناك نكتة أخرى وهي أنّ الوصف السّابق {زُلزِلوا} كان بين وصفين

وهو وصف حركة الكافرين {إذ جاءوكم} ووصف المنافقين، فالزّلزلةُ الحاصلةُ للمؤمنين هي بسبب هذين العدوّين:

- الكافرين وقدومهم..
- والمنافقين وخذلانهم وأراجيفهم..

فالابتلاء قد وقع بين سندانٍ ومطرقة، سندان المنافقين ومطرقةُ الكافرين، وهذا من أشدّ البلاء وأعظمه، وكما سيتبيّن لنا أنّ الكافرين قد ذهبوا وبقيت فتنة المنافقين بين أظهُرِ المسلمين، فما أشدّ هؤلاء القوم على أهل الإيمان!! وما أقسى ما تعاني الجماعة المسلمة منهم!! بل {هم العدوّ فاحذرهم قاتلَهم الله أنّى يؤفكون}. وحديث القرآن عن النّفاق والمنافقين طويل مسهب، ولكنّ معاناة المؤمنين من هذا المَرض لم تكن إلاّ في حال الجهاد والقتال، إذ أنّ النّفاق لا يُطِلُّ برأسه، ولا يجد لكلماته قبولاً وصدى إلاّ عند وقوع الابتلاء والمحن، فحين تضطرب النّفوس، وتبلغ القلوبُ الحناجرَ يكون لأراجيف النّفاق موطنٌ ونوع قبول... والنّفاق في القرآن على وصفين ومثلين.

أصناف أهل النفاق: المثل والواقع

المثل الأوّل: {مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً، فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركَهم في ظلماتٍ لا يبصرون، صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون}..

المثل الثّاني: {أو كصيّب من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلونَ أصابعهم في آذانهم منَ الصّواعقِ حذرَ الموْت والله محيط بالكافرين يكادُ البرقُ يخطَفُ أبصارهم كلّما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إنّ الله على كلّ شيء قدير}.. والمثلان القرآنيّان لحالتين واقعيّتين:

فالمثل الأوّل لنوع المنافق الذي لم يُسلِم أبداً، ولم يدخل الإيمانُ قلبَه قطّ، بل بمجرّد قدوم الحقّ عليه أنكره وأعرض عنه، فهذا مستقرّ قلبه على الكُفر، لكنّه أسلمَ ظاهِراً خوف السّيفِ أو رجاءَ الأصفر (الذّهب).

والمثل الثّاني لنوع آخر من النّفاق، وهو النّفاق المتقلّب، تأتي على قلبه الواردات الإيمانيّةُ فيبصرها ويهتدي بها، فيسلم قلبه كما أسلم ظاهره، {كلّما أضاء لهم مشوا فيه} ولكنّه لا يقيم على الإيمان، فإذا أتت عليه وارداتُ الشّبه الباطلة، أو شهوات الهوى والنّفس، فإنّه يتنكّر لهذا النّور، فيُظلم قلبه {وإذا أظلم عليهم قاموا}، فقلبُه متردّد بين الإيمان والكفر، لا يَقِرُّ له قرار، والله عليم بما يختم لهم، فإذا جاءه الموت وهو في حال نوره وإسلامه مات مسلماً، وإن أتاه الموت حالَ كفره ونفاقه مات كافراً منافقاً، وليس لنا إلاّ الحكم بالظّاهر وقرائن الحال الغالِبة، فالابتلاءات والمِحن تكشف النّوعين، والقسم الثّاني تكون له فتنةً وابتلاءً، فإمّا يزداد بها نوراً وإيماناً، وإمّا ينتكس بها ويخلد إلى الكفر والنّفاق، وهذا سرّ قوله تعالى: {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً} فهما قسمان: منافقون وفي قلوبهم مرض، وهذا كذلك سبب تعليق الحكم عليهم على المشيئة كما سيأتي في قوله تعالى: {ويعذّب الله المنافقين إن شاء أو يتوبُ عليهم}. وهذا الكشف ومعرفة الحقائق -أي حقائق النّاس- لم تُعرف إلاّ بالجهاد في سبيل الله تعالى.

{من المؤمنين رجالٌ صدَقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً، ليجزي الله الصّادقين بصدقهم، ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوبَ عليهم إنّ الله كان غفوراً رحيماً، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويّاً عزيزاً، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرّعب فريقاً تقتلون وتأسِرون فريقاً، وأورَثكم أرضهم وديارَهم وأموالَهم وأرضاً لم تطأوها، وكان الله على كلّ شيءٍ قديرا} الأحزاب 23-27.

ثمّ انجلت المعركةُ وأسفرت نتائجها واضحة بيّنة، وهي غزوة من أشقّ الغزوات على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وفيها فقط قال صلى الله عليه وسلم: ((يا أيّها النّاس، لا تتمنّوا لقاء العدوّ، وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السّيوف)). ثمّ قال: ((اللهمّ منزل الكتاب، ومجري السّحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)) متّفق عليه. فهي المعركة الوحيدة التي طلب فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه عدم تمنّي لقاء العدوّ، وإلاّ فإنّ خروجَ الصّحابة رضي الله عنهم لملاقاة العدوّ

أكثر من أن يحصى، بل إنّ بعدها (أي بعد الأحزاب) قال صلى الله عليه وسلم: ((الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)) البخاري. ولذلك لا يحتجّ بهذا الحديث على عدم جواز تمنّي لقاء العدوّ مطلقاً، إنّما هو ظرف خاصّ، في حالة شديدةٍ، كان اللقاء يكلّف الإبادة الشّاملة لكلّ الجماعة المؤمنة، ولكن إذا لقيتُموهم فاصبروا.

انجلت المعركة عن شهداء قضوا نحبهم، وأفضَوا إلى خالقهم، أحب الله لقاءهم فاتخذهم شهداء، واتخاذ الشهداء من مقاصد الجهاد كما ذكر الله ذلك في غزوة أحد {وتلك الأيّام نداولِها بين النّاس وليعلَمَ اللهُ الذين آمنوا ويتّخذ مِنكم شهداء والله لا يحب الظّالمين}، فالموت في سبيل الله من مقاصد حركةِ الجهاد، وقد روى البخاري أنّ هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه، كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد ذكر العلماء أنّه قد يكون للآية الواحدةِ عدّة مناسبات، وأنّها نزلت عدة مرات، فسياق الآية في الحديث عن الأحزاب، فلا يمتنع أن تنـزل هذه الآية بعد أحد مرة، وفي الأحزاب مرةً أخرى.

أصناف أهل الإيمان: أهل الإيمان قسمين:

شهداءُ إلى ربّهم، وأحياءٌ أمناءُ على العهد، ينتظرون النّصر أو الشّهادة، كلاهما قد صدق ربّه، فجزاؤهم عند ربهم، ليس عند أحدٍ من الخلق، وانجلت المعركة عن منافقين يتردّدون بين الإيمان والكفر، فإما أن يقيموا على الكُفر أو يموتوا عليه فلهم العذاب، وإمّا أن يغلب النور على قلوبهم بعد أن رأوا من آيات الله البيّنـات من نصرِ نبيه، وتأييدِ الريح له، فيغفرَ الله لهم، ويلُحِقهم برَكْبِ الإسلام والإيمان، وبجماعة الهُدى والنّور.

{ورد الذين كفروا بغيظهم}: عذّبَهم الله بالرّيح، والرّيحُ جُنديّ من جنود الله تعالى، وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريحٌ شديدة، تكاد أن تدفن الراكب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بعثَت هذه الرّيح لموت منافق))، فلما قدِم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات. {وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً}: فلم يُضرب في غزوة الأحزاب بسيف، ولم يُرم فيها بسهم، إنما هي الريح - ريح الصّبا -.

وكان من زيادة الله تعالى وفضله عذابُ بني قريظة، وغنيمةُ المسلمين لأرضهم وأموالهم، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: "لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام فقال: قد وضعت السلاح! والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: ((فإلى أين؟)) قال: هاهنا، وأشار إلى قريظة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم".

وفي رواية أخرى في غير الصحيح أنّ جبريل عليه السلام قال: يا رسول الله انهض إلى بني قريظة. فقال (أي النبي صلى الله عليه وسلم): ((إن في أصحابي جهداً)). قال: انهض إليهم فلأضعضعنهم. قال: فأدبر جبريل، ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار. ا.هـ.

ففتح الله عليهم بني قريظة، إذ لم يبق منهم رجل بالغ إلا وقُتِل، وسبِيَت نسائهم، وغنِمَت أَموالهم، {وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها}، قال أهل العلم في قوله تعالى: {وأرضاً لم تطئوها}: "أن هذه بُشرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولصحابته بفتح أراض أخرى غير بني قريظة، قال بعضهم هي خيبر، وقال بعضهم مكة، وقال آخرون: فارس والروم، وقال عكرمة: هي كل أرض تفتح إلى يوم القيامة".

نعم بالجهاد ورِث المسلمون كنوز الأرض وملكوها، كنوزاً تَعِبَ عليها أصحابها حين جَمعوها وتعِبوا في جنْيها، وأضاعوا من أجلها الأوقات والأعمار والأزمـان، وأرضاً جعلوها من جِنَانِ الأرض، حدائقَ غنّاء، وأشجاراً باسقةً عالية، وأرضاً زاهيةً حيةً، كلُّ هذا ورثهُ المسلمون عندما كانوا أهل الجهاد وأصحابه، أما الآن فيا حسرتاه على ما أصابنَا بسبب ترك الجهاد والرّكون إلى الأرض: دفعنا الجزية، وورث الكفر أرضَنا وديارَنا.

في فلسطين، أرض من جنان الدّنيـا، بيّارات (بساتين) البرتقال والليمون، أخذَها إخوان القِرَدة والخنازير، ووَرِثوها من أصحابها بسهولةٍ ويُسر، بلادُنا التي كانت تسمّى بلاد السَّمْن والعسل، هاهم أبناؤها يرتمون على أرصفة الذلّ والخزيِ في أوروبا بحثاً عن لقمةِ الخبز، وخيراتُ أرضِنا من معادنَ وبترول وذهب هاهو الكفر يتنعّم به كل نعيم، ويخوض فيه إلى

أُذُنيه، والفقر يضرب بجذوره في ديارنا، عائلات تبيع عرْضها وشَرَفها من أجلِ قوتها، فيا الله ما أشدّ عذاب من ترك الجهادَ وأخلَدَ إلى الأرض!.

أيها المسلمون لا بديل عن النار، ولا بديل عن السِّلاح، ولا بديل عن الدَّم..

أيها المسلمون الجهاد.. الجهاد.. جهادٌ من أجلِ ديننا الذي ضيّعه المرتدُّون، وتلعَّبوا به وجعلوه أهونَ موجود.

جهادٌ من أجلِ أعراضنا التي انتهكها الفقر والبؤس والجوع، وتلعَّب بها الطَّواغيت كحكايات الليل.

جهاد من أجلِ صرخاتِ الأسارى والمعتقلين.

جهاد من أجل أرض الإسلام وديار الإسلام، الديار التي طهرت بدماء الصحابة والأولياء والصالحين فصارت مأوى الغربان والبوم وصهيل خيل مسيلمة.

لقد صمّت الآذان بفحيح الأفاعي ونعيق الغربان وصهيل خيل مسيلمة..

فمن يُسرج خيل الجهاد ؟.

ومتى يَطْرب الشَّجر والحجر، ويتغنّى الوجود بنداء:

يا خيل الله اركبي؟.

موازين الرجال وحقائق الوجود:

تحت شمس الجهاد اللاهبة ظهرت حقائق الوجود، والإنسان من هذا الوجود، فتعرَّى الإنسان، وآب كل صنْفٍ إلى قسيمه، فعرف الناس أنفسهم، وعرف الناس إخوانهم وأعداءهم، ولم يكن ليظهر هذا كله إلا بسبب شمس الجهاد ونورها الكاشف.

غزوةُ الأحزاب كما عرضها أشرف الكلام وأعلاه - القرآن الكريم - كشَفَت الجزيرة العربية، وكشَفَت مجتمع المدينة النبوية، فليس هناك من رطوبةٍ خبيثة مخبَّأة، وليس هناك من أماكن مظلمةٍ تضرب الغربان فيها بأجنحتها، وتُغمغِم البوم بنعيقها، وليس هناك مقادير للرجال قد شغلها غيرُ أصحابها، لا، بل عدَّلت غزوة الأحزاب الموازين، موازين الرجال، وموازين القوى.

أمَّا موازين الرجال ففي قوله سبحانه وتعالى: {من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلاً}، وفي قوله سبحانه وتعالى: {ويستأذن فريقٌ منهم النّبي ويقولون إنَّ بيوتنا عورة}، وفي قوله: {وإذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعَدَنا اللهُ ورسولهُ إلاّ غروراً}.

سعد بن معاذ نموذجاً:

فكان من القسم الأول شهيدٌ ووفيّ، منهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، وهو من سعود الخير (سعد بن عبادة، سعد بن الربيع) من أنصار النبي صلى الله عليه وسلم، وكان سيداً من سادات الأوس، رفعه الله فوق ما كان عليه من رفعةٍ في قومهِ، ورفع الله تعالى به الإسلام، وخَبَره في غزوةِ الأحزاب خبرٌ يملأُ الجوانحَ إعجاباً وحبّاً، فيها الصورة المثلى لرجل التّوحيد والجهاد، ففيها أصابه سهمٌ في أكحله من رمية رجلٍ مُشرك اسمه ابن العرقة، وقيل غير ذلك، ولما رماه قال: "خذها وأنا ابن العرقة"، فقال سعد : "عرّق الله وجهك في النّار"، فذُهب به إلى داخل المدينة ليمرَّض، وكان من دعائه بعدما أصيب: "اللهم لا تمتني حتى تُقِرَّ عينيَّ في بني قريظة"، وبنو قريظة هم من ثلاثة قبائل يهوديةٍ في المدينة وهم:

بنو النّضير، ومن زعمائهم كعب بن الأشرف.

بنو قينقاع. وهؤلاء قد سبق طردهم من المدينة بسبب نقضهم العهود والمواثيق التي أنشأها معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قدومه إلى المدينة.

بنو قريظة، وكانوا حلفاء سعد بن معاذ ومواليه في الجاهليَّة، وبعد انتهاء الغزوة وانصراف الأحزاب، فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بعدما حرّضه جبريل عليه السلام كما تقدم، وبعد حصارٍ دام خمسٍ وعشرين ليلةٍ، جَهَدَهُم فيه الحصار جهداً شديداً، ففي صباح الخامس والعشرين، وبعد مداولات ومشاورات بين القرظيين، وبعد أن قذفَ الله في قلوبِهم الرُّعب قبِلوا أن ينـزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتواثب الأوس، فقالوا: "يا رسول الله موالينا دون الخزرج، وقد فعلتَ في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت"، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاصر بني قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، فسأله إياهم عبد الله بن أبي ابن سلول فوجّههم له (أي أعتقهم)، فلما كلَّمه الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا

ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم))، قالوا: بلى، قال: ((فذاك إلى سعد بن معاذ))، فأتاه قومه إلى الصُّفَّة التي كان يمرَّضُ بها بجانب المسجد النبوي، فحملوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلوا يقولون له: "يا أبا عمرو (أي سعد) أحسن في مواليك، فإنّ رسول الله إنَّما ولاّك لتُحسن فيهم"، فلما أكثروا عليه قال: "قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم"، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعدٌ بن معاذ - رضي الله عنه - عن كلمته التي سمع منه، فلمّا انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قوموا إلى سيدكم))، فقاموا إليه، فقالوا يا أبا عمرو: "إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد ولاّك مواليك لتحكم فيهم"، فوقف سعد بين اليهود والمسلمين، فنظر إلى اليهود وقال: "عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أنّ الحكم فيما حكمت". قالوا: نعم، ثمّ قال وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له: "وعلى من ههنا"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((نعم))، قال سعد: "فإنّي أحكم فيهم بأن تقتّل الرِّجال، وتقسَّم الأموال، وتسبى الذّراري والنّساء"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: ((لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات)). ثمَّ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوقِ المدينة، فخندق بها خنادق، ثمّ جيء بالقرظيين، فضرَبَ أعناقهم، وكان عددهم بين السبعمائة والثّمانمائة، وكان سيّاف النّبيّ صلى الله عليه وسلم الزّبير، وإن غاب فعليّ رضي الله عنهم جميعاً، وقد كان الصّحابة رضي الله عنهم يفرّقون بين الرّجال والأطفال بظهور اللحية والشّارب، وإلاّ بظهور العانة، فمن ظهر شاربه أو لحيتُه أو عانَته فهو رجلٌ يُقتل، وإلاّ فهو سبْي ومالٌ مغنوم. أمّا سعد بن معاذ رضي الله عنه فقد دعا بعد ذلك بقوله: "اللهمّ إنّك علمت أنّه لم يكن قومٌ أحبّ إليّ أن أقاتل أو أجاهد من قوم كذّبُوا رسولَك. اللهمّ إن كنتَ أبقيْت من حرب قريشٍ على رسولكَ شيئاً فأبقني لها، وإن كنتَ قد قطعتَ الحربَ بينه وبينهم فاقبضني إليك"، فانفجر جرحه حتى أنهاه، فرحل إلى ربّه راضياً مرضيّاً.

إنّ هذه الشّخصيّة الصّحابيّة العظيمة تُظهر لنا أركان الصّورة المحبوبة لله تعالى: {من المؤمنين رجالٌ صَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه فِمنهم من قضى نحبه}، وسعدٌ رضي الله عنه كان ممّن قضى نحبه.

صورةٌ مشرقةٌ بعطائها وقتَ المِحن والخطوب، تأتي إلى الموت وهي ترتجز:

لبث قليلاً يشهد الهيجا حمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

صورةٌ لرجلٍ لا تأخذهُ في الله لومةُ لائم، لا يعرفُ إلاّ محبّة اللهِ ومحبّة رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وشائجُ القربى بينه وبين النّاسِ مقطوعةٌ إلاّ ما وصلها الله وأمر بوصلها، لم يُرِد رضي الله عنه أن يتشبّه برجلٍ منافقٍ، استغلَّ وجوده في الصّف المسلمِ لتمريرِ شبكةِ علاقاتٍ قائمةٍ على أصولٍ جاهليّةٍ فاسدة، أو يبني علاقةً على حساب الإسلام والمسلمين، وفي هذه الصورة المعروضةِ تظهر لنا أنّ الشّخصيّة الصّحابيّة قد بلغت من الرّقيِّ الفِكْري والنّفسيّ إلى درجةِ ما يحبُّ الله تعالى وما يرضيه قبل أن تسمع الخبر الإلهيّ، فالنّبيّ صلى الله عليه وسلم شهد لحُكمِه أنّه هو حكم الله تعالى، وقد كان رضي الله عنه في منطقةِ الاختيار الجائز للطّرفين، ولكنّه لمّا وصل إلى درجة القُرْب من عبوديّته لسيّده -جلّ في علاه- صار يعرِفُ ما يريدُه سيّده، وما هذا إلاّ بسبب الطّاعات وكثرة القرب كما قال الله تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا}، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسيّ: ((وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يَبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه))، ثمّ انظر إلى دعائه الأخير، والذي يكشِف فيه سبب رغبَتِه في زيادَة العُمر إن كانت ثمّ فائدة، وما هي هذه العلة التي من أجلها يطلب طولَ العُمر: إنّها مقاتلة المشركين: "اللهم إن كنت أبقيتَ من حربِ قريشٍ شيئاً فأبقني لها". إنّ الحياة ليست بطول السّنين ولا بكثرة الأيّام، وليس جمالها برغَد الطّعام ولينِ الفراش، ولكن إن كان ثمّة رغبة في الحياة فهي بسبب الجهاد، وهذه نفسيّة أغلب أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فهناك قولٌ لعمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه شبيه بقول سعد، وكذا لخالد بن الوليد، ولأبي بكر رضي الله عنهم جميعاً، وكلّها تشهَدُ أنّ الجهاد صار هاجس النّفس، ومنتهى الطّلب، وغاية المُنَى، وإن كان الله

تعالى قد كتب الجهاد وهو كُرهٌ للبشر كما قال في كتابه - جلّ في علاه -: {كُتِبَ عليكُمُ القِتال وهو كره لكم}، فإنّ تلك النّفوس ما زالت تترقّى وتتعالى على شَهَوَاتِها حتّى صار الجهاد شهوتها ورغبتها:

وذاك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوٍ ممزّع

إنّ هناك فارقاً كبيراً بين جيل كان يطلب الإذن للقتال، وإذا سمع شرّاً بادَرَ بمعالجته بالسّيف: "أفلا ننابذهم؟"، وبين جيلٍ يلتمسُ المعاذيرَ والحُجَج الهزيلة لإسقاط الجهاد أو تعويقه أو تأجيله. شتّان بين هذين الجيلين؟.

لقد كان لحكم سعدٍ بن معاذ رضي الله عنه - هذا الحكم الرائع - على بني قريظةَ موجباتٌ ومقدِّمات عقليّة ونفسيّة، وهذه العقليّة والنفسيّة قد شكّلها مبدأ الجهاد أوّلاً، ثم مسيرةُ الجهادِ ثانياً، وخاصّة حدثُ الأحزاب، إنّه لا يُمكن أن يَصدُر هذا الحكم بلا مقدِّمات موضوعيةٍ حقيقيةٍ:

رجلٌ بينه وبين قومٍ وشائجُ وصلاتٌ هي من أقوى الصلات بين الناس يومَ ذاك، ومن أجلها يبذلون الأرواح والأموال والطّاقات، فالحليف كان ينصر حليفه حتى لو أدت هذه النُّصرة إلى المهالك، ثمّ هذه الوشائجُ والصِّلات بإنشاء الأحلاف لم تكن تنشأ من فراغٍ نفسي، بل من وجود محبَّةٍ وعلاقةٍ خاصّة بين المتحالفين، وها هنا الأوس وبني قريظة، ثمَّ وفي ظَرْفٍ يصدِرُ الحليف حكم الموت على حليفه: "حكمي فيهم بأن تقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتسبى الذراري والنساء"، وهذا الحكم ليس موجبه الخلاف القبلي ودليل ذلك أن الأوس جعلوا يطوفون به يرجونه بأن يُعتقهم ويطلق سراحهم، فما هي هذه الموجِبات التي جَعلته ينطق هذا الحكم الرائع العادل؟.

قلنا إنّ هذه الموجبات منشؤها الجهاد، وحركة الجهاد ومسيرة الجهاد. فالجهاد بصفته مبدأً وعقيدةً أنشأ في نفس المسلم الصّحابيّ بغضاً للكفر وأهله، إذ أنّ المرءَ لا يندفع بقوّة كافية للقَتل والقِتال إلاّ بعد أن تمتلئ نفسه بالبغض والكره لخصمه، وقد بغّض القرآن الكريم الكفر والكافرين لأتباعه ورجاله، ودفعهم بكلِّ ترغيبٍ إلى مصادَرَة حياة الخصوم.. {ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم}.. {قاتلوهم يعذِّبهمُ الله بأيديكم}.. {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}..

{واقعدوا لهم كل مرصد}، ولولا مبدأ الجهاد وعقيدة الجهاد لما أمكن أن تصل النّفس المسلمةُ إلى درجة البراءة المطلوبة ضدّ المشركين، فمبدأ البراء من المشركين يعبأُ ثمّ ينفّذ من خلال الجهاد في سبيل الله.. ثمّ بسبب الجهاد اكتشف الرجل النّقيُّ الطّاهر الوفيّ خبث الشّريك والحَليف، وأنه لا يستحقُّ حِلفه لأنّه خائنٌ، وما كان للنَّفسِ اليهودية أن تَظهَرَ على حقيقتها إلا بهذا الظَّرف المُلتهب وهو غزوة الأحزاب، إذ أنّ الفتنة تكشف الصادق في كلماته، والكاذبَ في دعواه، فكان الجهادُ في غزوةِ الأحزاب كاشفاً للحقائقِ النَّفْسيةِ لهذا الحليف الخبيث، وكم هي مؤلمةٌ أن يكتشفَ الطّاهر الصّادِقُ كَذِب وتزييف المدَّعي!! إنَّها لمؤلمة حقاً أن يكتشف سعدُ بن معاذ أنّ حلفائه كذَبةٌ فَجَرَة ينقُضُون العهودَ والمواثيق بلا حساب أو وَخْزةِ ضمير، وعلى هذا فسيكون عقاب هذا الرجل شديداً على من خَدَعَهُ. وهكذا كان حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه. إنّ الجهاد بصفته مبدأً وعقيدةً أنشأ عقيدةَ البراءِ من المشركين، وبالتالي دفع الصحابة لقتل أعداء الله، وإنَّ الجهاد بصفته حركةً وسلوكاً كشَف للصحابة مِقدار خبثِ العدوّ، وبالتّالي ذهَبَتْ كلّ أعذار المعوِّقين بأن هناك مجالاً طيّباً في نفوس أعداء الله يمكن أن تستغل في الدّعوة إلى الله.

ولقد رأيت لبعض المعتوهين ممّن ينتسبون للفكر الإسلامي!! معالجةً غريبة لحكم سعد رضي الله عنه، حيث ذهب هذا المعتوه إلى القول: "إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحكم على اليهود هذا الحكم لأنّه يناقض مبدأ الرّحمة والإحسان الذي بُعث به، ولذلك ترك الحكم لسعد بن معاذ، ليكون حُكْماً لسعد لا لرسول الله صلى الله عليه وسلم"!!، ولكن أين ذهب هذا المعتوه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لحكم سعد: ((لقد حكمت فيهم بحكم الله فوق سبعة أرقعة)).

مات سعد..

فما الذي حدث عند موته؟ وماذا حدث في جنازته؟.

عندما مات اهتزّ له عرشُ الرحمن حزناً عليه أن لا تصعد إليه الأعمال الصالحة من سعد.. واهتز له فرحاً بقدوم الروح واستقرارها معلقة بالقناديل الخضر المعلقة فيه..

أما في جنازته فقد مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم على رؤوس أصابعه لكثرة ما كان من الملائكة في المشيّعين!.

فهكذا رجال الجهاد يحيون، وهكذا يموتون..

غزوة الأحزاب وموازين القوى في الجزيرة العربية :

في غزوة الأحزاب تغيّرت موازين القوى في الجزيرة العربيّة، لأنّ روح الجهاد وحركة الجهاد تُعيد ترتيب الأوضـاع حسب مفهومٍ إيمانيّ، فإذا سَرَت روحُ الجهاد وحركته، في قومٍ أذلاّء محتقرين، فبالجهاد تنقلب الذّلة إلى عزّة، والاحتقار إلى احترام وتقدير، ولا يمكن وجود أمّة من الأمم فيها النّجاح والعزّة إلاّ وروح الجهاد تسري في جميع أوصالها.

والآن كيف غيّرت غزوة الأحزاب موازين القوى في الجزيرة العربيّة؟.

الشوكة من النكاية إلى التمكين:

ابتداءً علينا أن نعلم أنّ النّصر الكبير الضّخم مجموعة من سلسلة انتصارات صغيرة، ولا يمكن أن يقع شيء في مجال النّصر والهزيمة بصورة طفرةً مفاجئة تباغت المنتصر أو المهزوم، إذ الطّفرة التي لا مقدّمة لها لا وجود لها إلاّ في عقول مشايخنا وقادتنا فقط، فإنّهم يحملون في كلّ ما يقولون ويرتّبون لضربة يحضّر لها تحضيراً تامّاً وكاملاً، بعيداً عن أعين الخصوم وبهذه الضّربة المفاجئة المباغتة نقضي فيها على الخصوم، وبها نتجنّب الكثير من الدّماء التي تراق، والأرواح التي تزهق، ومشايخنا يدندنون على هذه الفكرة كثيراً، وعلى ضوئها يتراجعون عن الصّراع تحت شعارات التّربية والإعداد، وهذه الفكرة تجد صدىً وقبولاً في النّفوس، لأنّها جميلة جدّاً، ورائعة جداً، ووردية جدّاً، وهي مع ذلك كلّه هشّة جداً جداً، أمّا أنّها جميلة ووردية، فكيف لا تكون كذلك وهي تقدّم للإسلاميين النّصر والعزّة والسّؤدد على طبق من ورد ؟ ثمّ كيف لا تكون ورديّة وهي من صنع أوهام الحالمين، والحلم عندما يختلط في ذهن المرء مع الحقيقة فإنّه لا يناقش مناقشة العقلاء، والأذكياء.

إنّنا نحلم بترتيب رفيعٍ جدّاً لشوكةِ التّمكين دون المرور بشوكة النّكاية، وهي الشّوكة التي يقع فيها: {إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون}، ويقع فيها: {يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون

ويقتَلون}، وهذا مع عدم إمكانيّة حدوثه فإنّه يفرز ولا شكّ فِقهاً أعوجاً، وأحكاماً فاسدة، وما هذا الفقه الذي نسمعه من مشايخنا من جواز التّعدّديّة السّياسيّة، وجواز التّداول على السّلطة، وعدم جواز الجهاد الهجومي، وجواز تولّي الكفّار المناصب السّياسيّة والعسكريّة والقضائيّة في الدّولة الإسلاميّة إلاّ بسبب هذا الحلم الفاسد الناشئ عن تُخمَةٍ مردّها خلط الأفكار غير المتجـانسة، وتفسير هذا: أنّ واقعنا بسبب عوامِل البناء الشّيطانيّ فيه قد امتلأت جوانبه بالشّرور، وأصابت الأمل الإسلامي بالإحباط، فحين يأتي الشّيخ ليعالج هذا الواقع بهذه التّركيبة بأحكام فقهيّة، فإنّ هذه المعالجة وعلى ضوء هذا الواقع ستجعله يتنازل عن كثير من (تشديدات السّلف كما يسمّيها)، إلى ميوعات الخلف (اعتدالهم كما يسميها)، وهذا لأنّه تمّ له التّمكين دون تحضير أرضية التّمكين بما يناسبها، وهذا التّحضير لا يقع إلاّ من خلال شوكة النّكاية، لأنّنا حين نصل إلى التّمكين مروراً بالنّكاية، نكون بفضل الله تعالى قد نظّفنا الطّريق من كلّ أوساخها وقاذوراتها، (ليس كلّ الأوساخ والقاذورات، بل رؤوسها إن شاء الله تعالى) بشوكة النّكاية المتكرّرة، يترقّى الحقّ في نفوسنا ويتجذّر، وتذهب زهومة الأفكار الفاسدة، ويتجذّر بُغضُنا للباطل وبُغضُ الباطل لنا، وبشوكة النّكاية نقطف الرّؤوس التي حان قطافها، فلسنا على استعداد (بتاتاً) لنقاش سفسطائي تفوح منه رائحة الهوى والشّرك، ولسنا على استعداد (أبداً) لحوار يبتسم خصومنا لنا فيه فنظنّ فيهم خيراً، فيدفعنا هذا الظّنّ إلى تقسيماتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، ولسنا على استعداد (ونحن نمارس شوكة النّكاية) إلى التّحالفات الشّركيّة الباطلة. خلال شوكة النكاية يتّخذ الله منّا شهداء، فترتفع أرصدة الجماعة المجاهدة في خانة الصّدق وحبّ الله، وحبّ الرّسول صلى الله عليه وسلم، والبراءة من المشركين.

خلال شوكة النّكاية نتعلّم كيف لا نخاف من الدّم، وكيف نُتقن الذّبح، وكيف نُتقِن اقتحام الحصون المنيعة.

من خلال شوكة النّكاية نتعلّم الصّبر على فقدان الأحباب، ونتربّى على بذل الأرواح في سبيل هذا الدّين.

ومن خلال شوكة النّكاية نتصفّى ونتربّى، ومن خلالها نجهّز لمن بقي منّا حقائبَ الدّخول على الوزارات!!، فإذا وصلنا إلى التّمكين من خلال شوكة النّكاية لن نضطرّ إلى إعلان الحرب على جيراننا، لأنّنا سنكون في حالة حربٍ حقيقيّةٍ لا قيمة فيها للإعلان.

إذا وصلنا إلى التّمكين من خلال شوكة النّكاية لن نكون مضطرّين إلى احترام آراء التّعدّديّة السّياسية ولا الأحزاب الأخرى لأنّه لا وجود لها، لقد واريناها التُّراب قبل قليل، أو رميناها في قليب بدر.

وإذا وصلنا إلى التّمكين من خلال شوكة النّكاية المتكرّرة لن يكون قائدنا جباناً ولا خائناً ولا عميلاً، لأنّ القائد الجبان والخائن والعميل هو الآتي لنا من الظّلام، لم نَخبُره ولم يَخبُرنا، أي أتانا من وراء مكتب وثيرٍ لا من وهج المعركة.

والوصول إلى التّمكين من خلال شوكة النّكاية المتكرّرة لن يجعل همَّنا إرضاءَ النّاس بتأمين السّكن والخبز والعمل لهم، ولسنا محتاجين إلى أخذ رضاهم فيمن يحكم أو بما يحكم ؟، سيحكمهم أميرنا شاءوا أم أبَوا، وسنحكمهم بالإسلام ومن رفع رأسه قطعناه، لأنّ التّمكين وصل إلينا بفضل الله وحده، فليس لنا أن نهتمّ إلا برضـاه وحده، نفعل ما يأمُر وإن غضب النّاس، وننتهي عمّا نهى، وإلهنا هو إلهنا وحبيبنا، نصرنا وحده من ضعف، وآوانا من عُرِيّ، وأطعمنا من فقر، أخذنا سلاحنا من يد عدوِّنا، لم نعقد الصّفقات مع الشّرق والغرب مقابل تنازلات مبدئية، ولم نصل إلى التّمكين بقرار في بيت أبيض أو أسود، بل بعبوديّتنا لله وحده، وببراءتنا من كلّ طواغيت الأرض.

الأحزاب وانكسار شوكة قريش (تحول الصراع):

عودة إلى غزوة الأحزاب: لقد كان لقريش مكانة خاصّة في الجزيرة العربيّة، وكانت العربُ ترقب نتيجةَ الصّراع بين النّبيّ صلى الله عليه وسلم وقريش، وذلك كما روى البخاريّ عن عمرو ابن سلمة رضي الله عنه أنّه قال: "وكانت العرب تلوم (أي تحيّن وتتربّص) بإسلامهم الفتح (أي فتح مكّة)، فيقولون اتركوه وقومه فإن ظهر عليهم (أي انتصر) فهو نبيٌّ صادق"، بل إنّ بعض العرب جعل لإسلامه موعداً، كما قال ذو الجوشن الضّبابيّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما دعاه إلى الإسلام، فوقّت ذو جوشن موعداً لإسلامه وهو هزيمة قريش حيث

قال: "إن تغلب على الكعبة وتقطنها" [انظر مجمع الزوائد 162/6]. وعلى هذا فلو رأينا معارك النّبيّ صلى الله عليه وسلم مع قريش لرأيناه سجالاً وذلك كما وصفها أبو سفيان قبل إسلامه لهرقل: "يغلبنا يوماً ونغلبه يوماً"، وقبل الأحزاب كانت بدر الكبرى التي سمّاها الله تعالى {يوم الفرقان}، بالرّغم من أنّها لم تكن حرباً عالميّةً، وليست تعدل بحجمها العسكريّ الغزوات الإسلاميّةَ الكبرى كاليرموك والقادسيّة وغيرهما، وهي كذلك معركة لم تقض على قريش قضاء مبرماً، بل خرجت قريش بعدها بسنة لغزوة أحد، وتمّ لهم الغلبة العسكريّة في أحد، ولكن عظمة هذه الغزوة التي سمّاها الله فرقاناً وهي التي لم تحضّر لها قريش طويلاً، ولم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلها، بل تمّت من غير ميعاد، لأنّ بها قد وضع حجر الأساس للفتح الأكبر، فهي لبنة من لبنات بناء النّصر، وهكذا فكلّ معركة تلتها كانت تصبّ في خانة الفتح الأكبر "فتح مكّة" وكان فتح مكّة لبنة ومحطّة للخروج من الجزيرة، وهكذا..، وبعد بدر كانت أحد، وما تمّ فيها من استشهاد سبعين صحابيّاً، وخسران الجماعة المسلمة بعض قياداتها، وهكذا توالى السجال، بئر معونة وما حصل فيها من البلاء الشّديد في السّنة الرّابعة للهجرة، حيث قُتل نفر من خيرة المدرّسين والمعلّمين والفقهاء رضي الله عنهم، فالحرب تأخذُ وتُعطي، نصرٌ وابتلاء، حتّى وصلت الذَّرْوة في هذا السّجال إلى غزوة الأحزاب، حيث قرّرت قريش أن تضرب ضربتها النّهائيّة، وتُنهي سلسلة الصّراع لصالحها.

ولو أردنا أن نوازن بين البلاء على قريش والبلاءِ على الصّحابة والمسلمين في مجموع الصّراع لظهر أنّ البلاء كان أشدّ وأعظمَ على المسلمين، إذ كانت قريش تتعامل مع محيطٍ في الجملة معها سوى بعضِ القبائل الكارهة لها كخزاعة، ولكنّ المدينة الطّيّبة محاصرة من اليهود ومن الأعراب ومن قريش، وفي الدّاخل من المنافقين، فالمعوّقات على الصّفّ المسلم وفي داخله كانت أشدّ وأعظم من وجوده في عسكر قريش.

هذا الصّراع بين قريش والنّبيّ صلى الله عليه وسلم كما قلنا كانت العرب ترقبه وتنتظر نتيجته، وقد كان النّبيّ صلى الله عليه وسلم يحاول جاهداً أن يحيّد قريش في صراعه مع الشّرك في الجزيرة العربيّة، لأنّها ليست بالكتلة الهيّنة، ولا المعادِلة له في الصّراع وظهر هذا في قوله كما روى البخاري: ((إنّ قريشاً نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مُدّة ويخلّوا بيني

وبين الناس، فإن أظهرُ فإن شاءوا أن يدخلوا في ما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمّوا (أي استراحوا) وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذنّ الله أمره)) وهذا قاله عندما توجه إلى مكّة للعمرة ونزوله في الحديبية صلى الله عليه وسلم، ولكن يأبى الله تعالى إلا أن ينصر دينه وذلك بتصعيد الصّراع بين قريش وبين النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت قريش تضع نفسها في كل مرة أمام مدّ الإسلام، فتَغلِب وتُغلَب، حتى جاءت غزوة الأحزاب وهي الوعد الإلهي المبشّر كما سمّاها الأصحاب الكرام رضي الله عنهم وحدَث ما حدَث من نزول الملائكة وإرسال الصَّبا.

بعد غزوة الأحزاب قال صلى الله عليه وسلم: ((الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم))، بعدما انقلبت الموازين، وقد قدَّر صلى الله عليه وسلم بما آتاه الله من الهدى والرُّشد أنَّ قريشاً استجمعت كلّ قوّتها في غزوة الأحزاب، ولم يبْق في جعبتها سهماً إلا ورمته، ولا سيفاً إلا وضرَبَته، فلم يبّق لها شيءٌ من القوى ما يمكن أن يجعلها تقوم بمعارك جديدة خارج أرضها لذلك قال صلى الله عليه وسلم قولته وهو سائر للعمرة كما تقدم: ((إن قريشاً نهكتهم الحرب وأضرّت بهم)) وقد رأينا بعد غزوة الأحزاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقم بغزو قريش، بل خرج إلى مكة معتمراً لا يريد حرباً، بل كما روى البخاري: ((إنا لم نجيء لقتالِ أحدٍ، ولكن جئنا معتمرين))، وسبب هذا الأمر هو أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يُحرجَ قريشاً أمام العرب، حتّى يُفقدها شرعيّتها في حماية البيت الحرام، وهذا أمر ضروري لأنه مقدّمة ضروريَّة لإضعاف حلفِ قريش وتفتيته، ثمَّ لإعطاء المبرر لدى القبائل المنتظرة بأن قريشاً ليست بالذي يحقُّ له أن يكون حامياً للبيت، فإن العرب لم تكن لتتصور أن يُمنَع قومٌ - أي قومٍ - من القدوم إلى بيت الله الحرام، فكيف إذا كان القوم هم المسلمون، حيث أحرموا وساقوا الهدي، وبهذا سقطت هيبةُ قريشٍ الدِّينيّة، إذ أنها عَرِيَت أمام العرب بتصرّفها القَبيح، حيثُ مَنعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من العمرة. وبمرورنا السريع على هذا الصّراع - دراسة وبحثاً - يظهر لنا أنّ الصّراع كان خاضعاً للسّنن الإلهيّة، ولم يتجاوزها في أيّ مرحلة من المراحل، صراعٌ سننيّ لا طَفرة فيه ولا مفاجأة، ولا يوجد فيه تلك الخَبطات الحالِمة بالضّرب المفاجئ للخصم، حيث نصل إلى سيادة بلدٍ مهما صغر من خلال إعداد سرّيّ

شديدٍ (ودرجة السّرّية تصل إلى عدم العمل، لأنّ قمّة السّرية المطلقة تعني بكلّ جلاء أن لا تعمل)، وكأنّنا مع هذا النّوع من التّفكير نتعامل مع قومٍ من أهلِ القمر، يعِدّون أنفسهم هناك فوق مستوى مراقبةِ الأقمارِ الصناعيّة وبعيداً عن ضربات الخصوم وهجماتهم!!!!.

معركتُنا مع المرتدّين هي معركةٌ قد فرغنا من أصولها الشّرعيّة، حيث تبيّن لنا بكلِّ وضوحٍ حُكْمَ الله تعالى في الحكّام وطوائفهم، وأمّا من بقي من النّاس يرتكس في جهله لعدم فهم التّوحيد، أو لعدم عِلمه بنواقضه، فلا نملك له إلاّ الدّعاء، أمّا من فهم حكم الله في هؤلاء أنّهم كفّار مرتدّون، وأنّه يجب قتالهم فقد خرج من دائرة الجهل إذا تمّ هذا، فعلى الجميع حينئذٍ أن يُريحنا من آرائه الرّائعة الورديّة، إنّ الدّور الآن بعد الفراغ من معرفةِ حُكم الله تعالى فيه أن نسمع لخبراء ومستشارين وقادة من نوع جديد، قطعاً ليسوا هم خرّيجي الجامعات الشّرعيّة، والذين دَفعَتهم علاماتهم الضّعيفة مكرهين لدراسة الشّريعة والفِقه، وقطعاً ليسوا هم المفكّرين الذين يريدون أن يُجبرونا أن نعترف أنّهم مجدّدون لعصرهم، مع أنّهم لا يملكون إلاّ الجهل والغباء، قَطْعاً ويقيناً ليسوا هؤلاء ممّن ابتُلينا بهم في العمل الإسلامي، إنّما هم أهل الخبرة والمعرفة في العسكريّة والقتال والحرب:

مرّت فتراتٌ متقطّعة من أعمال الجهاد واقعة يتقمّصها غير أصحابها، ويتاجرُ بها غيرُ أبنائها، وسبب ذلك عائدٌ إلى عواملَ منها: رضا الجماهير المسلمة عن هذا الجهاد، ومن أجل الرِّفعة والظّهور على أكتاف المجاهدين، فتسارع هذه التّنظيمات الطّفيليّة إلى تقمّص دور البطولة، وإظهار نفسها في موقع الرّيادة في هذا الجهاد، فترتفع الأرصدة الإعلاميّة، وبالتّالي ترتفع الأرصدة الماليّة، وحينئذٍ يصبح الجهاد في مأزق حقيقيّ، حيث يضرب المجاهدون ضرباً شرساً وذلك ليصبحوا تحت وطأة هؤلاء اللصوص وقطّاع الطّريق إلى الله تعالى، فتظهر الأمراض العجيبة، وتتكشّف النّفوس الخبيثة، ويقع الفِصام النّكد بين المجاهد الحقيقيّ والمموّل الخبيث (لص بغداد)، وأمثلة هذا كثيرة الوقوع وعديدة فمِن أفغانستان إلى فلسطين إلى البوسنة والهرسك إلى سوريا.. إلى.. إلى...، ومن هذه العوامل كذلك: إرضاء القواعد التّحتيّة المتململة، فالإنسان المسلم الفطري السويّ تتوق نفسه فطريّاً إلى الجهاد، وإلى المشاركة في مواطن العبوديّة لله ضدّ الكفر بجميع صنوفه وأشكاله، فمن أجل تفريغ هذا المِرجل من بخاره

الغاضب، فلا بدّ من بعض المنفّسات للتّفريغ الذّكيّ الخبيث، فتسارع الجماعة إلى تبنّي أعمال جهاديّة لتقنع القيادة قواعدها أنّها لم تغيّر الطّريق، أو لتعريف قواعِدها أنّ هناك فرقاً بين ما هو معلن من أجل الغطاء السّياسي، وبين ما هو مخفيّ حقيقيّ.

الجهاد السلفي بين السني والبدعي :

هناك جماعاتٌ طفيليّة ووصوليّة في هذا الباب معروفة لدى القاصي والدّاني، وهي تملك في خطابها نوعين من المضمون، نوع يتعاملُ مع الأفكار والمفاهيم بكثير من الشّرعيّة والأصوليّة، ونوع يتعامل مع الواقع بكثير من الميكافيليّة والثعلبية.

فجماعةٌ ترى عدم شرعيّة الانتخـابات الشّركيّة مثلاً ولكنّها لا تفتأ بل لا تتوانى في تأييد جماعات العمل البرلمانيّ، خاصّة إذا أخذت هذه الجماعات خطوات متقدّمة في الحضور الإعلاميّ، والوجود الجماهيريّ الشّعبيّ.

هذه نقطة على الجماعات السّلفيّة المجاهدة أن تحسمها منذ البداية، عليها أن تحسمها وجوداً وكوناً وذلك بقطع الأيدي والأرجل التي تحاول التّسلّق طفيليّاً على أسوار الجهاد السّلفيّ الواضح، وعليها أن تحسمه فكريّاً وذلك ببيان الفوارق الشّرعيّة بين هذه الجماعات الطّفيليّة وبين المجاهدين الموحّدين.

نعم في الجهاد السّلفيّ الواضح هناك قضايا لا يمكن أن يتحمّلها الطّفيليّ الوصوليّ، وإنّه وإن حاول الالتفاف الخبيث حيناً من الدّهر، فإنّه لا يستطيع أن يواصل بالشّوط إلى نهايته. في الجهاد السّلفيّ ميزّات وخصائص عن عموم الجهاد في المفهوم العرفيّ لدى عوامّ النّاس ومن هؤلاء العوامّ قادة الحركات البدعيّة، وقادة الحركات الطّفيليّة الوصوليّة، ومن أهمّ هذه الفوارق:

صفة الجهاد وطبيعته ونوعه: حركات الجهاد السّلفيّ تقاتل في بلاد الردّة تحت راية واضحة، وكذلك تصف العدوّ وصفاً واضحاً، فهي تصف هذه الطّوائف المعادية أنّها طوائفَ ردّةٍ وكفر، لأنّها اجتمعت بقوّة وشوكة على أمرٍ مكفّر، أجمعت على كفره ملّة الإسلام، فنوع قتال هؤلاء الخصوم، وجنس هذا القتال، أنّه قتال المرتدّين، وهذا القتالُ له أحكامه الخاصّة التي تجتمع

وتفترق عن قتال الكفّارِ الأصليين، وحين تقاتل هذه الطّوائف السّلفيّة المجاهدة تحت هذه الرّاية، فإنّها لا تفرّق في هذا القتال بين مرتدٍّ "دكتاتور" متسلّط، وبين مرتدّ "ديمقراطيّ" سِلميّ.

فهذا فارق مهم في التّفريق بين جهاد الموحّدين السلفيين وبين جهاد المبتدعين الضالين، فليس مجرّد رفع راية الجهاد كافٍ لإدخال المرء في طائفة التّوحيد والجهاد، وهذا الأمر يوجب على الشباب السّلفي المجاهد أن يتوثّق لدينه وأن يتبيّن راية جماعته، ولا يجوزُ له أن يقاتل تحت راية عمية لا يدري أين تسير به، ففي يوم تسمّيه البطل المجاهد، وبعد حين تقذفه بأقبح الأوصاف وأشنعها.

وهذا الفارق الذي ذكرناه يعود إلى قضيّة رئيسيّة، بل هي أمّ القضايا في دين الله تعالى، هذه القضية هي فهم المرء للتوحيد، وفهمه لمنهج السّلف في الإيمان، فإن معرفة المرء للتوحيد وتبيينه له بشكل واضح جليّ يمنعه من الانزلاق في متاهات الجاهلية المظلمة، ويردعه من التنازل عن حق الله تعالى، فإنه يجوز للمرء أن يتنازل عن حقِّه، وهذا من باب الفضل، ولكن لا يجوز أن يتنازل عن حقّ الله تعالى، فالجماعة الموحدة المجاهدة تعفو عمّن ظلمها من المسلمين، وتتجاوز عن حقوقها، ولا توالي على أساس قرب الناس منها، ولا تعادي على أساس بعد الناس عنها، بل هي توالي النّاس على أساس محبّتهم لله، ومحبّة الله لهم، وتعادي على قواعد الملّة المحمّدية في البراء من أعداء الله تعالى، وهذا الأمر من أ شدّ الأمور وضوحاً في دين الله تعالى، وعند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج على الحاكم إذا ظلم رعيته: ((أطع أميرك وإن جلد ظهرك وأخذ مالك))، فحقُّ الإنسان المسلم يتنازل عنه مقابل مقاصد الوحدة وجمع الشمل، ودرءً للفرقة وذهاب الريح، وقد أوجبت الشريعة الخروج على الحاكم إذا كفر بالله ((إلا أن تروا كفراً بواحاً)).

هذا هو دين الله تعالى، فعلّة القتال فيه عدم إيمان المشركين بالله، واجتماعهم بقوّة وشوكة على هذا الأمر {قاتِلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يَدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون}.

بهذا الأمر الجليّ الواضح تكتَشِف الفارق، وهو أهمّ هذه الفوارق، بين جهاد الموحد السلفي وبين المبتدع الوصولي.

وهذا الأمر - وهو عدم تبيّن الناس لحقيقة الجماعات المقاتلة - يُحسَم من خلال إعلان جماعات الجهاد السلفيّ براءتها من جماعات البِدعة، ويوجب عليها أن تؤَصِّل نظرتها من خلال الرّؤى السلفيّة لواقع الجماعة البِدعيّة، وعليها أن تعلن ذلك ولا تُخفيه، وليس هناك من مصالح شرعيّة تمنع إعلان الفارق بيننا وبينهم.

بقي أمرٌ يتعلق بهذه النقطة، وهو وجود أقوام تَسَربلوا بأثواب مُستعارة من السّلفية أو بشاراتٍ خادعةٍ لا حقيقة لها مثل أهل السنة والجماعة، وهؤلاء الأقوام قد يخفى أمرهم على المسلم العاديّ غير المتبصّر بحقّ هؤلاء المبتدعة، وبقليل من البحث ونور والبصيرة سيكتشف النّاس أنَّ عقول هؤلاء القوم ما زالت تعمل خارج الإطار السَّلفي، وأنها خرجت من البدعة مع بدعتها، ولكنَّ غلبةَ الأمّية على أمّتِنا منَعت الكثير من البشر من اكتشافهم.

حركة التجديد المجاهدة السلفيّة لا تتعامل مع النّاس إلاّ من خلال أصولهم وقواعدهم، وعلى ضوء هذه القواعد والأصول تحكم على المجتمعات، والتّنظيمات، وبالتالي على الأشخاص. والمنهج هو السّائق للإنسان في سلوكه وحركته، وهو الذي يحدد أحكامه وعقليّته، ومعرفة القواعد والأصول للموضوع - شخصاً أو فكراً – لا تعرف من خلال فكرة أو خاطرة، بل لا بدّ من الاستقراء، وهو يقع من الخاصّ إلى العام، فيبدأ الإنسان الباحث في مراقبة المفردات ثمّ الارتفاع بها حتى تشكّل قاعدة كليّة تخضع لها مفردات المقدّمة وهي حركة الإنسان وأحكامه. فيتشكّل الحكم العام من خلال أفراد أحاديّة في الحكم والسّلوك، وبعد ثبوت القاعدة، وهو وصف الفكرة والشّخص، ثم لو طلب من الحاكم الدّليل فإنّه يسارع إلى إيجاد هذه القاعدة ليبسطها أمام السّائل بثقة ويقين.

وعلى ضوء هذه المقدّمة فإن الشّعارات الكاذبة، والألقاب النّابتة، تفقد قيمتها عند أهل الوعي والإدراك، وأصحاب العلم والبصيرة، لكن تأثيرها يبقى على العوام والسوقة، وغمار البشر من أهل التقليد والبلاهة، فهؤلاء القوم يستطيع الخبثاء أن يسوقوهم إلى ما يريدون من خلال الشّعارات الجميلة المرضية، ويصدّوهم عما يريدون من خلال الألقاب النابتة القبيحة.

وحين يقبل المرء أن يكون أتباعه من هذا الصنف من البشر - أهل التّقليد والبلاهة - فهو رجل نخاسة تهمّه الأرقام والجسوم، لا المبادئ والعقائد والأفكار، وهو رجل في ميزان الفكر والعقل والدّين لا يساوي ذرّة أو نقير.

قد يجاهد البدعيّ، وقد ينصر الله الدين بالرّجل الفاجر كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس حَمْلُ السّلاح هو الفارق بين البدعي والسُّني، ولكن الفارق هو المنهج، وبالتالي علينا أن نفهم آلية الفهم عند الرّجل عندما حمل السلاح، وما هي دوافعه ؟، وما هي مبرّراته عندما حمل السّلاح مقاتلاً مجاهداً ؟. فعلينا أن لا ندفن رؤوسنا في الجهل، ونعمى عن رؤية الحقيقة عندما يأتينا رجلٌ أو تنظيم ويحرّضنا على حمل السلاح، بل علينا أن نتوثّق من منهجه، ومن فهمه لحقيقة الجهاد، وفهمه لتوحيد الله، وللإيمان عند أهل الحقّ والهدى.

جماعات الجهاد السلفية: الشمول والتكامل

نحن الآن نعيش فوق قنطرةٍ، أمامها الكثير من المفاوز والقفار، وخلفها الكثير من الفوائد والعبر، وبين يديها كتاب الله تعالى، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف علينا أن نطرح أنفسنا؟، وإذا طرحنا أنفسنا بصفتنا حركات جهاديّة سلفيّة، فما هي حقول وميادين عملنا ؟ هل هي طوائف الردّة الممتنعة من قتالنا لهم فقط؟ أم أنّنا أمام أكوام من التراث المختلط، وواجبنا كذلك أن نحرّر إرادة الأمة من عوائق الشرك والجهل؟.

وعلى معنى آخر: هل طرح جماعات الجهاد السلفيّة لمواضيعها على صيغة شمولية أم في جزئية من الجزئيات؟.

الجواب ولا شك: إن الواجب علينا أن نعالج الدّين كله، نجدّده، وأن نعيد بهجته وضياءه على صورته الأولى وهو جديد أوّل مرة، وهذا يوجب علينا كذلك أن لا نغترّ بالجزئيات والفرعيّات، بل علينا أن نفهم آليّة فهم هذه الجزئيّات، وما هي أصولها، وما هو المنهج المتّبع حتى وصلت هذه الجزئيات والفرعيات.

إن موافقة بعض الطوائف لنا في مسألة من المسائل لا يعني أبداً أن هذه الجماعة منّا، ونحن منها، وأنّ لها ما لنا، وعليها ما علينا. بل إنّ الجماعة التي هي نحن، وهي منّا، ونحن منها إنما هو بالنّظر إلى منهجها، وآلية فهمها لدين الله تعالى.

لقد مرّت على أمّتنا أطوارٌ كان قادة القتال والجهاد فيها هم أئمّةٌ فيهم جذورٌ بدعية شديدة، وقد مدحَتهم كتب الرّجال وما زال أثرهم الحسن يتردد على الشفاه والألسن، ولكن علينا ألا نغضّ الطّرف عن الجانب البدعي فيهم، وبراءتنا منه، وعدائنا له حتى نحفظ للحقائق وجودها، ولئلا تضيع خلال حمّى التشجيع والتأييد لهذه الطوائف.

والمثال يوضح المقال:

عندما نشأت الزَّندقة العجَميّة في المجتمعات الإسلامية، وأطلّت برأسها الخبيث، وبدأت تكشف عن نفسها دون خوف أو وجل، رأينا أن أقوى الرُّدود على هذه الزندقة كانت صادرةً من جهاتٍ مسلمة بدعيّة، وكان لردودهم في ذلك الطور أبلغ الأثر في إزالة آثار هذه الأفكار الإلحادية.

عندما كتب ابن الراوندي الزنديق الملحد، كتب ودعا إلى عدم الثقة بالشريعة، وذهب (لعنه الله) لضرب دين الله بعضه ببعض، حينئذٍ قام له رجل بدعي هو أبو علي الجبائي المعتزلي ففضح أمره، وكشف جهله، وردَّ كيده إلى نحره، مدح الناس هذا الصنيع لأبي علي الجبائي المعتزلي، لكن لم ينسوا بدعته، بل شنُّوا الغارات الشَّديدة عليه وعلى بدعته، فكان أمره وأمر الاعتزال إلى زوال.

لو افترضنا جدلاً أن الرّوافض الإثنى عشرية وقفوا وقفةً ما، وكان قدَرُ هذه الوقفة في خندق الحق والصواب، فهل يجوز لنا لهذا الموقف أن ننسى من هم الروافض؟ وأنّ دينهم لا يلتقي مع دين الإسلام في شيء؟، الجواب: لا، بل علينا أن نبقى نحن حيث نحن في تمسّكنا بالحقّ والسّنة، وعلينا أن لا نزيل الفوارق الحقيقيّة بين أهل السنّة والجماعة والرّوافض، بحيث نزعم أو نفتري أنّه لا فرق بين السنّي والرّافضيّ.

لقد فرح الصّحابة رضي الله عنهم، وكانوا يتمنّون أن ينتصر أهل الرّوم (أصحاب الكتاب) على أهل فارس (أهل الأوثان)، وليس من جامع بين المسلمين الصّحابة ومن بعدهم وبين

الرّوم النّصارى المشركين إلاّ الاسم الذي لا حقيقة له سوى الانتساب - أهل الكتّاب -. لكن هل أجاز هذا التّمنّي لهم أو لغيرهم من المسلمين أن يقاتلوا تحت راية النّصارى جند أهل الكتّاب؟. أبداً بل إنّ دخول المسلمين تحت رايتهم تُخرجهم من الإسلام، وتخلع نسبتهم إلى الإسلام.

هذه قضايا يجب أن نعيها، وأن نهتمّ بها، لئلاّ نُزيل الحواجز الشّرعيّة التي أمر الله تعالى بإقامتها بين النّاس في جميع مستوياتهم القريبة والبعيدة عن الإسلام.

فإذا فهمنا هذا تمامَ الفهم حينها نخرج من المأزق، أو الزّاوية التي يحاول بعض العقلانيين (أهل الأهواء) أن يضعونا فيها فيجبرونا بين خيارين، أحلاهما كفر.

لا يستطيع المرء إلاّ أن يعترف أن المعركة ضدّ الإسلام شرسة وقاسية، وأن كلّ مبدأ وشخص خارج دائرة الإسلام محارب لهذا الدّين، ومنذ مبعث النّبي صلى الله عليه وسلم والقضاء على هذا الدّين هاجس الشّيطان وجُنده وذلك كما قال تعالى: {ولا يزالون يُقاتلونكم حتّى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا}، ولكن كذلك من الفهم الصّحيح لطبيعة هذه المعركة أن نعتقد ونعترف أنّه ما كانت هذه الخصومة من قبل الصّفوف المتراصّة خارج دائرة الإسلام أن تؤتي أكلها، وتُثمر مجهوداتها إلاّ بسبب حصول الضّعف والهزيمةِ في داخل المنضوين تحت دائرة الإسلام ورايته.

لقد كانت جهودٌ تقوم بها طوائفٌ من المنتسبين للإسلام، وهذه الجهود تصنع الأرضيّة الصّالحة لغرس ثمار الشرّ القادمة من الخارج، وتمهّد لقبول الغزو الخارجيّ.

الجهاد والابتلاء: القيادة والقاعدة

ترقيق العبارة وسلوك سبيل السّلامة معناه في لغة الدّعوة والبيان في هذا الزّمان ترك ما هو حقّ لترضى عنك طوائف الشرّ من كفرةٍ ومشركين ومبتدعةٍ وغيرهم.

وقد يظن الجاهل المتلعِّب أنَّ سلوك سبيل كلمة الحق معناه البحث عن الهلكة ونسي أن العلاقة بين كلمة الحق وبين البلاء علاقةُ تلازُم لا انفكاك بينهما.

وعلى كل حال نبارك لهم طرائقهم التي ستؤمِّن لهم الأمن والدعة، ولكننا رضينا هذا الطريق فسنسلُكه حتى النهاية.

سنبقى نفرح ونعلن فَرَحَنا لكلِّ عملٍ جهاديّ فيه قتل الكافرين وتعذيبهم، وسننشُر هذا الفرح وسنبقى الصوت النشاز بين كل الأصوات الشيطانية السَّاكتة أو الناعقة.

سنبقى نفرح ونُعلِن فَرَحنا لكل عملٍ استشهادي فيه دمار مَعقِلٍ من معاقل الطاغوت أو لكل عمل رائع فيه صد طاغوتٍ وجندلته، وسنقتدي بهْدْي القرآن في لَعنِ المشركين والكافرين ونردِّدُ من غير خوفٍ ولا وجل {تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد}.

سنلعن أبا لهبٍ في كلِّ عصرٍ وسنلعن دولته وجُنده وأهله وامرأته حمّالة الحطب.

قولوا ما شئتم، سمّوا هذا ما شئتم، واختاروا من معاجمكم الجديدة في قلب الحقائق ما أحببتم.

هل يسعنا أن نرمي رسالة الشيخ عمر عبد الرحمن في أدراج المهملات مخافة اتّهامنا بأننا أنصار المتطرفين والإرهابيين؟. فو الله لو فعلنا ذلك لخِفنا أن يخسف الله بنا ويضرب قلوبنا ويختم عليها.

هل يسعُنا أن نفعل كما فعل أهل السِّياسة الشيطانية من جماعة الضلال، وجماعات الخزي والعار في التسابق على استنكار كلِّ عمل جهاديٍّ، وكأنه مفروض عليهم أن يموتوا وهم على بغض الخير؟.

أيُّ كلمة صادقة هذه إن لم تكن هذه الكلمة في هذا الزمان تؤدِّي بك إلى السِّجن أو النفي أو عدم الأمن؟.

إن البحث عن كلمة صادقةٍ كل الصدق، واضحةٍ كل الوضوح قريبةٍ إلى قلوب المؤمنين يرضى عنها ساكنو السماء وأولياءُ الله في الأرض ثمَّ تكون بغيرِ ثمنٍ تدفعه هي كلمةٌ لا يُمكن أن تكون صادِقة ولا يمكن أن تكون حقاً من كل وجه.

أيُّ دين هذا وأي حقٍّ هذا الذي نحمله، وأيُّ كلام هذا الذي ننشره ونبتغي منه حركة الأمّة وإصلاح شأنها وخروجها من حمأة الذلّ والعار ثم نحن نجمجم فيه ونجمله ليرضى عنه

أشباه الأنعام ممن لا عقل لهم ولا نظر صحيح {إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل}. إنَّ كلمـات الحق ليست برِسِيماً تفرَح له البقر إن رأته، بل هي حِمَم حقٍّ كلَّما رأوها كلَّما ازدادوا لها بغضاً وازدادوا عنها بُعداً ما دامت قلوبهم لا تؤمن بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم.

الإعلام الإسلامي والدعوة إلى الله ليست امرأة تزيِّنها للخُطَّاب من كلِّ جِنس ليشمّ منها ما يرضيه ويحبه.

نعم نحن نحبّ الخير للناس، ومن محبَّتنا الخير لهم أن نقول لهم الخير والحقَّ وإن كان مُرّاً على أنفسهم، فإن أقبلوا عليه أقبلوا على الحق كما هو في نفسه من غير تزيينٍ باطلٍ، ولا تزويرٍ دجليّ.

لو أنَّ بدعيًّاً جاءَك وسألك عن حكم الله في بدعته، فما الواجب عليك لتهديه إلى الحق؟. عندما جاء الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: أين أبي؟ بم أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إمام الحِكمةِ وسيِّد الكلمة الحسنة، هل قال غير كلمة الحق التي أصابت منه ألماً؟. قال له: ((هو في النار)).

ماذا سنقول للمشركين حين يسألونا عن موتاهم وعن عقائدهم وعن مذاهبهم؟ هل نقول لهم - إن استحسنوا الديمقراطية - أنّ في ديننا الديمقراطية ليرضوا عناّ وعن ديننا؟ أو نقول إن الإسلام فيه الكثير من الديمقراطية ليحبوا الإسلام ويرغبوا فيه؟.

يا قوم مالكم كيف تحكمون؟ أي كتبٍ هذه التي تقرؤونها فتهديكم إلى هذا الشرِّ المبير والمَهْلَكة العظيمة؟؟.

يا قوم هما طريقان: طريق يؤدي إلى الابتلاء، وطريق ترضى به عنك الأغيار، أما الأول فهو طريقُ الحقّ وأما الثاني فهو طريقُ الباطل وإن تسمّى بكل الأسماء الجميلة الكاذبة الخادعة.

نحن لا نحبُّ ولا نرغَبُ أن يرضى عنّا مشايخ السلطان، ولا طلاّب السلامة ولا أبواق الدعايات، ولا مؤسَّسات الكذب والدَّجل، ووالله إنّنا نخاف أن نسمع أنّ أحداً من هؤلاء مَدَح ما نقول أو أُعجِب بما نقول.

نحن نقولها بكل صراحة: نحن نحبُّ أن يَبغضنا أعداء الله، ونحن نحبُّ أن يبغضنا أهل البدع، لأن بُغضهم زاد الطَّريق كما قال ابن حزم رحمه الله تعالى: لكل شيءٍ فائدةٌ ولقد

انتفعت بمحك أهل الجهل منفعةً عظيمة، وهي أنه توقّد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيّج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تواليف عظيمةِ النفع، ولولا استثارتهم ساكِني، واقتداحهم كامني ما انبعثْتُ لتلك التّواليف.(مداواة النّفوس ص 48)، فلولا وجودهم ما عرفنا للحقّ طعماً، وصدق عمر رضي الله عنه حين تمثل قائلاً: ذكّرتَني الطّعن وكنت ناسياً. هكذا هو الحقّ، وهكذا غربته في كلّ زمانٍ، وأنا أعجب لأولئك القوم الذين يضعون على أعيُنِهم عصاباتٍ غليظةٍ تمنعهم من رؤية الشرِّ الذي سرى في الأمّة، وأقول مرّات ومرّات لعلّهم فسدت أمزجتهم فصاروا يرون الباطل حقّاً، والحلو مرّاً، وتغيّرت معالم الأشياء وأسماؤها وهكذا يكون صاحب الفطرة المتغيّرة والقلب المنكوس، فإنّه لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً، وحين يصل المرء إلى هذه المرتبة لن تملك له شيئاً، والله الهادي والموفّق.

نعم بعض الأحبّة يُشفقون علينا ولكنّها شَفَقةُ ابن هرمة وهو يمدح الحكم بن عبد المطّلب بن عبد الله بن المطّلب بن حنطب حين قال:

لا عيب فيك يُعـاب إلاّ أنّني أمسي عليك من المنون شفيقا

ولكن من رحمة الله بنا أنّ هذه المنون لن تُبقي أحداً فالقاتل ميّتٌ كما المقتول، وعند الله تجتمع الخصوم فلِمَ الحُزن والشّكوى وإنّما بين المتقدّم والمتأخّر لحظات ثمّ نزور المقابر.

التربية الجهادية: صحة النظر وصواب العمل وإخلاص القصد

العلاقة بين فكر الشّخص ومعتقده وبين نفسيّته علاقة حميمة وقويّة ولو بالغنا لقلنا إنّها علاقة تلازم ولكنّها قطعاً غير مطلقةٍ فقد يقع التّخلّف لوجود بعض العوارض والتي تشكّل هيكلَ الإنسان العمَلِيّ والنَّفسيّ والعلميّ والعاطفيّ وغيرها من أفرادِ إنسـانيَّته، وبالتّالي فإنَّ عمليّة رفع مستوى نفسيّة المرء إلى مستوى معيّن لا بدّ أن يسبقها أو يكون معها رفع المستوى العلميّ سواء بتصحيح الأفكار والمعتقدات أو بتنشيطها وتذكيرها إن أصابها النّسيان والغفلة، فهذه العمليّة المزدوجة هي التي يصحّ أن يُطلق عليها عمليّة التّربية، فالتّربية ليست صياغة لطرفٍ في الإنسان دون طرفٍ آخر، فإن وقعت فإنّ الحركة لن تدوم في الوصول إلى مبتغاها.

فمثلاً لو أنّك اتّبعت مع جماعة من الأشخاص أسلوب "التّوريط" - وهو لفظٌ لا أدري مدى صحّته لكن يُطلق من قِبَل أصحابه على طريقة معيّنة في الممارسة، ويعني أن يقوم مجموعة من النّاس بصنع جوٍّ من البيئة المعيّنة رغم أنف مجموعة أخرى من أجل إجبارهم على الدّخول في اختيار وحيد تريده المجموعة المورِّطة للمجموعة المورَّطة - فإنّه وإن تورّطَتْ هذه الجماعة فإنّها لن تداوم على الفعل إلى نهايته وإلى آخر الشّوط وبالتّالي لن يتحقّق المراد من هذا التَّوريط.

لقد حاول الشيخ مروان حديد رحمه الله تعالى أن يورِّط الإخوان المسلمين في الجهاد في سوريا، لأنَّه حاول جاهداً أن يُقنِعهم بالجهاد فكانوا يأبَون عليه ويرفضون رأيه فقرَّر توريط الإخوان المسلمين في الجهاد وأطلق كلمته: "لو طَرَدَنا الإخوان المسلمون من الباب سنرجع لهم من النافذة"، ولذلك قام هو ومجموعةٌ معه بأحداث جهادية فَرَضَت معركةً بين النظام النصيري البعثي الكافر وبين المسلمين عموماً وعلى رأسهم الإخوان المسلمين في سوريا، وبالفعل وُرِّطَ الإخوان المسلمون في المعركة ودخلوا فيها من باب - مكره أخاك لا بطل - بل لقد واصل عدنان عقلة هذا الأسلوب وسار عليه حيث أطلق على مجموعته "الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين" ولاختيار هذا الاسم أسباب كثيرة منها محاولته توريط الإخوان المسلمين في هذه المعركة. فكان ماذا بعد ذلك؟!.

ارتفعت أصوات الجهاد من قبل القواعد وهذه استجابة فطريةٌ صحيحة للجهاد في سبيل الله تعالى، لأن العوام بفطرهم الصحيحة هم مادَّة الجهاد على الدوام ولكنَّهم يحتاجون إلى من يُحسِنُ إعطاءهم الدين الصحيح لا أن يسلك بهم سبل أهل البدعة، وهذه نقطة مهمة وضرورية ؟ أعني قاعدة اعتبار العوام أصحاب الفطر السليمة هم مادة الجهاد في سبيل الله تعالى ؟ وهذه بفضل الله تعالى هي إحدى الفوارق بين جماعات الجهاد السلفية وبين جماعات التكفير، فإننا نعتبر أن الأصل في أمتنا هو الإسلام ما لم يأت الرَّجل بمكفِّر صريحٍ مكتَمِل الشُّروط وانتفت عنه الموانع، ولكن جماعات الغلوِّ والتكفير وكذا جماعات التوقُّف والتبيُّن على غير هذا الهديِ السنِّي فإنهم يعتبرون أن الأصل في أمتنا الكفر أو عدم اعتبارهم شيئاً والتوقُّف في حكمهم حتى يتبين -ولذلك هم يعتبرونهم مادَّة للدَّعوة إلى أصل الدين- أي من أجل إسلامهم، وأما جماعات الجهاد السلفية فإنها تعتبرهم مسلمون وهم مادّة التعليم ومادَّة

الجهاد في سبيل الله، وهذا بخلاف الذين سُلِّكوا وأقصد بلفظ التسليك هنا من مورست عليه طريقةٌ مبتدعةٌ صرفتهُ عن فطرته السليمة، فالإنسان المسلم العامِّي تستجيب فطرته استجابةً فورية للأعمال الصالحة، فبمجرَّد أن يسمع هيعة للجهاد فإنه إن لم يستجب لها عملاً فإنه يفرح لها وتطرب نفسه لخبَرها فيدعو الله تعالى أن يوفِّق أصحابها لهذا العمل، وهذا رآه من عايشه في كلِّ عملٍ جهاديٍّ فإن النساء في خدورهنَّ وكذا العجائز يلهجن بالدعاء للمجاهدين، خلافاً للمُسلكين سواء كانوا من الإخوان المسلمين أو من السلفيَّة المزعومة أو من أصحاب الطُّرق والمذاهب البدعية من أتباع جماعات الفكر العرفاني الصوفي المعاصر المتطور، فإنهم بسبب فساد فِطَرهم ومرض أفكارهم يستنكرون هذه الأعمال، ولكنهم قد يضطرون للمسايرة حيناً أو السُّكوت حيناً مخافة سبِّهم وشتمهم، ولكنَّهم يؤخِّرون قَيح أفكارهم إلى فرصةٍ سانحةٍ لفتنة تقع أو مشكلةٍ تهب بريِاحها على الجهاد.

إن استجابة القواعد البعيدة عن القيادة والتي ما زالت ترِدِّد الشِّعارات الأولى "والجهاد في سبيل الله طريقنا"، وشعار "والموت في سبيل الله أسمى أمانينا"، وهذه الشعارات معروضة بحقٍّ من أجل القواعد لا من أجل القيادة، فكانت هذه الاستجابة وسيلة ضغط لقبول القيادة للدُّخول في (الورطة)، فوُرِّطَت القيادة مع عدم اقتناعها، وقد وقع ما يرجو أصحاب نظريَّة التوريط، ولكن كان ماذا بعد ذلك؟!!.

الشُّيوخ هم الذين يقودون المعركة وهم أصحاب القَرار (وأقصد بالشيوخ ليسوا كبار السن، ولكن أقصد القيادة) وهم الذين شرعوا فيها بها على مَضَض، فهل سيسيرون بها إلى نهاية مبتغاها ؟. الجواب: لا وألف لا، بل إنَّهم سيكونون من أولئك القوم ? بل هم منهم ? الذين ينتظرون الفرصة السَّانحة لشتم المُورِّطين (بكسر الراء) وجلد القواعد التي أجبرتهم على هذا الطريق، وفُرَصُ هؤلاء كثيرة في الجهاد، فإن الجهاد فيه من الفتن والإبتلاءات ما لا توجد في غيره من الأعمال، فبمجرَّد حدوث فرصةٍ لهزيمةٍ في معركةٍ حتى يبدأ الجلد وإظهار مكنون النفوس.

إذاً فالذين يظنّون أنه بمقدورهم أن يورِّطوا القواعد التحتية لجماعات البدعة والهوى وكذا قادتهم في الجهاد في سبيل الله تعالى واهمون ولن يحققوا النتائج المرجوَّة من الجهاد، فلا بدّ

من التمايز عن طريق إظهار مغايَرَتِك للطُّرق المطروحة، وأن توجب على المستجيب لنداء الجهاد أن يخلع من تنظيمه السابق ويعلن فهمه لسبب هذا الانخلاع ولا يكون هذا السبب أبداً ولا يُرضَى منه أن يقول أن الفارق بينك وبين تنظيمه السابق أنك تجـاهد وهو لا يجاهد بل لا بدَّ من تأصيل المسألة على أساس الفهم الجديد والأصل الصَّحيح، وهي قواعدُ وأسسُ ومنطلقاتُ جماعات الجهاد السلفية.

نعم هذا أمر لا يُخاف منه - وأعني لحوق أفراد عديدة من جماعات البدعة معك بالجهاد في وقت الفتنة والابتلاء - فإنّ هذه القواعد لا تلتحق بك لصعوبة هذه القنطرة، ولكن يُخاف حين يكون للجهاد الصَّوتُ العالي والمدُّ الشَّعبيّ الواسع، فإنّ مشايخ هذه التّنظيمات قد يسمحون لأفرادهم بالجهاد وقد يسكتوا عنهم فحينئذٍ يكون هذا المحذور الذي نتكلَّمُ عنه فلا بدَّ مِن شرط التّمايز الذي تكلّمنا عنه، أمّا بقاء الارتباط التّنظيمي مع تلك الجماعات المسلَّكة سبل الباطل، أو الارتبـاط المشيخي مع مشايخ الإرجاء والتهوّك فإنّ ثبات هؤلاء إلى نهاية الطّريق أمرٌ في غاية الصّعوبة وصعب الوقوع، فإن وَقَعَ فإنّما يقع لأفراد قلائل ثمّ تعود الجموع إلى تنظيماتها السّابقة أو إلى مشايخها ليمارسوا عمليّة الجلد ويُقال لهم: ها قد جرّبتم،... ها قد وَرَّطتمونا بحماسكم.. فماذا نفَعكم؟! وحينها تصبح هذ الجموع أصواتاً وأبواقاً لأولئك المشايخ، وسيمارسون على الأمّة التّبجّح والتّرفُّع والأستذة بأنّهم أصحاب تجربة.. فلا يجوز لأحدٍ أن يزايد عليهم.

تلاميذ السّلفيّة المزعومة الذين قدِموا إلى أفغانستان... بماذا رجعوا؟! وماذا يقولون؟! هل انتفعوا بالجهاد - دع عنك الأجر الأخرويّ - هل أفهمهم شيئاً؟؟ هل غيّر من مستوى أفهامهم وعرّفهم سنّة الله في التّغيير والتّبديل؟؟. الجواب: لا وألف لا بل زادتهم انتكاسة، وظنّوا أنّهم ملكوا ناصية التّجربة فهم يتكلّمون من منطلق التّجربة التي خاضوها (روح الأستاذية الكاذبة).

إذن فالذين يعتمدون على طريقة التّوريط أو دفع الآخرين بأيّ طريقة من الطّرق غير طريقة الاقتناع إلى عملٍ من الأعمال إنّما يبعدون في المذهب ويتعاملون مع القضيّة بغير الطّريقة السنيّة في إظهار العمل وإيجاده، لا بدّ من الاقتناع وهذا طريقه إلى الدّماغ وإلى

الفكر عن طريق المجادلة بالحسنى وعرض الأدلّة وتكرار ذلك مع اعتماد عامل الزّمن حتّى يحصل قبولاً للفكرة والدّعوة، ولا بدّ من وجود الدّافع لتحقيق هذه القناعات وذلك عن طريق إيجاد المحرّضات الكافيةِ لإثارة النّفس البشريّة لتحقيق هذا العمل عن طريق الوعظ والتّذكرة وربط نفسيّة المرء بمحبّة تحقيق رضاء الله سبحانه وتعالى وتحصيل الدّار الآخرة، فإذا حصل الاطمئنان النّفسيّ لهذا العمل تحرّكت النّفس نحوه برغبةٍ صادقةٍ فلا يَرُدُّ عنانها عن ذلك إلاّ الذي فطرها، وهي بحاجة إلى التّذكير مرّة بعد مرّة - {وذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين} - وذلك عن طريق استثارة القناعات بوضعها في جوّ التّأثير العاطفيّ والنّفسيّ. بهذا يحصل التّمايز عن الآخرين وبه فقط يتمُّ السّير نحو الهدف المطلوب وفي باب الجهاد هذه هي الطّريقة السنيّة لتحقيقه وليست المسألة مسألة عواطف شباب جيّاشة سرعان ما تنتكس تحت ظروفٍ جديدةٍ وأحداث متغيّرةٍ، فالقائلون بأنّ الجهاد تهوّر واندفاع وحماسة شباب لا خِبرةَ لهم في الحياة واهمون، نعم يكون كذلك حين يكون الجهاد دافعه الحماس الفِطريُّ غير المؤصَّل، وتمّت الاستجابة له دون الفهم له على الوجه المطلوب فإنّ هذه الحماسة سرعان ما تزول إمّا لوقوع البلاء أو تخلّف النَّصر أو كثرة المعوِّقات في طريق الجهاد.

هذه القناعات العقليّة والمبنيّة على أُسُسٍ علميّة واضحةٍ وعندها القدرة على كشف ودحض تلبيس الخصوم وأخطائهم مع نفسيّة محرّضة هي التي تصنع التّمايز في الشّخص المجاهد طول حياته وتؤمّن له عدم الانتكاس بالعودة إلى الجلاّدين من قادة تنظيمات بدعيّة أو مشيخات معوّقة.

إذن فالتّمايز شرطٌ لتحقيق الجهاد السنّي، ويقع التّمايز بتحقيق حقيقته المتقدّمة عن طريق التّنظيم المتميّز والذي يعلن افتراقه عن الآخرين واختلافه عنهم من جهة الشّعار المخالف فلا يلتبس لدى الأفراد تداخل الصّورتين بين هذا التّنظيم وبين غيره من التّنظيمات، وعن طريق تعميم الفهم لدى الأفراد كذلك بمخالفة الآخرين للشّرع والعقل ودخولهم في دائرة الرّأي والهوى أو البدعة الممقوتة، وهذا يتمُّ عن طريق كشف وتعرية طُرُق الآخرين من جهة أصوليّة عميقة فلا يكون الرّجل معك في التّنظيم وهو يرقب إشارات المشايخ وفتاويهم من خارج

السّرب، فإنّ هذا النّوع من الشّباب خطيرٌ جِدّاً ومُذهِبٌ للقوّة والرّيح لدى أيّ تنظيم من التّنظيمات في أيّ ظرف من الظّروف.

إذا فهمنا هذا واستبان لنا حقيقة هذه المقالة بأنّ العمل الصّحيح لا بدّ أن ينشأ عن قناعةٍ علميّة وبحرّضٍ نفسيٍّ صحيح (التّمايز) يتبيّن لنا عمق الخطأ في قول من يقول بإمكانيّة استخدام قواعد التّنظيمات البدعيّة مادّةً للجهاد في سبيل الله تعالى مع بقائهم في تنظيماتهم تحت دعوى سلامة فِطَرِهم واختلافهم عن قادتهم، أي التّفريق بين القواعد والشّيوخ، أو بين الشّباب الصّالح والقيادة الزمنى، وهذا يُظهر كذلك خطأ من يقول إنّ المشكلة في عدم الجهاد هي مشكلة القادة الزمنى والمشايخ الأئمّة وأمّا القواعد فهي صـالحةٌ للجهاد وهذا خطأ كبير لأنّ القضيّة ليست قضيّة حماسٍ وعدمَ حماس، أو تأجّج عواطف وسكون أخرى، بل المشكلة الأولى والأخيرة في التركيبة العقليّة والعِلميّة في الفرد بغضِّ النّظر عن كونه قائداً أو مَقُوداً، شابّاً أم كهلاً أم شيخاً، فتحليل عدم جهاد جماعةٍ مثل الإخوان المسلمين بسبب القادة مثلاً أو عدم جهاد السّلفيّة المزعومة بسبب مشايخهم وكذا أصحاب الصّوفيّة، خطأٌ محض فهؤلاء في هذا الجهاد - وأقصد جهاد المرتدّين - ليسوا مقتنعين به قناعةً علميّةً في أصل القضيّة، فإنْ حدث جهادٌ من بعضهم حيناً فإنّما هو من دافع توريط الصّغار للكبار، أو دفع التّيّار أي ما يسمّى بغريزة القطيع، وهؤلاء سُرعان ما يؤوبون إلى مواقعهم وتبدأ عمليّة الجلد المشيخيّ والتّنظيمي.

نعم يُمكن للأفراد والقواعد أن يخرجوا من أسر قادتهم ومشايخهم، لكن بعد أن يتمكّنوا علميّاً من اكتشاف تهافت البناء العلميّ عند مشايخهم وقادتهم فيخرجوا عليهم وعنهم وحينها يتميّز الشّخص ويُمكن إلحاقه بالتّنظيم المميّز، أمّا إن جاء من باب التوريط وتحت غثائيّة غريزة القطيع ودفعِ التيّار فارقب في كلّ لحظة سكونٍ ثورته وعودته إلى قواعده سالماً محضّراً نفسه للوقوف أمام قائده وشيخه ليعترف له أنّه اكتشف صواب ما يقوله وخطأ أولئك (المتسرّعين والمتهوّرين).

هذه نصيحة أسجّلها هنا، وهي أمانة أضعها في أعناق تنظيمات الجهاد السنّي السّلفيّ لئلاّ يكتشفوا بعد حين أنّ ما معهم مِن رجال إنّما هم شِبهُ المجاهدين (والشّبه هو صنم من نحاس تدخل فيه الرّيح فيصفر فيظنّ الجاهل أنّه شخص حقيقيّ) وليسوا مجاهدين حقيقة.

السّيرة النّبويّة ومسيرة التّاريخ الإسلامي حديقةٌ خصبة للدّراسة والاعتبار، وفيها من العظات ما تجعل المرء المسلم الذي ينشد التّغيير في غنى عن أن يكون منبهراً بكلّ ما كتبه وخطّه الأغيار بتجاربهم وأحداثهم، وقد كان الأوائل من آباء هذه الأمّة حريصين كلّ الحرص على تلاوة السّيرة على مسامع الأبناء وتحفيظهم إيّاها وجَعْلِها جزءً من تركيبة الطّفل العقليّة والنّفسيّة لأنّ السّيرة النّبويّة تصنع العقليّة السّديدة في فهم سنن الحياة، فالتّاريخ هو جريان سنّة الله تعالى، والتّاريخ المتعلّق بالسّيرة النّبويّة فهي التّوافق الشّامل في مسيرة المرء في هذه الحياة من خلال عدمِ تجاوزه لشرع الله تعالى وأمره، فالقارئ والدّارس - المؤمن بهذا الدّين - للسّيرة النّبويّة لا يجِد أبداً شيئاً من التّعارض في مسيرته إلى مقاصده سواء كانت هذه المقاصد حياتيَّه بحتة أم جزء من صراع مع الأغيار أو من أجل تحقيق بعض المصالح بين تمسّك المرء بشرع الله تعالى وانقياده لحكمه واستغنائه عن اقتراف أيّ معصية من المعاصي، وهذا بخلاف المرء الذي يُكثر من قراءة كتب التّجارب التي لا تمتُّ إلى الإسلام بصلة فإنّها تقدِّم في نفس المتضلّع بها الحاجة الشّديدة إلى بعض المعاصي خلال حركته التغييريّة وأنّ من الصّعب إقامة حركة تغييريّة ناجحةٍ دون تجاوز ضوابط الشّريعة.

الفارق بين الثائر والمجاهد:

في القرن الأخير قامت كثير من التّجارُبِ الإنسانيّة لتحقيق أهدافٍ بإسقاط نظامٍ وقيام آخر وكان أئمّة هذا الفن في هذا العصر هم اليساريّون، وهي الحركات التي يكثر البعض تسميتها حركات التّحرير!! وهو اسم لا يوافق معناه حقيقة هذه الحركات، هذه الحركات القتالية حققت أهدافها مثل حركة ماوتسي تونغ في الصين، وهو الرجل الذي يسمِّيه الكثير من الباحثين بأنَّه خير من كتب في حروب العصابات وهذا النوع من الحركات، وكذلك ثورة البلاشفة في روسيا ضد القياصرة وثورات أمريكا الجنوبية كثورة كاسترو وصديقه جيفارا، هذه

التجارب قام أصحابها بكتابة هذه التجارب وتُرجمت للغة الإسلام (اللغة العربية) وكان فيمن قرأها شبابٌ مسلمون، وهي تجارب حقَّقت على أرض الواقع أهدافها وهذا مدعاةٌ للقارئ أن يقتنع بالكثير من نظريَّاتها وقواعدها، والإنسان أسير قراءاته شاء أم أبى، فإنَّ الكِتاب يصنع عقلية قارئه ويصبغها بصبغته، لأنه ينقله إلى البيئة التي يريدها الكاتب والكِتاب، فخلال هذه القراءات الكثيرة لهذه الكتب اصطبغت عقليَّة القارئ بنفسيَّة الكاتب، وهذه الحركات كما خطَّت في كتبها لم يكن لها من قواعد وأُسُسَ أخلاقيةٍ تحكم هذه الحركات أو توجب على السائر فيها أيَّ قيودَ وروابط، بمعنى أن هذه الحركات ليس لها أبعادٌ أخلاقية، وهي عندي شبيهة بكتب فنِّ الطَّبخ المنتشرة في الأسواق، فإنَّ واضعيها لا يحكمهم سوى حصول الطَّبخ والمذاق الطَّيب، فترى في بعض الطبخات وجوب وضع القليل من النبيذ، أو قليلٍ من الخَمر وهكذا، فهذه الكُتُب كتِلك حيث وضع أصحابها نظريَّاتٍ ومبادئ فيها التصور الذاتي من التحسين والتقبيح لأيِّ فعل من الأفعال، وفي داخلها الكثير من الأعمال التي لا تُمتّ إلى مبادئ الحق والدِّين بصلة، فيأتي المسلم المتدِيِّن إلى قراءة هذه الكتب مع نفسيةِ الاحترام الإنساني المجرَّد لهذا الكاتب كونه الخبير العليم المجرِّب لهذا الفنّ، فيقرأها بنهم مع الكثير من التسليم والانقياد فيرجع عنها بعد ذلك إلى حالته الإسلامية من أجل أن يراجع الكثير مما قرأه مع مبادئ الإسلام الذي يؤمن به، فينشأ الشدُّ والجذب بين ما احترمه من قواعد في هذا الباب وبين ما يؤمن به من مبادئ هذا الدين، أي صراعٌ بين ما يحترمه ولا يؤمن به وبين ما يؤمن به بفطرته، وهذه واحدة في الشر.

بعد ذلك يقع هذا المتضلع بهذه القراءات في حالة أخرى، وقد يقع فيها ابتداءاً وهي أن هذا القارئ له بعض القراءات الشرعية اليسيرة، سواء كانت نبذ قليلة في أصول الفقه أو فقرات مجملة عامة في السيرة النبوية فيحاول حينها جاهداً إمرار هذه المفاهيم الوافدة من خلال هذه النبذ أو الفقرات، فهو يحفظ مثلاً أن السياسة الشرعية مبنية على المصلحة، وأن المصلحة علّة الأحكام وغيرها من القواعد التي لا يجوز للمسلم أن يشتق منها حُكماً، لأن القواعد الشرعية والأصولية لم توضع من أجل استنباط الأحكام بل وُجدت من أجل ضبط الأحكام، فيذهب هذا المتضلع بهذه الكتب إلى تمرير هذه القواعد الجديدة تحت عمومات القواعد الشرعية،

ويُلبسها ثوباً شرعياً وصبغة ظاهرية للون الإسلام، مع أن جوهرها أن لينين قالها، وجيفارا نطق بها، ولكن لا يُمكن تمريرها على أهل الإسلام إلا بإلباسها اللَّون الإسلامي بمحاولة (نتش) أي انتقاء بعض الأحداث الإسلامية سواء كانت في السيرة النبوية أو التاريخ الإسلامي ودفعها في طيَّات الحديث لتصبح الفكرة إسلامية الصنع والدليل، ودَور الإسلام فيها هو التزيين والتحوير.

وهذا الفعل قريب بل هو عين فعل الفقيه الذي يستحسن رأياً ما، ويكون منشؤه هوى الفقيه ورأيه ولكن يذهب إلى كتب الفقه من أجل أن يبحث عن فقيه ولو كان شاذاً ليقول عن نفسه أنه متَّبع لغيره وليس مبتدع.

هذا النوع من (المتضلعين بهذه الكتب) لهم لونٌ خاصٌّ ورأي خاصٌّ في طريقة أهل الفقه والأثر في التعامل مع الأمور، ومن هذا الرأي: أنهم يعتبرون أن أصحاب الفقه والأثر متحجِّرون متكلِّسون لا يفهمون الحياة وسُننها، ويصبغون على أنفسهم ما شاؤوا من ألوان التعظيم والتبجيل فهم المتفتحون، وهم أصحاب الفكر المستنير، وهم أئمة فنِّ الحركة، وهم أئمَّة فن الممكن.. إلى غير ذلك من الألقاب، وهم حين يقولون عن أنفسهم أنهم أهل الخبرة في الحركة والحياة لا يَنسون أن يقولوا عن أنفسهم أنَّ عندهم من فهم الشريعة ومقاصدها ما يكفيهم لقيادة الإسلام في معترك الحياة ودروبها، وأما غيرهم من أهل الفقه والأثر فهم لا يصلحون إلا في التكايا والمساجد حيث يخلع المرء عقله هناك وقصر الأمر على ذلك، وينسون أن ما كان شرعياً ودليله الكتاب والسنة لا يمكن الإبداع الذاتي فيه حتى يقرأ الكتاب والسنة والأثر، وما كان عقلياً فمداره على الرأي وليس هناك من عقل يزعم صاحبه أنه أعقل من غيره إلا ونوزع في هذا وعورض من قبل البشر جميعاً فإن كان لهم عقولٌ فلبقيَّة الناس عقول، وحين قسم الله تعالى الأموال بين الناس لم ترض الناس القسمة لأن ابن آدم لا يشبع من المال، وحين قسمت العقول رضي كل امرئ بعقله وظنَّه أفضل العقول، نعم، لصاحب التجربة حِكمة يفوق بها غيره، ولغير المجرب سبل كثيرة لرأب هذا النقص وإتمامه، ذكرها أئمَّتنا، لا يعرفها هذا النوع من (المتضلعين).

هذه الثنائية المتعارضة بين أن تكون فقيهاً أوحركياً!! لا تنشأ في عقل المسلم الذي تضلع كثيراً ودرس كثيراً وفهم كثيراً لأكبر حركةٍ انقلابية في التاريخ الإنساني كله أقصد سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لأنّه لا يوجد أبداً داخل هذه السيرة التعارض بين ما هو شرعي وما هو حركي، فليس هناك شيءٌ اسمه فقه الأحكام وشيء غيره اسمه فقه الحركة، بل هما شيءٌ واحد، وليس هناك في داخل هذه السِّيرة حاجة إلى تأويلٍ فاسد باستيراد ما هو حرامٍ لتمريره في حركة الجماعات في سعيها للتغيير تحت باب المصلحة أو السياسة الشّرعية (على مفهوم مغايرتها لفقه الشريعة والأحكام) بل في هذه السِّيرة البيان الشَّافي واليقين التام في حصول الجماعات الإسلامية على أهدافها من غير الدخول في سبيل المجرمين، وأن التعارض بين الشرعي وتحقيق الأهداف هو تعارض موهوم، وكذا التعارض الموهوم بين مصلحة الجماعات وبين فقه الأحكام المأخوذ من (الورق الأصفر) حسب زعمهم.

نعم إن فقه الأحكام هو فقه ضوابط وتقييد الحركة لكنَّه ليس فكراً ولا فقهاً تعويقيّاً ولا مثبِّطاً بل هو من رحمة الله بهذه الأمة لإيصـالها إلى أهدافها بأقرب الطرق وأيسرها، والخروج عن فقه الأحكام إلى فقهٍ مزعوم يسمونه فقه الحركة أو ما أطلَق عليه بعضهم فقه السِّيرة (فقه الموازنات والتقلُّبات الذاتية) هو الذي يمنع الجماعة المسلمة من الوصول إلى أهدافها ويُشغلها بذنوبها كما قال الله تعالى: {إنما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا} فما من معصيةٍ من المعاصي وإن لبست ثوب التأويل الشرعي إلا وهي مثبِّطٌ ومعوِّق للجماعة المسلمة في الوصول إلى الأهداف الشرعية وذلك بحصول البلاء الرباني والعذاب الإلهي.

في السيرة النبوية والاهتداء بها تعميقٌ لعلاقة المسلم بشقِّ الشهادة الثاني محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو إن عمل عملاً أو سار مسيراً فإنَّه يشعر بعمق الارتباط بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم، فهو سائرٌ على الخطى المحمدية ويحس بها في كلِّ خطوة يخطوها، وهذا بخلاف (المتضلع) بهدي الأغيار والسير على مناهجهم، فإنَّ باطنه مشغولٌ بشخوصهم الوثنية المقيتة، وهذا رأيناه في عالم الواقع بين شخص يحاول أن يلبس ويتحرك ويجيل نظره مقتدياً بجيمس بوند فهو حريص على مشابهة اللفتة للَّفتة والهيئة للهيئة، وبين شخص لم ينشغل باطنه إلاّ بالشّخوص المهتدين - مَن ذكرهم الله في كتابه - ومن قرأ عنهم في السّيرة النّبويّة.

إصلاح الباطن والإيمان بالغيب :

إنّ صلاح وإعمار الباطن يكون بالاقتداء بشخص النّبيّ صلى الله عليه وسلم وهديه وشخوص الصّحابة كعُمر وخالد وأبي عبيدة والقعقاع رضي الله عنهم وهو يضاد إعمار الباطن بهدي جيفارا وماوتسي تونغ ولينين وغيرهم من شخوص الوثنيّة والضّلال، إعمَار الباطن بهدي المهتدين يكون بالتّضلّع لا بإنتقاء السيرة النّبويّة وفِقه الأئمّة، وإعمار الباطن (بل خرابه) بهدي الوثنيين يكون بالتّضلّع بسيرتهم وحركتهم.

في السّيرة النّبويّة علاقة مع عالم الغيب، حركة ومسيرة لا تخرِمُ شيئاً من سنّة الله تعالى الكونيّة، بل هي في إطارها، ولكنّ من سنن الله الكونيّة علاقةُ الشّهادة بالغيب، ومن سنّته حصول الرّعب لدى الأعداء، ومن سنّته حصول أثر الدّعاء، ومن سنّته أن ينصر المؤمنين به بسبب ضُعَفائهم، هذه السُّنن الكونيّة سننٌ تعادل شطر عالم الشّهادة وسنن الحياة الظّاهرة لا ينتبه لها إلاّ المتضلّع بسنّة النّبيّ صلى الله عليه وسلم وسيرته، أمّا المتنكب فهذه أمور لا يقيم لها وزناً ولا يرفع لها رأساً.

سبابة الدّعاء المرتفعة إلى السّماء تعادل سيفاً ورمحاً مُشرَعاً، بكاء الثّكالى وصراخ المظلومين هي سهام الليل التي يشتّت الله بها الأعداء والكفّار.

إنّ أعظم البشر وأشجعهم وأشدّهم بأساً صلى الله عليه وسلم كان في بدر يناجي ربّه، لأنّ هذه المناجاة من أعظم السنن التي يستغلّها أهل الإسلام في القضاء على الأعداء والكفّار.

كان أهل الإسلام إذا سمعوا أهل الحصن أو البلدة يسبّون النّبيّ صلى الله عليه وسلم استبشروا بسرعة حصول النّصر على هذه القرية والبلدة كما ذكر ابن تيمية في "الصّارم المسلول"، هذه المعاني الحقيقيّة، وهذه الأسباب الكونيّة في ميزان القوى بين أهل الإسلام وبين أعدائهم لا يهتدي لها ولا يحسب لها حساباً إلاّ المتضلّع بسنّة النّبي صلى الله عليه وسلم وسيرته، أمّا ذاك الرّجل المتضلّع بسيرة الوثنيين والجاهلين فإنّه يستعيض عن سهام الليل أكف الدّعاء بمعاصي يمرّرها تأويلاً لها من باب المصلحة الموهومة والسّياسة الشّرعيّة التي لا ضابط لها ولا زمام يقيّدها في ذهنه وعقله.

فما من معصية يحتاج لها أهل الإسلام في معركتهم مع أعداء الله تعالى إلاّ بسبب غفلتهم عن طاعةٍ وشرعٍ علّمهم الله إياه فنسوه ولم يهتدوا له، فذهبوا يستعيضون عن السنَّة بالبدعة، وعن الطاعة بالمعصية، وعن عالم الغيب ورجاله برجال الكفر والبدعة.

فعالم الغيب الذي فيه الستر الإلهي والنَّصر الإلهي والتأييد الإلهي هو عالمٌ يشترك مع عالم الشهادة في سنن الله تعالى في الجهاد والتغيير والنصر والفلاح.

تحقيق التوحيد غاية المجاهد:

في السيرة النبوة الأهداف قبل الوسائل، ولمَّا كانت أهداف الإسلام لها تعلُّق بعالم الغيب أي برضى الله تعالى كانت تقديرات الأمور تختلف تمام الاختلاف مع تقديرات وأهداف أصحاب الكتابات العسكرية للحركات الثورية في العالم.

أهل الإسلام هدفهم الأعظم ومرادهم الأكمل تحقيق التوحيد في الأرض، فكل ما يقترب من شأن هذا الهدف إبطالاً أو تأجيلاً أو تبديلاً فإنه مردودٌ بغضّ النظر عن بقية المصالح التي نظن أننا سنحصّلها بعد ذلك.

ولذلك فكلُّ مساومة حول هذا الهدف لتحقيق بعض المصالح مساومةٌ مرفوضة، وكل محاولةٍ لتأجيل البحث في هذا المقصد لا وجود له في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته، لكنَّ هذه المساومة وهذا التأجيل لهما الوجود الأكبر فيمن يرى الأمر سياسةً مطلقةً ومصالح فضفاضة لأنه سمع أن جمع الأنصار (مطلقاً) هو إحدى مبادئ تحقيق الأهداف وحرب الأنصار.

إن الوصول إلى القبور مع المحافظة على هذا المبدأ الأصيل خير من الوصول إلى المساومة حوله وتأجيل البحث فيه، فإقامة الدولة الإسلامية لخدمة التوحيد ومن أجله ولصيانته وللحفاظ عليه، وليس العكس، فالإسلام ليس وسيلة لهدف، وإرضاء الله تعالى ليس وسيلة لهدف، بل كل وسائل البشر من أجل تحقيق الإسلام في أنفسنا، ونيل رضاء الله تعالى في الدنيا والآخرة.

فالتأجيل والمساومة تكون في غير التوحيد وصيانته، أما التأجيل والتأويل فيما يخص التوحيد وأهله فهو شأن المتضلعين بكتب (سبيل المجرمين).

الطريقة الشرعية لإقامة الدولة طريقة كونية:

بناء دولة الإسلام حكم شرعي بمعنى أنّه واجب شرعي دليله أمر الله تعالى في كتابه وفي سنّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولمّا أسقطت دولة الخلافة وانفرط عقد الأمّة وبدت في الأفق معالم عقديّة فاسدة تتسارع في اقتناص الدول المنفرطة من دولة الخلافة، فقد دخلت الأحزاب الشيوعيّة إلى بلادنا سنة 1917م أي في السنة ذاتها التي انتصر فيها لينين ضدّ خصومه وبنى الدولة الشيوعية الأولى في روسيا، وبعدها بدأت الأحزاب اليمينيّة واليساريّة على مختلف ألوانها من حمراء وبيضاء وزرقاء، من بعثيّة وقوميّة وعلمانيّة وغير ذلك، وكان من جملة هذه الأحزاب المتصارعة لحصول الغلبة على هذه الدولة الأحزاب والتنظيمات الإسلاميّة، وكان في هذه الأحزاب الكثير من العمومات التي لم تحدّد، وكانت هذه العمومات سبباً لعدم اهتداء الكثير منها إلى الوقوف الموقف الشرعي الصحيح مع الأحداث المتسارعة. وكان من جملة هذه المعلومات المعوّقة من تحصيل الغلبة الاختلاف حول الطريقة المثلى في إقامة الدولة الإسلاميّة، وكان السؤال: ما هو الطريق الشرعي لإحياء دولة الإسلام؟ وقد أخذ هذا السؤال شوطاً بعيداً من الوقت والجهد للوصول إلى الجواب الصحيح، أو لتحديد معالمه.

وللأسف (وأقولها حسيراً) ما زال بعض الناس يظنُّ أن هذه الطريقة تحتاج إلى مزيد من الكشف والدراسة، أي أنه مازال الكثير من أهل الدين يجمع الناس ليحدّثهم عن الطريقة المُثلى في إسقاط الطواغيت، أو الطريقة المثلى لإحياء دولة الخلافة.

في الوقت الذي كانت فيه الأحزاب وخصوصاً اليساريّة تشدّ الخطى وتسعى بتقدّم ناجح نحو أهدافها في بناء دولهم ومجتمعاتهم كان المسلمون في تنظيماتهم يتناظرون فيما بينهم على الطريقة النبويّة في إقامة دولة الإسلام، وهو أمر مشين معيب.

لقد كان أهل الإسلام يملكون الرصيد الأكبر لتحصيل الغلبة في امتلاك الدولة، ولكن بكلّ سهولة ويسر تحوّل مَن لا يملك الرَّصيد إلى حاكمٍ دولةٍ ومن يملكُ الرصيد إلى مُهاجر مُطارد لا يملك مترَ أرض يموت فيه.

لقد بنى النّاس دولهم وأقاموا لها الأساسات والعُمُد ووثّقوا أركانها وجنُوا خيراتها وربّوا الأمّة على ما يريدون، وكسبوا مواقع متقدّمة، وما زال أهل الإسلام يتناظرون ويتشاجرون حول الطّريقة المثلى لإقامة الدّولة الإسلاميّة؟!!. وكلّ المتناظرين يزعمون أنّ دليلهم فيما يقولون من إقامة الدّولة الإسلاميّة مشتقّة من الطّريقة النّبويّة (زعموا).

وإنّي بفضل الله تعالى منذ أن بدأت أحترم عقلي وأحترم ما وهبني الله تعالى من نِعَمٍ أيقنت أنّ الطّريقة المثلى لإقامة دولة الإسلام هي عين الطّريقة المثلى في إقامة أيّ دولة من الدّول. فالطّريقة الشّرعيّة هي عينها الطّريقة الكونيّة، فإذا ثبت من جهة النّقل الصّحيح فإنّه يوافق الكونيّ الصّريح، وإذا ثبت شيء من جهة العقل الصّريح فإنّه لا بدّ أن يوافق النّقل الصّحيح، ولكنّ الحكم الشّرعيّ لا يؤخذ من الكونيّ بل يؤخذ من النّقليّ، فالحلال والحرام والجائز والمستحبّ والمكروه لا يثْبُتُ واحدٌ منها إلاّ بالكتاب والسنّة.

وبالتّالي لا يمكن أن يثبت نقلٌ صحيحٌ على خلاف العقلِ الصّريح، ولا يُمكن أن يُجمع العقلاء على كونيٍّ صريح وهو مخالف لشرع الله ودينه، فمصدر الكون هو مصدر الشّرع {ألا له الخلق والأمر} بل إنّ من معاني الحقّ (وهو اسم يطلق على الشّرعي) ثابت لكونه موافقٌ لقدَرِ الله تعالى وخلقه (الفطرة).

هذا الذي أقوله لا بدّ أن يجتمع مع ما قُلته سابقاً ليستقيم المعنى في نفوس إخواني القرّاء.

وقد علم كلُّ من عاشرني وعرفني عن قرب أنّي من أشدّ النّاس (بفضل الله تعالى) تنبيهاً على أولئك الذين يخرِمون السنن الكونيّة والقدَريّة بحجّة وجود قواعد خاصّة لنا (أي أهل الإسلام) تُخالف السنن الكونيّة والقدريّة التي يجريها الله تعالى على البشر جميعاً، وبالتّالي فإنّ مِن الخطأ الشّنيع أن يظن ظان أنّ السّيرة النّبويّة لها نظام خاصٌّ وقواعد مستقلّة خارج نظام وقواعد وسنن التّغيير السّننيّ في البشر جميعاً، فهذا الزّعم هو الذي يجعل أولئك القوم يقرأون السّيرة من أجل البركة فقط من غير نظرٍ إلى أنّها هي الطّريقة الكونيّة والشّرعيّة الوحيدة

لإقامة دولة الإسلام، وهذا فيه ردٌّ على أولئك الذين يجعلون الطّريقة النّبويّة طريقة خاصّة لا يعرفها إلاّ أهل الإسلام في إقامة الدّولة، وكفى بواقع أولئك دليلاً على خطأ ما وقعوا فيه من الوهم والظّن الذي حسبوه علماً ويقيناً.

لا أشكّ أنّ كثيراً من النّاس لن يقبلوا كلامي حتّى أملأه وأحشُوه بكلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، مثل هؤلاء القوم لست حريصاً على إقناعهم بصواب ما قلته.

الشّيخ ناصر الدّين الألباني له طريقةٌ خاصّة في إقامة الدّولة الإسلامية يسمّيها ويلقّبها بالطّريقة النّبويّة، ويُطلق عليها شعار التّصفية والتّربية.

حزب التّحرير له طريقةٌ خاصّةٌ في إقامة الدّولة الإسلاميّة يوجب على النّاس سلوكها ويسمّيها الطّريقة النّبويّة.

وكذا الإخوان المسلمون (إحساناً للظّنّ بهم) وغيرهم الكثير، وأنا أسأل هؤلاء جميعاً سؤالاً واحداً أقدّم له بمقدّمات مُجمع عليها (!! أو أظنّ ذلك):

أوّلاً: المسلم المهتدي معه توفيق الله تعالى وبالتّالي هو أقرب إلى تحصيل أهدافه من الكفّار.

ثانياً: من أسماء الشّرع عندنا: الهداية، ومعناها البصيرة في إدراك المطلوب، فبالتّالي ما هو شرعيّ أقرب إلى غيره في الوصول إلى الهدف فمُمْتَثِل الطّريقة الشّرعيّة أقرب من العاصي في إدراك المراد.

هاتان مقدّمتان (الهداية الشّرعيّة والهداية التّوفيقيّة) توجبان علينا سؤالاً هو:

إذا كان الأمر كذلك فلماذا وصل الكافر إلى هدفه وجنى المسلم ضدّ مراده؟ لماذا بنى البعثيّون دولتين وشيوخ الإسلام لم يجدوا مأوى لهم؟. مع أنّ كلّ أدوات المعركة كانت بين أيدي المسلمين ومشايخهم كما قدّمنا وكان القليل منها بيدِ أعدائهم (خلافاً لواقعنا الآن).

أليس هذا السؤال يوجب عليّ وعلى كلّ عاقلٍ (لم يؤجّر عقله لغيره) أن يعتقد أنّ ما قاله المشايخ عن الطريقة النبويّة في إقامة الدولة الإسلاميّة خطأ على الطريقة النبويّة، وليس خطأ من الطريقة النبويّة؟.

لكن للأسف وُجد عندنا من قال أنّ هذا الطريق هو طريق الابتلاء، ومعناها عنده أنّ الشارع أعطانا طريقةً غير صحيحةٍ من أجل أن يوصلنا إلى ضدِّ أهدافنا وأهدافِهِ ابتلاءً لنا. فهذا هو معنى الابتلاء عندهم:

أن تسلك الطريق التي أمرك بها الشارع فتصل إلى ضدّ أهدافك ابتلاءً لك (وحسبنا الله ونعم الوكيل).

هل بين ما قُلتُه هنا وبين ما قلتُه سابقاً خلاف؟! بمعنى أني قلتُ أنّ الطريقة الكونيّة التي يسلكها عقلاء البشر في بناء دَولتهم هي عينها الطريقة النبويّة في إقامة الدولة الإسلاميّة، لأنّ الدَّولة شيءٌ وجوديٌّ كونيٌّ واسمها يُطلق على شيء واحد عند البشر جميعاً ولكن المضاف إلى هذه الدولة هي الأحكام والقِيَم التي تحكم بها هذه الدولة، فهذه دولة إسلاميّة لأنها تحكم بالإسلام وقِيَمُها مستمدّة من الإسلام، وهذه دولة شيوعيّة لأنها تحكم بالقيم الشيوعية، وهذه دولة بعثية لأنها تحكم بقيم حزب البعث، ولكن اسم الدولة مشترك بينها جميعاً وهو يُطلق على شيءٍ وجودي واحد، والشيء الوجودي (السنة القدريّة) شيء جامع للبشر جميعاً بغضِّ النظر عن دينه وقيمه.

سنن قيام الدول:

ثمّ إني ثربت هناك ورهَّبت من أولئك القوم الذين يتضلّعون من كتب الأغيار في بنائهم لمعارفهم في طريقة التغيير وبناء الدّول.

في الجواب على هذا أقول:

أوّلاً: إني وإن اعتقدت أن الطريقة النَّبوية هي عينها الطريقة الكونيّة في إقامة الدُّول إلاّ أنّ الخطاب الشرعي لا يَثْبُت إلاّ بدليلٍ شرعي، فهو كقولِ من قال إن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح، وقد أطلقه خيار الأئمّة في باب صفات الله تعالى، إلا أنّ صفات الله تعالى لا تثبت إلاّ بالشَّرع الصَّحيح مع أنها لا تخالف العقل الصَّريح.

ثانياً: إنّ مهمَّة إقامة الدولة الإسلاميّة تتطلَّب إعمار الباطن بمثالٍ سابقٍ خلالَ حركته وقيامه وقعوده، وهذا المثال يجب أن يكون عبداً صالحاً، فالواجب ضرْبُ الأمثلة بالشُّخوص

المهتدين، وأنا أعتقد أنّ ما من حقٍّ يحتاجه المرء في هذه الدنيا إلاّ وفي الكتّاب والسنة ما يغنيه فيه، فلماذا إبعاد النجعة (وإبعاد النجعة معناه أنّ طالب الماء حين يستطيع أن يأخذ الماء من مكان قريب فيذهب إلى المورد البعيد يكون قد شقّ على نفسه وأبعد في الطلب من غير ما ضرورة).

ثالثاً: في كلامي السابق تنبيه مهم على نوعيَّةٍ من الدارسين لكتب الأغيار امتلأوا منها وتضلّعوا حتّى الثمالة فكانت عُمُدُ معارفهم منها، ولم يكن التاريخ الإسلامي عموماً والسيرة النبويّة خصوصاً عندهم إلاّ غِطاءً وصبغةً ظاهرة لهذه المعارف، فقد تراهم يأخذون المعارف من الأغيار ولكنهم يُأسلمونها بعد ذلك حسب نظريّة المعهد العالمي للفكر الإسلامي في مشروعه (إسلاميّة المعرفة)، فهذا الصِّنف من الدارسين يقع في أخطاءٍ لا بدّ من التنبيه عليها.

ونحن في هذا الباب أمام صنفين من الناس:

الصنف الأول: غنوصي عرفاني (ومعناهما واحد وتعنيان من ينكر وجوب الدلائل والمقدمات من أجل الحصول على نتيجةٍ سواءً في المعرفة أو في القَدَر، فهو يُنكر الدليل ويوجب عليك أخذ النتيجة من غير مقدّمة، فإن كانت النّتيجة في القدر (الكونيات) كان جبرياً وزعم بأنّ عالم الشهادة مربوطة أحداثه بعالم الغيب (زعم) بالكليّة ولا قيمة للسنن، وإن كانت النتيجة معرفية كان باطنيّاً وزعم أنّ الإلهام والكشف والذوق دليله).

فهذا الغنوصي العرفاني يقرأ السيرة النبوية قراءة صوفية لا صلة لها بعالم الشهادة والسنن.

والصنف الثاني: انتقائي تجزيئي ومعارفه الأساسية من الأغيار، ودور السيرة عنده التدليس لا التأسيس، وهذا ما عنيته آنفاً.

أمّا إسقاط الكلام السابق على أحد من إخوَتِنا أومعارفنا تحديداً فهو ظنٌّ لم يُصب صاحبُه فيه، فالمناقشة كانت لظاهرة وليست لفرد من الأفراد }ولكل وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات{.

أثر الخلط بين الكونيات والشرعيات: الجوهر والعرض نموذجاً

المعارف الكونيّة (معارف الخلق والتّكوين) معارف مشاعة وليست خاصّة لأهل الإسلام، وهي كذلك ليست محصورة ولا محجورة على أصحاب المعارف الشّرعيّة (العلوم الدّينيّة)، بل قد غلب على هذه العلوم والمعارف الكونيّة غير أهل الإسلام منذ القدم، وقد شكى على الدّوام أهل العلم والذّكاء مِن ترك هذه العلوم لغير أهل الإسلام.

فقد شكى الإمام الشّافعيّ رحمه الله تعالى من إعراض أهل الإسلام عن أهمّ علمين على مدار التّاريخ الإنساني بعد علوم الدّين، وهما علم الطّبّ وعلم الحساب، فإنّه لا قوام لحياة البشر في دنياهم إلاّ بهذين العلمين (علم الأبدان، وعلم الحساب) قال حرملة: كان الشّافعيّ يتلهّف على ما ضيّع المسلمون من الطّب، ويقول: ضيّعوا ثلث العلم، ووكلوه إلى اليهود والنّصارى. [سير أعلام النّبلاء 58/10]، وقال: من نظر في الحساب جزل رأيه. [المصدر السّابق 41/10]، وقد انتشر في بلاد المسلمين الاهتمام الشّديد بعلوم الذّهن وظهر الإعراض عن علوم اليد، وهو ميراثٌ أساء كثيراً إلى البناء العلميّ للعقول في تاريخ أهل الإسلام المتأخّرين، وقد أصبغ المتكلّمون وخاصّة الأشاعرة على هذه المفاهيم صبغة شرعيّة ولعلّ من أعجب ما وقعوا فيه النّظر إلى العلوم الكونيّة والكلام عليها بطريقة الكلام على المعارف الأخرى حيث استعملوا فيها المنطق الأرسطيّ وقواعده التي سمّاها بالكليّات، وهي موازين لا تصلح لهذه المعارف، فإنّ المعارف الكونيّة لا تحصَّل إلاّ بطريق الحسّ والعقل، فالحسّ لتحصيل المعارف الجزئيّة لهذه السّنن، والعقل لتعميم هذه المعارف لتحصِّل منها القواعد،(وهو المنهج التجريبي) فاستخدام الحس فقط دون اعتبار العقل للتّعميم عن طريق الاعتبار والقياس لا ينشئ قاعدة، واستخدام العقل في عموماته دون الحساب والتّجربة تنشئ أوهاماً أغلبها لا يوجد لها وقائع وحقائق كونيّة، ولذلك كان المتكلّمون (وعلى رأسهم الأشاعرة) من أفسد النّاس نظراً إلى العلوم الكونيّة، ومن أفسد ما قالوه ما سمّوه قاعدة الجوهر والعرض، وهي قاعدة جعلوها من أصل الدّين وبنوا بعض العلوم الدّينيّة على أساسها، وهي في أساس بنائها لا وجود لها إلاّ في أذهانهم الأرسطيّة الكليلة، وشرح هذه القاعدة يطول أمره وهي باختصار تقول:

1- أنّ الأشياء كلّها تتكوّن من جواهر متعدّدة.

2- والجواهر هي أصغر شيء في المادّة، ولا شيء أصغر منها.

3- الجواهر حقيقة واحدة تتعدّد وليس بينها اختلاف في جميع الأشياء.

4- العلاقة بين الجواهر في تشكيل المادّة هي علاقة تجاور فقط وليست علاقة تفاعل.

وقد سمّيَت هذه القاعدة مؤخّراً بقاعدة الذّرّة، وعلى أساس هذه القاعدة التي أدخلت في أصول الدّين بنى المتكلّمون (وعلى رأسهم الأشاعرة) قاعدة التّحسين والتّقبيح وهي قولهم: إنّ التّحسين والتّقبيح شرعيّان، فالأشياء التي حرّمها الله هي في حقيقتها كالأشياء التي أحلّها الله وإنّما التّحليل والتّحريم ابتلاء من الله لعباده من غير علّة سابقة.

فلمّا اقتنع المتكلّمون أنّ الأشياء في حقيقتها شيء واحد، أخذوا يقولون: ما ضرورة البحث إذاً؟! ما أهمّيّة التّجربة في إدراك حقائق الأشياء وهي في جوهرها شيء واحدٌ؟ فالحديد في حقيقته عين النّحاس وهما عين الذّهب والفضّة، وإنّما الاختلاف في الأعراض (المظاهر الخارجيّة كاللون والوزن وغيرهما)، وهذه القاعدة هي التي جعلت بعض المجاذيب (من المتكلّمين) يسعون بشقّ الأنفس باحثين عن أكسير الكيمياء، وهذا يعني أنّنا كما استطعنا استخراج روح الورد والزّهر، ثم وضعنا شيئاً قليلاً منه في بركة ماء فتحوّل الماء إلى رائحة الزّهر المُستخرَج منه الرّوح، ولمّا كانت حقائق الأشياء واحدة فلماذا لا نستخرج روح الذّهب فنضعه على بقيّة المعادن فتتحوّل بسبب روح الذّهب إلى ذهب.

هذه العقليّة في تفسير الكونيّات التقت في عدم أهمّية البحث والنّظر وعدم أهميّة العمل في حصول النّتيجة كنهاية مع النّظرة الجبريّة، فكمُلت المصيبة عند أهل الإسلام بالإعراض عن البحث والدّراسة والتّجربة، ثمّ جاءت الصّوفيّة فاستغلّت ذلك كلّه وجعلت الكسل شعار الزّهّاد، وجعلت تحطيم الإرادة نهاية التّعبّد والتألّه، وجعلت المجاذيب والمجانين هم البهاليل (والبهلول كلمة مدح تعني الرّجل الشّجاع الحكيم الكريم ولكنّها أطلقت من قبل الصّوفيّة على مجاذيبهم فانقلب معناها في أذهان النّاس إلى معنىً قبيح وهو المجنون).

ومن هنا فإنّ أضلّ النّاس كلاماً في الكونيّات هم أهل الكلام، وهم قادة الأمّة منذ القرن الخامس الهجريّ، فكان خلال هذه العصور رجال الكونيّات وأئمّتها هم النّصارى واليهود والفلاسفة والزّنادقة.

أمّا لماذا الفلاسفة كابن سينا والرّازي والفارابي والخوارزمي فهذا له شرحٌ طويلٌ لا يتّسع له هذا المقام.

ولكن، هل العلوم الكونيّة من الإيمان؟ بمعنى هل المسلم البصير بأمور الخلق وسننه أكثر إيماناً من غيره، كما أنّ المسلم البصير بأمور الشّرع والدّين أكثر إيماناً من غيره؟.

الجواب بكلّ اطمئنان ويقين: نعم، وعندما يكون الجواب نعم فإنه يعني أنّ الوعود الإلهيّة التي قالها الله تعالى في كتابه وقالها رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنّة النّبويّة لا تقع إلاّ بوجود النّوع من الإيمان المتعلّق بالأمور الشّرعيّة والدّينيّة.

وتفسير ذلك، أو دليل ذلك، قوله صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن القويّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف، وفي كلٍّ خير)).

فإيمان المؤمن القويّ أقوى - لأنّه أحبّ إلى الله تعالى - من إيمان المؤمن الضّعيف، والقوّة والضّعف تعلّقهما في الكونيّ والخلقيّ لا في الدّينيّ والشّرعيّ، وتفسير هذا، أنّ الإيمان قول وعمل، والعمل لا يقع إلاّ بقوّة وإرادة، والقوّة هنا في هذا التّقسيم قاصرة فقط على ما هو كونيّ، ولا ينبغي أن يقال هنا قوّة محبّة الله ومحبّة الآخرة، فإن هذا النّوع من القوى داخلة في الإرادة وهي الشّقّ الثّاني المطلوب لتحقيق العمل، فالقوّة هنا تقع على ما هو كونيّ فقط.

إذاً يجب علينا أن نعلم أنّ البصر والعلم بما هو كونيّ شرطٌ لتحقيق كمال الإيمان الواجب لتحقيق الوعود الإلهيّة في الكتاب والسّنّة.

كما أنّ البصر والعلم بما هو شرعيّ شرطٌ لتحقيق كمال الإيمان الواجب لتحقيق الوعود الإلهيّة في الكتاب والسنّة سواء بسواء.

ولهذا النّوع من العلوم (علم الكونيّ) طرقٌ للفهم، وقواعد للتّلقّي وأصول للتّأصيل والعمل، كما أنّ للعلم الشّرعيّ طرقٌ للفهم وقواعد للتّلقّي وأصول للتّأصيل والعمل.

ومن أهم هذه القواعد وأرسخها وأوضحها وأبرزها أنّ النّبوّة والأنبياء لم يرسلهم الله تعالى بهذه العلوم، بل هذه العلوم داخلة في قوله صلى الله عليه وسلم: ((أنتم أعلم بأمور دنياكم)).

نعم، ما قاله صلى الله عليه وسلم من هذه الأمور والعلوم والسّنن حقٌّ وصدق ويجب التّسليم به واعتقاد صدقه وحقّه مثل قوله صلى الله عليه وسلم عن الذّباب: ((إنّ في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى دواء))، أو مثل قوله: ((أنّ الداء ينـزل في الليل))، أو مثل ما أرشد إليه من بعض أمور الطّب كقوله عن الحبّة السوداء: ((أنها شفاء من كل داء إلاّ السام - الموت-))، وكقوله عن ماء الكمأة أنها: ((شفاء للعين))، فهذه أمور حق وصِدق ويجب الإيمان بها والتسليم بها ولا يُلتفت إلى قول من قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها من قبيل نفسه وتجربته كما وقع لشاه ولي الله الدهلوي في "حجة الله البالغة" ومن تابعه، بل هي من أمور الوحي الذي منّ الله تعالى على أمّة محمد صلى الله عليه وسلم بها رحمة بهم والإيمان بها واجب والتعريض بها ردّاً وقدحاً من ضعف الإيمان وربّما يكون نفاقاً عياذاً بالله تعالى.

ومن أوضح هذه القواعد في التّعامل مع الكونيّ أنها عرضة للتبديل والتغيير، وهي داخلة في مجال البحث والاكتشاف والأخذ والردّ.

والبدعة في الأمور الشرعيّة الدّينيّة ولا تطلق البدعة على ما اكتشفه الناس وحسّنوه في الأمور الكونيّة، وهذه أمور يأخذها المرء المسلم ولا يتحرّج في ذلك، فالناس كانوا يتنقلون على أرجلهم وعلى الدواب من حمير وبغـال وخيول، وقد استطاع الإنسان أن يكشف أنظمة وسنناً كونية جعلت الوصول إلى أهدافه أيسر بكثير مما كان عليه في القديم، وهذا باب الحديث عن أمثلتهِ واسع جداً.

إذن: الثابت الذي يجب امتثاله وعدم تطويره أو إدخال الرأي والهوى فيه هو الشرعي، أما المتحوِّل فممَّا له تعلقٌ بالكونيات.

فالرجل الذي يقول بتطوير الشّريعة هو رجلٌ زنديق في دين الله تعالى لأنّه يريد أن يلغي الشَّريعة، حتّى لو كان هذا التطوير باسم التأويل الجديد، فإن التأويل الحق هو إصابة مراد المتكلم، وأحقُّ الناس بإصابة مراد الله ومراد رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الصحابة رضي الله عنهم، فالدِّين والشرع هو ما فهموه، وما لم يكن عندهم ديناً فلا يجوز أن يكون فيمن

بعدهم ديناً "اتّبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم"، أمّا من أراد أن يجعل الثّبات فيما هو كوني فهو أضلُّ من حمار أهله، فإني أعجب من أقوام يزعمون أنّ استعمال الكهرباء والأدوات الصناعيّة الجديدة من البدعة، وإني أعجب أن يكون لهم رؤوس كرؤوس البشر، ولكن لله في خلقه شؤون.

ومن هذه القواعد والأصول في التعامل مع الكوني أنّها إنسانيّة التلقّي، فحيثما وُجِدت فيجب على أهل الإسلام أن يسارعوا في الأخذ بها ولا يُعرضوا عنها بحجَّة أن مكتشفها أو صانعها غيرُ مسلم وهذا داخل في ضالّة المؤمن من الحكمة فحيثما وجدها فهو أحق بها. ألا ترون أن رسول الله ؟ نهى عن الغِيلة فلمَّا رأى أهل فارس والروم يفعلونها ولا تضر أبناءهم نسخ نهيه وأجاز فعلها (والغِيلة أن تحمل المرأة وهي تُرضع ابنها حيث كانوا يظنُّون أنّ هذا يؤثِّر على الطفل ويخرجه ضعيف البدن).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: التغيير كوناً وشرعاً

في باب التّغيير (تغيير المنكر) ومنه الجهاد في سبيل الله تعالى، يكون الجهاد حكماً شرعيّاً وواجباً عينيّاً في حالاتٍ معروفة عند أهل العلم، فإنّه لا يجوز تغييره ولا تبديله بحجج الرأي والهوى والاستحسان، إذ لو كان هناك أفضل منه وخير لعلمّنا الشارع إيّاه وهدانا إليه وفعله الصحابة رضي الله عنهم، فالجهاد في سبيل الله تعالى ومقاتلة المشركين حكم شرعي وواجب عينيّ في حالات وواجب كفائي في حالات أخرى.

فإذا قال الشارع الحكيم إن الحاكم إذا ارتدّ يجب قتاله فهذا حكم لا يدخل فيه التبديل والتغيير.

نعم هو حكم ككلِّ الأحكام الشرعيّة منوطٌ بالاستطاعة والقدرة، بل قد أمر الشارع بتكوين القوّة والاستطاعة وهما من باب الإعداد، ولكن لا يجوز أن نبحث عن بدائل ووسائل لإلغاء هذا الحكم وتطويره، كما فعل البعض حيث سمّى الدخول في الانتخابات جهاداً في سبيل الله تعالى، وجعل هذه العملية بديلاً عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وأدخل هذا الأمر في باب الوسائل التي تجيز للمسلم الاختيار بينها (نعوذ بالله من الخذلان).

إذن يجب الجهاد، فمن لم يستطع الجهاد بسبب ضعف الإعداد أو عدمه، فيجب الإعداد فإن لم يستطع الإعداد فيجب عليه الاعتزال ((فاعتزل تلك الفرق كلّها)).

والجهاد ليس وسيلةً بل هو عبادة، أي أن الجهاد في سبيل الله تعالى والقتال عبادةٌ من العبادات وهو أمر شرعي لا يدخل فيه التحويل ولا التطوير ولا التغيير، وما لم يكن عند الصحابة ديناً فلا يجوز أن يسمى اليوم ديناً.

وما هو متحول في هذا الباب وسائل القتال وأساليبه وخططه وطرقه، فمن الجهل الذي لا جهل فوقه، ومن الغباء الذي لا غباء فوقه ومن أسباب دمار أهل الإسلام وطوائفهم أن يوجب أحدهم على أهل مصر مثلاً أن يحكموا أهل مصر بالإسلام بفتح جديد بنفس الطّريقة التي فتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه، ويرون من الخطأ والبدعة استعمال طرق وأساليب للحرب والقتال (ولو تعلّمناها من غير أهل الإسلام) في إقرار حكم الله تعالى على هذا البلد.

ولو لا أني قرأت شيئاً من هذا عن بعضهم لما ظننت أنّ أحداً من البشر (بله أهل الإسلام) يفكّر بمثل هذا التّفكير ويقول مثل هذا القول الخطير.

ومن فهم من كلامي أنّي أَقصُرُ الأخذ في أساليب الحرب وطرقها وعلومها على أهل الإسلام فقد فهِم كلامي على نحوٍ خطأ ولا شكّ. لكنّي أعتقد أنّ السّيرة النّبويّة غنيّة غناءً لا مثيل له في إدراك سنن التّغيير وقواعد التّعامل مع الأحداث.

السّيرة النّبويّة فيها الحرب الصّداميّة الشّاملة (مثل بدرٍ وأحد).

السّيرة النّبويّة فيها الاغتيال وتصفية الرّؤوس (قتل كعب بن الأشرف وغيره).

السّيرة النبويّة فيها العقود والمعاهدات (مثل صلح الحديبية وعقد الرسول عليه السلام الأمان لليهود أول هجرته).

السّيرة النّبويّة فيها الانقلاب والتّغيير الرّأسيّ الشّامل (حادثة فيروز الدّيلمي رضي الله عنه مع الأسود العنسيّ في اليمن).

السيرة النبوية فيها جهاد الدفع كما في غزوة أحد وغزوة الخندق، السيرة النبوية فيها جهاد الطلب كفتح مكة وغزوة حنين بل أن مؤتة وتبوك وغيرهما قد اجتمع فيها الدفع والطلب والتشريد..

السّيرة النبويّة فيها نظام {وشرّد بهم من خلفهم}. (مثل ما وقع في غزوة حمراء الأسد ومعركة مؤتة وغزوة تبوك).

وهكذا فهي تجربة غنيّة تملأ نفس المسلم وتغني باطنه وتعمره بوجود المثال الصّالح لأغلب أحداث الحروب وطرقها، ولكنّ كتب السّيرة النّبويّة صارت كتباً للتّبرّك لا كتباً للعلوم والمعرفة فحسبنا الله ونعم الوكيل.

فعلوم الحرب وطرقها ووسائلها علومٌ إنسانيّة مشاعة، شئنا أم أبينا فإنّ هذه العلوم ممّا ينبغي أن نبكي على أهل الإسلام لإعراضهم عنها وهي علوم تنشأ بالتّجربة والاطّلاع وحدة العقل الرّاغب في هذه العلوم، وتؤخذ من مظانّها التي يعرفها أهل البحث والنّظر.

وقد يقوى لها الفاسق ويضعف عنها التّقيّ وحينئذٍ سنشكو كما شكى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حين قال: اللهم إنّي أعوذ بك من عجز التّقيّ وجلد الفاجر.

وأنا لست من أهل هذا الفنّ ولا من أصحاب علومه المفاريد حتّى أنصح وأقوّم الكتب الرّائعة في هذا الباب، وأقصد ما عمله أهل الإسلام في اكتشاف علوم الحرب وقواعدها من خلال السّيرة النّبويّة، ولكنّي رأيت عامّة من كتب في هذا الباب إنّما تأسّست معارفه وعلومه في فنّ الحرب من الدّراسة خارج السّيرة، فلمّا قرأ السّيرة نعى على النّاس وخاصّة أهل الإسلام إعراضهم عن هذا النّبع العظيم، ومن هؤلاء الممدوحين في هذا الباب محمود شيت خطّاب في أغلب كتبه، وكذلك ما كتبه العسكريّ الباكستانيّ عن خالد بن الوليد، وما كتبه تنويهاً بهذا الأمر منير شفيق في كتابه "في نظريّات التّغيير" وإن كانت سيّئات الكتّاب أكثر بكثير جدّاً من حسناته وإنّما أشرت إلى تنويهه لقيمة السّيرة النبويّة في هذه العلوم، والرّجل له كتاب عندما كان شيوعيّاً ماويّاً في فنّ الحرب وما كتبه الأخ عمر عبد الحكيم في القسم الثّاني من كتابه "الثّورة الإسلاميّة الجهاديّة في سوريا" والذي حرص فيه أن ينبّه إلى أهميّة هذا البحث وليس فقط ما اقتصر البعض عليه من قراءة السّياق التّاريخيّ لمأساة جماعات البدعة على الجهاد في سوريّا الشّام، وما ذكر فيه من قواعد اختصّ بها دون غيرها من الكتب المتقدّمة في البناء المنهجيّ لجماعات الجهاد المعاصرة فعلوم الكونيّات تؤخذ من أصحابها المتفقّهين فيها ولا تؤخذ من غير أهلها، فإذا وقعت الموازنة بين الفاسق أو الكافر العالم لهذه العلوم وبين

المسلم الصّالح الجاهل في هذه العلوم فإنّ واجب التّرجيح يكون مائلاً إلى أصحاب هذه العلوم من غير تردّد.

نعم: أمانيّنا أن يجتمع البيان والدّين مع القوّة والفنون المادّيّة، ولكنّها أماني أظنّ أنّنا فقدناها قديماً في أهل الإسلام، ولا حاجة لذكر ما ذكره ابن تيمية رحمه الله تعالى من حصول هذا الافتراق في زمانه، ولكن وما ذلك على الله بعزيز.

وممّا يجب أن يُعلم أنّ هذه العلوم دليلها الحسّ والتّجربة والعقل، ومن رام دليل هذه العلوم في كلّ أحداثها وقواعدها وأصولها من الكتاب والسّنّة من غير العمومات فهو جاهل لا يفهم دين الله تعالى، نعم هي داخلة في عمومات الشّريعة التي تُبيح لنا تعلّم هذه العلوم من غير طريق النّبوّة (الوحي) كالسّير في الأرض والنّظر والبحث و((أنتم أعلم بأمور دنياكم)).

فمثل هؤلاء الطّالبين لأدلّة ما هو كونيّ ممّا هو شرعيّ يذكّروننا بقصّة ذكرها ابن حزم في بعض كتبه وأظنّ أنّه "طوق الحمامة"، تقول القصّة: إنّ رجلاً مغفّلاً من أهل الحديث ركب سفينة فرأى رجلاً نصرانيّاً يحمل زجاجات خمر، فتقدّم منه المحدّث المغفّل وسأله عمّا هو داخل الزّجاجات. فقال: هذه زجاجات خمر.

فقال المحدّث: ما دينك؟. قال الرّجل: نصرانيّ. قال المحدّث: ممّن اشتريتها؟. قال الرّجل: من يهوديّ.

فأهوى المحدّث بيده على قارورة منها فشربها، فتعجّب النّصرانيّ وقال له: أقول لك هي خمر وتشربها؟!!.

فردّ المغفّل: يا هذا يأتيني الحديث عن فلان وفلان (وذكر أسماء جماعة من كبار أهل الحديث) فأردّه، أفآخذ بقول نصرانيٍّ عن يهوديّ؟!.

ما يهمّنا كون المحدّث شرب الخمر وبالتّالي سيَسكر ولن تنفعه مهارته المزعومة، ولا احتياطه المقلوب، ولا منطِقُه المعكوس، وهذا من فساد المتنطّعين في ظنّهم أنّ إتقان علمٍ من العلوم وقاعدة من القواعد لقضيّة من القضايا كافية للفتوى والجواب على أيّ مسألة في الدّين والدّنيا، فمصلّح السيّارات يُفتي في إصلاح الأبدان والطّبّ، وخبير الكمبيوتر يتحدّث ويُفتي في علم

الحديث، وللأسف فإن هذا كلّه لا نراه إلاّ عند أهل الإسلام لأنّنا ما زلنا نفكّر بمنطق أرسطو الذي علّمنا الكليّات الجامعة لكلّ العلوم سواء كانت المعارف كونيّة أو من العلوم الشّرعيّة.

أليس من المعيب حقّاً أن يُفتي شيخٌ في علم الحديث لرجل يعيش في البوسنة زمن الحرب أن لا يقاتل حتّى يصل الصّربيّ باب بيته ؟!!.

ثمّ أليس من المَعيب أن يظنّ مفكِّرٌ أو بصير في علمٍ من العلوم الكونيّة أنّ قواعده الكليّة وروح الإسلام العامّ ترشده إلى إدراك الحكم الشّرعيّ في أيّ مسألة من المسائل، حتّى تصحيح الأحاديث وتضعيفها يدخل في باب روح الإسلام وقواعده الكليّة ؟!!.

نعم: ديننا ليس فيه كهنوت، وليس فيه فاتيكان، وليس فيه بابا، ولكن أليس في ديننا شيء يسمّى طلب العلم ؟!!.

أم أنّ الجوهر واحد والاختلاف في الأعراض فقط ؟!!.

الباب الثاني

الاجتهاد في مجتمعات معاصرة

الفصل الأول

مفاهيم ومصطلحات

"المقصد الشرعي من وضع الشريعة، إخراج المكلف من داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبدٌ لله اضطراراً" الشاطبي

ما هي السَّلفية ؟ !

السّلفية على مدار التّاريخ الإسلامي تتمثّل بأمرين:

أولاهما: منهج علمي في التّعامل مع الأصلين (الكتاب والسنة) حيث تقوم على اعتمادهما فقط ونبذ ما سواهما في الصُّدور عنهما بالحكم المراد للحركة والحياة.

ثانيهما: حركة حياة وسلوك طريق في تطبيق هذا المنهج.

فالسّلفيَّة هي ذلك المنهج الّذي اختطّه الأوائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علماً وعملاً، هكذا هي السَّلفية وهكذا ينبغي أن تكون، ومن رحمة الله تعالى بهذا المنهج العلميّ العمليّ أن أقام له رجالاً تعاملوا معه بأسمى حالات الكمال حتّى صاروا هم المنهج، والمنهج هم، فحينئذٍ ارتبط اسم المنهج بشخوصهم وتقيّد بهم فأطلق اسم المنهج عليهم بكونهم السلف الّذين سبقوا الكلّ في تطبيق المنهج قدْراً وزماناً.

فالتَّابعون تعاملوا مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنهم: (منهج وسلف)، ومن بَعدَهم تعامل مع التَّابعين على أنهم: (منهج وسلف)، وهكذا، ولمّا كثرت البدع في نهاية القرن الثّاني وبداية القرن الثّالث، وخاصّةً بدع أهل الكلام، في تقديم منهج بدعيّ جديد في التَّعامل مع الأصلين، واختلطت الأمور، نشط أهل السنَّة في تمييز المنهج عن غيره، وكذلك في كشف رجال المنهج السَّلفي عن غيرهم من أصحاب المناهج الخلَفيّة الأخرى، وصار بعض أهل العلم هم أصحاب المنهج، ولهم ينسب، وصاروا هم المقياس في ردِّ الآخرين لهم، وقد ذكر **الإمام الكرجي** - رحمه الله تعالى - هؤلاء الرِّجال في كتاب سمّاه: "تنقيح الفصول في الأصول عن الأئمَّة الإثنى عشر الفحول"، وهؤلاء الأئمة هم: مالك والشّافعي وسفيان الثَّوري وعبد الله

بن المبارك، والليث بن سعد واسحق بن راهويه وأحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة والأوزاعي ومحمّد بن إسماعيل البخاريّ وأبو زرعة وأبو حاتم الرازيان.[1]

هؤلاء العلماء ليسوا هم فقط، ولكن غيرهم يرجع إليهم في توضيح هذا المنهج القويم. وبعد هذا نخلص إلى النّتائج التّاليـة:

1 - تحت كلِّ شعار زيوف ونقد- وكذلك السَّلفية - ففيها الزَّيف وفيها الحق، ولذلك ينبغي التَّعامل مع الحقائق لا مع الشِّعارات، مع أهميّة الشِّعار وضرورته.

2 - السّلفية منهج علميّ عمليّ، أئمّته هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم تبع لهم، فلهم وحدهم حقُّ التّقويم والرشد.

3 - علينا أن ندرك خطأ وانحراف من قرن السّلفية بشخص لا يؤمن عليه الفتنة في فهمه للحركة والحياة، وكذلك علينا أن ندرك ضلال وبدعية من جعلها تنظيما وحزباً وتجمعاً، وأشدّ من هؤلاء ضلالاً وانحرافاً هو جعل السَّلفية علاقة بين أفراد، فهذا سلفيّ لأنّه معروف لهذه الجهة، أو تتلمذ على يديها، وهذا غير سلفيّ لأنّه غير معروف لديها، أو لم يسلّم لهذه الجهة رقبته لتقوده كالدَّابّة، ثمّ علينا أن ندرك خطأ وانحراف من جعل السّلفية مذهبا فقهياً، يوالي ويعادي عليه.

إن منهج السّحرة هو تزييف الحقائق وتمويهها على النّاس، والسَّحرة في كلِّ زمان إما أن يغيّروا صورة الأشياء في الأبصار عن طريق التّخْييل الشيطاني، وإما أن يغيروا حقائقها في الأذهان عن طريق السّحر البيانيّ، وقد حذّر النَّبيّ صلى الله عليه وسلم من هاتين الطّائفتين أشدَّ التحذير، ونبّه الأمّة إلى خطرهما وعظيم أمرهما، وقد علم أهل السنّة أن أعظم السّحرة على مدار التّاريخ الإنساني هو الدَّجال، الّذي سيخرج آخر الزّمان بما معه من شعوذات ومخاريق يفتن بها النّاس عن توحيد الله سبحانه وتعالى، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة الّتي تكشف للمؤمنين أمره فلا يغترّوا به، ولا يلتبس عليهم حاله، وفي حديث لرسول الرحمة والملحمة صلى الله عليه وسلم يجمع فيه التحذير من هاتين الفرقتين: سحرة التّخييل وسحرة البيان:

---

[1] – انظر "درء تعارض العقل والنّقل" لابن تيمية (ج 2/95-98).

فقد ذكر الإمام أحمد رحمه الله في مسنده حديثا فيه التّحذير من أمر الدّجال، وذكر فيه قول النّبي صلى الله عليه وسلم: ((غير الدجال أخوف على أمّتي من الدّجال، الأئمة المضلّون)).[1]

في هذا الحديث إرشاد نبويّ إلى وجوب كشف الأئمّة المضلّين، كما كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الدّجال بجامع فتنتهما.

وإذا كان الدّجال أعظم فتنة تقع في الدّنيا كما جاء في بعض الأحاديث، فإن هذا الحديث يبيّن أن الأئمّة المضلّين أشد فتنة وأكثر سوءاً وأعظم إفساداً. فمن هم الأئمة المضلّون؟.

الإمام: هو المرء المتبوع، سواء كان هذا المتبوع في أمر علميّ أو أمر عمليّ، قال تعالى: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم} النساء، وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله تعالى - تفسير العلماء بقوله: أولي الأمر وخلافه في تعيينهم هل هم العلماء أم الأمراء؟ ثمَّ خلص إلى القول أنّها عامّة في كلٍّ من العلماء والأمراء.

فالأئمّة المضلّون هم الأمراء الضّالّون والعلماء الضالّون، وهاتان الفرقتان ربط رسول الله بصلاحهما صلاح النّاس وبفسادهما فساد النّاس، وهما كما قال ابن المبارك رحمه الله تعالى:

وهل أفسد الدين إلاّ الملوك وأحبار سوء ورهبانها

فساد الأمراء: روى الإمام البخاري في صحيحه أنَّ امرأة من أحمس سألت أبا بكر الصدّيق فقالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح - أي الإسلام - الذي جاء الله به بعد الجاهليّة؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمّتكم. قالت: وما الأئمّة؟. قال: أمَا كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى. قال: فهم أولئك النّاس.

فصلاح الأمراء بقيامهم على أمر الإسلام، وتطبيقهم شريعة الرحمن، ونشرهم العدل في الأحكام، وفسادهم بتركهم دين الله تعالى، وبعدم إقامته في النّاس، وقد علّق أبو بكر رضي الله تعالى عنه فساد النّاس بفساد الأئمة. ما استقامت بكم أئمّتكم. قال **الحافظ بن حجر** - رحمه الله - في "فتح الباري" في شرحه لهذا الحديث: لأنّ النّاس على دين ملوكهم، فمن حاد من الأئمّة عن الحال مال وأمال. ا. هـ.

[1] - سنده صحيح.

ومن أجل أهمية الأمراء وقيمتهم في الحياة فإنّ الشّارع الحكيم أمر المسلمين وحثّهم على مراقبتهم من أجل تقويم اعوجاجهم، ولو أدّى هذا إلى حصول الضّرر على النّاصح المقوّم، قال صلى الله عليه وسلم: ((**أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر**))،[1] وهذا كلّه في الحاكم المسلم، أما الحاكم الكافر فقد وجب على المسلمين خلعه وإزالته، قال القاضي عياض: فلو طرأ عليه - أي الأمير - كفر وتغيير للشّرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عيه وخلعه. ا. هـ.

فساد العلماء: روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، لكن يقبض العلم بقبض العلماء حتّى إذا لم يبق عالماً اتخذ النّاس رؤساء جهّالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا** ».

فصلاح العلماء في تعليم النّاس الحقّ والصواب، وإرشادهم للهدي الصّحيح، وتحذيرهم من الأحكام والتّصورات الفاسدة، وفسادهم بالفتوى الجاهلة، والهدي الباطل، والقول الفاسد، فإذا أفتى العالم بالهوى والجهل فإن قوله يفسد النّاس ويضلّهم كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث السّابق (**فضلّوا وأضلّوا**).

وقد فرّغ كثير من أهل الذّكر نفسه لذكر نماذج من الأئمّة الصّالحين، وكيف كان لأفعالهم وأقوالهم الأثر الطّيب، والخير الذي يصيب العباد والبلاد، ونماذج العلماء الذين وقفوا أمام حيف الأئمّة الأمراء وظلمهم وفسادهم، وكذلك نماذج الأمراء الصّالحين الّذين سطروا بفعالهم دفاتر الخير والنصر على مدار التاريخ الإسلامي، ولكن كل هذا لم يخل من ذكر نماذج من الجهة المقابلة، جهة أمراء الضلال، وعلماء الضلال، وسأذكر أركان علماء الضّلال الّذين وقفوا أمام الحقّ، وحاولوا مزايلته، أو أنهم حاولوا استغلال عمائمهم من أجل نشر الرذيلة الفكرية بين النّاس، وهي أركان تعين الشّاب المسلم الآن وغدا في كشف هؤلاء القوم، وهذه الأركان الّتي سأسوقها هي الأركان الّتي حذّر منها أهل السنّة والجماعة في أقوالهم ومصنّفاتهم، ولم أزد سوى أني جمعتها على هذه الصورة:

---

[1] – رواه أحمد بسند صحيح عن أبي أمامة.

من هم علماء الضلال؟

1 - الصوفية: قال **الإمام الشّافعي**: ما تصوّف رجل عاقل أول النّهار وأتت عليه صلاة العصر إلاّ وهو مجنون. ا. هـ.[1]

والصّوفية فرقة ضالّة منحرفة، تلبست بمسوح الإسلام، وادعت العمل بالشّريعة، وهي في حقيقتها وجوهرها قائمة على أصول شركية منحرفة، ولم تعرف هذه الفرقة بعقائدها ولا بعباداتها في الصّدر الأول الممدوح من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: ((**خير النّاس قرني...**))، وهي في كلّ زمان تتلوّن بأثواب جديدة، ولعلّ أكثر الفرق انحرافاً في هذا الزّمان فرقة الحبشية، وهم أتباع الضّال **عبد الله الحبشي** المقيم في لبنان، ومن أعظم انحرافاتهم بعد كونهم صوفية كلامية موالاتهم للطّواغيت، قال **عدنان الطرابلسي**، وهو نائب في مجلس الشّرك (النّوّاب) اللبناني. وهو ممثّل الحبشيّة في البرلمان، والفرقة لها جمعية هناك تسمّى جمعيّة المشاريع الخيرية. يقول هذا الضّال المخرّف: إننا لسنا من الأصولية السّلبية!! هذه الأصولية المزعومة المراد منها الكرسيّ والزّعامة والتّخريب، لا لهذه الأصولية الّتي تكفر حكّام العرب المسلمين لمجرّد أنّهم حكموا بالقانون من غير أن يعتقدوا أن القانون خير من القرآن، لا لهذه الأصولية الّتي تقتل العسكري أو رجل الدّولة، لمجرّد أنّه ينفذ حكم القانون. انتهى كلامه الضّال.

وهذه الفرقة الخبيثة بدأت تغزو كثيراً عقول الشّباب المغترب في أوروبّا وأمريكا وأستراليا، مع ما لهذه الفرقة من أثر سيّء في لبنان حيث كانوا هم اليد القذرة الّتي تنفّذ سياسة الدّولة الخبيثة الكافرة سوريا، ولذلك فإنّي أنصح الاخوة في كلّ مكان أن يحذروا هذه الفرقة ويحذِّروا منها الشّباب لئلا يقع في حبالهم، وهذه الفرقة لها طريقة خبيثة في جذب الشّباب إليها، فهي أوّل ما تبدأ معهم في تكفير الأئمّة الأعلام كابن خزيمة والآجّري وعبد الله بن أحمد بن حنبل والبربهاري وابن تيمية وابن القيّم ومحمّد بن عبد الوهاب وسيِّد قطب وغيرهم من أئمّة الهدى والدّين.

---

[1] – ذكره ابن الجوزي في صفة الصّفوة وفي تلبيس إبليس.

وكثير من الفضلاء العلماء يقع في الوهم والخطأ حين يقسِّم الصّوفيّة إلى قسمين أو أقسام، فيظنّ أن هناك صوفية سنّية وصوفيّة مبتدعة. ولعلّ هذا التقسيم جاءهم من عدم دراستهم المتعمّقة للصّوفية كما هي عند أصحابها، لأن الصّوفيّة أنفسهم يرفضون هذا التّقسيم، ويتعاملون مع الجميع على أنّهم طائفة واحدة لا طوائف على اختلاف مشاربهم ومشايخهم وطرقهم. وبدراسة متأنِّية نستطيع أن نجزم أن الصّوفيّة هي تلك التّربة النّجسة الّتي نمت فيها ومنها الكثير من أفكار الضلال والانحراف كالشّيعة الرّوافض، وأهل الكلام الزّنادقة وغيرهما. وقد يقع بعض أهل الخير كذلك في خطأ آخر حين يظنّ أنّ الصّوفي هو ذلك الرجل الذي ينتسب إلى صوفيّة، أو مشيخة صوفية، وهذا حق، لكنّ الصّوفية تعدّت كونها ابتداعاً في العبادات والنّسك، إلى كونها طريقة حياة ومنهج تفكير، وأسلوب عمل. ولذلك قد يقع بعض من يكثر حديثه عن بدع الصّوفية وانحرافاتهم في منهج التّفكير الصّوفي في فهمه للحركة والحياة.

الصّوفية طريقة منحرفة، أفرزت في حياة المسلم طريقة حياة، ومنهج حركة، علاوة على أنها دين يحمل عقيدة تصورية مبناها على وحدة الوجود، وطريقة عبادة، فيها من بدع الخلوة والجوع والسّهر، وإنّ كثيراً من الفضلاء تأثّروا بالمنهج الصّوفي في التّغيير والحركة، ولعلّ أوضح عبارة أطلقت في هذا الزّمان عبّرت عن هذا المنهج الصّوفيّ هي الكلمة الّتي صارت شعاراً لبعض التّجمعات والتّنظيمات الإسلامية، هذه العبارة هي: "أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم، تقم لكم على أرضكم". وكذلك مثل هذه الدعوة أصحاب دعوة التصفية والتربية، بالمفهوم التّربوي الّذي يطرحه أتباع هذه الشّعارات، وقد استساغ بعضهم أن يسمّي بعض الجماعات أو الشّخصيات بأنّه سلفيّ العقيدة، إخوانيّ الطريقة، وهو لفظ شاع وانتشر للدّلالة على بعضهم بأنّه لم يتلبّس بالسّلفية الشّاملة، فإنّنا نستطيع بكلّ جرأة أن نسمي أصحاب هذا الشّعار: "أقيموا... تقم..." وهم أصحاب التّغيير عن طريق التصفية والتّربية أنّهم: سلفيّة العقيدة، صوفيّة المنهج.

هذا مع تنبيهنا الضّروري على أنّ هذه الثّنائية المتناقضة لا وجود لها على أرض الواقع، إذ لا يمكن للرّجل أن يكون سلفيّاً في عقيدته كما يزعمون وإخوانيّا في طريقته ومنهجه، كما أنّه لا يمكن كذلك أن يكون سلفياً في عقيدته وصوفيّا في طريقته ومنهجه، والسبب الّذي يدعو هؤلاء القوم إلى هذا التقسيم الخرافيّ، هو أنهم لم يفهموا من السّلفية إلا شيئاً جزئياً في البناء

الشّامل للمنهج السّلفيّ، مثل ظنّهم أن السّلفي هو من يعتقد بمنهج الأسماء والصِّفات الإلهية على طريقة الأوائل من أئمّتنا، فظنُّهم هذا يدعوهم أن يقولوا عن فلان أنّه سلفيّ في عقيدته (عقيدة الأسماء والصِّفات) وإخوانيّ الطّريقة والمنهج، مع أن السّلفيّ لم يكن يوماً من الأيام شعاره الّذي يتميّز به عن غيره موضوع عقيدة الأسماء والصّفات فقط، بل السّلفي هو ذلك الشّخص الّذي يحمل المنهج الشّامل في عقيدة التّوحيد بشقّيها: توحيد الشّرع وتوحيد القدر، ويحمل المنهج الشّامل في توحيد الإتّباع، كما بسط هذا في مواطن عديدة من كلام الأئمة الهداة كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغيره. لكن لا بأس من استعمال طريقة هؤلاء المحرّفة في هذا التّقسيم الثّنائي: سلفيّ العقيدة، صوفي المنهج، حين لا يكون أمامنا إلا أن نسلك الصّعب من الأفكار مع هذا الغثاء الذي يملأ الفضاء ممّن تغرّهم الشّعارات، وتستهويهم لعبة الألفاظ والعبارات.

صوفيّة أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم:

الصّوفيّة في تاريخها مع المسلمين بنت نفسها على بعض الأركان المنحرفة من العقائد الزّائغة التي انتسبت للإسلام زوراً وبهتاناً، وأهمّ هذه الأركان المنحرفة الّتي استغلّتها الصّوفية عقيدة الإرجاء، وهي مناقضة لتوحيد الشّرع، وعقيدة الجبر وهي مناقضة لتوحيد القدر، وخلاصة عقيدة الإرجاء المنحرفة أنّها تقدِّم إسلاماً بلا تكاليف، وتجعل مناط التّكليف الإيمانيّ تصوّر القلب واعتقاده، وأمّا أعمال الجوارح فليست إلا مظهراً لا قيمة له في عالم الحقائق، فهي عقيدة تدفع صاحبها دوماً إلى الانتكاسة نحو الدّاخل (القلب) دون الاهتمام بحركة الجوارح، ولّما كان لابد من أن تقدّم هذه العقيدة تفسيراً لحركة الحياة وما نراه من الارتباط السنني الظاهر فإنها لجأت إلى عقيدة الجبر، وهي تفسير حركة الحياة تفسيرا غيبيّاً خرافيّاً لا وجود له في الحقيقة، وتجعل وقوع الأقدار مربوطاً بالباطل الإرجائي، ولا قيمة للظاهر من أعمال الجوارح، وقد علم المسلم المبتدئ أن حركة القلوب ليست هي المؤثّر في حركة الحياة، بل المؤثّر هو حركة الجوارح، مع علمه الأكيد أن حركة الجوارح لا تقع إلا بحركة القلب (إرادات الباطن)، وحين نفسّر هذه الكلمات المثال نقول:

إذا أراد الإنسان - أيّ إنسان - أن يبني بيتاً، فإن البيت لا يُبنى إلاّ بحركة الجوارح، بكلّ ما يطلب هذا البيت من أركان وشروط وتحسينات، مع أن هذا الإنسان لا يمكن أن يبني البيت إلا إذا أراد ذلك، والإرادة هي حركة القلب، لكن لا يصح أن يقول قائل: إن الّذي يبني البيت هي الإرادة، بل الصّحيح أن الإرادة هي التي تنشئ العمل، الذي هو حركة الجوارح وبالعمل يُبنى البيت، وكلّها من حركة الإنسان: من إرادة قلبية وعمل الجوارح، فالإنسان يريدها في قلبه، ويعملها بجوارحه، وليس هو مكلّف بإرادة القلب ليقوم غيره بعمل الجوارح.

ولنعد الآن إلى العبارة المصيبة: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم.

هذا الشّقّ من العبارة يبيّن لنا أن المكلّف بإقامة دولة الإسلام هو القلب (الانتكاس نحو الداخل)، مع أن الواجب أن نقيم دولة الإسلام بجوارحنا، أي عن طريق حركة الجوارح الّتي تؤثّر في حركة الحياة، أي أن نقيمها في الخارج، وكان لنا أن نحسن الظنّ بهذه العبارة البدعيّة الضّالّة، لو لم يأت الشّقّ الثّاني جازماً لنا أن لا نحمل معناها إلا على هذا المعنى البدعيّ الضّال، فلو قال القائل: أقيموا الدولة في قلوبكم (بإرادتكم الجازمة) لتقيموها (بجوارحكم العاملة) في أرضكم، لقلنا له صدقت، ولما عَدَت أن تكون هذه الكلمة مفسّرة لحركة الحياة القدرية، ولن تكون بحال من الأحوال شعاراً لمنهج شرعه صاحبه لينصح به أتباعه بسلوكه واتّباعه.

لكن الشق الثاني حدد لنا المراد بما تقدم من الفهم المنحرف، لأنّه قال: تقُم على أرضكم. ولو سألناه من سيقيمها لنا على الأرض؟ فلن يكون الجواب أبداً نحن، لأننا نحن مكلّفون فقط بأن نّقيمها في قلوبنا، بل الجواب المجزوم بقوله هو: الله. وهذا الجواب مع ضلاله الشّرعي ومخالفته لأمر الله، إلا أنه للأسف يستهوي بعض النّاس حين يظنّ أن في ذلك تعظيما لشأن الله تعالى، وما درى أنّه استخفاف بتوحيد الله سبحانه وتعالى، وهو جواب جبريّ يناقض توحيد القدر وأوصل إليها كما تقدّم: الضلال في توحيد الشّرع حين جعل حركة الجوارح ليست هي المطلوبة في الشّريعة. بل المكلّف بذلك هو القلب وهو قول مذهب أهل الإرجاء الضّال.. فالعبارة كما هي عند أصحابها: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم (إرجاء بدعي) تقم لكم على أرضكم (جبر بدعيّ).

والآن أين هذا من دين الصّوفية؟.

شعار الصّوفية الذي يسعى الصّوفي الملتزم لتحقيقه، هو خروجه من إنسانيته، بتحرره من الإرادة، ومن أهم الشّعارات لديهم: أريد أن لا أريد.. وعامّة مجاهداتهم الباطلة تسعى إلى هذا المقام، وهو تحرره من الطّباع الإنسيّة، وهي الّتي يحلو لهم، ولبعض من تأثّر بهم أن يسمّيها بالبهيمية: ومن أمثلتها: حبّ النّساء، شهوة التّملّك والاقتناء، حاجة المأكل والمشرب والملبس، فطرة الاجتماع والمدنيّة والعمران، وهي أمور بشرية فطرية لا يمكن للإنسان أن يتخلع منها، ولا أن تذهب عنه، لكن سعي الصوفيّ الدائم إلى التّحرر منها أوصله إلى الجنون، وهو الّذي لاحظه الإمام الشّافعي قديماً فيهم حين قال: لم يتصوّف رجل عاقل قط واتت عليه صلاة العصر إلاّ وهو مجنون، فالصّوفي يسعى إلى تحرره من الإرادة البشرية فيه، ولما دخلت الصّوفية إلى الإسلام حاولت أن تجد لها الدّليل الإسلامي لبدعتها هذه، لتستخدمه في نشر أفكارها وشعارها، فكان مذهب الجبر هو خير معين على ذلك، وخاصة حين صار الجبريّة، وهم الأشاعرة، أئمّة المسلمين في عصور التّخلّف والانحطاط، والأشاعرة يقولون بمذهب الكسب، وهو يعني احترام وجود إرادة قلبية للإنسان لا تأثير لها ولا قيمة لوجودها، أي إرادة غير مؤثّرة.

صوفية دعاة التّصفية والتّربية:

دعاة التّصفية والتّربية، صوفية المنهج والطّريقة، وللطّرافة فإن هذا السّلفيّ الصّوفي سلفي مزعوم يلتقي مع الصّوفي في نقاط عمل كثيرة تجمع بين منهجيهما، ومن هذه النّقاط:

1 - الصّوفيّ شعاره: السّياسة تياسة (نسبة للتّيس وهو لفظ يطلق للدّلالة على الغباء)، والسّلفي المزعوم شعاره: من السّياسة ترك السّياسة (قالها السّلفي في بعض أشرطته)، فكلاهما يحرّم السّياسة على أتباعه، ويجعلها رجسا من عمل الشّيطان.

2 - الصّوفيّ شعاره: كلامنا إمّا فوق السّماء، وإما تحت الأرض، ويعني بها أنّ حديث الصوفي لا ينبغي أن يكون إلاّ في أمور الغيب (فوق السّماء: كالملائكة والعرش) وتحت الأرض (القبور والأموات)، وهو يدل على أنّه لا ينبغي للصّوفي أن يتحدّث في شؤون الأحياء

لأنّها تشتّت الهمّة، وتفرّق القلب، وتحبّب الحياة الدُّنيا، والسّلفي المزعوم شعاره ودينه محاربة الأموات من أصحاب القبور، وأتباع البدع المنسيّة الغائبة.

3 - شعار السّلفي المزعوم المعاصر: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله (قالها محمد شقرة، وهو سلفي مزعوم في كتابه "هي السّلفية")، والصوفي هو الّذي نشر في أمّتنا مقولة: قيصر ظلّ الله في الأرض، من أهان سلطان الله أهانه الله.

التّصوّر الصّحيح لمفهوم التّصفية والتّربية عند أهله وأصحابه،في حقيقته صورة جديدة للصّوفية في مفهومها للتّربية، وقبل أن نستعرض هذا المفهوم الخاطئ، علينا أن نتكلّم عن مفهوم التّربية في الطّرح السنيّ المهتدي، كما هو مفهوم من الكتاب والسنّة، ثمّ بعد ذلك نرى قرب الفهم الجديد لهذا المفهوم السنيّ المهتدي. التّربية في الكتاب والسنّة:

قال تعالى: {هو الذي بعث في الأمّيين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} الجمعة. فهذه الآيات ومثلها الّتي في البقرة (129) وآل عمران (164)، تدلّ على أن عنوان البعثة النّبوية تحقيق التّزكية في نفوس أتباع الشّريعة المهديّة، والتزكية هي التطهير، وهي البراءة من النّقائص واجتناب الرّذائل، ومجمل شريعة محمد مجموعة في الآية السّابقة وهي:

1 - تلاوة الحقّ على النّاس/ البلاغ.

2 - التّزكية / التطهير / التربية.

3 - تعليم الكتاب والسنّة / الفقه.

وقد علم الطالب المبتدئ في ديننا الحقّ أن الإسلام هو استماع الحقّ، ومعرفته والعمل به، أي: استماع- علم- عمل. وهي نفسها المذكورة في الآية تلاوة وتعليم وعمل. وقيام العلم في الإنسان دون العمل مذموم في الكتاب والسّنة، كذلك قيام العمل دون العلم مذموم في الكتاب والسنّة، وأدلة ذلك مبسوطة في كتب العلم.

فما هي التّزكية إذاً؟.

إنّها ممارسة الأمر.

ومعنى ذلك أن المتبع لهدي الإسلام هو مَن تربّى وتزكّى بامتثاله لأمر الله تعالى، ومثاله أنّ من أراد تربية نفسه وتزكيتها فعليه أن يطبق أمر الله تعالى، ومعلوم أن كلّ أمر له أثر تربوي خاصّ به، فللصّلاة أثر تربويّ لا يحدثه الصّيام، كما للصّيام أثر تربوي لا تحدثه الصّلاة، وللزّكاة أثر تربويّ لا يحدثه الصيام ولا الصّلاة، وهكذا.

فالتّربية تقع من الإنسان حين يمتثل أمر الله تعالى ويطبّقه في نفسه.

ما هو المفهوم البدعيّ للتّربية؟

التّربية في أذهان بعضهم مرحلة تسبق تطبيق الأمر. فالمرء يحتاج إلى فترة سابقة حتّى يصل إلى مرحلة ما (أختلف عليها) فيصبح بعد ذلك مربّياً ليستحقّ بعد ذلك الدّخول في الأمر الإلهي وتطبيقه.

وسئل بعض هؤلاء القوم عن الدّرجة التي يمكن لنا أن نسمّي عندها المسلم: مربّياً؟. فأجاب: لقد شغلني هذا السؤال كثيراً، وتساءلت مرارا: ما هي الحالة الّتي ينبغي أن نسعى إليها ونتوقّف عندها حتّى نَشْرع بالجهاد القتاليّ، فهُديت إليه. قال هذا السّلفي المزعوم (وهو "عدنان عرعور"): هو أن نصل إلى درجة ذلك الصّحابيّ الّذي قدم زوجته للآخر عن طيب نفس.ا.هـ. وهو يشير إلى هذه الحادثة المذكورة في صحيح البخاريّ بين المهاجر والأنصاري رضي الله عنهما !!. فهؤلاء كما ترون يطرحون التّربية كمرحلة تسبق تطبيق الأمر الإلهي، والحقّ الذي قدّمناه؛ أن التّربية هي تطبيق الأمر الإلهيّ نفسه.

ونلاحظ على هذه الطريقة من التّفكير النّقاط التّالية:

1 - أن هذا الخطاب المتقدّم يقرّ به على الإجمال أصحاب التّربية المعاصرة، فإنّهم يقولون إنّ مرحلة التّربية تتمّ عن طريق الأعمال الصّالحة من صلاة وصوم وذكر وقيام وأعمال صالحة أخرى، لكنّهم حين يكون الأمر متعلّق بالجهاد من اجل إقامة الحق الإلهيّ في الأرض، فإنّهم ينتكسون ويقولون إن على المسلمين أن يتربوا قبل أن يجاهدوا، والسّؤال الموجّه إليهم: لو قال لكم قائل: على المسلمين أن يتربّوا قبل أن يصلّوا، أو عليهم أن يتربّوا قبل أن يصوموا، فماذا سيكون الجواب ؟ قطعا سيقول السّامع: إنّ هذا الكلام يهرف به صاحبه ولا يعقل ما يقول،

لأنّ الصّلاة هي نفسها تربية، وكذلك الصّيام، وكذلك الزّكاة، وجميع الأعمال الصّالحة، فلماذا يختلف الأمر حين يكون الحديث عن الجهاد؟.

أليس الجهاد أعظم مسالك التّربية؟.

وهل الجهاد إلا مرحلة من مراحل إعداد المرء المؤمن لدخول الجنان يوم لقاء الله تعالى؟.

أليس في الجهاد فتنة للنّفوس لتتخلّص من حبّ الدّنيا ومن الأنانيّة؟.

أليس في الجهاد تحصيل لأعظم درجات التّوكّل واليقين على موعود الله تعالى؟.

وعلى هذا فالتّربية بتطبيق الأمر الإلهي بالجهاد وليست هي مرحلة تسبق الجهاد في سبيل الله تعالى.

وقد يقتنص بعضهم حادثة أو حوادث من ممارسات المجاهدين غير المنضبطة ليتّخذها ذريعة إلى قوله، فإنّه قد يقع بعض المجاهدين في بعض الأخطاء الشّرعية، وهذا أمر يقع في كلّ التّجمّعات (حتى التّجمّع من أجل صلاة الجماعة)، فيسارع هؤلاء إلى تضخيم الحدث، وتسويقه بين النّاس، وإشاعته عن المجاهدين حتّى ينفر النّاس منهم، وليدلّلوا بهذا الحدث أو الحوادث على صواب رأيهم أن الأمّة لم تبلغ بعدُ المرحلة الّتي ينبغي أن تجاهد عندها.

والجواب على هذه التّصوّرات الّتي يقع بها هؤلاء من وجوه، أهمّها:

أولاً: من المعلوم في علوم أهل السنّة أنه قد يجمع الرّجل الواحد إيماناً وضلالاً، صلاحاً وفساداً في آن واحد، لأنّ الإيمان عندنا يتجزّأ، وعلى هذا فقد يجتمع في الرّجل المسلم المجاهد بعض الصّفات المذمومة، وهذا واقع في كلّ أطوار البشرية وفي كلّ تجمّعاتها. فما هو السّبيل الحقّ في معالجة هذه الحالة؟.

أهل الانحراف من أصحاب مفهوم التّربية العصريّة يطرحون الأسلوب التّالي: ينبغي على الشّخص أن يترك الجهاد (الخير) حتى يتخلّص من الشّر.

وعلى قاعدتهم هذه، فإنّ من جمع ضلالاً وصلاحاً فالواجب عليه أن يترك الصّلاح فيه حتى يذهب الباطل فيه؟!!، وهو قول يردّه العاقل حين تصوّره له.

وأمّا الحكم الشّرعي في هذه الواقعة: فهو تثبيت الحقّ لديه ودعمه وتجذيره، مع محاولة تقويمه وإرشاده بالإقلاع عن الباطل الذي لديه.

ثانياً: لو أردنا أن نقتنص السيّئات في هذه التّجمعات التي تزعم التّربية المعاصرة أو نعدّه عليهم لملأت الكراريس والدّفاتر، وحينئذٍ فسيّئاتهم تكون مضاعفة لأنّهم يزعمون التّربية بخلاف غيرهم.

ثالثاً: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((**كلّ ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون**))، وعصمة الأفراد والتجمّعات من الأخطاء لن تكون في هذه الدّنيا.

التّربية ليست مرحلة زمنيّة ثمّ تنتهي، بل هي تزكية للنّفس حتّى الممات، ولا تتوقّف عند حدٍّ معيّن كما هي في الدّين الصّوفي، فهؤلاء حين يتصوّرون إقامة الإسلام عن طريق تربية النّفس التي تسبق هذه الإقامة مخالفون لأبجديّات هذا الدّين العظيم.

أين هذا من دين الصّوفيّة؟.

قال الصوفي في تفسير قوله تعالى: {**واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين**}، قال: اليقين هو المعرفة وعلى هذا فإنّ الصّوفي يسمّى سالكاً مادام لم يصل إلى درجة اليقين، وهي عنده تعني الوصول للحظة الكشف والجذبة، كما هو عند السّلفي المزعوم: الوصول إلى درجة أن يقدّم المسلم زوجته لأخيه المسلم، وحين يصبح الصّوفيّ واصلاً فإنّه حينئذً يكون معرّضا للجذبات الإلهية (وهي في الحقيقة شيطانية)، بل وحينها تسقط عنه التّكاليف الإلهية، لأنّ الإنسان أُمِر بها حتى يصل درجة اليقين، وأمّا بعدها فلا.

فالصّوفي لا بدّ أن يسلك حتّى يصل، والسّلفي المزعوم يتربّى حتّى يصل، ونحن على العتبات ننتظر.

بعضهم كالدّكتور **صلاح الصّاوي** طوّر مفهوم التّربية الفاسد هذا فطبّقه على جانب التّحضير لحصول الغلبة والظّفر، فقال إنّه لا يجوز للجماعة المسلمة أن تشرع بقتال الطّوائف الحاكمة في بلادنا حتى تستكمل أدوات الغلبة والظّفر، وذهب بعضهم بعيدا حين قال: علينا أن لا نجاهد حتّى نجهّز كلّ شيء حتّى نصل إلى درجة تحضير الوزراء بحقائبهم على أبواب الوزارات (وينسب هذا القول **لمحمد سرور زين العابدين** وقد سُمِعت قريبا من هذه العبارات من بعض القريبين منه).

وجزماً هؤلاء يفكّرون بعقليّة أهل القمر، وليس بعقلية النّاس والبشر، وسيؤدي بهم قولهم هذا (الممتنع وجوده قدراً) إلى اليأس من العمل الجهادي وحصوله، وبالتّالي إلى شتم العنب (كما حصل للثّعلب حين عجز عن الوصول إلى العنب لعلوّه عن قدرته فذهب يشتمه).

أهـل الرأي - الأرآئيون

على الرّغم من أنّ هذا الوصف يطلق بتوسّع في كثير من الكتب على كل من اشتغل بالفقه، وأُثر عنه الفتوى (حتّى أن ابن قتيبة في كتابه المعارف ذكر الإمام مالك رحمه الله تعالى من أهل الرّأي)، إلا أننا نقصد بأهل الرّأي هنا: **من آثر عقله على نصّ رسول الله، فاستحسن قولاً أو مذهباً والنصّ بين يديه على خلافه.**

اعلم أخي في الله أن الكتاب والسنّة (بنصوصهما) تستوعب الزّمان والمكان، فلا يوجد واقعة أو حادثة إلاّ وفي النّصوص المعصومة ما يكشف لك أمرها بعينها وذاتها، فإنّ الله تعالى لم يبق للنّاس شيئا يحتاجونه إلا وكشفه لهم، وبيّن لهم أمره، علمه من علمه، وجهله من جهله. فالكتاب والسنّة هما دليلا الحقّ دون سواهما، وقد يظنّ البعض أن هذا القول نفي للإجماع والقياس، وليس الأمر كذلك، فكيف ذلك؟.

أمّا بالنّسبة للإجماع: فإن القول الحقيق بالقبول أنّ الإجماع يقسم إلى قسمين:

أ - إجماع قطعي: وهو ما يسمّى بالمعلوم من الدّين بالضرورة، وقد ضرب الإمام الشافعي في رسالته الأمثلة عليه، وهذا لا يجوز لمسلم مخالفته، وهو الّذي قيل فيه: مخالفته كفر، وهذا إجماع لا يقع إلاّ بنص، إذ لا يقع هذا الإجماع إلا وله أدلّة في الكتاب والسنّة، إلاّ ما ذكره الإمام الشّافعي عن مسألة القراض (المضاربة) والصّحيح أنّها داخلة في عموم النّصوص المحكمة المبيحة أمر المشاركة والتّجارة.

ب- إجماع ظنّي: وهو قول الفقيه: لا أعلم فيه خلافاً، وهو إجماع استقرائيّ، وقد رفض الإمام أحمد بن حنبل إطلاق اسم الإجماع عليه وهو المقصود بقوله: من ادّعى الإجماع فقد كذب، لعلّ الناس اختلفوا. ا. هـ.

وهذا إجماع متوهّم، وأغلبه منقوض، إن لم يكن كلّه. بل قد يكون المشهور خلافه، إذن فأمر الإجماع الحقيقي لا يقوم إلاّ على دليل، فعاد الأمر إلى الأصل.

أمّا بالنّسبة للقياس: فالمشتهر عند النّاس أمور عدّة خاطئة، وهي:

أولاً: قولهم إن القياس دليل شرعي، وهذا خطأ، والصّحيح أنّ القياس المصيب يكشف لك الحكم الشّرعي الّذي غاب (بنصه). والنّصّ يغيب عن الفقيه لسببين:

1 - لعدم معرفته له ابتداءً، كما غاب عن كثير من الصّحابة بعض الأحكام الشّرعية بنصوصها، وأمثلة ذلك كثيرة.

2 - لعدم معرفة المجتهد دلالة النّص، مع أنّه بين يديه، وذلك لسببين: إمّا لأمور تعود إلى نفس النّص، إذ أنّ دلالة النّصوص الشّرعية على الأحكام ليست على مرتبة واحدة، بل مراتب متعددة، أو لسبب يعود إلى نفس المجتهد، ككلال ذهنه، أو ضعفه في البحث والتّنقيب، لضعف بعض أدوات الاجتهاد لديه.

ثانياً: أن القياس يتم به الإلزام، وهذا خطأ، والصّحيح أنّه لا إلزام بالقياس.

إذا تبيّن لك هذا علمت أنّ القياس لا يذهب إليه لعدم وجود النّصّ في الحقيقة، ولكن لعدم معرفة المجتهد لهذا الدّليل (النّص).

وعلى هذا فإنّ القائل من أهل الأصول: إنّ الشّريعة - بنصوصها - لا تفي عشر الحوادث والوقائع هو قول واهم مخطئ، دفعه له عدم توسّعه في الإطلاع على كتب الحديث، ومعرفتها معرفة صحيحة.

لماذا يُردُّ النّص من قبل (الآرائي)؟:

أسباب الإعراض عن النّص من قبل المفكّر أو الفقيه عديدة (ونحن هنا نتكلّم عن الإسلاميين) أهمها:

1 - ظنّ المفكّر أو الفقيه أنّ النّص يخالف العقل، أو بعبارة بعض الفقهاء: هذا نصّ على خلاف القياس، وبعبارة أهل الكلام: تعارض العقل مع النّقل.

وقائلوا هذه العبارات يقعون في هذه الأخطاء الفاحشة لعدّة أسباب منها:

أن هؤلاء المفكّرين قد يغلب على ظنّهم صواب بعض القواعد العقلية الوافدة، ويجعلونها يقينيّة، فيلتفتون إلى النّصّ الشّرعي فيرونه مخالفاً، فينشأ لديهم هذا التصوّر الفاسد.

ومن أسباب هذه الأخطاء كذلك: عدم قدرة هؤلاء المفكّرين على التّمييز بين النّصّ الثابت والنّص الضّعيف، فيصبّون جام غضبهم على النّص الضعيف، وبه يتّهمون النّص بمخالفة العقل أو القياس.

2 - ظنّ المفكّر أو الفقيه تحقيق المصلحة بعيداً عن النّص:

وهؤلاء لمّا رأوا مجموع النّصوص داعية إلى اعتبار المقاصد والمآلات، ظنّوا أن تحقيق المآلات هي إصدار الحكم الشّرعي، ونكتفي هنا بإيراد المقصود الصحيح لقوله صلى الله عليه وسلم: ((لا ضرر ولا ضرار)).

اعلم أخي في الله أنّه لا يوجد حكم شرعي ثبت في الكتاب والسّنة إلا وهو بذاته يحقّق المصلحة للعباد في الحال والمآل، ثم اعلم أن المصالح تتعارض فلا بدّ من تقديم الأقوى على الأضعف، ولهذا لا يمكن معرفته عند تفاوت العقول إلاّ بالنّص، ثمّ اعلم أنّ المصلحة لا يمكن تحقّق حدوثها ومآلها إلاّ بالوعد المحمول داخل النّص.

هذه الأمور وغيرها الكثير ترشدك: أنّ العصمة للنّص وهي القادرة على معرفة الضّرر والضّرار، والعقل تتفاوت مراتبه وتقديراته فالإحالة عليه إحالة على غير ثابت.

3 - ظنّ المفكّر أو الفقيه عدم كفاية الثّبوت في ذات النّص كقول بعضهم: حديث الآحاد لا يفيد العلم، وهذا قول أهل الكلام. والتّفريق بين القطعيّ والظّنّي على هذه الصّور المعروضة حادثة لا تعرف عند الأوائل، وهي من إفرازات أهل الرّأي والكلام.

هذه الأسباب الظّاهرة (العقلية) التي يطرحها صاحب الرّأي لردّ النصّ المعصوم كافية عند أهل السنّة والجماعة لاعتبار الرّجل متأولاً مع أنّه مخطئ ولا شكّ.

لكن ماذا عن الأمور الباطنية؟ التي تدفع المفكّر أو الفقيه لردّ النّص المعصوم؟.

هناك أسباب نفسية عدّة تدفع المفكّر لهذا المسلك البدعي أهمّها:

أ - عدم الخلوص من أهواء النّفوس، لأنّ العبوديّة لله تعالى تعني تجرّد العبد من جميع أهوائه، وأعظم الأهواء في هذا الباب هو أن يعتبر الإنسان أنّ له قولاً ورأياً، وأنّه صاحب شخصيّة معتبرة، ينسب لها القول، ويشار إليها بالاعتبار والتقدير.

ب - محاولة تليين الإسلام وليّه ليوافق رغبة الإنسان وهواه، أو ليوافق الواقع، وهذا نراه في أغلب آرائيّة زماننا، فإنّهم لهزيمتهم النّفسيّة أمام استعلاء الكفر واستكباره في هذا الزّمان يعمدون إلى ليّ أعناق النّصوص لتوافق رغبات النّاس وأهوائهم، والشّيخ المصري محمّد الغزالي خير دليل على ذلك، وخاصّة كتابه "السنّة النّبويّة بين أهل الفقه وأهل الحديث"، فقد رأينا هذا الأزهري يشرح لقرّائه عجزه عن تقديم الحكم الشّرعي المستمدّ من قول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: ((لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة)).

فهو يقول: كيف نستطيع أن نقدّم الإسلام ومنه هذا الحديث لأهل بريطانيا مثلاً وقد استطاعوا أن يحقّقوا بعض مطامحهم، برئاسة "مارجريت تاتشر" ؟!.

فالنّتيجة عند هذا الشّيخ وأمثاله هي أن نضع أيدينا على هذا الحديث خجلاً منه (كما فعلت يهود بآيات الرّجم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم) وذلك من أجل أصحاب العيون الزرق من الإنجليز وغيرهم.

إن هذه الانهزامية في تقديم الإسلام الحقّ كما أراده الله لنا، سبب رئيسي تدفع هؤلاء القوم إلى الإعراض عن بعض النّصوص النّبوية، ودفع النّصوص له طرق كثيرة عند هؤلاء الآرائيين.

4 - عظم التكاليف الشّرعيّة، وكونها فتنة للنّاس، وعدم تحمل المرء على ترك عوائده، فرغباته النّفسية تدفعه إلى البحث عن المخرج من هذه التّكاليف.

ومن أمثلته تلك الصّورة المعروضة للجهاد من أجل تحقيق الحقّ الإلهيّ في الأرض، وما فيه من سوء للنّفوس المريضة، وما فيه من امتحان وفتنة للنّاس، فلو عرض لهذه النّفس مخرج آخر مع توهّمه أنّ فيه تحقيقاً لرغبات النّفس وأهوائها فإنّها تطير إلى هذا البديل الرّغيد.

اعلم أنّ هناك التفافاً يحصل من هؤلاء الآرائيين حول كثير من حقائق أهل العلم المتقدّمين، ومن أهمّ هذه الحقائق التي يتمّ الالتفاف حولها في هذا الزّمان الحقيقة التّالية:

من المعلوم أن إصدار حكم شرعي ما لواقعة ما، لا ينبغي أن يتمّ إلاّ باستكمال شروط وأدوات علمية تؤهل المرء لخوض مثل هذا المعترك، وهذه الشّروط التي اصطلح سلفنا الصالح على تسميتها: بشروط الاجتهاد، ومع أنّ عصور الانحطاط المتأخّرة قد أفرزت بعض الأقوال الهزيلة في موضوع الاجتهاد، مثل قول بعض أهل العلم: بإغلاق باب الاجتهاد، وأنّه لا يجوز بعد القرن الرّابع لأحدٍ أن يقول قولاً من اجتهاده، بل لا بدّ أن ينسب نفسه إلى إمام سابق، كأن يقول عن نفسه أنّه حنفيّ أو شافعيّ أو مالكي أو حنبليّ ومن أجل هذه البدعة المبيرة صار بعضهم يشدد في شروط الاجتهاد، ويضع عوائق في طريق أهل العلم ليمنعهم من إطلاق قدراتهم لتحصيل الحكم الشّرعيّ من مظانّه، ولأن كلّ فعل يؤدي إلى فعل مضادٍّ يعاكسه، فإنّ النتيجة القدرية لهذا القول الخاطئ هو ما حصل في بداية هذا القرن، وذلك عندما انطلق النّاس يبحثون في أنفسهم عن سبب انحطاطهم وتأخّرهم وهزيمتهم أمام أعدائهم، فكان ممّا اكتشفوه مبكّرا هذا الموضوع، فسارع النّاس بالنداء لتحرير العقل المسلم من أغلال التخلّف - ومنها إغلاق باب الاجتهاد - فتعالت الصّيحات في كلّ مكان تدعو إلى فتح هذا الباب، والولوج فيه بقوّة، وبدأ النّاس يمارسون اختيار الأحكام الشّرعية بأنفسهم من مصادرها، وحاول فريق آخر أن يحافظ على مكتسبات عصر الانحطاط وذلك بأن يمنع هذا الحادث الجديد، تحت دعوى أنّ اللامذهبية قنطرة إلى اللادينية، لأنهم رأوا أنّ الدّعوة إلى فتح باب الاجتهاد قد وافقت زمن انفلات النّاس من أحكام الشّريعة، وانتشار الإباحية الفكرية وهي التي تسمّى عند أئمّتنا القدماء بالزّندقة، وكذلك الإباحيّة السّلوكية مثل دعوات تحرّر المرأة، وميوعة الشّباب وتحرّرهم من أحكام الشّريعة.

ولكنّ هذه المواقف المضادّة من (المحافظين) كانت الأضعف صوتا ودليلاً ولم تفلح شيئاً أمام السّيل الهادر المنطلق من عقاله نحو الانفلات من التّقليد والمذهبيّة. ووجد بعض النّاس رغباتهم متحققة في هذه الدّعوة، فاستغلّوها بإخراجها عن طريقها الصّحيح وأخذوا بها إلى آفاق ومواقع كانت محرّمة حتّى في أزهى عصور الازدهار والتحرر من التقليد،

فبدأوا يمارسون الاجتهاد على الثّوابت واليقينيّات المستقرّة في دين الله تعالى، وكلّ هذا تحت دعوى الاجتهاد.

هؤلاء القوم هم أئمّة أهل الضّلال في هذا العصر، وهم يريدون أن يقلبوا صورة هذا الدين من الصّورة التي استقرّت عليها الشّريعة، إلى صورة أخرى تلائم واقعهم، وهو واقع بئيس ومنحط بلا شكّ، بل واقع مهزوم ولا يفرز إلا آراء الهزيمة، ويحاول بكلّ جهده إصباغ الشّرعيّة على هذه الهزيمة.

الفصل الثاني

الفقيه والسلطان والاجتهاد

"إن كان المرء العالم في كفاف من العيش، من وجه مرضي، فليحمد الله عز وجل، وليقنع به، وليعمل لدار القرار، ولا يسره الإكثار من أجحار وخرق يتركها عما قريب، أو تتركه" ابن حزم

المجتهد والمفكر:

من أجل استتمام الأمر على صورته الكاملة انطلق هؤلاء المنهزمون تحت شعارات عدة، وإلى مواقع عدة لخدمة هذا الانحراف: من هذه الشعارات التي استخدموها شعار (الفكر الإسلامي) و(المفكر الإسلامي) هذا الشعار بدأ استخدامه كبديل عن صورة "المجتهد" في اصطلاح أئمتنا.

مصطلح المجتهد يحمل في ذهن المسلم مجموعة من الشروط التي لا يقبل أن يتنازل عنها بسهولة، مع أننا نعترف أن كثيرا من هذه الشروط ليست صحيحة، لكن هذه الصورة على العموم لا تسمح للمدعي أن يلج إلى هذا المصطلح ويتلبس به بسهولة، ومما استغله أصحاب هذا الشعار، أن الفقه الإسلامي باعتباره مصطلحا، صار قاصرا في موضوعه على مجموعة من الأبحاث لا يتعداها، مثل العبادات والمعاملات، وهكذا فإنهم اقتصروا في اجتهاداتهم على هذه الأمور، فالفقيه الإسلامي في هذا العصر هو الذي يتكلم في شئون فقه الصلاة، وفقه الصوم، وفقه الزكاة، وفقه الحج، وأحكام الدماء والطهارة وما جرى على هذا المنوال، وأما المفكر الإسلامي فهو الذي يبحث فيما لا يدخل في اختصاص الفقيه الإسلامي (حسب قسمة عقلية الانحطاط المتأخرة). ومن هذه الأمور التي ولج فيها المفكر الإسلامي بقوة: مسائل السياسة الشرعية، فهو يتكلم عن الديمقراطية في الإسلام، والاشتراكية في الإسلام، والعدالة الاجتماعية في الإسلام، ونظام الحكم في الإسلام...الخ هذه القائمة الطويلة، وهذا المفكر بهذه اللعبة الغريبة سمح لنفسه أن يجتهد في أعظم مسائل الدين

والفقه، ولكن تحت دعوى أنه مفكر إسلامي، وليس فقيها أو مجتهدا، مع أنه في الواقع فقيه ومجتهد (ولكن ليس كل مجتهد مصيبا) وباستخدامه كلمة المفكر أسقطت عنه الكثير من المسدلات والعوائق التي ستقع لو أطلق على نفسه وصف الفقيه أو المجتهد، وحتى تتضح لك الصورة أكثر خذ هذا المثال: الشيخ المجتهد الفقيه راشد الغنوشي، (أظن أنك لن تستسيغ هذه الأوصاف لهذا الرجل، لكنها الحقيقة على كل حال)، ويقابله في الصورة الأخرى: المفكر الإسلامي عبد العزيز بن باز (أظن أنك لن تستسيغ هذا الوصف كذلك، لكنها الحقيقة على كل حال).

والسؤال: لماذا لم تستسغ هذه الأوصاف؟، رما هو الشيء الاجتهادي الذي يخوض فيه الأول ومحرم على الآخر؟. وما هو الشيء الاجتهادي الذي يخوض فيه الثاني ومحرم على الأول؟.

راشد الغنوشي: فقيه ومجتهد ولا شك، وهو يصول ويجول في أكثر مسائل الدين والعبادات تعقيدا، (ويغوص) حتى أذنيه في مسائل فقهية كان كبار الأئمة يتورعون عن الاقتراب منها. ولكن كيف استطاع تمرير أفكاره؟ وكيف استطاع إسقاط المسائلة عنه؟. إنه برفعه شعار: المفكر الإسلامي. فهو لا يتكلم في مسائل الصلاة والصوم والزكاة، ولكنه يتكلم في الفكر الإسلامي.

إن رفع شعار (الفكر الإسلامي) على هذه الصورة، وهذا المنوال لعبة ضلالية - قصد أصحابها أو لم يقصدوا - وهم به سمحوا لهذا الدين أن يصبح ألعوبة بيد الصبية، يلغون فيه كما يشاءون، وإلا فمن الذي سمح **لفهمي هويدي** أن يتكلم في عظائم الشريعة، ويقول فيها ما يحلو له ويسقط أحكام أهل الذمة من كتب الفقه؟.

ومن الذي سمح **لمحمد عمارة** أن يتكلم في عقائد المسلمين فيصلح منها البالي كعقائد المعتزلة ويرمي في المزبلة الحق والصواب؟.

ومن الذي سمح **لحسن الترابي** أن يجدد في أصول الفقه، ويجعل البرلمان الإسلامي صورة الإجماع التي لها الحق في نسخ الشريعة؟.

ومن الذي سمح **لجودت سعيد** أن يجعل مذهب ابن آدم الأول يلغي دين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ثم يتجرأ بعد ذلك بأن يجعل الحكم القدري (الواقع) هو الذي يفسر النصوص في وليس البيان العربي؟.

ومن الذي سمح لخالص جلبي أن يجعل مذهب **غاندي** أحب وأسلم من دين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

من الذي سمح لهذا الغثاء - من المفكرين - أن يقودوا الحركة الإسلامية ويصدروا الأحكام فيها.

أي فكر هذا؟. وما هي شروطه؟.

وما هي ضوابط الحكم عليه؟!.

أجيبونا يا أهل الرأي والفكر.

التحالف بين الفقيه (المتخلف) والمفكر (المتحرر):

لما بدأ الشباب المسلم يتساءل عن هذا الكم الهائل من المفكرين، وما هو السلطان الذي ملكوه ليتكلموا في دين الله كما يشاءون؟ وهل يحق لهؤلاء المفكرين أن يقودوا الحركة الإسلامية ويتهادوا بها بين خطر الحياة ودروبها؟ ولكن هذه الأسئلة وللأسف قد بدأت بعد أن تشرب الناس من الشباب المسلم أفكار هؤلاء القوم، واصطبغت عقليتهم بالصبغة التي يتحدث بها المفكر، وهي صيغ أقل ما يقال عنها أنها لا تحدث كما تحدث الشخوص المهتدية في القرآن الكريم، حيث فقد هذا التيار عبارات الشرع المحكمة، وتغيرت موازين الحكم والقضاء في رحم هذه العبارات، فبدل أن يتحدث الناس (الشباب المسلم) عن الجهاد، بدأوا يتكلمون عن الثورة، والكفاح السياسي، وبدل أن يلقوا على الناس عبارات: العبودية والعبادة صاروا يتحدثون عن الواجب الوطني، والحس القومي، والضرورة الاجتماعية، وبدل أن يستخدموا دوافع محبة الله، والخوف من الله، ورجاء الدار الآخرة، صار الحديث عن: مكتسبات الحركة، والأمن الاجتماعي، والأمن الغذائي، ووحدة

التراب، القومي، وبدل أن يتحدثوا عن حق الله المفقود بتطبيق شرعه وحدوده صار حديثهم عن الحرية الاجتماعية، والعدل الاجتماعي، والظلم، والدكتاتورية.

فهذه العبارات تبين فقدان الاقتداء بحركة الهداة والدعاة كما شرحها القرآن الكريم.

اقرأ هذا النموذج: "إن الحركة الإسلامية ليست حركة فئة معينة من الشعب، إنها ضمير الأمة المتحرك وأعماقها الثائرة، ومن ثم فهي ترفض مقولة الصراع الطبقي، وتعتبر أن الإسلام، والإسلام وحده قادر على إزالة كل ألوان المظالم والاستغلال داخل المجتمع، ولكن في مجتمع لا يطبق الإسلام حقيقة، تتولد الفوارق الطبقية والحركة عندئذ تجد نفسها في صف الفقراء والمضطهدين كما كان النبي عليه السلام يفعل إذ يرفض الأغنياء الجلوس مع الفقراء فينحاز إلى الفقراء بأمر من الله {**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد الحياة الدنيا**} ولقد استطاعت الحركة الإسلامية المعاصرة أن تحرر إلى حد ما الإسلام من الطبقة الحاكمة". انتهت العبارة عن كتاب مقالات لراشد الغنوشي التونسي، ومثلها: وما كان للإمام الخميني أن تلتحم القوى الشعبية في إيران وتسلمه قيادتها وتجن حتى الموت... وما كان له أن يطوي كل أحزاب المعارضة ورجال الدين فيدفعها مرة أمامه ويجرها أخرى لو لم تجسد حركته أمل الجماهير العريضة في التحرر والعدالة والعزة والاستقلال، وكذلك المودودي فقد رسم للشعب الباكستاني خطة الحرية والعزة والاستقلال، فاستجابت له الأمة.ا.هـ.

هذا الخطاب المصاغ له مشكاة لن تكون أبدا من مشكاة القرآن والسنة، حتى الآيات القرآنية التي يستشهد بها، لا تعود إلى المناط الذي سيقت من أجله، فالآية التي استشهد بها النموذج المتقدم لم ترد أبدا لبيان انحياز النبي صلى الله عليه وسلم إلى صف الفقراء ضد الأغنياء، بل انحياز النبي صلى الله عليه وسلم لصف {**الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**}.

فتكرار هذا النوع من الخطاب أفقد العبارات القرآنية والنبوية نضارتها وحضورها في نفسية الشاب المسلم المعاصر، فأين عبارات: الإيمان، والتوحيد، والكفر، والردة، والجهاد، والشيطان، والخير، والشر، والفسق، والذكر، والإنابة، والإخبات، والحب، والولاء،

والبراء، وغيرها من العبارات التي تحمل في داخلها المفاهيم الإسلامية كما تعامل معها السلف.

أصبح الشباب المسلم بعيدا كل البعد بسبب هؤلاء المفكرين (الآرائيين) عن هدي الكتاب والسنة، وقد اكتشف بعضهم فقدان هذا الخطاب الآرائي أثره على قطاع من الشباب، إذ بدأ الشباب ينفلت من حركة المفكرين المنحرفة، وصار يتوجه إلى ما يسمى بالكتب الصفراء، وأسباب هذا الاكتشاف، وعوامل تمنيته له جوانب كثيرة ليس هذا مجال ذكرها، لكني أستطيع أن أقول إن أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ثم كتب الشهيد سيد قطب كان لها الأثر القوي في هذا الاكتشاف وإحياء الخطاب الشرعي الصحيح الملائم للحق القرآني.

هذا الاكتشاف والتوجه الجديد بدأ يهز العروش النخرة من سلطان الآرائيين فكان لابد من معالجة هذا التوجه بما يناسبه، فتوجهت بسرعة حركات الرأي الضلالية إلى أصحاب إلا العمائم القديمة، لتقنين هذه الأفكار التي صدرت من الآرائيين في صورة فقهية، تناسب التوجه الجديد، فبدا أصحاب العمائم (الفقهاء) يفتشون في بطون الكتب الفقهية ليساندوا هؤلاء الآرائيين بأقوال الفقهاء القدماء:

المفكر ينفي حد الردة، يأتي الفقيه ليقول له إن حد الردة كان سياسة وليس تشريعا دائما، وإن شئت فاقرأ كتاب "الفروق" للإمام القرافي المالكي لترى الفرق بين فعل النبي صلى الله عليه وسلم كمشرع وفعله كقائد دولة وسياسي.

المفكر ينفي وجود أهل الذمة، وإن وجدت فهي تسمية لا تبعة عليها، فأهل الذمة لهم الحق في تولي السلطات، والمسلم يقتل بالكافر، فيسارع الفقيه إلى أقوال الفقهاء لتنجده.

المفكر ينفي الجهاد الهجومي (جهاد الطلب) فيسارع الفقيه إلى التدليل على رأي المفكر.

وهكذا اكتشفنا بقدرة قادر، أن ما يقوله هذا الغثاء من المفكرين الآرائيين لم يكن بدعا من القول، ولكن هناك من أئمتنا من قال به، حتى أن من فقهائنا القدماء من قال: بجواز الغناء، وجواز تولي المرأة القضاء والإمامة، بل وأعظم من ذلك، فلماذا العتب؟.

نعم لماذا العتب؟ وجاز للعقلاء حينئذ أن يقولوا: إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب.

اقرأ هذا التحالف: "ولقد راجت أنشطة (الفكر الإسلامي) في الآونة الأخيرة، رواجا كاد أن يحلها محل (العلوم الإسلامية)، تنبهت إلى هذه المشكلة ووقفت عندها طويلا، عندما قال لي الأخ الأستاذ جودت سعيد ذات يوم وكنا نتحدث عن الجهاد والعنف وحرية الفكر، في تواضع وصراحة نادرتين: إنني مقتنع فكريا بما أقول، ولكنني مفتقر إلى دعم قناعتي بالمؤيدات الفقهية التي يجب الاعتماد عليها. إن هذا الكلام بالإضافة إلى ما يشع فيه من روح التواضع والصدق مع الله، يلفت النظر إلى مشكلة كبرى في حياتنا الإسلامية اليوم، هي باختصار مشكلة إحلال الفكر الإسلامي محل العلم بحقائق الإسلام، والتزود من أحكامنا الفقهية، ومنذ ذلك اليوم أجمعت العزم على إخراج كتاب يتضمن بيان حقيقة الجهاد الإسلامي وأنواعه، وأهدافه وضوابطه، من خلال عرض الأحكام الفقهية المتفق عليها..." الخ. اهـ.

هذه العبارات الجميلة - وليس كل جميل نافع - مع ما فيها من توزيع عبارات المدح الممجوجة: بروح التواضع والصدق مع الله، تواضع وصراحة نادرتين، وكقوله عن جودت سعيد في مقام آخر من الكتاب أنه صاحب: صدق كبير وتحرق على الحق،... عبارات خزفية رقيقة يطلقها بوق كبير يتقن فن الصخب اسمه البوطي كقوله: "كبرى اليقينيات الكونية"، (وانتبه إلى كلمة: "كبرى" فإنها ضرورية) وكقوله: "أبحاث في القمة" (وانتبه إلى كلمة: "في القمة" فإنها ضرورية)، هذا الرجل هو الشيخ الفقيه المجدد الإمام الحجة، خاتمة المحققين، بقية السلف هو "محمد سعيد رمضان البوطي"، قال العبارات السابقة في كتابه الفريد الذي - لم يعتمد فيه على رؤية فكرية.. وإنما وضعت الموازين الفقهية التي لا مجال لرفضها، حكما عدلا يهدي إلى الحق، وينهي جدل الأفكار الذاتية المتعارضة - الكتاب الذي ختمه بقوله: إني أعيش - ولله الحمد - في وضع يجعلني أشد نفسي إلى الحكم الذي تؤيده دلائل الشرع والتقت عليه كلمة أئمة المسلمين.ا.هـ. وقال قبلها في الكتاب: لقد آن لنا أن نستيقن بأن انتصارنا على هؤلاء الغاصبين والمتحكمين بحقوقنا وديارنا رهن بعودة صادقة منا إلى الإسلام، عقيدة وخلقا وسلوكا، وقد أعلن ذلك الرئيس صراحة، مع الدلائل والمؤيدات لفريق من الصحفيين الأمريكيين. انتهى الإبداع.

جودت سعيد يفكر ومقتنع بما يفكر، ويستنجد لدعم فكره بالفقيه (صاحب اللفة): محمد سيد رمضان البوطي فيلبي الفقيه (آية الله على خلقه)، ويستشهد بالأدلة القاطعة من كلام الرئيس المؤمن، أمين الأمة في هذا الزمان - وهي أوصاف من البوطي - للرئيس حافظ الأسد.

يا الله: طف الكيل، وبلغ السيل الزبى، وإذا لم تستح فاصنع ما شئت (إلهي لا تحرمنا من الحياء).

لعلي نسيت أن أخبركم اسم الكتاب، إنه: "الجهاد في الإسلام، كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟، والضمير يعود في "نفهمه" و"نمارسه" إلى الحكومة السورية بقيادة حافظ الأسد.

هناك وصفة طبية مضحكة لعلها تنفعك وقت الضجر هي كتاب محمد الغزالي المصري: "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"، فهي تغني على مزمار المفكرين في المعهد العالي للفكر الإسلامي.

الفقيه والسلطان:

سدنة الحكام المرتدين وكهنتهم: أصحاب العمائم النخرة، والوجوه القبيحة، والفتاوى المدفوعة الثمن، مثلهم {**كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**}.

يحاول بعض السذج من المنتسبين للعلم والدين أن يستخدم بعض الأحاديث والآثار السلفية، في التنفير من الاقتراب من السلاطين وذلك بإنزالها على الواقع المعاصر، وهذا خطا قبيح فج، فإن الواقعتين بينهما من الاختلاف ما لا يمكن حمل الواحدة على الأخرى، فالسلاطين الذين تكلم الأئمة الأوائل عنهم، وحذروا من الاقتراب منهم، هم أولا وقبل كل شيء مسلمون، خلطوا عملا صالحا وآخر غير ذلك، لكنهم كانوا على الدوام بيضة الإسلام وحماته، ودرعه الذي دفعت به عوائد الحياة ومحن الزمن، وطوارق الأعداء، وكانوا على الدوام خاضعين لأحكام الملة، وقواعد الشريعة، ولم يألوا جهدا في إصابة الحق وتحريه.

فأين حكامنا من هؤلاء؟ !.

حكام هذا الزمن خرجوا من الإسلام من جميع أبوابه، فهم معرضون عن دين الله رادون لأحكامه مستهزئون بالدين وشرائعه وأهله، موالون لكل ملة سوى ملة الإسلام، فأي عمى هذا الذي أطبق على أعين الناس حتى جعلهم لا يكتشفون ردة حكامهم؟ فهل نستطيع أن نقول أن امتناع جمع من (السدنة) المنتسبين للعلم والفقه من تكفر هؤلاء الحكام بسبب شبه علمية؟.

إن الشبه العلمية التي يستحق أن تختلف حولها الأنظار والعقول، هي تلك الشبه الخفية الدقيقة، أما تلك التي يصطدم بها الأعشى، بل الأعمى لعظمها وكبرها، فلا تستحق أن تسمى شبها.

إن السبب الحقيقي لموقف هؤلاء (السدنة) في الحقيقة شهوات النفوس. إنها شهوة المال والمنصب، وخوف ذهاب الاسم من سلم الوظائف الحكومية. نعم إنها تنافس البلوغ لتحقيق الشهوات.

نستطيع أن نقول إن الطاغوت المعاصر قد استطاع بسط ألوهيته الباطلة على الأرض بعدة عمد وأركان، ومن هذه الأركان: صك الورق النقدي، ووثائق إثبات الشخصية ومنها وشقة السفر (جواز السفر)، والشهادات الدراسية.

هذه أهم مقومات الطاغوت المعاصر وبها استطاع أن يفرض سلطانه على الناس ويربط مجرى الحياة به ومن خلاله، فهو يستطيع أن يمنع ويعطي، وبإرادة واحدة منه يجعل الورقة المهينة التي لا قيمة لها ولا وزن ورقة نقد تحنى لها الرقاب وتذل لها النفوس وتكتسب قدرة خارقة لتحصيل المال والطعام والمسكن والملبس ورغد الحياة، وبها يصبح ربا مزيفا، يمن على هذا ويمنع هذا.

ومثلها كذلك وثائق إثبات الشخصية فمن خلالها يستطيع أن ينفي الإنسان من الحياة، ويجعه له أثرا بعد عين لا وجود له، ومن خلالها يستطيع أن يثبت نسبك لتلك البلد أو يسلبها منك، وبها تستطيع أن تتنقل بين البلاد، ومثلها الشهادة المدرسية (ولشرح هذه الأركان مواطن أخرى).

وفي سابقة غريبة لم تعهد في أمة من الأمم السابقة ربط الطاغوت المعاصر به حق اللقب العلمي، فهو يستطيع أن يجعل فلانا عالما، صيته يملأ الدنيا وعالم الناس، أو يغيبه في ظلمات الحياة، لا حس له ولا خبر، فأنت أخي المسلم لو سئلت عن أسماء علماء بلد ما فإنه سيتبادر إلى ذهنك فورا تلك الأسماء اللامعة ببريق تزيين إعلام الطاغوت لها، فهذا عالم من تلك البلد تعرفه أنت لأن الطاغوت أرادك أن تعرفه، فهو الذي جعله عضوا في هيئة كبار العلماء، وهو الذي أطلق عليه لقب مفتي البلد، وهو الذي جعله وزيرا للأوقاف، وهو الذي جعله قاضي القضاة، وهو الذي عينه إماما للمسلمين، وهو.. وهو.. إنه صناعة الطاغوت.

كان على الدوام شيخ الأزهر في مصر يتم انتخابه من قبل هيئة علماء تجتمع وتتداول فيما بينها عن أحق الناس بلقب شيخ الأزهر، ليوسد هذا المنصب العلمي إليه، أما الآن فشيخ الأزهر يعين من قبل الطاغوت، فبجرة قلم، وبنفخة طاغوتية غير مباركة يصبح المسخ الصغير شيخا للأزهر، تصدر عنه الفتاوى العلمية، والأبحاث الفقهية المميزة، ويتدافع ركب الجهل من الناس ليستقوا من معين علمه الذي لا ينضب، وكل ذلك لم يقع إلا لأن الطاغوت سلّك له طريق اللقب العلمي. ولأن الطاغوت لن يقبل من أتباعه إلا الخضوع والإذعان، والتأليه له، ولن يدخل في حاشيته إلا كل ساحر يزين له ملكه، ويدفع عنه عاديات الزمن، (وهذا شرط صحة لا تنازل عنه) فإن اللقب العلمي سيكون قاصرا على من تحقق فيه هذه الشروط.

فصار الناس لا يرون عالما إلا وهو سائر في ركب الطاغوت، ورجل من رجالاته، وسقطت من أعين الشباب المسلم قيمة العلم والعلماء، فصار جل هم الشباب شتم العلماء والتنفير منهم. والحق أن هؤلاء - كل من دخل في ركب الطاغوت - لا يستحق أن ينسب إلى العلم، وأهل العلم على الحقيقة هم من قاموا بحق العلم عليهم، وتبرءوا من الآلهة الباطلة، وعضوا على الحق وإن كان مرا. وهؤلاء - للأسف الشديد - لا يعرفون إلا من قبل من فتش عنهم، وبحث عنهم أشد البحث، وهم كثر بفضل الله تعالى، ولكن الطاغوت المعاصر سترهم عن أعين الناس، وغيبهم عن لقب العلم واسمه، فالواجب على

الشباب المسلم، أن يقتصر في طلبه للعلم، وفي سؤاله عن أمور دينه على هؤلاء العلماء الصادقين، المغيبين عن حياة البشر.

لقد جع كل طاغوت حوله مجموعة من السدنة الفقهاء، يستخدمهم في تمرير كفره، وتزيين حكمه، ويستغرب المرء حين يرى أن الجمع هو الجمع، والسدنة هم السدنة.

وهكذا فإن كل طاغوت له حاشية وسدنة، من المنتسبين إلى العلم يتخذهم كما يتخذ أحذيته، ويجمعهم في مؤتمر سنوي، حيث يقدم لهم، بعض الاحترام والتقدير، ويبارك جمعهم الخبيث بخطبة عصماء، يزينها ببعض الآيات والأحاديث، وبشيء من التعالم الغث يشرح لعلمائنا الأفاضل بعض أصول الدعوة الإسلامية، وطرق نشر الإسلام وتحسينه للناس، فيحضهم على الحكمة في الدعوة إلى الله ويرغبهم في مسايرة ركب الحضارة، ويشرح لهم ما فتح الشيطان عليه، وهم خشب مسندة، يبتسمون كالبلهاء ويهزون رؤوسهم، ويطلقون بين الفينة والأخرى عبارات الإعجاب، أو يشتد بهم الوجد فيصفقون طربا وتيها، وكأنهم أمام الخليفة الراشد أو مهدي آخر الزمان.

ولكن الطاغوت لا ينسى أن يشير بعصى التهديد كما أشار من قبل، بجزرة الترغيب، لأن هذا من أصول تربية القرود.

اقرأ هذا النموذج: "إن مما يشغل بالنا وبال كل مسلم غيور على إسلامه، حريص على صفائه وإيمانه، هو ما بدأ ينتشر في بعض الأوساط من انحراف عن مبادئ ديننا الحنيف، منحرفين بذلك عن الطريق القويم الذي لاعوج فيه... وإن إدراكنا العميق ووعينا الكامل بخطر الغزو الفكري الهادف إلى المس بقيمنا الروحية، وكياننا الأخلاقي القائم على مبادئ الإسلام، وتعاليمه الرشيدة، ليزيد من شعورنا بعبء المسئولية الملقاة على عاتقنا كأمير المؤمنين، وحامي حمى الملة والدين، في هذا البلد الأمين".ا.هـ. هذا جزء من رسالة الحسن الثاني إلى المؤتمر السابع لرابطة علماء المغرب.

وفي خطاب له. بمناسبة تأسيس المجلس العلمي الأعلى، والمجالس العلمية الإقليمية يحذرهم من التدخل في السياسة قائلا: "ليست دروسا للسياسة، حينما أقول السياسة، أقول

السياسة اليومية... إياكم والدخول فيما لا يعنيكم، فيما إذا ارتفع سعر الوقود أو سعر الدخان" ا.هـ.

وفي خطاب آخر له أمام جمع السدنة: "لا نغلق أندية، ولا نغلق مسابح، ولا نرجع إلى الوراء أبدا، أنا أتكلم فيما يخص العبادات، المعاملات، والسيرات لا تهمكم، لا تهمكم السيرة في الأزقة، والعربدة في الطريق، وغير الحشمة في الطريق".ا.هـ.

هذا الكلام يقال أمام السدنة، فلا يوجد قائم لله بحجة يثبت للشباب أن فيهم من يستحق أن يسمى "عالما". وإذا تكلمنا عنهم قالوا عنا: "هؤلاء قوم لا يحترمون العلماء، أو شباب متهور". نعم نحن لا نحترم السدنة، بل نتقرب إلى الله بكشفهم.

روى الإمام أحمد بسند حسن عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه ». فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتقدير العلماء واحترامهم، وعدم منعهم حقهم من التوقير، والستر ودفع الأذى عنهم، وكان علماء المسلمين على الدوام حماة الدين، وحفظة نصوصه ومفاهيمه، دفع الله بهم المحاولات المتكررة لتزوير معالمه، وطمس هديه، وهؤلاء العلماء لم يدخروا وسعا في القيام بحق الله عليهم، وحق العلم كذلك، وحتى لا نبتعد كثيرا في إصدار العمومات التي ما عادت تشفي غليلا، ولا تطب عليلا، فإنا سنسير معك أخي في الله في اكتشاف معالم الهدى الحقة، وصفات العلم والعالم في كلام الله تعالى وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي كلام السلف الصالح، لأن أدعياء العلم قد كثروا، وتغيرت موازين الناس في الحكم والقضاء، وصار إطلاق لفظ العالم ألعوبة لا ضابط له، وكذلك سلب صفة العالم من أهله ومستحقيه، وقبل أن نبين صفة أهل العلم والعلماء فإنا سنمر على مزالق أهل الجهل وموازينهم في هذا الباب، وهي مزالق قلما خلا منها فئة من الناس إلا من رحم الله تعالى، فمن أشهر هذه الموازين الخاطئة في تقييم الناس والحكم عليهم بالعلم والفقه:

أولا: إن مما طم وعم أن أغلب الناس - إلا من رحم الله تعالى - لم يعد يميز بين الخطيب المفوه، صاحب الصوت الجهوري، وبين العالم، ولأن الناس على الأغلب لا يترددون إلى

مساجدنا إلا يوم الجمعة، وأيام الدعوة إلى الندوات التي تسمى بالندوات الفكرية، ولأنهم كذلك ما عادت تشغلهم أحكام الدين وشرائعه بمقدار انشغالهم بسماع التحليلات السياسية، أو الأخبار والحكايات، وصار فرحهم يشتد، وغبطتهم تظهر بمقدار ما يرون ويسمعون من صوت عال، أو شتم لفلان وعلان، وهذا جر على الناس خراب أمزجتهم ورداءة أحكامهم على الأشياء والأفعال، فأعرض الناس عن الدراسات الهادئة، والأبحاث العلمية، والتقريرات الشرعية، وأقبلوا على هؤلاء القوم الذين يتقنون فن الصخب الهادر، والأصوات المرتفعة، وأعرضوا عمن يحملهم على العمل ويحضهم على الشريعة، ويبين أحكام الدين والفقه.

وعلى هذا صار أهل المنابر قسمان:

1 - أصحاب الطحن بلا طحين، والكلام الكثير بلا علم ولا فقه، بل هو بدل أن يدفع الناس إلى الكتاب والسنة، وبدل أن يزين خطبته بالعلم الحق - الكتاب والسنة - صار جريدة جديدة تسمى (جريدة المنبر)، فقبل أن يصعد المنبر يختار هذا الخطيب لنفسه خبرا صحفيا ويعلق عليه، وتروج تجارته، وتنفق بضاعته حين تنزل بالمسلمين نازلة، أو يكتشف مؤامرة وهمية سربت إليه، فحينئذ هذا أسبوع الفرح لأنه وجد لنفسه مادة دسمة لخطبته، وبها يستطيع أن يشد الآذان إليه، ومنها ينطلق إلى عالم النجومية والشهرة، هؤلاء على الجملة من أكثر الناس حذرا في إطلاق الأحكام الشرعية المحددة، بل كلامهم دائما في العمومات، التي لا يستطيع الناس بها أن يلزموهم بموقف يؤخذ عليهم، فهؤلاء القوم هم أهل العلم عند بعضهم.

2 - لما رأى بعض طلبة العلم فساد أمزجة الناس بسبب القسم الأول من الخطباء، ثم إعراض الناس عن الفقه والعلم، ورأوا أن الحديث في المنابر صار على صورة جريدة أسبوعية، هالهم هذا الأمر ودفعهم إلى موقف مضاد، ومختلف مع الأول في كل شيء، هذا الموقف هو: عدم الكلام إلا فيما يخص الفرد المسلم، أي: فيما يجهل من أحكام الدين والفقه العامة، فهو يأبى أن يتحدث إلا في بر الوالدين، وآداب الزيارة الشرعية، أو أحكام

العقيقة وبدعة صوم النصف من شعبان، وقد يتقدم قليلا فيحدث الناس عن الأوائل وفتوحات الآباء، وزمن العزة، وهكذا.

ولم يعد المسلم العادي إلا ألعوبة بين هذا وهذا، وعامة الخطباء يتجنبون البحث والكلام في الأحكام الشرعية التي تلزم المسلم بموقف محدد من أحداث معاصرة عم بلاؤها الصغير والكبير، وربي عليها المسلمون حتى صارت جزءا من حياتهم، فمن القليل النادر أن تجد الخطيب الذي يقدم للناس الأحكام الشرعية التي تلزمهم بموقف محدد من نوازل الحياة العامة، أو التي تدفعهم إلى حركة شرعية منضبطة، فأين الحديث عن حكم المبدلين لشرع الله؟ وأين الحديث عن وجوب جهادهم قبل جهاد الكفار الأصليين؟ وأين الحديث عن عدم جواز الدخول في وظائف طائفة الردة كالدخول في البرلمانات أو الشرطة؟.

نعم يوجد ممن ملأ الدنيا جعجعة بوجوب تحكيم الإسلام، أنه هو الحل، نعم يوجد الآلاف من هؤلاء، لكنا كنا نتمنى ألا يتكلم هؤلاء المخادعون لأنهم تحدثوا عن وجوب تحكيم الشريعة، وصرخوا بملء أفواههم بذلك أمام الناس، لكنهم دخلوا في وزارات الحكم بغير ما أنزل الله من باب آخر، وقالوا للناس عن وجوب الشورى وتحدثوا عنها حتى بحت أصواتهم، لكنهم صاروا عمدا في المجالس الشركية، فاهتزت هذه المفاهيم في أذهان الناس وعقولهم، وإلا فكيف نستطيع أن نقنع المسلم العامي أن الحكم بغير ما أنزل الله وأن استبدال شريعة الرحمن بشريعة كفرية هو كفر بالله العظيم، وموالاة أهلها كفر وردة، وهم يرون الذي يتحدثون أمام الناس ويثيرون عواطفهم لتأييدهم هم الذين يظهرون في التلفزيون ويتحدثون أمام هؤلاء الحكام وبطانتهم بالأدب والتوقير، ويقولون لهم: نحن معكم في كل كلمة قلتموها.

على المنابر تعريض وقدح وذم وفي الخلف تأييد ونصر وموالاة.

هذه الصور وأمثالها أسقطت من حس الناس قيمة هؤلاء الخطباء، واهتزت الثقة بهم مع أن الطامة الكبرى وهي الأهم: ضياع مفاهيم الإسلام وأحكامه الواضحة من أذهان الناس وعقولهم.

لكن علينا أن لا ننسى أن قوما من الخطباء ما زالوا يعيشون خارج واقعهم ويفكرون بالمعارك الفائتة، ويتصورون أنفسهم في زمن محنة خلق القرآن، أو في زمن الخصومة بين الأشاعرة والحنابلة، فهذا خطيب من خطباء المسجد المكي وقت أزمة الخليج حين سلط الله حبيب الكويت على أهل الكويت، وجاءت قوات الصليب لترد قوات المرتدين، وانقسم الناس بطريقة غثائية إلى مواقف ما أنزل الله بها من سلطان، وكان أهل الشام على الجملة، وخاصة غثاء أهل الأردن وفلسطين، قد شايعوا صدام وحلموا به أنه المنقذ وشبهوه بصلاح الدين، ودارت بهم سماديرهم حتى رأوا صورته في القمر، وصارت المساجد بخطبائها موقد فتنة، ومصدر شر، وكان في الجهة المقابلة لهم أهل الخليج والجزيرة، حين حلفوا برأس بوش تأليها له وتقديسا، وأعلن الشيخ الإمام أبو بكر الجزائري قائلا: "جزى الله أمريكا خيرا"، وصار الأمريكي والإنجليزي الكافر أحب إليهم من بني جلدتهم المسلم في تلك الفتنة العمياء، يقوم خطيب المسجد المكي ليفسر للناس واقع المعركة فيقول: "ماذا ينقم علينا أهل الشام، أينقمون علينا أننا أهل توحيد؟ وأننا أصحاب العقيدة الصحيحة؟". اهـ. فأهل الشام ومعهم أهل العراق في ذهن الخطيب الإمام، هم أهل البدع، لأنهم صوفية أشاعرة، وأهل الجزيرة موحدون حنابلة، ولذلك لم يقم صدام بغزو الكويت ولا التحضير لغزو الجزيرة إلا للقضاء على المذهب الوهابي!! ونشر الطرق الصوفية والعقيدة الأشعرية!.

ثانيا: وإن من الموازين الخاطئة في مدح البعض، وإطلاق اسم العلماء وصفة العلم عليهم، ظن الجاهل أنه بمقدار تفرغ المرء عن أخبار الحياة، وبعده عن أحداثها، وتوحده، وعزلته، وانشغاله ببطون الكتب. يعيش معها وبها، يكون العالم عالما حقا، وإماما يقتدى به، فالمرء يأخذه العجب حين يرى أحدهم يسوق عن شيخه، أو إمامه أو محبوبه، على جهة المدح والتعظيم أن شيخنا - بفضل الله تعالى - بعيد كل البعد عن الدنيا، فهو - رضي الله عنه - لا يجد الوقت لسماع أخبار الحياة، و لم تدخل الجريدة يوما بيته، بل هو - حفظه الله ورعاه - لا يقتني جهاز مذياع، بل جل وقته في طلب العلم، وفي تعليم طلبة العلم.

ثم يأخذه العجب ويشتد به الوجد فيسوق لك الأخبار تلو الأخبار في إعراض شيخه عن معرفة ما يدور حوله، فشيخنا -حفظه الله تعالى -، إذا حاول بعضهم أن يذكر شيئا من أمور السياسة، وأخبار السياسيين، تجهم، وتغير وجهه، وتكلم معه بكلام بليغ، وذكر هذا (الآبق) أن طالب العلم عليه أن يصرف كل وقته للعلم، فهو يستشهد دوما بمقولة السلف: "إذا أعطى الرجل كل وقته للعلم، أعطاه العلم بعضه".

وهكذا تدور هذه الكلمات على ألسنتهم، ويظنون أنهم بهذا قدموا صورة جميلة عن شيخهم، وهم في الحقيقة لم يزيدوا سوى أن عرفوا الناس: أن شيخهم هذا هو من أجهل خلق الله، وأن شيخهم هذا يجب أن يحجر عليه فلا يسأل، ولا يستفتى، لأن من شرط المفتي أن يكون بصيرا بحال أهل زمنه، عالما بمداخل الحياة وسبلها، وإلا فما هو هذا العلم الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم؟ ولم جاء العلم؟.

أجاء العلم ليكون حبيس السراديب؟.

أم ليتمتع به بعضهم في خلواته؟.

ومن غرائب هؤلاء الشيوخ وعجائبهم وكذلك من غرائب تلامذتهم أنهم إذا سئلوا عن الأمور العظيمة في الحياة لم يتورعوا أبدا عن الخوض فيها بألسنتهم الطويلة، وتكلموا فيها وهم لا يدرون شيئا، وخاضوا فيها وهم من أبعد الناس عنها فهما ومعرفة.

الخلط بين السياسي والمجاهد والفقيه:

على ضوء هذا التفكير المنحط، وهذا السلوك الجاهل، ظهرت في عالم المسلمين ثنائيات لم تكن معروفة لدى الأوائل، وقد حاول بعضهم بشيء من التعالم الغث أن يجعل هذا من وضع الاختصاص المعاصر الذي لا بد منه، مع أن هذا الاختصاص إذا وقع فقد كل طرف ما حمل من خصوصيات.

هذه الثنائيات هي:

أولا: التفريق بين السياسي والفقيه: فالسياسي عند الناس هو البصير بأمور الحياة، القادر على تفسير أحداثها، وهو من يستشار ويسأل عن تفسير الكونيات والوقائع، وهو كذلك

من له حق قيادة الحياة ورعاية شؤونها، وهذا من خلال ما أعطي من قدرات سياسية، وأما الفقيه فهو حبيس الكتّاب ولا يسأل إلا فيما يخص الغيب، فالسياسي له عالم الشهادة، والفقيه له عالم الغيب، وهذه ثنائية باطلة لم تكن معروفة لدى الأوائل، بل إن كلمة الفقه لا تقع إلا إذا اجتمع أمران:

1 - إدراك الحياة على ما هي عليه، ومعرفة أحداثها، وهذا من أعظم الفقه، فإن الله تعالى قال: {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون} العنكبوت، فالعالم هو من فسر الأمور على طريقة سننية لها تمام الوضوح في عالم الشهادة، ولا تغيب عنه الآخرة، فهو الجامع بينهما.

وإن من طامات مشايخنا في كلامهم على وقائع حياتنا أنهم يعتمدون على مبدأ الكشف الصوفي، ولا ينسون أن يفتح الله عليهم بالفهم في تفسير الأحداث، وهذا كله باطل من القول وزورا فإن معرفة المرء للحدث لا تقع على وجهها الصحيح إلا إذا درسه دراسة عقلية سننية، ونظهر إليه كما هو في عالم الشهادة، فحينئذ ينطق إلى الأمر الآخر وهو:

2 - معرفة حكم الله في هذه الواقعة، أي يأتي بعد ذلك الحكم الشرعي، ولا يمكن لأحد أن يطلق حكما شرعيا صحيحا إلا إذا فهم الواقع فهما صحيحا، فالخلق أولا، ثم الشرع، قال تعالى: {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} الأعراف. وبعد أن يدرك تطابق الخلق والأمر لابد أن تصدر منه كلمات التسبيح والتعظيم والتقديس، فيزداد يقينا بحكمة الخالق، وتترسخ مبادئه في حكمة الشريعة. حينئذ تخرج منه {تبارك الله رب العالمين}.

فلو أننا قلنا إن السياسي هو من أدرك الأمر الأول فقط (عالم الشهادة) وغاب عنه الأمر الثاني (معرفة حكم الله فيه) فإن هذا لن يكون سياسيا مسلما، وستنطلق رؤاه في التعامل مع الأمور على مبدأ المنفعة التي ليس لها ضابط سوى النظر إلى الفردية الذاتية، أو الشهوة التي يعود مآلها إلى فساد الحياة، وإذا قلنا إن الفقيه هو من أدرك الحكم الشرعي دون معرفته بوقائع الحياة على ما هي عليه فسيكون علمه هذا حبيس ذهنه وعقله، وليس له من أمر الحياة شيء، حينئذ سيقتصر دوره على الوعظ الكنسي الذي يحتاجه الناس يوما في الأسبوع لتخرج منهم زفرات الضيق ارتقابا بانتهاء غثائية الشيخ.

وعلى هذا فإن الفقيه لن يكون فقيها في ديننا ولا يسمى فقيها وعالما إلا إذا كان سياسيا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ووقع على النفوس، وعلى الشباب المسلم أن يسقط من حسه ومن احترامه من يقول: إن من السياسة ترك السياسة، لأنه حين يكون كذلك، أي حين لا يكون سياسيا لن يكون فقيها بل يكون شيخ جهل وتجهيل، وعلى مثل هؤلاء الشيوخ الجهلة يعتمد الطاغوت في إمرار باطله على الناس، وفي إصباغ الشرعية على نفسه، فشيوخنا كمخدرات البيوت، يلقون على أنفسهم الحجاب، ويرفع حجابهم عندما يبدأ مسرح الدجل أمام الطاغوت، ليقرأ عليهم نصوص الحكمة ليدلل لهم على أنه الوفي للإسلام وأهله، وإلا ففسروا لنا ماذا نسمى هذا القطيع البهيمي الذي يتحلق حول الطاغوت وقد زين الرؤوس بعمائم خربة، ولم ينس أن يطلق شعرات الخديعة على لحيته (ولعله نسى أن يحلقها في ذلك اليوم لاضطرابه)، ثم يخرج من عنده وهو يمدح ويثني ويقسم الأيمان المغلظة على أن حاكمنا هو ولي الأمر الشرعي الذي يجب طاعته.

أهكذا يصنع الفقه بأهله؟.

أم هكذا يكون العلماء؟.

أم أن الفقيه كل الفقه هو عمر بن الخطاب حين يقول: "لست بالخب ولا الخب يخدعني"، وكذلك صاحبه حذيفة حين يقول: "كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن الخير وكنت أساله عن الشر مخافة أن يدركني".

من هو الفقيه والعالم في ديننا؟.

أهذه النماذج الجاهلة التي تعيش في عصرنا أم أولئك الذين سادوا الدنيا وحكموا الوجود؟.

إن هؤلاء الجهلة الذين لا يدرون عن الحياة وما يدور فيها، ولا يسمعون تصريحات قادتهم أمام الأعداء، ولا يعرفون شيئا عما يقال عن حركة دولهم وإلى أين تسير، هؤلاء من العار على أهل ديننا بمكان، وإنه مما يخجل منه أن يكونوا هم العلماء، ولو رضينا أن نطلق عليهم وصف العلم والفقه لكان هذا شتما وقذفا لديننا، لأننا علمنا الناس أن عالم هذا الدين، وفقيه هذه الشريعة جاهل بالحياة، غبي بالزمن، ومن أجل ذلك لأن نشتم هؤلاء القوم ونخرجهم

من زمرة العلماء، خير وألف خير من أن نصبغ في أذهان الناس صورة قذرة عن الفقيه المسلم.

ثانيا: التفريق بين المقاتل والفقيه: كنت أعجب زمنا طويلا، لماذا يلبس هؤلاء الشيوخ هذا الزي الكهنوتي، طربوش على الرأس (ثقيل نوعا ما)، طيلسان (رداء فضفاض)، له أكمام تتسع لقطة أبي هريرة رضي الله عنه كما يزعمون، لكني أدركت الآن شيئا من سر هذا اللباس المقرف، ولعل من أسباب ذلك أن ينطبع في أذهان الناس وقبل ذلك في أذهان أصحاب هذا اللباس أنهم لا يصلحون لشيء سوى الكلام.

فدور مشايخنا محصور فقط في الكلمة، ومن المستهجن الغريب أن يكون الشيخ قائدا عسكريا، أو مقاتلا شديدا، فهذا محمد الغزالي يعلن بكل صراحة غريبة: أنه لا يطيق رؤية دم دجاجة وهي تذبح، لكنه قطعا يفرح هو وإخوانه المشايخ في رؤية الدجاج على مائدة الطعام.

هذه الصورة المنكوسة للشيوخ جعلت الشباب يتساءلون: لماذا خلا تاريخنا من العلماء المقاتلين؟ وشبابنا على الجملة يحترمون شيخ الإسلام "ابن تيمية" - رحمه الله تعالى - لأنهم رأوا فيه صورة العالم الفقيه المقاتل، وظنوا أنه لا يوجد له مثال وشبيه، وهذا خطأ فإن من القليل النادر أن تجد عالما من علمائنا الأوائل إلا وهو مقاتل من الدرجة الأولى، بل إن بعضهم كان في مرتبة القيادة العسكرية، مثل **أسد بن الفرات**، وإن الكثير من أئمة الحديث قد صنفوا كتبهم، وعقدوا مجالس التحديث في الأربطة القتالية، على ثغور المسلمين.

ومثل هذه الثنائيات الباطلة، التفريق بين الإداري والفقيه، والقائد والفقيه، وغير ذلك مما أعطت صورة غثائية عن الفقيه المسلم.

الاجتهاد والتقليد:

لقد حرصت الشريعة على لسان مبلغها الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحذير الشديد الواضح من الوقوع في المثال الخطأ عن صورة الشريعة والدين، ذلك لأن الناس

بحاجة دوما في فهمهم لفكرة ما، أو لموضوع معين أن يتمثل هذا الموضوع، وأن تشخص هذه الفكرة بصورة عملية أمامهم، ليشدهم هذا المثال وهذا التشخيص إلى التطبيق العملي، وليقرب لأذهانهم حقيقة هذه الفكرة، فإن الناس وإن اختلفت عقولهم في تفسير شيء عرض عن طريق البيان، وتعددت نظراتهم في تحديد المراد منه لاتساع معاني البيان الواحد، إلا أنهم لن يخطئوا في تفسير هذا البيان حين يتمثل أمامهم بصورة عملية واقعية، ولذلك كانت السنة بتفصيلاتها البيانية والعملية في شخص النبي صلى الله عليه وسلم وفي حياة الصحابة كواقع عملي قرر من قبل النبي صلى الله عليه وسلم كانت قاضية على الكتاب البياني المجرد كما قال الكثير من أئمة العلم والدين.

ولما كانت الصورة عادة تقل في وضوحها عن الحقيقة، والمقتدي لا يبلغ درجة المقتدى به إذا كانت صورة الاقتداء تتم فقط عن طريق الأسوة العملية دون الرجوع المرة تلو المرة إلى الحقيقة كما عرضت في أول مرة، فإنه ولا بد أن يتم التشويه والتحوير في كل مرحلة من مراحل تطبيق الفكرة، وهذا واقع مع أي فكرة وأي مثال، والتاريخ الإسلامي مع الإسلام كان نموذجا حيا لهذا المثال، مع أن الإسلام حذر من هذا الخط البياني النازل على مدار التاريخ الإنساني، إلا أن هذه الأمة لم تخرم -للأسف - هذه السنة، على الرغم أنها سنة سيئة ولا شك. ولنقل أنها لم تخرمها بضابطين:

أولهما: إلى الآن، فالبشائر النبوية تعلمنا أن هذا الخط النازل في تطبيق المثال سيعود إلى الصعود في آخر الزمان، "ثم تكون خلافة على منهاج النبوة". لكن هذا المثال. وللأسف مرة أخرى. لن يكون إلا بمثابة الإفاقة الأخيرة والنهائية لهذا الوجود، وهي بمقدار إفاقة من كان في النزع الأخير.

ثانيهما: أن هذا النزول في مجموع الفكرة ومجموع الأمة، وإلا فإن التوقف في النزول حينا أو الصعود حينا يكون مرة في جزئية الفكرة أو جزئية الأمة.

والإسلام حذر من هذه السنة، وهي اتخاذ الأسوة عن طريق المثال بعد غياب الحقيقة أو ما قاربها في القرون الأولى، وشدد على العودة دوما إلى الحقيقة البيانية مع حقيقة التطبيق الأولى، واعتبر أي نزول في المثال انحراف عن جادة الصواب، وابتعاد عن الحقيقة.

ومن هذه التحذيرات الواضحة وهي كثيرة قوله صلى الله عليه وسلم:

1 - ((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)). وفي رواية: "خير الناس قرني، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم يجيء قوم لا خير فيهم". وهذا الحديث وإن كان بصيغة الخبر، إلا أنه يحمل في طياته أمرا توجيهيا وتحذيريا، توجيهيا للمسلم بمن يقتدي، وتحذيريا للمسلم ممن يتقي.

والحديث نموذج للتحذير الذي قدمناه وهو أنه بعد القرن الثالث (الجيل الثالث)، ينبغي على المسلم أن تتوقف لديه صورة الامتثال والاقتداء عن طريق الأسوة العملية، لأنها لن تكون واضحة في شرح الفكرة ولا هي واضحة في تمثلها، والأخذ بهذه الصور الحادثة تعطي عن الفكرة صورة ناقصة أو مشوهة فحينئذ لا بد من العودة إلى الأصل وهو يساوي البيان مضافا إلى النموذج الأول.

2 - "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة". وبعيدا عن خلاف السلف. عليهم رحمة الله. في قيمة قول الصحابي إلا أن السنة التشريعية بإجماع أهل الملة قاصرة على النبي صلى الله عليه وسلم لا يشركه فيها أحد، أما السنة التي يقتدى بها فمما لا شك فيه أن النموذج القدوة للسنة التشريعية هم الخلفاء الراشدون، وهو نموذج قاصر عليهم وعلى المسلم أن لا يتعداه في تمثيل البيان عن طريق قدوة ومثال مهما بلغت درجة هذا الآخر، وفي الحديث إشارة إلى الحوادث المهلكة في إنزال مرتبة القدوة حين قال: "وإياكم ومحدثات الأمور"، فالصورة العملية صورة حادثة، ولا شك أنها بمجموعها ستحوي بعض التشويه والنقص، فمن أراد الفوز فليرجع إلى: البيان مضافا إلى النموذج الأول.

وهناك بعض العوارض في أذهان بعضهم تقدح في هذا الأمر، وتسمح بجعل المرتبة المتأخرة نموذجا للقدوة، وقبل أن نتكلم على الأدلة الموضوعية التي يسوقها هؤلاء القوم، أعلم أن بواعث هؤلاء البعض في إنزال مرتبة النموذج بواعث نفسية، وأهم هذه البواعث فقدان روح التمرد، والرغبة في التقليد المريح الذي يسقط عن المسلم الكسول الخامل تبعة المساءلة الأخروية، وتبعة ثمن التضحية في مخالفة عوائد الناس وإيلافهم. وهؤلاء وإن

رفضوا مقولة العوام: "قلدها لعالم فتخرج سالم". إلا أنهم في الحقيقة يعيشونها شعورا حاضرا لا يغيب عن أذهانهم، وهؤلاء أبعد الناس عن الدخول في زمرة التجديد والإحياء، أو الولوج إلى شعار تصفية الحق من دخن العقول والأهواء.

والآن ما هي أدلة هؤلاء القوم؟:

أدلة هؤلاء القوم تقسم إلى قسمين، قسم فرضته عوائد العلماء كما يزعمون، وقسم نصي يسترشد به في دعم الفكرة، وليس في تأصيلها.

القسم الأول: جامع لجراميز أدلتهم وهو قولهم: إن العلماء على الدوام رفضوا اسم العلم أن يلتصق بفرد أو جماعة أخذت علمها من مصدر البيان مباشرة، بل لا بد من أفواه العلماء، والجلوس على الركب أمامهم، وهذا يدل على أن تواصل العلم عن طريق الرجال، مشافهة، ولا شيء في ذلك.

وقولهم هذا لا يعدو أن يكون حيدة عن موضوع البحث، لأن هذا القول هو في البداية حجة تراثية، والخصومة حولها وعليها، والاختلاف يدور حول حجية التراث والتاريخ، والأمر الآخر هو أن هذا الذي قيل وجد في السنة ما ينقضه ويبدده، خاصة حين يصبح ويصير لكل طائفة رجالا، تتخذهم الطائفة قدوة وأئمة، وتزعم أن مجرى الهدى على محياهم، ومنبع النور من أفواههم، فلا بد من قطع علائق الفتن بالعودة إلى الأصل وهو: البيان مضافا إلى النموذج الأول.

والسنة التي مدحت العودة إلى الورق دون النظر إلى الشخوص والمثل هي القاطعة لحجة هذا الفريق، هذه السنة هي قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوما: ((أي الخلق أعجب إليكم إيمانا؟. قالوا: الملائكة، قال: وكيف لا يؤمنون وهم عند ربهم؟. قالوا: الأنبياء، قال: وكيف لا يؤمنون وهم يأتيهم الوحي؟. قالوا: نحن، فقال: وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟. قالوا: فمن يا رسول الله؟. قال: قوم يأتون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بها)).

وفي بعض ألفاظه: ((بل قوم من بعدكم، يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به، ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرا)).

وفي لفظ آخر: ((يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانا)).[1]

فالحديث بوضوحه يمدح أخذ العلم عن طريق الورق المعلق، بل جعل هؤلاء القوم هم أعظم الناس أجرا، وأفضل أهل الإيمان إيمانا، وهذا يدل على أن العصمة عند اختلاف الزمان، وسقوط النماذج الفاسدة الحاملة لاسم العلم والعلماء زورا وبهتانا، هو العودة إلى الورق، ولن يضر هؤلاء (المتمردين) قول فلان وعلان، ورأي زيد وعمرو فإنه لا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل أو عجز أو غرض فاسد كما قال ابن تيمية، وهذا الطريق، وهو أخذ العلم عن طريق الورق المعلق - وهو طريق شرعي - هو الذي يمنع زلة العالم من أن تقفز إلى ذهن التابع فتستقر تحت اسم العصمة والدين.

والقصد من الوسائل دوما تحقيق المقاصد، والانشغال بالوسائل دون النظر إلى المقاصد هو سبيل أهل العي والضعف، والأصل في دلك كله، ومقصد الطلب تحصيل الحق أبلجا كما هو، فحرص الأوائل على حفظ هذا الأصل دفعهم لوضع شروط حول هذا الحال والأمر، وما دروا بمصيبتنا مع جهلة هذا الزمان فكان لا بد من البيان.

وإن مما يحتج به أهل التقليد في العصور المتأخرة لأئمتهم المتأخرين قوله صلى الله عليه وسلم: « لكل قرن سابق » وله لفظ آخر: « لكل قرن من أمتي سابقون » وهو حديث صحيح رواه أبو نعيم في الحلية، الأول من حديث أنس رضي الله عنه، والثاني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وهذه الأحاديث وغيرها التي تدل على بقاء الخير ودوامه في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله تعالى تكفل بحفظ هذا الدين، وأنه ستبقى طوائف من أهل الحق وفية له، لا تعني أبدا إلا البشارة بذلك، وأما أمر الاقتداء بالهدي واتباع النموذج القدوة فليست لأي مرتبة من مراتب هذه الأمة إلا للمرتبة الأولى والجيل الأول، ودوام النظر إلى ذلك النموذج الصادق الصالح يمنع من الوقوع والعثار، وهو يمنع من الزلل، وما تلك الصور الحادثة وإن كانت رفيعة عالية إلا صور قاصرة لا تمثل الصورة بتمامها وحقيقتها،

---

[1] – انظر "الباعث الحثيث" بتعليق أحمد شاكر، هامش ص 125.

ولعل من أسباب هذا العثار عدم اجتماع الخير في جيل كما اجتمع في الجيل الأول، وها أنذا أضرب لكم الأمثلة ليتضح البيان:

درج بعض أهل العلم الأوائل على تأليف كتب تجمع في طياتها سير أئمة أعلام، فبعضها جعل الخيط الجامع لهؤلاء هو الصلاح والتقوى، وبعضهم جعل الخيط: هو الجهاد والشجاعة والقتال، وبعضهم جعله الفقه والرأي، وبعضهم جعله الحديث والرواية، وهكذا تنوعت التقاسيم في هذه السير في عرض النماذج القدوة في العصور المتأخرة. وكان بعض (الرواة) يبالغ في ذكر صفات هؤلاء الأعلام حتى يخرج بهم عن حد الاعتدال البشري، فلو قرأ المتأخر في كتب طبقات الأصفياء والأولياء. كما في كتاب الإمام أبي نعيم الأصفهاني: "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء". نموذجا من هؤلاء الأولياء لرأى فيها العجب العجاب، فهذا ولي من الأولياء إذا دخل بيته فذكر الله تعالى سبحت معه جدران بيته، وآنية المطبخ في بيته، وسبح معه فراشه حتى يسمعها كل من حضر، وهذا ولي آخر يرى بأم عينيه ذنوبه وهي تتساقط مع قطر ماء الوضوء، وهذا ولي آخر يتورع عن أكل ما حضر في السوق، ويرفض أن يشتري منه ويأبى الأكل إلا من القفار والخلاء، وهذا ولي لم يتزوج، وآخر لا ينام، وولي لا يضحك، وغيره لا ينظر إلى السماء وغيرها من الصور الحادثة التي لا تعبر أبدا عن حقيقة هذا الذين ولا عن واقعه الصحيح، وقارئ هذه النماذج يصاب بخيالات وأوهام تستقر في ذهنه عن النموذج (الولي) مما يجعله: إما دائم السعي للوصول إلى هذه المراتب، ولن يصل، وإما في يأس من بلوغ هذه المرتبة، والنتيجة هي القعود وترك العمل.

وطامة أخرى يصاب بها المتأخر: وهي أن كثيرا من هذه النماذج (من طبقات الأولياء) يراها ممدوحة معظمة في جانب الولاية والصلاح في كتب بعضهم، فإذا اطلع على كتب أخرى. ناقدة ممحصة. رأى فيها أخبارا تزري هذا الولي، وتقذفه بأشد أنواع الحماقات والغفلة، فلو قرأنا مثلا عن أبي يزيد البسطامي (طيفور بن عيسى) فهو الولي في باب الولاية حتى أنه يسمى بسلطان العارفين، وهو يجاهد نفسه على الدوام حتى أنه قال عملت في المجاهدة ثلاثين سنة. الحلية (36/10). ثم في موطن آخر تقرأ عنه أنه من زنادقة

الصوفية فهو يقول: سبحاني"، و"ما في الجبة إلا الله"، ما النار؟! لأستندن إليها غدا وأقول اجعلني فداء لأهلها وإلا بلعتها، ما الجنة؟! لعبة صبيان، ومراد أهل الدنيا. ما المحدثون؟! إن خاطبهم رجل عن رجل فقد خاطبنا القلب عن الرب.ا.هـ. ميزان الاعتدال للذهبي (246/2)، فهذا كلام زنديق لا كلام عارف ولا ولي.

وهكذا على هذا المنوال جرى كل قوم في مدح رجالهم وتعظيمهم، فأهل الحديث والرواة يبالغون في تعظيم أئمتهم فيسوقون عنهم الأخبار التي لا تعقل، مثلما ذكر بعضهم عن الإمام البخاري رحمهم الله تعالى في قصة قلب الأحاديث عليه في بغداد. قال الخطيب البغدادي: "فإنهم اجتمعوا (أهل الحديث في بغداد) وعمدوا إلى مائة حديث. فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا لإسناد آخر، وإسناد هذا لمتن لآخر ودفعوها إلى عشرة أنفس. تقول الرواية: فلما قرأها رد كل حديث إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، ولم يرج عليه موضع واحد مما قلبوه وركبوه، فعظم عندهم جدا، وعرفوا منزلته في هذا الشأن". وهي قصة لا تصح، ونبه إلى عدم صحتها الإمام الذهبي رحمه الله تعالى.

وكذلك من مبالغات أهل الحديث في رجالهم قولهم عن الرجل: (كل حديث لا يعرفه فلان فليس بحديث). وهذه العبارة كثر ترديدها في مدح بعض المحدثين، وهذا لا يقع أبدا، فإن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى نبه في كتابه العظيم "الرسالة" إلى خطأ هذا القول، وقال ص 139: "والعلم به (أي لسان العرب) عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه... لا نعلم رجلا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء".

وصار نموذج المحدث المتفرغ للحديث هو النموذج المقتدى، فهو رحل لا تشغله شاغلة، وليس له من هم إلا الرواية وجمع الأسانيد، فهذا الإمام أبو بكر (الخطيب البغدادى) عليه رحمة الله تعالى، كان حريصا على علم الحديث، وكان يمشي في الطريق وفي يده جزء يطالعه.[1]

وهو نهم مشروع بل محبوب عند الله تعالى، ولولا هذه الهمة العالية ما وصل إلينا دين الله تعالى، ولكن السؤال: هل أبو بكر الخطيب البغدادي هو نموذج المسلم في كل زمان؟ وهل

---

[1] - انظر المنتظم لابن الجوزي (267/8).

إذا وقعت بالمسلمين المصائب والرزايا ووجب على المسلمين جميعهم واجب، لم يكن لهم أن يخرجوا عن مثال الخطيب رحمه الله تعالى؟.

وهل علينا أن نصنع كما صنع أبو حامد الغزالي وقت الحروب الصليبية، عندما اعتزل في بيت المقدس السنين الطوال وهو متفرغ لذكر اسم الله المفرد للوصول إلى لحظة العرفان والجذبه، والمسلمون يذوقون أقصى البلايا على يد الصليبيين الكفرة؟!.

وكذلك عندما يقرأ المرء هذه السير يستقر في ذهنه صورة مشوهة وقاصرة، ولا تكشف لك سير الحياة الصحيحة للبشر في حركتهم ومعيشتهم لأنها تقتصر في أخبارها على ما تريد من شخصية المترجم له، فالعابد لا تساق لك من أخباره إلا العبادة فلو سألت مثلا: كيف كان يأكل هذا الرجل؟ وهل تزوج؟ وهل كان يعاشر زوجته وأبناءه؟ وهل كان يتاجر؟ وهل ماكس في سعر بضاعته؟ وهل خاصم أحدا؟ وهي أمور لا يمكن أن تخلو منهما بشرية إنسان كائنا من كان، وهي لا تذكر في سير هؤلاء الأئمة لأنها ليست بشيء، ولا قيمة لذكرها. ولكننا لو عدنا إلى النموذج الأول وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى التراجم الحقيقية لهم وليست تراجم المتأخرين التي غلب عليها المبالغة والتهويل، لرأينا الصورة الحقيقية لحركة الإنسان، وهي الصورة الحقيقية لمثال الإسلام الصحيح.

وقد سيقت أخبارهم - رضي الله عنهم - وأخبار إمامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما فيما من بشرية حقيقية، ومثالا جامعا لأنها دين، وهي تشريع لكل زمان ومكان، فحينئذ لا ترى التهويلات التي لا مكان لها في حياة البشر، فليس هناك الصحابي الذي لا يضحك أبدا، وليس هناك الصحابي الذي لا يخاصم أحدا أبدا، وليس هناك الصحابي المعتزل حياة الناس وحركتهم، وليس هناك (مدينة الموت) التي لا يوجد فيها صخب الأسواق وخصومة الباعة ومنازعة الحقوق، بل ترى الحياة بكل صخبها وكل حركتها، وترى بشرية الإنسان بما فيها من نوازع ورغبات وشهوات. فلو قرأت صحيح الإمام البخاري وصحيح مسلم لرأيت الحياة الحقيقية والنموذج الحقيقي الواضح للإنسان النموذجي، وللإسلام عندما يطبق.

حينها ترى عبادة العباد بصورة صحيحة وترى جهاد المجاهدين بصورة صحيحة، فأنت حين ترى المسجد وما فيه من عبادة الصحابة، ترى فيها بشرا يضحكون ويتسامرون ويختصمون، بل ويتضاربون بالنعال.

وأنت حين ترى المجاهدين ترى شجاعة القوم ببشرية حقيقية، فهم يتألمون حين يصابون، ويصرخ أحدهم من الألم، وهم ربما هرب المقاتل منهم فهو يصارع نفسا بشرية قد تغلبه وقد يغلبها، ثم هم يغنمون فيختصمون على الغنيمة وتعلو أصواتهم، وهم يبيعون ويشترون ويختصمون ويحتاجون إلى من يحكم لهم، وقد تخرج من فم أحدهم الكلمات (كلمات البشر حين الخصومة)، وقد يتنازعون حتى يحلف الواحد منهم أن لا يكلم صاحبه، بل ربما مات أحدهم وهو مخاصم لأخيه.

وأنت ترى الزوج في بيته في حركة حقيقية، فهذا يشتهي زوجته وهي قائمة تصلي، وهذا يضرب زوجته، وهذا يداعب أولاده، وهم مع ذلك كله أولياء الله تعالى. إنه النموذج الحقيقي للإسلام الصحيح والبشرية الحقيقية، هم أولياء الله حقا، والنخالة في غيرهم.

السلفية والتقليد:

لما كان التقليد شرا من كل وجه، ويكفي أنه يعطل أعظم نعمة لله على عباده، وهي إطفاء نور العقل الذي يتميز به الإنسان عن غيره، فإن سبيل الشيطان في تحجيم دور الحق في نفوس أتباعه، ثم إماتته، عن طريق الخمول والكسل اللذان استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما، والدعوة السلفية في أصلها إحياء للقواعد التي أحيت في الأمة روح البحث، وفجرت في نفوس الأمة عوامل البناء والنظر المبدع، وهكذا ينبغي أن تكون، ويجب على أصحابها المحافظة عليها من عوامل الدخن والتشويه، فالدعوة السلفية هي إحياء المنهج العلمي وتجريده من الشوائب الفاسدة، والعوامل الدخيلة، وهي كذلك تحطيم لأغلال الإرادة المعوقة لاستقلال الإنسان في البحث والنظر، فتجريد المنهج العلمي، يحمي المرء من الظن الفاسد، والوهم الكاذب، وتحرير الإرادة يمنع المرء من الوقوع في الهوى، والهوى في أهل التقليد هو الكسل الآمن، وهو الذي يدفعهم إلى ربط عقولهم بدعة واطمئنان في أيدي غيرهم دون

تمحيص ومجاهدة، وقد جع الله تعالى الظن والهوى في آية، وجعلهما مقابل الحق الذي بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: {**إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى**}.

وقد بدأت الدعوة السلفية بكل قوة بتحطيم أوهام الظن، ومعوقات الهوى في بداية أمرها، فنشأت بوادر التحقيق العلمي قريبا من النص المعصوم، وبعيدا عن الآراء والاجتهادات الواهمة، وشنت الغارة تلو الغارة على معاقل التقليد والعصبية والمذهبية وبدأت عملية إحياء المنهج العلمي على صورة تطبيقات لمسائل أغلبها قد بحثت عند المتقدمين، كتحقيق الصلاة النبوية الصحيحة، وكذلك حقيقة الحج ومسائله، والزكاة ومسائلها، والجنائز وما يتعلق بها، وبدأ المرء يقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه مباشرة يتعامل في أخذ الحكم الشرعي، وكان مما دافع به بعض مشايخ السلفية هذه الاجتهادات، حين اتهم خصوم السلفية من المذهبيين والمتعصبين أن على هؤلاء المجتهدين الجدد (السلفيين) أن يبحثوا في المسائل الجديدة الحادثة، ويجتهدوا في إعطاء الأحكام للنوازل، لا أن يتعبوا أذهانهم، ويصرفوا جهودهم للمسائل التي أشبعت بحثا. كان جواب السلفيين على هذه الانتقادات يقول: إننا نتمرن في الاجتهاد والبحث العلمي في هذه المسائل الأولى والتي من خلالها نترقى في الوصول إلى عظائم المسائل ودقائق الأحكام.

وهذا جواب منطقي صحيح، وهو اعتراف أن هذه الأعمال تطبيقات مرحلية وليست النهاية ولا منتهى الطلب.

وقد شن السلفيون غاراتهم الموفقة على الكتب المذهبية، وأسقطوا عصمتها حين كشفوا للناس أن هذه الكتب لا تملك الدليل المعصوم وهي في أغلبها آراء وأقوال رجال، لا يملكون العصمة في أنفسهم، بل هم عرضة للصواب والخطأ، فأعرض طالب العلم عن كتب الآراء والفقه المجرد عن الدليل، وبدأوا يوجهون قلوبهم وعقولهم إلى كتب النصوص، أو إلى كتب الفقه المشبعة بالدليل، وبدأت صور من المعارك نحو اكتساب الأهداف من الأطراف المتناقضة في هذه المسائل وغيرها، وبدأ الشباب المجتهد يقيم المعارك في المساجد والجلسات واللقاء ات لتحقيق المنهج السلفي الصحيح، حتى تحقق له الكثير من المكاسب، وغنم الكثير

من الأهداف، وهي مكاسب تحققت عن طريق المناقشات الحامية في المساجد حتى كاد الأمر يصل إلى ما لا يحمد عقباه من رفع الأصوات والتقاذف بالتهم والرمي بالجهل وعدم احترام العلماء، وكذلك تحققت كتب حوت أبحاثا علمية مجردة إلا من الأحاديث، أو الاجتهادات المصاحبة للدليل.

وفي النهاية أوجد هذا التيار الجديد القديم مكانا ووجودا وبدأت علامات الزهو والغرور تستقر في عقله ونفسه، فبدأت الانتكاسة في نهاية الدور الأول لهذا الوليد الحي. فما الذي حدث لهذا التيار الجديد؟.

أراد هذا الوليد أن يربط المسلم بالنص من خلال طرحه لمسائل يومية ملحة عليه ويتعامل معها دوما، فهناك صفة صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم كأنك تراها، وهناك أحكام الجنائز، وهناك أحكام الحج، وهناك أحكام المولود، وهناك.. وهناك.. وهي كتب أرادت إحياء النص ليتعامل معه المسلم مباشرة، وما إن أقبل الشباب المسلم عليها بلهف وشوق، ولعوامل قدرية سننية كان البعض من المشاركين في هذه الكتب يجني بعض المغانم المادية، وللقاعدة المتبعة في اتهام الخصوم (تغيير شكل من أجل الأكل) فإن الفكرة ما لبثت أن ماتت في مهدها، فظهرت الكتب المذهبية الجديدة، والعصبية المتطورة فكتاب صفة صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم صار مختصر صفة صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

و قد يتوهم سلفي أن المختصر إنما هو الاقتصار على ذكر النص الحديثي فقط، وبدون زيادة، أي من غير ذكر الاجتهادات الخاصة والرؤى الذاتية ولكن خاب ظنهم، فقد كان المختصر هو إزالة النص المعصوم والإبقاء على متن هو خلاصة رؤى ذاتية واجتهادات خاصة، ولما سأل سائل لم فعلتم هذا؟ كان الجواب: من أجل أن لا نشغل العوام بما لا يعنيهم، ولتقريب الفقه إلى غمار الناس، ومن أراد معرفة الدليل فليرجع إلى أم الكتاب وأصله.

وهكذا صنعت الكتب الأخرى كأحكام الجنائز وغيرها. وعادت السلفية مذهبية وتقليدا.

وهذه الحجج التي قيلت هي هي بعينها حجج أهل التقليد الأوائل، فالإمام السلفي محمد بن إدريس الشافعي حين ألف كتابه القيم "الأم" وهو كتاب فقهي جامع للنص واجتهادات الإمام من تصحيح حديث ومن استنباط مسألة، وهو إمام عظيم كان ينهى أتباعه عن التقليد، وبدأ

تلاميذه يعلقون على كتابه ويزيدون وينقصون، وبعد طورين أو ثلاثة من وفاة الإمام نشط بعض أتباعه بتقريب فقه الشافعي للعوام، فما كان منهم إلا أن اجتهدوا فاختصروا الكتب بأن أبقوا على نصوص الإمام، وأزالوا الأدلة وقالوا للناس ما قاله أتباع المذهب الجديد، وعلى ضوء هذا تشكل مذهب الشافعي، وهو من هو في نهي الناس عن التقليد، ولو استشير في زمانه أن يكتبوا رأيه بلا دليل لاستشاط غضبا، ولبين لهم ضلال فعلهم وصنيعهم، ومثل مذهب الشافعي تشكلت كثير من المذاهب الفقهية الأخرى من حنفي ومالكي وحنبلي إلى غير ذلك، وهم على كل حال تشكلت مذاهبهم بالصورة المقيتة بعد وفاتهم، وجزما بعد وفاة تلامذتهم المباشرين لهم، ولكن مذهبيتنا المعاصرة تشكلت في عصر أئمتنا ومشايخنا.

ولما سقطت صورة التقديس الباطلة من نفوس الشباب نحو الأئمة وغرست في نفوسهم مقولة: أنهم بشر، يخطئون ويصيبون، فصار من الأمر المعتاد، والمشاهد المألوفة أن تجد طالبا مبتدئا أتقن مسألة علمية وبحثها بحثا مقبولا أن يكتشف خطأ أبي حنيفة أو غيره من الأئمة، فيعلن بكل صراحة أن مذهب الحنفية أخطأ في هذه المسألة، وهي صورة لا تنكر إن قامت على سوق صحيحة، ولكن مذهبيتنا الجديدة صنعت قداسة جديدة لأئمة محدثين، وصار من الجرم الذي لا يغفر، والذنب الذي لا يتاب منه أن تقترب من حمى الشيخ، أو أن ترد عليه.

وقد جاهدت السلفية الأولى أن تعمم الفقه خارج دائرة المذاهب الأربعة فصار من العلم وسماته أن يذكر المرء رأي ابن حزم الظاهري أو رأي أهل الحديث كالبخاري ومسلم، ولكن عباقرتنا الجدد يأبون علينا أن نخرج عن لفظ الأربعة، فلا رأي يقبل ولا قول يحترم إلا إذا خرج من تحت عمائم الشيوخ "السلفيين" وعددهم أربعة، قد يتفقون على اثنين أو ثلاثة ثم يختلفون في الباقي. هذا ما كان من أمر الظن والتقليد، أما تحرير الإرادة فلها مجال آخر.

دعوى تطوير الخطاب الديني بين العلمانيين والآرائيين:

بنظرة يسيرة ندرك أن أمتنا فيها أمراض ذهنية وأمراض نفسية، والعلاقة بينهما علاقة تضامنية ومطردة، كل مرض يدفع المرض الآخر للارتقاء والتنمية، النفس تمد العقل بالهوى، والعقل يبرر هذا الهوى على صورة أفكار تحمل سمة العلم والبحث، ومنشؤهما: الظن والهوى {**إن**

يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى}، وجذور الأمراض النفسية هي نفسها جذور الأمراض الفكرية، لكن الغريب أن سبب هذه الأمراض هو الدعوى أن الأمة بحاجة لمناهج جديدة وطرق جديدة لصد الخصوم الخارجيين. وتحت دعوى تطوير الخطاب يتم تطوير المضمون (أي حرف المضمون)، فيتجدد الدين أي يصبح شيئا جديدا لا يعرفه الأوائل.

كيف نشأت دعوى تطوير الخطاب الديني؟:

نحن أمام تجربة سبقت في تمرير مفاهيم بدعية ضلالية، وقد قاومتها الأمة أحسن مقاومة ولكنها استطاعت لأسباب قد نأتي على ذكرها يوما أن تقتحم السور وتستقر في داخله كممثلة وداعية للإسلام الصافي.

مضمون الدين مرتبط بطريقة الخطاب ارتباطا حتميا، وما من محاولة يقوم بها أهل الأهواء لتطوير الخطاب إلا ويكون القصد (ويقع بالفعل) حرف الدين عن مفاهيمه الصحيحة، وما من محاولة لحرف الدين عن مفاهيمه الصحيحة إلا ويضطر أصحاب هذا الانحراف إلى استخدام ألفاظ جديدة وبنى للخطاب الديني، وخلال مسيرة التحريف يرفع أصحاب الأهواء راية التقدمية والعقلانية وينبزون خصومهم بألقاب الرجعية والحشوية والتزمت.

وعلى الرغم من أن أهل الأهواء في هذا الباب تتفاوت مراتبهم وتتباين درجاتهم إلا أن أغلبهم يريد أن ينشئ فقها جديدا، وتسيير بدعة جديدة بين المسلمين.

مراتبهم تتفاوت من نبز الخصوم (والخصوم هنا هم أهل الحديث والأثر) بالعقلية الفقهية، إلى درجة تسميتهم بالأرثوذكسية الإسلامية.

أصحاب الأهواء هؤلاء ليسوا بدعة نابتة في يومنا هذا، بل لهم امتداد زمني منذ (1200) سنة هجرية مضت ودعوى الإبداع هي دعوى خبيثة لا جذور لها، بل هي قائمة على الكذب والتضليل.

فالمعتزلة يسمون أهل الحديث بالحشوية، وقصدهم من ذلك أن أهل الحديث لا يعملون عقولهم في النص، بل دورهم التقليد والاتباع وهو دور العوام وضعاف العقول من الناس.

وسموهم كذلك غثاء وغثراء (أي سفلة الناس). وكذا قلد المعتزلة المتكلمون من أشاعرة وماتريدية. أما هم فذهبوا يتقنعون بأردية الألقاب الرنانة كأهل العدل والتوحيد، وأهل الحكمة والنظر، وأبصر الناس بمقاصد الشريعة، ومآلات الأمور.

أما تفاوتهم الذي تكلمنا عنه فهو واقع ولا شك في عصرنا هذا، ولكنهم كلهم مجمعون على تحطيم الذهنية الفقهية في التعامل مع الأمور، ويأنفون من الأبحاث الأصولية التي تنهج الطرق السلفية في البحث والنظر.

إن العقلية الفقهية هي التي تحمي المرء من الانزلاق في الأهواء الردية تحت دعوى حرية البحث وتجديد الخطاب الديني، أو تحت دعوى وجود اختلاف وجهات النظر الفكرية.

وقبل أن أضرب الأمثلة على هذه الطريقة الخبيثة فإن علينا أن نتذكر أن هؤلاء القوم يزعمون أن قيامهم بهذا المطلب - وهو تجديد الخطاب وبالتالي تجديد المضمون - إنما هو لحرصهم الشديد على إعطاء الإسلام قوة وآلية جديدة لتستطيع الوقوف أمام المد التغريبي العاتي. لقد سمح المبتدعة الأوائل لأنفسهم هذا الابتداع وهذا التطور المزعوم تحت دعوى موافقة الشريعة للحكمة اليونانية، حتى لا ينشأ في عقول العوام اهتزاز من صلاحية الشريعة وصواب مقولاتها.

التفاوت يمتد من العلمانية المائعة (وهو اصطلاح يطلقه العلمانيون الملحدون والذين يرفضون التبرير للعلمانية من خلال مرجعية مقدسة مثل القرآن والسنة، وإنما مرجعية العلمانية عندهم هو الإنسان مستقلا، والمقصود عندهم بالعلمانية المائعة الذين يبررون للعلمانية ويحتجون لها بالكتاب والسنة والتراث) وهذا الأساس يدخل في قيده كم طائل من المثقفين والمفكرين (كما يحلو للناس أن يسموهم) وعلى رأسهم:

1 - **حسن حنفي**: ومشروعه التراث والتجديد، وانظر كتابه "من العقيدة إلى الثورة".

2 - **محمد عابد الجابري**: ومشروعه نقد العقل العربي ويقصد العقل الإسلامي.

3 - **محمد أركون**: ومشروعه نقد العقل الإسلامي.

وغيرهم الكثير.

قلنا إن التفاوت كذلك يمتد من العلمانية (المائعة!) إلى الآرائية من مفكري الإسلام وبعض فقهائه المتميعين أمثال:

1 - راشد الغنوشي.

2 - حسن الترابي. 3 - محمد الغزالي وغيرهم الكثير.

بل يصل هذا الأثر إلى بعض المنتسبين إلى مسميات السلفية والجهادية وغيرها، فقد نشأ في هذه المسميات من يقدح ويستهزئ بالعقلية الفقهية، والمنهجية السلفية في البحث العلمي والتحليل.

وقد يكون من المشاريع الهامة جدا في هذا الظرف نصب المجانيق وتجهيز الجيوش لغزو هؤلاء المبتدعة ودك حصونهم، وكشف مآلات أفكارهم وضلالها، من أجل إعادتها إلى جحورها مهزومة خاسئة كما فعل أسلافنا.

صحيح أن هؤلاء فقدوا أسباب النصر ومن أهمها عدم توفيقهم لخطاب الفطرة كما هي طريقة القرآن الكريم والسنة النبوية والسلف الصالح فبقي خطابهم نخبويا أكاديميا لا ينزل إلى مستوى حركة الشعوب والتأثير على الإنسان إلا أن خطورته تكمن في آثاره التي ستبقى عالقة في أذهان بعض قادة الحركات الإسلامية مما يجعل المرحلة القادمة تتهيأ لنصر هؤلاء المتكلمين الجدد. وذلك كما انتصر المتكلمون القدماء في كسب الساحة إلى صالحهم.

لقد فشل المعتزلة فشلا ذريعا، وخرجوا من المعركة مع أهل السنة بخفي حنين حتى أن تراثهم لم يبق منه إلا شيء يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، ولم يبق من كلماتهم وأفكارهم إلا التي حفظت كتب المقالات والفرق، ولكن أفكار المعتزلة وطروحاتهم ومناهجهم تطورت مع جماعة من المبتدعة، إذ تشربوا منها بعض نفثاتها وأصابوا من أفكارها كما أصابت الأفكار منهم فنشأ ما يسمى بالمتكلمين من الكلابية والأشاعرة والماتريدية، وبقليل من الجهد والتحالف مع الفكر الصوفي الغنوصي استطاع هؤلاء المتكلمون أن يحكموا سيطرتهم على النتاج الإسلامي والساحة السياسية والمنهجية في العالم الإسلامي.

وبصورة أوضح نقول صحيح أن عمرو بن عبيد والجهم بن صفوان والغزال وأبا هاشم الجبائي وأبا علي الجبائي وغيرهم من مشايخ المعتزلة لم يتقلدوا قيادة الأمة، ولكن مهدوا الطريق،

وسهلوا المهمة لمن جاء بعدهم من أفراخ المعتزلة، حتى صار هؤلاء المخانيث (أي أفراخ المعتزلة من أشاعرة وماتريدية) هم قادة الفقه والفهم في تاريخ أمتنا، وبالتالي لنا أن نطلق صرخة التحذير مع عدم خوفنا من تقلد العلمانيين المائعين لقيادة الشباب المسلم والتيارات الإسلامية في البلاد، ولكن صرخة التحذير من تولي أفراخهم ومخانيثهم لهذه القيادة في الزمن الحاضر والمستقبل.

إننا نرى بعض أثار هذه الأفكار بدأ يغزو وبقوة وبطء الشباب المسلم، وبدأت مظاهره على صورة احتقار الخطاب الفقهي الصارم: هذا حلال، وهذا حرام، إلى دعوى جديدة وهي احترام وجهات النظر، والسماح بالتفكير إلى أبعد الحدود وفي المقدسات.

دعوى حضارية الخطاب العلماني الآرائي وتخلف الخطاب السلفي الأثري:

لقد بدأ بعض الشباب ينبز العقلية الفقهية والخطاب السلفي بالتخلف، وأنه خطاب غير حضاري، ولا يلائم هذا العصر ولا يوافقه. لكن علينا أن نتذكر نقطة مهمة ومهمة جدا وهي أن الخطاب الفقهي هو الذي يحفظ لهذا الدين جوهره لأنه يحمل في ثناياه - بل في كل ثنية فيه - وكل لفظ فيه حقيقة هذا الدين، وأن هذا الدين هو خطاب الرب لعبيده، وأن القصد من هذا الخطاب هو تحقيق الدين في العبد، بأن يصبح متدينا تدينا إسلاميا، وإن أقل ما يصنع هذا الخطاب البدعي المنحرف رجلا مفكرا تفكيرا إسلاميا، ويظهر هذا واضحا بين شخصيتين ومثلين، فلو نظرت إلى صورة نموذجية لهؤلاء المبتدعة الجدد لرأيت أن مجرد الحديث عن الالتزام العلمي بالإسلام داخل في حديث النكتة والطرافة، وإن رجلا من رجالات الفكر الإسلامي **كالعقاد** مثلا كان يعقد ندوته الأسبوعية وقت صلاة الجمعة، وهو مثال عليك أن تضربه بعشرة هذه الأيام لتعلم مقدار التزام هؤلاء المفكرين بالإسلام وتشريعاته.

الخطاب الحضاري المزعوم القصد منه إفراغ الإسلام من حقيقته وجوهره وأنه دين جاء للناس ليمتثلوا أمره، ويخضعوا له، الخطاب الحضاري المزعوم يصنع شخوصا تؤمن بالإسلام الحضاري على صورة أفكار ممتعة نتداولها في سهراتنا وندواتنا وأحاديثنا.

لقد بدأت بذرة الخبث تطل برأسها من احتقار الحديث عن الفقه وأحكامه، وعن المجال الذي يهم الإنسان الفطري وهو العمل، إلى الحديث عما لا فائدة فيه سوى كونه متعة مشروعة إذا كان بعد العمل.

إن أئمتنا كانوا يكرهون من الحديث ما لا يتبعه عمل، وقد ألف الإمام **الخطيب البغدادي** كتابا سماه "اقتضاء العلم العمل". وقد كره السلف الكلام في الخطرات والوساوس، حتى أن الإمام **أحمد** بدع الحارث المحاسبي لكتابته هذا النوع من العلوم لأنه لا عمل تحته، وهو إشغال الناس بشيء لا فائدة فيه، أو لنقل فائدته أقل من غيره.

العقلية الفقهية، والمنهج السلفي يحفظ لنا استقلالنا، ويعرفنا بأقرب طريق ماذا يريد الله منا، وإن معرفتنا لمراد الله من أجل العمل هو مقصد خلقنا.

دعاة التجديد والتحرر المعاصرين يجمعهم قيد واحد، وينتظمهم سلك جامع هو دعوتهم إلى تجديد أصول الفقه، لأنه بتغير أصول الفقه ستخرج نتائج مختلفة عما خرج به الأوائل من أحكام وأوامر فهموها من الكتاب والسنة، وقبل أن أخوض باختصار في جذور هذه البدع فإني أنبه إلى نقطة مهمة وهي أن كتب الأصول الحديثة، والتي كتبت من قبل المعاصرين لا نستطيع أن نعدها كتب أصول كما هو إطلاق الأوائل، فكتب الأصول هذه عبارة عن مصطلح أصول الفقه، أي شارحة لمصطلحات أصول الفقه، فهي تعرفنا بأدلة الأحكام الإجمالية سواء كان المتفق عليها كالكتاب والسنة والإجماع والقياس، أو المختلف عليها كقول الصحابي والاستحسان والعرف وغيرها، ثم هي تعرف القارئ بمراتب الأحكام من واجب ومستحب ومباح ومكروه وحرام، وهكذا هي تشرح فقط مصطلحات هذا الفن العظيم، ولا تعالج آلية عمل هذه الأصول في استخراج الحكم الشرعي، بمعنى أن هذه الكتب لا تنشئ أصوليا، وبالتالي لا تنشئ لقارئها ذهنية وعقلية قادره على استنباط الحكم الشرعي أو الترجيح بين الأدلة (أي الملكة الأصولية)، فكتب الأصول هذه هي كتب مصطلح فن أصول الفقه فقط، وهي بهذا على خلاف الكتب الحديثية القديمة في أصول الفقه وعلى رأسها كتاب الإمام الشافعي "الرسالة".

أصول الفقه السلفية مأخوذة من منبعين اثنين:

أولهما: اللسان العربي وأساليبه.

ثانيهما: العلاقة بين المخاطِب (بكسر الطاء) والمخاطَب (بفتح الطاء).

ولنضرب على ذلك مثالا:

لو جاز للناس أن يختلفوا في دلالة الأمر في أصل اللغة العربية، وهل يفيد الوجوب (كما هو رأي الجمهور) أو يفيد غير ذلك أم أنه لا يفيد إلا مجرد الطلب، قلت: لو جاز للناس أن يختلفوا في أصل الوضع اللغوي لصيغة الأمر هذا الاختلاف لما جاز لهم أن يختلفوا على دلالة الأمر في الكتاب والسنة، وسبب ذلك أن العلاقة في هذا الخطاب بين الآمر والمأمور هي علاقة العبودية - سيد يأمر وعبد يطيع - وهذه العلاقة توجب على الدارس أن يحمل صيغة الأمر على الوجوب وعلى الفور كذلك، فلو طلب صديق من صديقه - علاقة متكافئة - شيئا واستخدم صيغة الأمر فإنها لا تحمل في طياتها دلالة الوجوب، لأنها لم تقع على صفة الاستعلاء، والأمر في الكتاب والسنة وكذا النهي إنما يقعان على وجه الاستعلاء - سيد يأمر وعبد يطيع -.

ولما كان القرآن والسنة لغتهما عربية فالمرجع في الفهم هو العربية وأساليبها، ولما كان - هؤلاء المبتدعة قد تنشقوا وتضلعوا في غير بيئة العرب، ونشأت دراستهم في معاهد غربية، فإنهم ظنوا أن هذه الطرق الجديدة في التحليل والتفكيك - كما يسمونها - هي الأقدر على معرفة مراد الله في كتابه ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته، وتكون قواعد هذه الآلية والعقلية والملكة لا تستند إلى القواعد العربية، فيشنوا غاراتهم على أصول الفقه لوجوب تجديده - أي تغييره -.

دعاة التجديد وتهافت الخطاب:

حسن الترابي دعا أول ما دعا إلى تجديد أصول الفقه وخرج بنتائج مرعبة تطمس قواعد الشريعة وتلغي ثوابتها، وقال فيما قال: الإجماع عند الأصوليين هو اجتماع أمة محمد صلى الله عليه وسلم على حكم شرعي.. وقال: الشرط الذي وضعه الأصوليون بأن الإجماع هو إجماع المجتهدين شرط باطل لأن الشريعة جعلت الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولأولي

الأمر، فأولي الأمر هم العلماء والحكام، ومحاولة جعل طبقة تسمى العلماء في المجتمع الإسلامي محاولة خبيثة (هكذا يقول) القصد منها تعطيل الأمة عن ممارسة حقها، ثم سلبهم بالتالي هذا الحق وإعطائه للعلماء، والعلماء قد قننوا هذا السلب في كتب الأصول (هكذا يفتري على الأئمة الأعلام). قال: وهذا الإجماع عند بعض الأصوليين (وهو الصواب في رأيه) أقوى من الكتاب والسنة، أي الأمة لو اجتمعت على شيء وهو بخلاف ما علم من الكتاب والسنة فالصواب ما اجتمعت عليه الأمة للأثر ((لا تجتمع أمتي على ضلالة)). ثم يقول: ولما كان صعبا وصعبا جدا معرفة آراء الناس جميعا، فالطريقة المقترحة لمعرفة هذا الإجماع هو أن يختار كل تجمع نائبا لهم ووكيلا يمثلهم، فإذا اتفق هؤلاء النواب والوكلاء على أمر فهو حكم الله تعالى، لأنه حكم الإجماع، أي البرلمان الإسلامي هو الذي يقرر لنا الإجماع، فلو قال لنا البرلمان المنتخب حكما من الأحكام فهو حكم الله المراد ولو كان يخالف الكتاب والسنة.ا.هـ.

أرأيتم هذا التجديد إلى أي شيء وصل؟!، لقد وصل إلى الكفر، نعم الكفر بالله حيث أجاز للناس أن يشرعوا على خلاف الكتاب والسنة صراحة، لقد حذر الإمام الشافعي من ترك الناس أصول العرب، أي أصول الفقه واتخاذهم المنطق دينا وسبيلا قال رحمه الله تعالى: ما جهل الناس، ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس.ا.هـ.[1]

قد يقول قائل: أنت تفتري على **حسن الترابي** باتهامه تبديل الشريعة وتغييرها، فأقول لهذا القائل اقرأ معي هذا النص جيدا: "تراثنا الثقافي المتميز أيضا مما ينبغي أن نحفظ أصالته - وأن نبني عليه - تفاعلا مع الآخرين، وتجديدا له وتجاوزا له في بعض حين".[2]

نعم: وتجاوزا له في بعض حين، وهذا الحين غير مقيد، ولا ضابط له بكونه قليلا أو كثيرا، فما كان قليلا عند الآخرين هو كثير عند البعض الآخر.

---

1 – أورده بدر الدين بن جماعة في تذكرته. انظر كثيرا من هذه النصوص في "صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام" للسيوطي.

2 – وثيقة حسن الترابي إلى المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي.

محمد أركون هو أكثر هذه الزمرة أدبا، وهو يعلن في كل كلمة أنه لا يتجاوز الكتاب والسنة ولكنه يقدم آلية وملكة تعلمها من المعاهد الغربية، وبهذه الآلية سيجعل الفكر الإسلامي يخرج من قمقمه الصدئ ومن أرثوذكسيته - كما يقول - إلى رحاب العالمية.

شرح محمد أركون شيما عن مشروعه في كتابه "أين هو الفكر الإسلامي المعاصر" (ناشره دار الساقي) يقول في المقدمة الحزينة له حيث يشرح فيها نفسه: ولذا لم أزل منذ ما يزيد على ثلاثين سنة أدعو إلى إحياء الموقف الفكري الديناميكي المتفتح لهؤلاء المفكرين القدماء وألح في الوقت نفسه على ضرورة التخلي عن مبادئهم ومقدماتهم ومناهجهم وإشكالياتهم ونظرتهم إلى العالم والتاريخ والمجتمع والإنسان لأن ذلك كله داخل في الفضاء المعرفي الخاص بالقرون الوسطى عند المسلمين كما عند المسيحيين واليهود وسائر الثقافات المعروفة في العالم . انتهى من المقدمة، ومراده أن يصل إلى النتيجة التالية وهي: المعارف التي وصل إليها أسلافنا من قبل هي إسقاطات فكرية متخلفة كما هي في مناهجهم المتخلفة، وإذا أردنا أن نصل إلى معارف جديدة فلا بد أن نفهم هذه التعاليم من وجهة نظر تاريخية وليست مطلقة، وعلى هذا فإن الذين يحاولون أن يجبرونا على الفهم القديم (كما يزعم) هم في الحقيقة أرثوذكسية طارئة وحادثة.ا.هـ. واعلم أخي القارئ أن هذه الورقات تقصر عن ذكر المصطلحات الجديدة التي لم يعرفها الأوائل، وهي مصطلحات لعلم الأصول الجديد الذي يزعمه هؤلاء، وسأذكر لك بعضها كأفراد دون شرح: المخيال، المعرفة القصصية، المعرفة التاريخية، المعرفة العلمية، المعرفة الفلسفية، السوسيولوجية، الأنثربولوجية، البنيوية، التفكيكية وهكذا..

عليك أخي المسلم القارئ ألا تتهم نفسك بالجهل لعدم علمك بهذه المصطلحات فهم (أهل البدع المكفرة)، يعترفون بعدم فهمهم لها، فمترجم الكتاب هاشم صالح (دكتوراه فلسفة من جامعة فرنسية) اعترف في مقدمته الاعتراف التالي: أنه لم يستطع أن يفهم هذه المصطلحات إلا بعد (10) سنوات وبعضها بعد (3) سنوات من الدراسة في المعاهد الفرنسية حتى استطاع أن يتصور معناها كما أراد مستعملوها، وكم أتمنى لإخواني أن يقرأوا هذه الاعترافات ليدركوا مقدار معاناة هؤلاء العلمانيين في محاولاتهم المرهقة لفهم أصول التحليل والفهم عند

المستشرقين من أجل ماذا؟ من أجل فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم {ألا ساء ما يزرون}...

إن الادعاء بأن البيئة من زمان ومكان هي التي جعلت فقهاءنا الأعلام يخرجوا لنا بهذه النتائج العلمية محاولة خبيثة القصد منها إلغاء هذا الفقه وتطويره ليلائم هذا العصر، أي بمعنى أوضح لنجعل الإسلام يلائم الواقع ويساير المجتمعات لا أن نحاول جاهدين مجاهدين لتغيير ترتيب الواقع والمجتمعات لتوافق الإسلام وتلائمه.

الشيخ الغزالي عندما يرد على الحكم الشرعي الذي يقوله جهور العلماء بتحريم الغناء فإنه لا يعالج هذه المسألة بطريقة أصولية حديثية، ولكن يذهب إلى أن تحريم الغناء هو فقه أنتجه الفقه البدوي (البيئة البدوية)، وهو بهذا الترجيح والتعليل يمارس التاريخية (وتعني منهجا يتعامل مع الأحكام من خلال كونها أتت في ظرف تلائمه ولا تصلح لكل زمن، وهي بخلاف قواعد الشريعة وأنها صالحة لكل زمان ومكان) ويعلل الفقه بها، مع أن الشيخ في هذا الباب ومن وجهة نظر إنسانية بحتة قد أخطأ خطأ شنيعا، بل كان دوره كالببغاء يردد الكلام دون فهم، لأن تفاعل الإنسان بالغناء وأدواته لا تختلف بين بيئة وبيئة، فما من إنسان إلا ويهتز للغناء وأدواته (وليس كل تفاعل واهتزاز مباح) بل إن الدواب تطرب للغناء وأدواته، والبدو فهموا هذا الأمر قبل مدينة وحضارة الشيخ الغزالي المعمم، لكن هكذا تظهر بوادر تغيير أصول الفقه.

كما أن كثيرا من البحاثة (تجاوزا) جعلوا النتائج التي وصل إليها الأستاذ سيد قطب وليدة معاناة شخصية أسقطها على كتاب الله تعالى، فخرجت معه نتائج تلائم القهر الذي عاشه وعاناه، أي أن سيد قطب تعامل مع تفسير القرآن بأصول خاصة وليس مع قواعد مطلقة فوق الزمان والمكان، وهم بهذا يريدون القول أن تفسير القرآن هو تفاعل خاص وذاتي وغير ملزم، لكن السؤال: متى يكون هذا التفسير ملزما وكيف يثبت خطؤه؟.

الجواب معروف عند أهل السنة والجماعة، وهو أن القرآن يفسر وهو أفضل التفاسير، ويفسر بالسنة ولا يتعداها إذا وجدت ثم بأقوال الصحابة ثم باللغة العربية.

فعلى هؤلاء أن يثبتوا خطا القول لا بإلغاء القواعد ولكن بالتعامل مع هذه القواعد، لكن هؤلاء لهم قواعد وأصول لا تمت إلى اللغة العربية بصلة، ولا إلى قواعد الأسلاف برابطة.

إن هؤلاء المبتدعة يريدون جعل كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم نهبا لكل أحد، يتكلم فيه كما يشاء وبقواعده الخاصة، ويفتي كما يريد، ويرجح من الأقوال ما يشتهي، ويدفع من الآراء ما يكره.

ألم تسمعوا برجل اسمه جهاد الخازن صحفي ونصراني - صار مجتهدا من مجتهدي الإسلام ويرجح ويعدل ويضعف؟.

ألم تسمعوا باليهود والنصارى الذين صار لهم الحق أن يقولوا للمسلمين ما هو الصحيح من الإسلام وما هو الخطأ؟.

نعم هذه هي نتائج هذا الإبداع المبتدع.

مناهج الآرائيين في فقه الخطاب:

الآرائيون المنهزمون أمام حضارة الشيطان الحادثة، الراغبون بليّ الشريعة وتغيير أحكامها لتوافق هذه الحضارة، لهم طرق وأساليب في تحرير أفكارهم وفقهم الغريب، وهؤلاء القوم يستقر في قلب أحدهم الحكم ويشتهيه ثم بعد ذلك يتوجه شطر كتب الفقه ليبحث له عن قول يوافق رأيه، وهؤلاء القوم ترى في أحكامهم وأبحاثهم أنه ليس لهم ضابط يضبطهم، ولا قاعدة يتعاملون معها، ولو أراد المرء أن يستخرج أصول فقههم من الفروع التي يتبنونها ويعتنقونها لخرج بالعجب العجاب، وليت أحد الباحثين - وأتمنى أن أفرغ لهذا - يقوم باستخراج الأصول من الفروع - على طريقة الأحناف - من كتاب راشد غنوشي "الحريات العامة في الدولة الإسلامية" وكتاب "الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟" **لمحمد سعيد رمضان البوطي**، وكذا **فهمي هويدي والغزالي والقرضاوي والإخوان المسلمين** على الجملة، وإني لأجزم أنه سيخرج بنتائج مذهلة، وبقواعد أصولية ما قالها أحد من قبل، وإن كان أكثرها يقوم على قاعدة التلفيق والحيل، لكن بنظرة سريعة نستطيع اكتشاف بعض قواعدهم وأصولهم العجيبة، وها أنا أمر واحدة منها.

يكثر الآرائيون المنهزمون الاحتجاج بالعمومات، وخاصة القواعد الفقهية للتدليل على أحكامهم المتبناة والعجيبة جدا، وحتى لو أتى أحدهم بقول لم يأت له فيه سلف فإن قاعدة "لا يُنكر تغير الأحكام بتغير الأزمان" سعة لهم ليقولوا تحتها ما يشاءون وما يستحسنون وما يشتهون!!، وإن كان ثم حركة أو فقه جديد توافق هوى القائد أو الرئيس أو الحزب والتنظيم، فإن باب المصلحة مخلوع الأبواب، مهدم الجدران يتسع لكل حكم، وقاعدة: "حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله" فيها السعة أن ننسب لشرع الله ما نريد، والحقيقة أن الخلاف بين هؤلاء القوم - الآرائيون المنهزمون - وبين العلمانيين خلاف لفظي فقط، فما من باقعة وطامة ومصيبة تفعلها الأحزاب العلمانية إلا وهذه الأحزاب والشخصيات والمفكرون الآرائيون قد أتوا بها وفعلوها، وقبل ذلك نسبوها لشرع الله تعالى، أي ازدادوا ظلما على ظلم وهو التقول على الله تعالى {**ويقولون على الله ما لا يعلمون**} والفارق بين الطرفين هو إسناد هذا الحكم، فالعلماني منسحم مع نفسه عند نسبته الحكم لمصدره، حيث يقول: هذا حكم اقتضته المصلحة الإنسانية، والإنسان مصدر الأحكام، فهو حكم صحيح. وأما هذا المنتسب للإسلام فيدخل الإسلام في وسط معادلة، ولكنها تبقى ثابتة (أي المعادلة بطرفيها) المقدمة والنتيجة، ولكن يقول: وحيث ثبت هذا فالإسلام يقر ذلك ويقول به، فأعطى هذا الحكم غطاء شرعيا، ولذلك أنت ترى أن الفجوة الفكرية والعلمية ثم النفسية بين هذين الطرفين صارت ضيقة بل هي قد تلاشت، فالترابي والغنوشي والبوطي والإخوان المسلمون وغيرهم. والكثير صارت برامجهم متحدة مع خصوم الإسلام العلمانيين، وصارت تجمعهم المؤتمرات والشعارات والبرامج والتحالفات، ولقد كانت بعض المؤتمرات صدمة هائلة لدى هؤلاء العلمانيين حيث صاروا يسمعون أن الخلاف بينهم وبين الإسلاميين خلاف مفتعل أوجدته القوى الأجنبية لضرب الوحدة الوطنية والمصلحة العليا للوطن، نعم: فعندما حضر جورج حبش ونايف حواتمة وكثير من قادة الكفر في المؤتمر القومي الشعبي الإسلامي صُدموا من خطاب حسن الترابي، حيث تطوع بإضفاء صفة الوطنية والقومية والنضال عليهم، وضيّق الفارق بين الإسلاميين وبينهم.

ولعل الظاهرة الأخيرة في ترشيح محفوظ النحناح على منصب الرئاسة الجزائرية كشف للناس عدم وجود الفارق بين سعدي ونحناح وزروال وبوكروح، كلهم يتكلم بنفس التطلعات

والأحكام التي يريد نشرها، والعمل على تحقيقها والفارق الوحيد بين نحناح وبين البقية هو استخدام النحناح لغة الإسلام في جذب الجمهور، وتركيبه اللحية على ذقنه، فالبرامج واحدة والأحكام واحدة، فقط النحناح لا ينسى أن يزين خطابه بشيء من النفس الإسلامي، ولكن لا فرق جوهري، وعلى ضوء هذا فإنه يحق للعلمانيين (الصلبين) اتهام الإسلاميين بالوصولية، واستخدام الإسلام لمقاصد شخصية ولمآرب ذاتية، لأن العلماني لا يرى عند الإسلامي!! قيما جديدة يطرحها، ولا مفاهيم محددة تفترق عن الآخرين يدعو إليها.

القواعد الفقهية والحديث النبوي (الكلي والجزئي):

ما هي القواعد الفقهية؟ وهل يجوز الاحتجاج بها في الاستدلال؟.

على الجملة هؤلاء لا يقيمون شأنا للحديث النبوي، ومن السهل رده وعدم الأخذ به: فهذا حديث آحاد، وهذا على خلاف العقل، وهذا اختلف حوله العلماء، وهذا قد ضعفه بعض الناس، وهذا فيه إشكال، وهذا راويه ليس فقيها، وهكذا... وصدق فيهم من قال: إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا.[1]

أما القواعد الفقهية فهي ليست كلية: أي لا يدخل فيها جميع أجزائها وأفرادها بل هي أغلبية كما قال صاحب الفروق الإمام القرافي (36/1) أي لا يدخل في القاعدة جميع أفرادها من الفروع، ولهذا فحفظ القواعد الفقهية لا يغني المرء من النظر إلى الدليل الخاص، بل الواجب عليه النظر في الدليل الخاص في المسألة، ولذلك كثيرا ما يقول السيوطي في الأشباه والنظائر عند ذكر القواعد: والترجيح مختلف في الفروع، ولهذا أنشأ القرافي كتابه الفروق، إذ قد تدخل بعض الفروع في قاعدة ولكنها تفترق عنها لوجود بعض المؤثرات الأخرى لتجاذب العلل والمؤثرات على الفرع الواحد، ولذلك اتفقوا على عدم الاحتجاج بالقواعد الفقهية على الفروع، يقول ابن نجيم: إنه لا يجوز الفتوى بما تقتضيه القواعد والضوابط، لأنها ليست كلية بل أغلبية.[2] وجاء في شرح مجلة الأحكام: فحكام الشرع ما لم يقفوا على نقل صريح، لا يحكمون

---

[1] - وهو منسوب لعمر رضي الله عنه، انظر السنة للالكائي رقم 201.

[2] - القواعد الفقهية للندوي ص 292.

بمجرد الاستناد إلى واحدة من هذه القواعد.[1] ولذلك نبه الشاطبي (المظلوم بنسبة قاعدة المصالح له) إلى عدم جواز الاحتجاج بالمصالح على الأحكام، قال الشاطبي: إذا ثبت في الشريعة قاعدة كلية في هذه الثلاثة أو في آحادها (أي الضروريات والحاجيات والتحسينيات) فلابد من المحافظة عليها بالنسبة إلى ما يقوم به الكلي، وذلك بالجزئيات.[2] ولذلك يستدل للحكم من مصادره وهي الكتاب والسنة والقياس، وليس من مصادره من القواعد الفقهية، والقواعد الفقهية أخذت من الجزئيات وليس العكس، فالأصل هو الدليل الخاص، فلا ينبغي للناتج المكمل (القواعد الفقهية) أن تعود على الدليل (الجزئي) بالإبطال.

قاعدة المصالح:

لو رجع الناس إلى ما قاله الشاطبي جملة دون تخير بالهوى لرأوا أن ما يقوله الزاعمون من نظرية المصالح البشرية محض هراء نفسي لا دليل عليها من دين أو عقل، وازن بين كلام أهل الأهواء وبين هذا قول الشاطبي: المنافع الحاصلة للمكلف مشوبة بالمضار عادة، كما أن المضار محفوفة ببعض المنافع: كما نقول: إن النفوس محترمة محفوظة ومطلوبة للإحياء، بحيث إذا دار الأمر بين إحيائها وإتلاف المال عليها، أو إتلافها وإحياء المال كان إحياؤها أولى فإن عارض إحياؤها إماتة الدين، كان إحياء الدين أولى، وإن أدى إلى إماتتها، كما جاء في جهاد الكفار، وقتل المرتد وغير ذلك.[3]

فالمقاصد التي يتكلم عنها الشاطبي هي مقاصد ومصالح الشريعة المبنية على النظر الأخروي كما قال في عدة مواطن ومنها قوله: المصالح المتجلية شرعا، والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها العادية.[4]

---

[1] - المرجع السابق ص 294.

[2] - الموافقات 6/2.

[3] - الموافقات 92/2.

[4] - 27/2-28.

وكذلك قوله: إن المصالح هي بنظر الشارع لا بنظر المكلف، أي أن حكم الله تعالى في الجزئي (الدليل الخاص) هو الذي يحقق المصلحة، وإن فاتت بعض المصالح لدى النظر القاصر.[1] ومن قوله كذلك: إن الكلي لا يقدح بالجزئي. أي أن المصلحة لا تلغي الحكم الخاص بالمسألة، وإن بدا للناظر التعارض، لأنه ما من مسألة إلا ويتجاذب فيها عدة قواعد، فالشارع يلحقها بالأشبه، ولا يعرف الأشبه إلا بالدليل النقلي لا العقلي، ويغلف ذلك كله أن من مقاصد التشريع ومن مصلحة الشريعة هو حصول الابتلاء. قال الشاطبي: الشارع إنما قصد بوضع الشريعة إخراج المكلف عن اتباع هواه حتى يكون عبدا لله.[2] فأين هذا الذي يقوله الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى من قول أهل الأهواء الذين جعلوا الشريعة ألعوبة بيد الناس يستصلحون منها ما يشاءون، ويردون منها ما يريدون.

وكلامي هنا لا يعني رد القواعد وعدم اعتبارها عند الترجيح والنظر، ولا إلغاء المصلحة الشرعية، ولكن القصد من ذلك هو أنه لابد من اعتماد الأدلة الشرعية في الاحتجاج وليس مجرد التشهي والهوى، ففرق كبير بين من نظر إلى مقاصد الشريعة من جهة أنها تسعى لتحقيق الآخرة وأن المقاصد الأخروية هي الغاية وبين من نظر إلى الأحكام على اعتبار دنيوي فقط. انظ قول جودت سعيد فى إلغائه هذه القاعدة في التعامل مع الشريعة والناس، يقول: "الكفر ليس ذنبا دنيويا، الكفر ذنب أخروي، الله يحاسبه، الكافر له حق أن يعيش، والملحد له الحق أن يعيش محترما، وإن استطاع الملحد أن يقنع الناس بإلحاده لا حرج عليه لكنه لا يفرض رأيه بالقوة، ويجب أن نزيل التنابز بالكفر.[3] وهو قول حسن الترابي في إسقاط حد الردة، وهو قول راشد الغنوشي، وهو قول محمد سعيد رمضان البوطي في نفيه الجهاد الهجومي، وهو قول الإخوان المسلمين في رسالتهم القبيحة المسماة "هذا بيان للناس" عندما نفوا العنف تحت أي اسم كان، حتى لو كان باسم الإسلام (وهي كلمة مكفرة).

---

1 – المرجع السابق.

2 – المرجع السابق ص 153.

3 – النزعة المادية في العالم الإسلامي ص 170 لعادل التل.

وهذا القول الذي قالوه إنما كان استجابة لضغط العلمانيين ومحاولتهم للتوفيق بين الإسلام ومذهبهم الإنساني، فإن العلمانيين يتهمون الحركات الإسلامية بأنها تمارس سكرتريا القيامة[1]، أي أنهم يطبقون إرادة الله في البشر، وهذا المعنى حق فإن الإسلام هو أمر الله للمسلمين بأن يطبقوا أحكام الله على الناس، فمن أحبه الله أحبوه ووالوه وأحسنوا إليه، ومن أبغضه الله أبغضوه وعادوه، نعم ينبغي على المسلمين أن يمارسوا سكرتيريا القيامة - ولكن الحمد لله في ديننا الغناء عن هذا الغثاء وهذه الألقاب - فهذه منطلقات القوم في تحديد هوية هذا الدين وهي المصلحة الدنيوية وعدم النظر إلى مصلحة الدين والآخرة والذي هو أولى من جميع الضرورات والمصالح بإجماع أهل الملة كما قال الشاطبي رحمه الله، فمصلحة الدين مقدمة على أي مصلحة، وضرورة الدين أرجح من كل ضرورة، ولذلك لا قيمة لحظ الإنسان أمام أحكام الشريعة.[2]

وقد يسأل سائل: وبعد هذا الذي قلته، هل تخصص المصلحة الحكم الشرعي؟.

قلت: بعد فهم المصلحة فهما صحيحا فإنها تخصص الحكم الشرعي في موضوعين:

أولهما: ما قال ابن القيم: ما حرم سدا للذريعة أبيح للمصلحة الراجحة.[3] وشرح هذه القاعدة له مقام آخر.

ثانيهما: ما قال الشاطبي: المقاصد الشرعية ضربان أصلية وتابعية، فالأصلية لا يراعى فيها حق المكلف، وأما التابعية فيراعى فيها حق المكلف.[4] وهي لها مقام آخر.

قاعدة كل مجتهد مصيب:

من القواعد العجيبة التي يستخدمها الآرائيون للتلعب بالشريعة والقول عليها ما ليس فيها رضوخا لضغط العلمانيين قاعدة: "كل مجتهد مصيب" وعدم حسم القضايا التي دخلت على دين الله تعالى من قبل المتكلمين، مما جعل للعلمانيين سبيلا للتلعب بدين الله تعالى، ووجود ثغرات لهم لنفي أصلها ورد حقيقتها.

---

[1] - العنف الأصولي ص 233.

[2] - انظر الموافقات 176/2.

[3] - انظر إعلام الموقعين 142/2 وزاد المعاد 88/3 وروضة المحبين ص 93.

[4] - الموافقات 2/ص 176 وما بعدها.

مما يعلمه كل دارس لهذه الشريعة - أصولا وفروعا - أن الزمن قد أخذ حظه منها، وأن الكثير من المحاولات للدخول في تأويلها نجحت وأثمرت، بل واستقرت في داخلها، إلى درجة التمثيل والاستحقاق، أي صارت هذه التأويلات في نظر الناس هي الحقيقة الوحيدة لهذه الشريعة، مع غياب المفهوم الأول الذي فهمه الصحابة رضي الله عنهم منها، وهو المفهوم الصحيح لهذا التنزيل الحق ((خير الناس قرني)) وقد قامت خلال هذا الزمن محاولات جهادية مضنية لتحقيق التأويل الحقيقي لهذا الدين، ونفي هذا التزوير، وقد آتت ثمارها لكنها موضعية، أي بقي المد الأقوى للتأويل الفاسد الدخيل، فكانت محاولة ابن تيمية رحمه الله تعالى ثم تلاميذه ثم تلاميذهم، ثم محاولة محمد بن عبد الوهاب وما أثمرت في العالم الإسلامي، لكن كما قلنا بقي التجديد موضعيا محصورا.

الخليط الذي قاله بعض القادة الأوائل - صوفية سلفية - وما هو جار مجراها فتح باب التلفيق وعدم حسم القضايا، وبالتالي باب التميع والجمع بين المتناقضات في الشخصية الواحدة، سواء كانت هذه الشخصية حقيقية أم اعتبارية، تبدأ النظرية بأن كل المعروض حق، وهو فقه إسلامي، أي جائز الأخذ به، وليس هذا القول بأولى من الآخر قبولا أو ردا، وبالتالي علينا التخير بما يلائم واقعنا وحياتنا، أو بما يقدر أن يعيننا في مناظرتنا وحجاجنا لخصوم الإسلام، وأنا هنا لا أتكلم فقط عن الفروع ولكن القضية الأولى والأبرز في هذا الموضوع هي القاعدة التي يعتمد عليها هؤلاء الآرائيون وهي أن الشريعة كانت لينة في استجابتها للتغيير بسبب دخول علل جديدة على حياة الناس وأفكارهم.

الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه "السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي" في استجابته للخصومة بينه وبين السلفيين اضطر البوطي أن يبرر بدعة العقيدة على يد الأوائل، وأن يجعل البدع التي قاتلها السلف ونفروا الناس منها ما هي إلا الحقيقة الأولى عند الصحابة، وإنما تطورت استجابة للواقع ولرد الشبه التي أحدثها المولدون (المسلمون الجدد)، أي أن مذهب الخلف هو مذهب السلف (لا يزيد ولا ينقص) ولكن تطور ليوافق الواقع المعيش.

ومع أن البوطي يستدل بالكوني المتغير والمتطور (والصحيح المكتشف والمستثمر) على الشرعي (وهذا منتهى الفجاجة والجهالة) إلا أنه في النهاية يفتح هذا الباب (مع إخوانه) على جواز تطور الشريعة لتوافق الظروف الجديدة.

الآرائية جسر العلمانية: (أوجه التشابه)

لقد مدح هؤلاء الآرائيون منهج البدعة التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة))،[1] فجاء هؤلاء ليقولوا أن ما فعله الأوائل من بدعة هو منتهى الحق، لأنهم استجابوا لظروف حياتهم، ثم ذهبوا يبررون الفارق بين علم السلف وعلم الخلف لا على أساس ما فعله الخلف - أنه سبب انحطاط الأمة وذهاب قوتها وعزها - ولكن على أساس مدح المبتدعة بأنهم قدموا الإسلام الجديد للوضع الجديد.

هذه القاعدة التي يقولها هؤلاء القوم هي عين القاعدة التي يحتج بها العلمانيون على طريقتهم المبتدعة والجديدة في دراسة الشريعة، صحيح أن الكثير من النتائج مختلفة عند الفريقين لكن القواعد بين الفريقين قواعد مشتركة.

لو قرأ المرء كتاب عزيز العظمة "العلمانية من منظور مختلف" وهو من أوقح العلمانيين في طرح ما يريد كما في كتابه المذكور، لرأى أن موقفه من تبني العلمانية خارج - رغم أنفه - من رؤيته لتطور الإسلام وتغييره (استجابة للسلطة لا كما يعتقد البوطي)، وقوله هذا نفس مخرج محمد أركون حين برر لنفسه ابتداع أصول فقه جديد لفهم النص، وهو نفس قول ومخرج نصر حامد أبو زيد،[2] وهي القاعدة التي ذكرها البوطي في كتابه "السلفية".

القاعدة واحدة وهي أن الأوائل أولوا النص، وداروا به، وحاوروه، واستجابوا في تفسيره للأفكار الجديدة الوافدة، وهؤلاء الأوائل لم يخرجوا من دائرة الإسلام، ولم يعنفهم أحد، بل

---

[1] – حديث حسن من حديث العرباض بن سارية رض الله عنه.

[2] – انظر مقدمة كتابه "مفهوم النص".

عدهم الناس أئمة وقادة، وعلماء، ومجددين، فلماذا يحرم علينا هذا الفعل، ولماذا لا نطور النص بقواعد جديدة، ونفهمه بآلية حديثة؟.

هذه هي القضية وهي إحدى مشتركات العلمانية مع الآرائية الحديثة أو هي إحدى ثغرات الآرائية للبناء العلماني.

الأمثلة على هذا المشترك كثيرة، ولعل القارئ الباحث لا يعجز عن رؤية الكم الهالل من المداحين لأئمة التغيير والتبديل في التاريخ الإسلامي حيث تصبغ عليهم عبارات هائلة من المدح والتعظيم، وتطلق عليهم أوصاف العقلانية والتجديد، وأنهم كانوا الأقدر على فهم الإسلام وتطويره ليوافق ويحاكي الثقافات الوافدة.

هل يعجز المرء أن يرى قصور المدح الشامخة على شخصية مثل الفارابي والكندي وابن سينا، وجمهور الفلاسفة المشائين في العصور الإسلامية السالفة؟.

هل يفوت المرء رؤية الإشادة العجيبة بكل من حاول أن يذلل الشريعة للوافد الجديد من الثقافات الوضعية كابن رشد الحفيد كما في كتابه "فصل المقال"؟

الواضح من كل هذا أنهم يريدون أن يجعلوا الشريعة مجالا للحوار الفاتح أبوابها لتخرج لنا أحكاما جديدة تناقض ما عرفه الأوائل.

لقد وقف السلف الصالح موقفا صلبا أمام الغير، وحذروا منه أشد التحذير، حذروا من موضوعه وحذروا من أسلوبه، لأنهم أيقنوا أنه ما من خير إلا في هذا الدين بمصدريه الكتاب والسنة، وليس هناك من معرفة - مما تسمى معرفة إنسانية حسب تعبيراتهم - إلا في هذا الدين الكفاية لها، لكنها قد لا تجد لها رجالا، وإنه لمنتهى الشقاء السماح للعقل المسلم أن يفتح بابه للغير طلبا للهدى والرشد، ولقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك حين غضب من عمر رضي الله عنه وقد رأى في يده ورقات من التوراة وقال: ((**أمتهوكون أنتم؟، والله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي**))، ولم يكن إعراض السلف عن هذه العلوم تخلفا ولا رجعية، ولا من قصور في الفهم، ولكن لشدة عقلهم وإدراكهم أن شرها أكثر من خيرها، ولو كان فيها الصلاح والهدى لنفعت أصحابها، ولذلك فإن هذا الذي يسميه البوطي والغنوشي

وطارق البشري ومحمد عمارة وفلول الهزيمة، وجماعة التصفيق: تقدما وحضارة، إنما هو منتهى الهزيمة، وقمة الانحدار والرجعية.

إن علم الكلام الذي مدحه هؤلاء، وإن الفلسفة الإسلامية المزعومة هي التي عطلت العقل المسلم عن الإبداع، وفرغت نفسيته من كل احتمالات النهوض والتقدم.

نعم لقد أوجد علماء الكلام وكذا الفلاسفة المشائين الأرضية الفكرية للانحلال الديني والذي أفرز آثاره التشريعية والاجتماعية والسياسية وبالتالي الهزيمة العسكرية، وإذ الإقتصار على الوحيين - الكتاب والسنة - في صياغة الإنسان المسلم هي التي توجد في كل عصر شخصية المسلم الصحابي المتجددة في كل وقت وحين، والتي تملك القدرة على صياغة الحياة على أسس جديدة، ولا ترى احتمال الترقيع والتلفيق، والذي يسميه بعضهم استلهاما (كما سماه طه جابر العلواني في كتابه "الأزمة الفكرية المعاصرة")، لأن هذا التلفيق مبدؤه الشعور بالنقص من كمال (النظام المعرفي) المعطى من الكتاب والسنة، وإنه لن يصيبنا الخجل من تمسكنا بكمال مصدرنا واقتصارنا عليه حتى لو أطلق هؤلاء الخصوم على هذا التمسك تخلفا أو انتحارا.

لقد وضع الأستاذ سيد قطب يده على مفتاح شخصية الصحابي الأول وهداه الله إلى إدراك سرها كما ذكر ذلك في كتابه "معالم في الطريق"، فصل "جيل قرآني فريد".

يجب علينا أن ندرك أن كثيرا من مجالات الإبداع الممدوحة من قبل هذه التيارات هي قمة البدعة والانحطاط والذم، فليس من إبداع الإسلام العمارة الإسلامية، إذ أن هذه العمارة والتي يفتخر بها هؤلاء الآرائيون هي قمة الانحطاط والرذيلة، فهذا الذي يأتي ليمدح لنا مثلا قصر الحمراء ليدلل على إبداع العقل المسلم وحضارته هو في الحقيقة يقدم الدليل على أن عصور الانحطاط أو بدايتها هي قمة الإبداع لهذا الدين الرباني، فليس من الإسلام هذا البذخ وهذا البناء الباذخ، وليس من الإسلام ما يسمى بالفنون الإسلامية مثل فن الموسيقى، وفن العمارة الباذخة والتطاول فيها، وغيرها من الفنون المذهبة لحقيقة وجود المسلم على هذه الأرض، وبالتالي مقصد وجود الإنسان كذلك.

نعم سيعودون علينا بزمزمة الأوائل مدعين أن هذا مذهب الحشوية وهو مذهب العوام وهو طريقة الوعظ والإرشاد، وكما يسمونها طريقة الحكمة والموعظة (كما سماها الفلاسفة) وأما هم فهم أهل البرهان والمنطق والنظر الثاقب (كما يسميها الفلاسفة كذلك).

دعوى تطوير الشريعة (من التأويل إلى التلوين):

نعود إلى ما بدأنا به من الإشارة إلى دور الآرائيين من فتح باب تطور الشريعة حين سموا البدع الحادثة من متصوفة ومتكلمين وفلاسفة أنها فعل مجيد رائع ممدوح، وذلك حين أرادوا أن يبرروا تأويل الشريعة وتغيير مفاهيمها لتساير الوقت والزمن، فجاء العلمانيون وبنوا على هذه المقدمة النتيجة التي يسعون إليها حين توجهوا إلى التراث (كما يسمونه) ليدرسوه حسب معطيات هذا العصر ونتائج مكتشفاته من علوم اجتماعية ولسانية وإنسانية ليخرجوا بنتائجهم التي أوقفوا أنفسهم عليها يبدونها حينا ويرطنون بها حينا آخر.

إن هذه الشريعة هي دين الله تعالى أنزلها للبشر ليحققوا العبودية له، بتصديق خبرها وامتثال أمرها وإن أعظم الناس فهما لها، وإدراكا لمرادها هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كل خير في اتباعهم وكل شر في مخالفتهم وتنكب طريقهم.

علينا أن لا نبقى نردد أن ما يمدحونه من ثورات المعتزلة الفكرية - وتجديدية الفلاسفة - كالكندي والفارابي وابن سينا وإشراقية الصوفية وهي ثورات على الإسلام، وليست منه ولا تلتقي معه لا في الجوهر ولا في الأسلوب.

قال اليافعي في "نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية": لما سعي بالصوفية إلى بعض الخلفاء، أمر بضرب رقابهم فأما الجنيد فتستر بالفقه. [ص 422].

قال الشافعي- رحمه الله -: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.[1] ظاهرة اختراق الوضع البشري وخيالاتهم للوحي الرباني ممتدة منذ القدم، وقد نجحت مع الأديان الأولى، ولم يكن الإسلام خارج هذه الدائرة، فإنه منذ بدايته بدأت هذه

[1] – صون المنطق والكلام للسيوطي.

المحاولات، وترتيب ظاهرة الاختراق يبدأ بالرفض والتنفير، حيث يكتشف الأوائل أصل النحلة الوافدة، وآليتها، وأبعادها الشركية والوثنية، وبالتالي يعلن العلماء للمسلمين أن هذه النحلة وهذا الدين هو دين شركي وثني فلا يجوز للمسلم أن يقترب منه أو يدور حوله، بل الواجب أن يفر وينفر منه، وفي المرحلة التالية يبدأ البعض بالنظر إلى الجوانب التي تتفق هذه النحلة في بعض آليتها وأعمالها مع الإسلام، فيبدأ بكشف جوانب اللقاء، ويفخم الأحاديث والآثار التي تشير إلى رياضات الطريقة وأعمالها وفرائضها حتى إذا وجد لهذه النحلة الجديدة القبول عن طريق العرض الجزئي لها ومدحه وتقريره، يصبح التعاطي معها جزءا من الإسلام والانتساب إليها لا يغض أو يخدش في الانتساب إلى الإسلام، ولنا على ذلك مثلان هما: نحلة التصوف ونحلة الفلسفة.

الاختراق (تلوين الشريعة قديما):

المثل الأول هو التصوف: ثبت أن التصوف عندما دخل على المسلمين أعلنوا استنكارهم ورفضهم له، وأدركوا الصوفية على حقيقتها وأنها دين جديد، وبالتالي تعاملوا معهم على أنهم كفار، فأفتوا بقتلهم ردة وزندقة، لأن المذهب الجديد والنحلة الوافدة تظهر في بداية أمرها بصورتها الحقيقية وتعرض نفسها بوجهها السافر، والصوفية دون تقية هي مذهب ونحلة كفرية، عقيدتها وحدة الوجود (أي لا فارق بين الخالق والمخلوق)، ولها رياضات (طريقة) لتحقيق هذه العقيدة تقوم على: السهر والجوع والخلوة، ولها بعض المنشطات الأخرى كالذكر مثلا، فبعد أن تواجه من قبل المسلمين بالرفض والتكفير، تبدأ المحاولات التالية على صورة تكييف المذهب والنحلة على وجه يوافق الإسلام، وذلك بعرض بعض الموافقات بين الإسلام والمذهب (كالصوفية مثلا)، فالجنيد تستر بالفقه، وعملية تضخيم جوانب اللقاء هذه الرياضات الصوفية من خلال الأحاديث النبوية الصحيحة والضعيفة، فيبدأ الكلام عن الخلوة تحت باب الزهد، ويبدأ الكلام عن السهر تحت باب قيام الليل، والكلام عن الجوع تحت باب الصيام، وبالتالي تسلم الصوفية (حسب تعبيراتهم) أو يتصوف الإسلام، والجهل هو أرضية هذا الزرع والنتاج، وبالتقادم مع عاملي التكرار والزمن تستقر الصوفية داخل الإسلام وتصبح جزءا منه،

وتصبح من واجبات المسلم الدينية أن يصبح صوفيا، والخارج عنها خارج عن الإسلام، فيصبح للصوفية فقه جديد، وكتب خاصة، وطرق ومشايخ ومؤسسات، ولم تعجز الصوفية من التقاط بعض الأذكياء إليها ليقوموا بالمهمات الصعبة وعلى رأسها صياغة الإسلام من خلال الدين الصوفي، كما قام بكثير من هذا العبء أبو حامد الغزالي كما في كتابه "إحياء علوم الدين"، حيث مزج الفقه والتوحيد والأخلاق الإسلامية بالتصوف حتى صار شيئا واحدا، والنتيجة الويل كل الويل لمن حاول أن يقول للناس الحقيقة، والشأن كل الشأن لمن يقول:

ومالك وسائر الأئمة كذا أبو القاسم هداة الأمة

فواجب تقليد حبر منهم كذا حكى القوم بلفظ يفهم[1]

فصار تقليد أبي القاسم واجبا من واجبات الدين.

المثل الثاني هو الفلسفة: والفلسفة صناعة بشرية عمادها نبذ الوحي، وهي وافد لها عقيدة خاصة ورياضة خاصة (أي دين مستقل)، وقد عانت الفلسفة وإفرازاتها الفكرية الكثير عندما جاءت إلى الصف الإسلامي، وحكم العلماء الأفذاذ عليها بالكفر والزندقة، وكانوا يلاحقونها بسيف الشرع والإسلام، وقد قتل الكثير من رجالها بفتاوى أهل الدين والحق، لكنها تستكن حينا ثم تبرز على الطريقة التي شرحناها مع الصوفية، فتسلم الفلسفة أو يتفلسف الإسلام، وتصاغ الفلسفة بطريقة إسلامية، ويصبح علم الكلام، والذي يعد من أبرز إفرازاتها في المجتمع الإسلامي هو راية الإسلام، ورأسه، وعقيدته، حتى قيل: والعجب ممن يقول: ليس في القرآن علم الكلام،[2] وبالتالي تصبح الفلسفة مسلمة، أي تسلم الفلسفة، وينتهي الأمر إلى: أن الحكمة (أي الفلسفة) هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة، فالأذية ممن ينسب إليها هي شر الأذية، مع ما يقع بينهما من العداوة والبغضاء والمشاجرة، وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة.[3]

ولسنا الآن في معرض نقاش الآثار الشنيعة السيئة لهذا الاختراق، فإن شرح آثار الصوفية المجرمة على العقل المسلم وعلى المجتمع الإسلامي تحتاج إلى مجلدات، وكذا الفلسفة وإفرازاتها

---

[1] – جوهرة التوحيد.

[2] – من كلام أبي القاسم القشيري.

[3] – "فصل المقال" لابن رشد الحفيد.

فإن هذه المذاهب الوافدة قد دمرت الأمة الإسلامية، وما هذه الثمار السيئة التي نعيشها إلا صورة مصغرة من آثار هذه الوافدات الخبيثة.

لماذا أذكر بهذا؟ وما هو فائدة هذا التنبيه؟ ليس الحديث عن الصوفية والفلسفة باعتبارهما مثلين لهذا الاختراق إلا مدخلا لهذه الاختراقات التي نراها في هذا العصر الذي نعيشه، مع أن التذكير بهذه الاختراقات مهم جدا لأننا مازلنا نعيش آثار هذه الأفكار القديمة، فما زالت الصوفية تعمل فينا وفي عقليتنا وفي اختياراتنا، وكذا المنطق وعلم الكلام والفلسفة، ولكن ما يهمني هنا هو أن نمثل القديم لنعرف حقيقة ما يجري حولنا من اختراقات شركية، ومحاولات تدمير عن طريق الوافدات الجديدة ولنتذكر أن مبدأ الاختراق يقوم على التفريق بين معتقد المذهب وبين وسيلته، فالصوفية عقيدة وطريقة وكذا الفلسفة، وحين يريد أصحاب هذه المذاهب إدخال هذه الوافدات على الإسلام فإنهم يفرقون بين الطريقة والعقيدة وهذا منتهى التدليس والتقية.

أهل الاختراق يشعرون المسلمين دائما بحاجة الإسلام إلى الطريقة لإعطائه الفاعلية والحركة، هكذا صنعت الصوفية وهكذا صنعت الفلسفة وهكذا تم اختراق الإسلام ومفاهيمه.

الاختراق (تلوين الشريعة حديثا):

جاءت الاشتراكية بارتباطها العقدي وطريقتها الاقتصادية وزورت لباسها على المسلمين بهذا التفريق (أي التفريق بين العقيدة والطريقة)، ومع أنها في بداية الأمر ككل المذاهب والنحل الوافدة طرحت نفسها بصورتها الحقيقية وبأبعادها الشاملة فلما سل عليها حكم التكفير والزندقة عادت لتتخفى بهذا التفريق المذكور، فانطلت الحيلة وصار الإسلام اشتراكيا أو بالمصطلح الذي ذكرناه: أسلمت الاشتراكية، وبالتالي أصبح الإسلام: الطريقة =صوفية، الحكمة = فلسفية، الاقتصاد = اشتراكية.

ثم جاءت الديمقراطية، وكانت عند أصحابها دينا إنسانيا لها بعدها العقدي (الأيديولوجي) ولها بعدها السياسي الليبرالي، وكما قال الأوائل عن الصوفية الأولى وعن الفلسفة الأولى أنها كفر وزندقة، وسلت عليها سيوف العلم والجهاد، حيث قالوا عنها أنها دين جديد له كل

خصائص الدين، وأنها طريقة وعقيدة، عادت وتخفت وخرجت لنا بالثوب الجديد، وهو التفريق بين الديمقراطية كدين وبين الديمقراطية كوسيلة (طريقة)، مع أن ارتباط الحقيقة (العقيدة) بالطريقة (الوسيلة) هو ارتباط حتمي وعضوي، والتفريق بينهما هو تزوير للحقيقة والواقع، لكنهم بعد هذا التفريق صيروا الإسلام ديمقراطيا أو بالتعبير السابق: أسلمت الديمقراطية.

هل يمكن تصور عدم تأثر العقيدة مع تغير الطريقة؟.

الجواب ابتداء: لا وألف لا، فإن هذه الطريقة هي طريقة خداعية لتمرير القضية خطوة خطوة، وهكذا مذهب إبليس وطريقته - خطوات الشيطان - فعندما يرفض الناس المذهب جملة واحدة فلا مانع من إعطائه لهم جرعات متفرقة بدءا بالأخف وانتهاء بالأشد.

نعم استقرت الصوفية في الإسلام، وصارت هي الإسلام، والإسلام هو الصوفية، وليس من حرج أن نكرر مرة أخرى - أسلمة الصوفية أو تصوف الإسلام - ولكن هل استقرت الصوفية في الإسلام كطريقة فقط، أم أنها بعد ذلك حملت الناس من الطريقة إلى العقيدة؟ لقد استعملت الصوفية التقية في موضوع العقيدة، وبقيت تظهرها بعد أن يبلغ المرء منتهى الاستسلام، ولذلك ليس مستغربا أن يأتي لنا شيخ محدث مثلا ليجعل عقيدة الإسلام هي وحدة الوجود، انظر كلام الغماري في شرحه حديث ((من عادى لي وليا)) ورده على الإمام الذهبي - والشيخ من المعاصرين -، هذا غيض من فيض، لقد سيطرت الصوفية بعقيدتها مع طريقتها على عقائد جملة من الناس تحت اسم الإسلام والاهتداء بالكتاب والسنة.

وكذا فعلت الحكمة الفلسفية، أدخلت المنطق إلى طريقة التفكر والنظر، واستقر المنطق في كتب العقائد[1]، واستقر بعد ذلك في أصول الفقه،[2] وبعد أن تم لها هذا لم تجبن في عرض عقيدتها بعد أن صار لاسمها الاحترام والتقدير، فانتهى الأمر أن العقيدة الفلسفية هي نفس العقيدة الإسلامية.[3]

---

[1] – انظر شرح المقاصد.

[2] – انظر "المستصفى" للغزالي.

[3] – انظر "تهافت التهافت" لابن رشد.

والآن جاءت الديمقراطية: المشايخ يطرحونها باعتبارها طريقة حكم، ووسيلة سياسة، ويفرقون بينها وبين عقيدتها (العلمانية)، ويقولون إن الديمقراطية هي لب الإسلام وجوهره، حتى أن الشيخ المعمم يوسف قرضاوي لم يخجل من القول إن الإسلام يستوعب الديمقراطية بكل تجلياتها.

ولكن، هل هؤلاء في الحقيقة لا يعتقدون عقيدة الديمقراطية؟ الجواب يظهر من تصريحاتهم وبياناتهم وأنهم صاروا يعتقدون العقيدة الإنسانية التي تعطي الإنسان استقلالية حياته في هذه الدنيا عن الغيب والآخرة.

صار الإسلام إنسانيا أي لم يعد الإسلام الذي عرفه الصحابة رضي الله عنهم، والذي جعل هذه الدنيا محطة للآخرة، وأن الإنسان عبد الله، بل صارت الدنيا هي غاية المنى وعلى ضوء أحكامها ومصالحها يستنبط الناس الأحكام والتشريعات دون النظر إلى المقصد ا لأخروي.

وكما حارب الناس قديما من حارب الصوفية، وكما حارب الناس قديما من حارب المنطق وعلم الكلام فها هو التاريخ يتجدد على هذا النسق مع الديمقراطية، إذ صار المسلم المتنور والمفكر الذكي الواعي والمستنير هو المفكر الديمقراطي، وحتى الذين يعرفون منشأ الأسلوب (الطريقة) الديمقراطية، ويعرفون منبتها وعقيدتها فإنهم يفرقون بين العقيدة والطريقة، وهذا عندهم منتهى الأصولية، أي أننا أمام نوعين من المسلمين: مسلم يؤمن بالديمقراطية وجميع تجلياتها، ومسلم يؤمن بالطريقة ويكفر بالعقيدة، لكنا نقول كما قال سلفنا: كلاهما كفر وردة وحكمنا فيهم أنهم زنادقة.

قال الشافعي ومالك رحمهما الله: علماء الكلام زنادقة.

قاعدة التفريق بين الطريقة والعقيدة (الدين وسيلة أم غاية..؟!):

من أساليب أهل البدع الآرائيين التفريق بين الطريقة والعقيدة، فهم يمررون المذهب الجديد والنحلة الوافدة تحت باب إضفاء الفاعلية والحركة على هذا الدين، وذلك بأخذ الطريقة من المذهب والنحلة الوافدة، كما رأينا هذا واضحا مع الصوفي والفلسفة سابقا، وهذا هو الواقع مع الديمقراطية، فإنهم لأسلمة الديمقراطية أو لتحريف الإسلام في البداية فرقوا بين العقيدة

الديمقراطية وبين أسلوبها، فهم يزعمون أنهم أخذوا الديمقراطية بآليتها وحركتها وتنظيمها وأسلوبها ورفضوها عقيدة (وأيدلوجية)، وهذا التفريق مرحلي عند البعض، وإلا فإن الكثير صار ديمقراطيا باعتقاده، أي أنه ذهب يفسر الإسلام من خلال أصل النحلة الديمقراطية وعقيدتها، فصار الإسلام إنساني الوضع، دنيوي الأحكام، لا علاقة له بالآخرة، ولا قيمة لضرورة الدين والرضى الإلهي، وهذا قد بسطناه قليلا فيما سبق عند ذكرنا لمفهوم المصلحة الشرعية والمصلحة في عرف الآرائيين.

وإن من أخطر هذه المظاهر لهذا الاختراق هو الحديث عن الإسلام باعتباره دينا نافعا لا بحقيقة أنه الدين الوحيد الصحيح، وشرح المسألة كما يلي:

مبدأ العلاقة بين المسلم وبين الإسلام هي التعبد، وأنه ما خضع لهذا الدين إلا لكونه صادرا ممن له حق الأمر والنهي، فلو أمر الله تعالى عباده بما فيه ضررهم وعذابهم فعلى العباد أن يطيعوه ويمتثلوا أمره كما أمر الله تعالى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام -، وأساس ذلك تصديقهم خبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه صادر من الله تعالى ولو لم تحتمله عقولهم، نعم كان من رحمة الله تعالى بعباده أنه ما من أمر أمرهم إياه إلا وفيه تحقيق لمنفعتهم في الدنيا والآخرة، وما من خبر أعلمهم إياه إلا وفي عقولهم القدرة على فهمه وإدراك معناه، وهذا هو لب دين الإسلام ومعناه وجوهره، وأما المبتدعة الجدد والآرائيون والحداثيون فلهم تصور آخر مع هذه الحقيقة وسأسوق قصتين بهما أستطيع إيصال هذا الفارق لإخواني:

القصة الأولى: من المعلوم أن الشيوعية لا تؤمن بالأديان السماوية، وتنفي عالم الغيب بكل ما فيه، ومن هذا الغيب الله سبحانه وتعالى، وقد حاربت الشيوعية الأديان كلها، ولها تعامل خاص مع الإسلام وأهله، فالشيوعيون يكنون حقدا وعداء خاصا للإسلام ولا نريد أن نأتي على شرح أسباب هذا الخصوص، أقول: ومع أن الشيوعية تنكر الأديان، لكن هذا لم يمنع ستالين من أن يفتح الكنائس ويستدعي القساوسة ليدخلهم إلى جبهات القتال، ويفتح لهم أماكن الاجتماعات ليواجهوا الرعايا وذلك خلال الحرب العالمية الثانية، وعندما اجتاح هتلر روسيا، وسبب ذلك أن ستالين رأى في الدين عاملا مهما لتحقيق النجاحات والانتصارات

ضد هتلر والألمان والنازيين، فهو لا يعتقد بالأديان ولكن رأى أنه يمكن استغلال الدين في هذه المرحلة لدفع الناس للمقاومة والجنود للحرب، ولهذا أمر بالكنائس أن تضرب النواقيس، وللقساوسة أن يأخذوا دورهم في التحريض والمقاومة، فأنت ترى أن ستالين لم يكن يهمه صحة الدين أو عدم صحته وصواب الدين أو عدم صوابه، بل رأى في الدين عاملا نافعا لهذه المرحلة.

القصة الثانية: الجنرال باتون الأمريكي، أحد القادة في الحرب العالمية الثانية كان بحاجة في إحدى معاركه إلى يوم صحو لتحقيق بعض الإنجازات العسكرية ضد الألمان، فاستدعى رجل الدين النصراني المرافق للجيش، وطلب منه أن يكتب له صيغة صلاة ليسأل فيها ربه لتحقيق يوم صحو، وبالفعل كتب له صيغة الصلاة وقدر الله أن يكون اليوم الذي طلبه صحوا، وبعد المعركة استدعى الجنرال باتون القس العسكري وقلده وساما خاصا لحسن علاقة القس مع ربه كما قال الجنرال.

القصة حقيقية وتظهر لنا أن الدين بالنسبة لهذا النوع من البشر هو لتحقيق مقصد دنيوي، به تحصل المنفعة، وهي صورة تتكرر في استخدام الدين باعتباره يحقق مصلحة لا باعتباره دينا حقا، يحقق العبودية لرب العباد، كما استخدم الجيش المصري شعار "الله أكبر" في معركة أكتوبر ضد اليهود، وكما تضع الكثير من المؤسسات العلمية والاجتماعية بعض الشعارات الدينية، سواء كانت إسلامية من آيات قرآنية أو أحاديث نبوية، أو غير إسلامية.

فالدين إذا عند هؤلاء هو أحد العوامل التي تستخدم لتحقيق الهدف الدنيوي، لا أن الدين بنفسه هو الهدف، وهو شبيه برفع الدولة السعودية شعار لا إله إلا الله محمد رسول الله، ورفع صدام البعثي شعار "الله أكبر"، وغيرها من الأمثلة، فالدين عندهم وسيلة لا غاية لتحقيق العبودية لرب العباد التي هي غاية الغايات بالنسبة للمسلم الصادق، ولذلك مصلحة الدين تقدم على أي مصلحة، وضرورة الدين لا تعادلها ضرورة، فالنفوس تموت من أجل الدين، والأموال تنفق لرفعة الدين، وكل المصالح تنهار في سبيل تحقيق إقامة الدين وإعلائه.

قراءة في التحالف الآرائي العلماني:

كيف نقرأ هذا التوجه في لهم الدين عند الآرائيين المبتدعة؟.

في اللقاءات التي تقع بين هؤلاء المبتدعة وبين القوميين والوطنيين، وكذلك في مؤتمرات الأديان، نرى أن القضية تجاوزت، بل لم تعد تجد الاهتمام في عقول المبتدعة في أمر دعوة الخصوم إلى الإسلام، وبيان حق الله تعالى على العبيد {**يعبدونني لا يشركون بي شيئا**}، {**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله...**} بل صارت هذه اللقاءات تعقد للاتفاق على ضرورة استخدام كل طرف لقواه الفاعلة لتحقيق أهداف مشتركة، مثل الوقوف أمام الإلحاد، أو تحقيق الوحدة الوطنية، أو تعميق مبادئ الديمقراطية والحرية أو الوقوف ضد الطغيان الأجنبي وإليك الأمثلة:

في بيروت من تاريخ (10-12 تشرين الأول / أكتوبر سنة 1994) تم عقد المؤتمر القومي الإسلامي، وبتمثيل من الجانبين القومي والإسلامي كونت مجموعة من الشيخ غير المعمم راشد الغنوشي والدكتور خير الدين حسيب، والدكتور أحمد صدقي الدجاني، ومن عصام نعمان (ممثلا عن الدكتور حسن الترابي)، قدم الإسلاميون[1]، قلت قدم المبتدعة ورقة عمل بتكليف من اللجنة المذكورة، وكان ممثلو التيار الإسلامي هم: فهمي هويدي، محمد سليم العوا، محمد عمارة، يوسف القرضاوي، وقالوا الكثير من الضلالات في ورقتهم وما يهمنا هنا هو البنود والتوصيات ا لتالية:

8 - (حسب تسلسل الورقة المقدمة) ولأن التحديات على درجة من الخطورة غير مسبوقة في تاريخنا المعاصر، والانهيارات في الجبهات العربية تتوالى بسرعة مخيفة، فإن التيار الإسلامي لا يرى أي جدوى من إنفاق الأوقات التي تخصص لهذه اللقاءات في مناقشة الماضي، أو محاولات كل تيار لتبرئة ساحته مما يرميه البعض به من تهم، وإنما الذي نراه مجديا ومؤثرا هو أن يتطلع المفكرون والقياديون المجتمعون إلى الحاضر والمستقبل، يحاولون في الحاضر مقاومة الاستسلام الرسمي لمحاولات الاستتباع والإضعاف وقهر الإرادة الوطنية، ويحاولون في

---

1 – حسب تعبيرات العلمانية الصلبة، يعنون بما الإسلاميين الأصوليين، وإذا كان راشد والترابي من الأصوليين فقد هزلت وبان هزالها حتى سامها كل مفلس.

المستقبل صنع ا لوسائل الكفيلة بتغير الواقع المر باستعادة السيادة الوطنية واستقلال القرار العربي وفرض الحق على الناكبين عنه والرافضين له.

قلت: لا يوجد في هذه النقطة ولا في كل الورقة إشارة إلى صراع الإسلام باعتباره دين الله تعالى مع أديان الشيطان ومذاهبه، ولا قضية التوحيد مع الشرك، ولا يوجد إشارة ولو خفيفة إلى أساس الخصومة {**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**}.

13 - ويفتح هذا اللقاء أبواب التفاهم الاستراتيجي بين التيارين القومي والإسلامي حول القضايا التي يجب حسمها في سبيل صياغة مشروع للنهضة العربية في مواجهة محاولات ترسيخ الاستذلال والاستتباع للصهيونية والغرب.

قلت: التيار القومي مدعو إلى المشاركة في صياغة مشروع النهضة العربية وهو التيار الذي صنع الكثير من المصائب السياسية والاقتصادية والفكرية، وما الحزب القومي السوري وأعمدته عنا ببعيد، فإن أغلب العلمانيين الحاقدين على الإسلام من نتاج هذا الحزب وهذا التيار، فهل يقال بعد هذا أن القوميين الكفرة مدعوون لصياغة مشروع النهضة للأمة المحمدية، سبحانك هذا كفر صريح.

14 - وأولى هذه القضايا هي قضية المرجعية الإسلامية العامة لهذه الأمة، فالتيار الإسلامي يرى أن هذه المرجعية لا تكون إلا للإسلام، وأن عوامل القوى الأخرى للاعتزاز القومي بالتاريخ وبالنضال والأبطال وبالمواقف يجب أن تكون إضافة مقدرة إلى رصيد المرجعية الإسلامية ولا يجوز أن تكون تحت أي ظرف خصما من هذا الرصيد أو عبئا عليه.

قلت : أرأيت أخي المسلم ما هو مفهوم الإسلام عند هؤلاء المبتدعة؟ إنه إسلام التاريخ، والانتساب الحضاري، لا إسلام الاستسلام لرب العباد، واعلم أن هذا الذي يقولون هو عين ما يقوله البعثيون والقوميون عن الإسلام وهو نفس قول ميشيل عفلق النصراني البعثي عن الإسلام، ولهذا لا تعجب من التحالفات التي تقوم بين هؤلاء المبتدعة وبين المرتدين.

15 - والانتقال من القاعدة الديمقراطية إلى الواقع العملي يبين أن الإسلام هو الطاقة الأقدر على تحريك الجماهير نحو موقع حضاري متقدم، وهو القوة الدافعة لنضال مستمر يخرج بالأمة من نكبتها الحالية إلى الموقع الحضاري المناسب.

قلت: إذا هذا هو الإسلام الذي يدعو إليه المبتدعة الآرائيون، الإسلام النافع لا الإسلام الصحيح الوحيد.

وبودي لو ذكرت شيئا من ورقة القوميين، ولكن ضيق المساحة يمنعني من هذا، ولكن البيان الختامي كان بمثابة تحقيق لما قلناه وهو أن الإسلام كان مستخدما نافعا لقضايا الشعوب بعيدا عن تدينهم، وبعيدا عن عبوديتهم لرب العباد، فاستخدم الإسلام لقضية تجميع الطاقات لمواجهة التحديات الراهنة ورد الهجمة الحضارية الغربية بإنشاء نموذج حضاري متميز بالعروبة والإسلام.

وهكذا يصبح الإسلام دينا نافعا لتحقيق أهداف الأحزاب والتنظيمات، وليس هو الدين الصحيح، والحق الوحيد، وما عداه كفر وضلال.

{**قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين**}، {**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**}، {**ودوا لو تدهن فيدهنون**}، {**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة**}، {**إن الدين عند الله الإسلام**} هذه الآيات القرآنية وغيرها من آيات شاهدة على ذلك، أن الدين الذي يعتقده هؤلاء المبتدعة في واد وهم في واد آخر، {**متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون**}.

الاختراق والتاريخ (تأسيس التلبيس):

ظاهرة سرقة الشعار والدعوة تتكرر على مر الأزمان والعصور، حيث يبدأ صاحب الدعوة على عقيدة ما ومنهج مميز قد يكون مكتملا في ذهنه وقد يكون عائما مسطحا، فيتجمع حوله الأنصار والمؤيدون، كل منهم دخلها لمقصد خاص له وبفهم خاص كذلك، فيتلقفها رجل مميز في قدراته وعقليته فيستطيع بهذه القدرات والمميزات أن يجير الدعوة إلى حسابه وفكرته، فيبقى الشعار على الوضع الأول حديديا مصمتا جامدا - ويتغير المحتوى والمضمون، حتى إذا شاع هذا الشعار مع المضمون الجديد صار أمر المصلحين عسيرا متعبا في رد الناس إلى الأمر الأول.

هذه الظاهرة حدثت في دين الله تعالى الذي أنزله على عيسى عليه السلام، فعيسى عليه السلام دعا إلى التوحيد، وإلى إفراد الله تعالى بالعبادة، وأخبر عن صفات الله تعالى وأنه ليس كمثله شيء، وأن العرش وما دونه مخلوقات لله تعالى، والله مستغن عن العرش وعن عبيده، وحذر العباد من الشرك والكفر، فحذرهم من عبادة الصور والتماثيل، وحذرهم من اتخاذهم الناس أربابا من دون الله تعالى، كل هذا كان واضحا وضوح الشمس في دعوة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، فلم يكن في دعوة عيسى عليه السلام ما يحتمل التأويل، في هذا الجانب، لأن هذا الجانب هو أس الدعوة وعمادها، فلذلك لا بد أن يكون صريحا واضحا، فتبعه أصحاب له هم خيرة الناس يوم ذاك، واصطفى منهم خواصا صاروا حواريين وأصفياء له، ثم رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وشبه على اليهود فصلبوا غيره، كل هذا كان واضحا في ذهن وعقلية الأصفياء، فكيف انحرفت الدعوة وتغير مضمونها بعد ذلك؟.

بعد أن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء نشط أتباعه بالدعوة إلى دين الله تعالى، وكلما ازدادت الدعوة نشاطا وقوة كلما ازداد غضب الشر عليها، فازداد اضطهاد اليهود لها، وازداد عذابهم لأتباعها، وكان هناك رجل قد تميز في بيت المقدس (حسب الروايات) في عذابه وبغضه لهذه الدعوة، كان هذا الرجل يهوديا يسمى شاؤول، وقد استطاع أن يستخرج فرمانا من الحاكم الروماني في بيت المقدس لقتل جماعة من أتباع عيسى عليه السلام في دمشق، حمل شاؤول الفرمان ووجه وجهه سائرا إلى دمشق، تقول الرواية: إنه دخل دمشق مؤمنا بدعوة المسيح عليه السلام، وادعى أنه رأى رؤيا في الطريق تدعوه إلى اتباع دين عيسى عليه السلام، كان خوف الحواريين منه شديدا، فتخوفوا منه ابتداء لكنه استطاع أن يكسب ثقتهم بعد مدة قصيرة من الزمن، ونشط معهم بالدعوة إلى الدين الجديد، كان أكثر الحواريين صداقة معه هو برنابا رضي الله عنه، حيث تصاحبا في كثير من أسفارهما ورحلاتهما إلى القرى والمدن للدعوة إلى الدين الإسلامي الذي أتى به عيسى عليه السلام، وفي رحلة طويلة لهما قصدا إلى شمال الدنيا وصل الاثنان إلى أنطاكية وهناك انفصلا، حيث وجه برنابا وجهته إلى جزائر البحر، وواصل شاؤول (الذي غير اسمه بعدما ادعى الإسلام وسمى نفسه بولس) مسيرته إلى

بلاد الرومان حيث استقر المقام به في عاصمة بلاد الرومان ومقر الإمبراطورية روما، وهناك بدأ التحريف والتزوير.

ما إن وصل إلى روما واستقر به المقام حتى بدأ يدعو إلى دين الإسلام الذي أتى به عيسى عليه السلام بمحتوى جديد ومضمون مختلف، فادعى هناك في روما أن عيسى تميز عن البشر، وأنه ليس بشرا بل هو ابن الله، وأن الرب (أباه) قد صلبه من أجل أن يخلص البشر من خطاياهم، فبهذا تم فداء البشر وانعتاقهم من ذنوبهم ومعاصيهم، وبدأ يكسب الأنصار والمؤيدين للدين تحت الشعار الأول ولكن بمضمون جديد، وفحوى متغيرة، يقال لهم من أنتم؟. يقولون: أتباع المسيح. ما دينكم؟. فيجيبون بأجوبة الشرك واعتقاد الكفر.

كثر الأتباع وانتشر الخبر حتى وصل إلى الحواريين، كان أكثرهم صدمة بهذا الحدث هو سمعان الصفا رضي الله عنه هو بطرس، (وبطرس تعني الصخرة التي يقام عليها الدين)، حمل بطرس نفسه ماشيا من بيت المقدس إلى روما يمشي حينا ويعان حينا بدابة حتى وصل إلى روما ليعلن للأتباع هناك ضلال هذا الدين وكذبه بنسبته إلى عيسى عليه السلام، تقول الروايات أن مشقة بطرس وصلت خلال مسيرته أنه تعرض للموت جوعا وعطشا مرات كثيرة، وأن رجليه نزفتا مرات كثيرة، لكن إخلاصه في بيان كذب بولس (شاؤول) دفعه لمواصلة الطريق إلى روما، عندما وصل روما بدأ يعلن ضلال وكذب شاؤول، فاستعدى أتباع شاؤول عليه الدولة هناك فقبضت عليه بعد أسبوع واحد من وصوله روما وحكموا عليه بالقتل فقتل، وواصل شاؤول دعوته في روما إلى الشرك والكفر تحت دعوى وشعار دين عيسى عليه السلام.

تقول الروايات أن برنابا أرسل مجموعة رسائل إلى الأتباع الجدد في روما يحذرهم من انحرافهم وشركهم كلها لم تنفع، واستغلها شاؤول استغلالا سيئا، بل إن قتل الرومان لبطرس قد استغله شاؤول في استدرار العطف والشفقة عليه وعلى أتباعه حيث نسبوا بطرس لمذهبهم ودينهم وأنه قتل شهيدا من قبل الطغاة الرومانيين.

وهكذا بقي الشعار والعنوان والنسبة إلى عيسى عليه السلام وانحرف المضمون وتبدل المحتوى، واستمر الصراع بين الموحدين في الشرق وبين الوثنيين في روما قائما حول - من أحق

بهذا الدين الجديد - واستمر على هذه الحالة سنين طويلة، حتى استطاع الوثنيون المثلثون كسب إمبراطور روماني إلى صفهم هو قسطنطين (والتي يسميه النصارى بقسطنطين الكبير أو القديس قسطنطين مع أنه لم يدخل في دينهم قط، فبعض الروايات تقول أنه تعمد نصرانيا على فراش الموت وبعضها ينفي هذا التعميد كلية) حيث أعانوه في تحقيق انفراده بالسلطة ضد خصومه، فحفظ لهم هذا الجميل وبدأ يدعم مذهبهم واتجاههم، وكذلك استطاعوا التاثير على أمه هيلانة حيث استمالوا قلبها إلى الدين الوثني الجديد، فاستغلوا السلطة الحاكمة في القضاء على خصومهم من الموحدين، تنصرت الدولة الرومانية على الطريقة الوثنية وبدأ تنكيلها وقتلها للموحدين في الشرق مما اضطر أصحاب التوحيد إلى الهرب إلى الجبال والقفار بعيدا عن بطش الدولة الرومانية، وبقي قلة منهم على طريق التوحيد حتى جاءهم الإسلام ودخل إلى بلادهم فدخلوا فيه وأسلموا، وهكذا سرق الشعار، وتحولت الدعوة بفعل رجل واحد غير الملة والدين، واستغل أتباعه السياسة والحكم فعاونتهم في القضاء على خصومهم وإبعادهم من الطريق، وها هو الدين المنسوب لعيسى عليه السلام يملأ أتباعه فجاج الأرض وليس فيهم موحد لله تعالى.

كاد هذا الأمر يحدث مع دين الله تعالى الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وما حادثة الردة التي كانت في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم ثم انتشرت بعد وفاته إلا مثالا لمحاولة الاختراق، ولولا أن الله تكفل بحفظ دينه، وأن الله أقام لهذا الدين هذا الصنف الرائع من الرجال، كأمثال أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبقية المؤمنين لصار دين الله تعالى أثرا بعد عين، ولصار إسلام التوحيد، إسلاما آخر بمحتوى جديد، فيه الإيمان بمسيلمة وسجاح.

وتكرر هذا الحدث مع الصديق الثاني أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في محنة خلق القرآن، حيث تقلد القضاء أئمة الاعتزال، (وخطبوا على المنابر ودخل الخليفة في دينهم ومذهبهم)، فضيق على الموحدين، فقتل منهم من قتل، وهرب منهم من هرب، وأجاب بعضهم تقية، ولم يصمد في المحنة إلا أحمد رحمه الله تعالى، حيث حفظ الله به هذا الدين وهذه الأمة من الانحراف والردة.

عصمة الأمة:

من الممتنع ردة جميع الأمة أو انحرافها وتغييرها تحت اسم الإسلام، فقد تكفل الله تعالى ببقاء جماعة على الحق لا يحيدون ولا يضطربون. قال صلى الله عليه وسلم: ((يحمل هذا العلم من كل خلف عدولهم ينفون عنه تحريف المغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين))، وقال فيهم الإمام أحمد رحمه الله تعالى في خطبة كتابه في "الرد على الجهمية": الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى هدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم.ا.هـ. أما أن تنحرف جماعة وترتد وهي ترفع شعار الإسلام وتنتسب لمحمد صلى الله عليه وسلم فهذا قد وقع منه الشيء الكثير:

فالإسماعيلية والقرامطة لهم دين عجيب غريب، ليس فيه شيء مما يصح انتسابه للكتاب والسنة ومع ذلك فإنهم ينتسبون للإسلام ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وها هم اليزيديون عبدة الشيطان ينتسبون للإسلام ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم ومع ذلك يعبدون الشيطان ويدينون له بالطاعة والولاء.

وهاهم القائلون بوحدة الوجود (لا فرق بين الخالق والمخلوق) ينتسبون للإسلام ولمحمد صلى الله عليه وسلم.

وها هم أهل البدع يرفعون شعار أهل السنة والجماعة كعبدة القبور، والقائلين بالجبر والتأويل والتجهم.

وأنت لو أنعمت النظر في الطريقة التي حصل فيها هذا التزييف وهذه السرقة لوجدت أن أغلبها يتم بالطريقة التي قدمناها مع شاؤول في تزييفه لدين الله تعالى (انحراف رجل داعية ثم تدخل السياسة في نصرته).

مسالك التزييف والتحريف:

اعلم (حفظك الله) أن هناك مزالق ومسهلات يتخذها هؤلاء المزيفون في تمرير بدعتهم أو كفرهم أسوقها لك على عجل:

1 - أهم هذه المزالق الشيطانية التي يتخذها هؤلاء المزيفون هو الزهد وادعاء الفقر والمسكنة، فأنت لو قرأت مبتدأ جميع الدعوات البدعية في التاريخ الإسلامي لوجدت أن الطريق الأول في بناء الأتباع هو اتباع الزهد والذلة، فهذا حمدان قرمط (مؤسس القرامطة)، وهذا ميمون القداح (مؤسس دولة العبيديين)، وهذا حسن الصباح (مؤسس قلعة الحشاشين في قلعة ألموت)، وهذا مؤسس الدين اليزيدي عبدة الشيطان وغيرهم كلهم بدأوا بإظهار الزهد والمسكنة.

2 - حسن السمت، وهذا الذي يسميه البعض بنور الوجه، فالمغفلون من البشر تغرهم وضاءة الوجه وحسن السمت، ولا يناقشون الحقائق، وأنت لو سألت الكثير من أتباع الطرق الصوفية عن دليل صدق طرقهم لأجابك: بأن شيخنا حفظه الله له وجه مشرق نير.

3 - القدرة الخطابية والتمكن من البلاغة، وكذا يلحق بها التمكن من المحاورة أو كما سماها بعضهم بإتقانه: من أين تؤكل الكتف.

4 - الانتساب لشرف المنبت والأصل، كالانتساب لآل البيت عليهم السلام مثلا.

وهذه التي ذكرناها قد يستخدمها المحق ويستخدمها المبطل، وهي ليست أدلة إثبات الحق ممن دليله في داخله، فعلى داعي الحق أن لا يفوتها لأن الكثير من الناس تغرهم المظاهر والرسوم، ولا يعيرون الدراسة والفهم أدنى قيمة كما قال صلى الله عليه وسلم: ((الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة))، وكما قال علي رضي الله عنه: "وأكثرهم همج رعاع يتبعون كل ناعق"، ولذلك هذه المزالق تستحق أن تسمى "مزالق المغفلين".

تحريف المعنى وتزييف اللفظ (السلفية / الجهاد):

ما قدمته من أمر قصدت منه الوصول إلى انحراف اسم عزيز علينا، له وقع حبيب على نفوسنا، وما زلنا نتنازعه مع قوم صرفوه عن حقيقته، وألبسوه ثياب الزور والبهتان، هذا الاسم هو "السلفية".

عندما تصل الحركة الجهادية إلى درجة من الوضوح في العلاقة مع الآخرين فهذا أكبر دليل على أنها على الحق، مع أن الدليل الأول والأكبر من ذلك كله هو أنها تنطق من الحق المطلق، أي الكتاب والسنة على فهم الصحابة رضي الله عنهم، هذه العلاقة التي كشفت الواقع على حقيقته، فعرت المرتدين وكشفت سوآتهم، وصاروا أمام الناس من غير محسنات باطلة ودعاوى فارغة، وعرت الحركات الإسلامية المبتدعة التي زورت الإسلام وشوهت وجهه الجميل، وبدأ ضعاف النفوس بالسقوط وأعياهم طول المسير، وحطمت الشعارات الجوفاء والألقاب الرنانة، وصدعت بالحق غير آبهة بالسفن التي تحرق، أو المصالح الموهومة التي تفوت من غير رجعة، أليس هذا الواقع الذي تصنعه الحركات الجهادية في نفوس الناس هو أكبر دليل على أنها تمثل في هذا الزمان عصا موسى عليه السلام والتي أكلت ما أفرزه السحرة والمشعوذون.

لقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: والله ما أظن على ظهر الأرض اليوم أحدا أحب إلى الشيطان هلاكا مني. فقيل: كيف؟. فقال: والله إنه ليحدث البدعة في مشرق أو مغرب فيحملها الرجل إلي فإذا انتهت إلي قمعتها فترد عليه.[1] وهكذا هي والله حركات الجهاد السلفية في العالم ، تكشف للناس الحقائق، وتبين نفوس الناس ومستويات عقولهم.

الناس راكدون راقدون، والطرق مبهمة، والسماء غائمة، وهناك شخوص اتخذهم الناس صوى ودلالات، يرقبون ندى فجر يرطب جفاف حلوقهم، لكنهم أيقنوا بعد مدة أنهم في سراب، وأن كل ما يعيشونه مزور، باطل، يتخفى بالأقنعة لكنها لم تعد مقنّعة، فيأتي البشير النذير، رجل يحمل في قلبه التوحيد، وفي يده بندقية أو قنبلة فيفجرها في وسط هذا الركود،

---

[1] - السنة للالكائي ح 12.

فيفيق الناس من أحلامهم الخادعة، وأوهامهم الوادعة، فيدوك الناس ويضطربون أما الفطري فيحمد الله ويدعو الله أن يبارك في هذا الصنيع إذ رأى فيه صورة نفسيته وفطرته السليمة، ولكن هناك قوم بنوا قصورهم على الواقع الآسن، ورفعوها علالي شاهقات، نخافوا عليها من الزوال، أو جزعوا من أن يروا الناس يكشفون أن هذه القصور إنما هي من ورق لا تصمد أمام العاديات، ولا يدفع به حر أو زمهرير.

راية الجهاد ومقصده تحكم على صوابه وخطاه، وقد رفعت راية الجهاد كثيرا ولكنها لم تكن سوى تحريض عاطفي لتحقيق مقاصد باطلة وتنفيذ مآرب غير إسلامية. وما فترة قبل الاستقلال (الوثني) إلا دليل حقيقي على هذه المقولة، فالوطنيون والقوميون على اختلاف ألوانهم العقدية استغلوا هذا الاسم الجميل، والراية الرائعة "الجهاد" لتحقيق الوصول إلى أهدافهم عن طريق سوق الناس إلى التضحية والفداء والرغبة في الشهادة، حتى إذا تم لهم المراد قلبوا ظهر المجن للإسلام وأهله وبانت الحقائق أن هذه الدعاوى لم تكن سوى قناع زائف يتستر خلفها أعداء الله وأعداء رسوله صلى الله عليه وسلم.

القتال والجهاد: الوسائل والمقاصد

لماذا نقاتل؟ وتحت أي راية نقاتل؟: هذان سؤالان لا بد أن يستعرضها المرء قبل أن يحمل البندقية ويقدم روحه في هذا المضمار وهذا السبيل.

الراية أولا:

الراية هي الغاية والحديث النبوي الشريف يجعلهما شيئا واحدا: ففي مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله تعالى من حديث عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيسيرون إليكم على ثمانين غاية. قلت: وما الغاية؟. قال: الراية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا، وفسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها دمشق)). وفي رواية له من حديث أبي الدرداء بلفظ: فيسيرون بثمانين بندا. وعنده وعند غيره بلفظ: فيأتونكم تحت ثمانين راية، تحت كل راية اثنا عشر ألفا، وهو عند البخاري من حديث عوف بن مالك بلفظ: فيأتونكم تحت ثمانين غاية، كل غاية اثنا عشر ألفا.

قال ابن حجر في "فتح الباري" (3176/2): غاية أي راية، وسميت بذلك لأنها غاية المتبع إذا وقفت وقف.

فانظر (حفظك الله من كل شر وسوء) إلى مقاصد القتال وأنه مربوط بالراية التي تقاتل تحتها، وكيف أن الراية تحدد المقصد لأن السائر تحتها سيقف حيث وقفت، ويمتثل أمر ورودها وصدورها لا يتعداها ولا يخالفها في أمر من الأمور، ومن هنا فإننا نستطيع أن نحكم على الراية بمعرفة الغاية، وكذلك نعرف الغاية بمعرفتنا للراية، لأن الراية الظاهرة هي مظهر المقصد الخفي، والغاية المعلنة باللفظ والتصريح هي التي تحدد لنا الراية التي يقاتل المرء تحتها.

ومعلوم أن الجهاد في سبيل الله قد يكون لمقصد واحد من مقاصد الشريعة، وقد يكون مطلقا لنشر الإسلام وتحكيم الشريعة، فقد يجاهد المرء مدافعا عن عرضه، وقد يجاهد مدافعا عن ماله، أو عن نفسه، أو لفك أسير مسلم أو ذمي (على قول بعض أهل العلم) وكل ذلك داخل تحت المقاصد الشرعية الصحيحة التي تدخل هذا الفعل في مسمى الجهاد في سبيل الله تعالى.

أما القتال تحت الرايات الكافرة أو البدعية بدعة مكفرة، أو في وقت الهرج الذي لا يدري المرء على ماذا يقاتل، أو لأي شيء يقتل فهذا لا يدخل في باب الجهاد في سبيل الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: ((من قتل تحت راية عمية، يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية، فقتلته جاهلية)).[1] أي إن مات تحت هذه الراية فقد مات جاهليا، والعمية من العمى وهي الغواية والضلال كالقتال في العصبية والأهواء، وحكى بعضهم فيها ضم العين "عمية"، وسئل أحمد بن حنبل - رحمه الله - عمن قتل في عمية؟. قال: الأمر الأعمى للعصبية لا تستبين ما وجهه. قال أبو إسحاق: إنما معنى هذا في تحارب القوم وقتل بعضهم بعضا. يقول: من قتل فيها كان هالكا. قال أبو زيد: العمية: الدعوة العمياء فقتيلها في النار. وقيل : العمية: الفتنة، وقيل الضلالة.[2]

فالراية العمية إذا على معنيين:

---

[1] – رواه مسلم من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

[2] – انتهى "باب الياء فصل العين".

المعنى الأول: الراية التي لا وضوح فيها فهي غير بينة ولا واضحة، وإنما انساق المرء فيها كالدابة لا يدري فيما يتقاتل الناس عليه، ولا على أي شأن يتقاتلون، ولذلك هي راية لم يستبن المرء أمرها، ولم يتحقق من أهدافها.

المعنى الثاني: الراية البينة الضلالة، التي لا تقاتل على الإسلام ولكنها تنتصر لمعاني الجاهلية، كالتعصب للقبلية أو العصبة أو الوجهة دون هدي من كتاب أو سنة، ويلتحق بهذه الراية الرايات البدعية لأنها رايات غواية وضلال ليس عليها نور الهدي النبوي، ولا الحق مسفر بوجهه علينا.

فمن قتل تحت هاتين الرايتين فهو على سبيل هلكة وفي النار، والحديث إنما هو تحذير للمسلمين أن لا يقاتلوا إلا من أجل إسلامهم ودينهم، وأن لا يفرطوا بأرواحهم في سبيل الهوى والشهوة والحزبية والعشائرية والقطرية، وليس في الحديث بيان حال من قاتل تحت راية كفرية شركية فإن من قاتل تحت راية الشرك مشرك، ومن قاتل تحت راية الكفر كافر، ولا ينفعه احتجاجه بصلاح قلبه ونيته ودليل ذلك قوله تعالى: {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا} النساء، وفي تفسيرها عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناسا مسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم (أي يوم بدر) فيأتي السهم يرمى به يصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل فأنزل الله {**إن الذين توفاهم الملائكة**}...

ولعكرمة: فقتلوا ببدر كفارا ورجعوا عن الإسلام.[1] وقد عامل الصحابة رضي الله عنهم أسرى هؤلاء كما عاملوا بقية الكفار، فقد أخرج ابن إسحاق من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يا عباس افد نفسك وابن أخويك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو فإنك ذو مال. قال (أي العباس): إني كنت

[1] – الطبري.

مسلما ولكن القوم استكرهوني، قال صلى الله عليه وسلم: الله أعلم بما تقول، إن كنت كما تقول حقا إن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا)).[1]

وقد نص العلماء على هذا الذي قلناه، فقد قال ابن حزم الظاهري رحمه الله تعالى: ولو أن كافرا مجاهرا غلب على دار من دور الإسلام، وأقر المسلمين بها على حالهم إلا أنه هو المالك لها المنفرد بنفسه في ضبطها وهو معلن بدين غير الإسلام لكفر بالبقاء معه كل من عاونه وأقام معه وإن ادعى أنه مسلم.[2]

واعلم أن ابن حزم في قولته هذه قد جعل شرط التكفير لأمثال هؤلاء الذين يقاتلون تحت راية الكفر هو علمهم بكفر الحاكم الذي يقاتلون تحت رايته. حيث قال "كافرا مجاهرا" فمن ستر كفره ولم يعلم أمره فهو معذور إلا أن يكون قادرا على تبين حاله ولكن لم يفعل، فهو داخل في قتال الراية العمية، لأنها راية غير واضحة كما تقدم.

حال من قاتل تحت راية خيار الشعب والمسيرة الانتخابية الشركية:

اعلم أن راية الديمقراطية راية كفرية شركية، وقد علم القاصي والداني أن الإسلام والداني أن الإسلام والديمقراطية دينان مختلفان، فأما الإسلام فهو حكم الله لعباده، والديمقراطية حكم البشر بعضهم لبعض، واعلم أن محاولة البعض مساواة الإسلام بالديمقراطية هي محاولة الزنادقة الذين يريدون أن يبدلوا دين الله تعالى موافقة لأهواء البشر، فإنه وإن التقت الديمقراطية والإسلام في حق اختيار الأمة لحكامها، فإن الإسلام يكفر من خير الناس في أحكامهم، إذ يجب على الناس أن يحكموا بالإسلام وأن يكون الأئمة مسلمين، أما الديمقراطية فهي تجعل للناس حق اختيار أحكامهم وتشريعاتهم، وهذا هو لب الديمقراطية وجوهرها وحقيقتها، فمن جعل الإسلام كالديمقراطية فحاله حال من سوى بين الإسلام واليهودية بجامع أن كلا منهما يعترفان بنبوة موسى عليه السلام، ويقران بوجوب خضوع الناس لسياسة الأنبياء وامتثالهم

---

[1] - والحديث في المسند (353/1) من حديث ابن إسحاق إلا أن فيه رجلا مبهما ما بين ابن إسحاق وعكرمة والحديث له شواهد وأصله في صحيح البخاري (كتاب المغازي) بغير هذه الزيادة. انظر شرح أحمد شاكر على المسند (3310/2).

[2] - المحلى 200/11.

لأمر النبي المرسل، وشتان بين الإسلام واليهودية {أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون}.

إذا تبين لنا هذا فإن من قاتل تحت هذه الراية فإنه كافر مشرك ويقاتل مقاتلة المشركين (بعد إقامة الحجة الرسالية عليه).

وقد يقول قائل: إن هؤلاء القوم المعنيون يريدون أن يقاتلوا لإعادة الناس إلى البرلمان من أجل أن يحكموا بالشريعة، إذا تبين بالواقع أن حكم الإسلام هو المقصود.

فنقول: إن تطبيق حكم ما عن طريق البرلمان ومجلس النواب لا يدخله في مسمى الحكم الشرعي وإن التقى معه في الصورة، وقد قدمنا هذا سابقا، حيث تبين لكل من عقل وفهم دين الله تعالى أن الحكم لا يسمى شرعا إسلاميا وإن كانت صورته تلتقي مع الحكم الشرعي حتى يطبقه المرء بتوصيفه الشرعي، وهو كونه حكما صادرا عن الله تعالى، والحكم الصادر عن البرلمان الشركي هو حكم شركي وإن كان ظاهره يلتقي مع الحكم الشرعي، فالآن قد تبين أن هؤلاء القوم يقاتلون من أجل حكم الشعب لا من أجل حكم الله تعالى، هذا هو حال من قاتل الأجنبي ليحكم الوطني الكافر، فهو يقاتل من أجل راية الوطنية لا من أجل حكم الإسلام الذي أمر الله تعالى بالقتال من أجله كما قال صلى الله عليه وسلم: ((**اغزوا باسم الله، وقاتلوا من كفر بالله**)) ولقوله صلى الله عليه وسلم: ((**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تعالى**)).

فجماعة يمثلها رجل لأنه اختير من قبل الشعب، وجماعة ترى أن الصراع في بلدها هو صراع للعودة إلى المسار الانتخابي الذي أوصل بعض رجالهم إلى قبة البرلمان، فهل تسمى هذه الجماعة بأنها جماعة إسلامية مجاهدة؟ أم أنها جماعة بدعية وبدعتها مكفرة ومخرجة من الملة؟. اللهم إنها جماعة تقاتل مقاتلة الكفار والممتنعين عن الشريعة.

وهنا تنبيه مهم وهو أن الطوائف المقاتلة لا تعامل معاملة أفرادها الجهلة أو حسني النية، بل تعامل معاملة الراية والقيادة كما تقدم سابقا إذ لا يقدر عليها إلا بالقتال، واعلم حفظك الله أن قول من قال: إننا نقاتل من أجل إعادة رجالنا إلى البرلمان هو إسقاط وإهمال لكثير من الآيات كقوله تعالى: {**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**}، والدولة الديمقراطية لن

يكون فيها الدين كله لله، بل إنها ابتداء تقوم على إلغاء حق الله تعالى في التشريع والحكم والقضاء، فباسم الشعب لا باسم الله تصدر الأحكام وتطبق في القضاء والمحاكم.

سبيل أهل السنة والجماعة: نقد التزييف

أذكر نفسي وإخواني بأن الفتن كاشفة للرجال، كما قال الرجل لسعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: يا سعيد في الفتنة يتبين لك من يعبد الله ممن يعبد الطاغوت.[1] وقوله هذا حق فإنهم في الوسع يرفعون شارة الإسلام ورايته، وكلهم يزعم أنه وليه وصاحبه، ولكن بعد الامتحان والاختبار يعرف الناس حقائق أنفسهم وعقائدهم. فهؤلاء المتمسكون بشعار جبهتهم وحزبهم، هذا الحزب الذي لم يعلم قادته وأفراده قط التوحيد الصافي، فبعضهم صار وزيرا في دولة الردة، وبعضهم نهق بعداء المجاهدين، وبعضهم ارتمى في أحضان الشرق أو الغرب، فأي توحيد علمهم حزبهم هذا وتجمعهم هذا. ثم يأتي بعد ذلك من يأتي متبجحا قائلا: إن راية هذا الحزب والتجمع هي راية أهل السنة والجماعة"، فلا أدري عن أي سنة وجماعة يتكلمون!!.

واعلم وفقك الله لأرشد أمرك أن هذه المسألة جد خطيرة، وليست هي بكثرة الناعقين والمرجفين، ولا بكثرة العمائم المدورة، والشهادات العالية المزركشة بل هي بالدليل والبرهان، ثم عليك أن لا تطمع كثيرا بهداية أهل الأهواء والبدع، فإن البدع قد دخلت في كل مفاصلهم وشربتها قلوبهم حتى الثمالة، ثم اتفقوا وتمالؤوا على الكذب والبهتان فالصدق منهم كعنقاء مغرب غرابة وقد صدق أبو بكر مسلم الزاهد ذكر يوما المخالفين وأهل البدع فقال: "قليل التقوى يهزم العساكر والجيوش". وصدق الشاعر حين قال:

من كان يخلق ما يقول　　　فحيلتي فيه قليلة

فاهرب من هؤلاء المبتدعة، ولا ترخي لهم سمعك لئلا يمرضوا قلبك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لا تجالسوا أصحاب الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلب"، وأي مرض أعظم من أن يذهبوا بك إلى دين يضاد دين محمد صلى الله عليه وسلم من كل وجه (أعني دين الديمقراطية) فإياك وتسللهم في قلبك.

---

[1] – "الابانة الكبرى" لابن بطة 769/2.

عن حبيب بن أبي حبيب قال: شهدت خالد بن عبد الله القسري بواسط في يوم أضحى وقال: ارجعوا فضحوا تقبل الله منكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما، تعالى الله علوا كبيرا عما يقول الجعد بن درهم، ثم نزل فذبحه.[1]

وقد مدح الأئمة الأعلام فعل القسري عند ذبحه الجعد، قال ابن القيم في نونيته:

وكذاك قالوا ماله من خلقه أحد يكون خليله النفسان

وخليله المحتاج عندهم وفي ذا الوصف يدخل عابد الأوثان

الكل مفتقر إليه لذاته في أسر قبضته ذليل عاني

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد القسري يوم ذبائح القربان

إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الداني

شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك من أخي قربان

شرح الأبيات: هذه الأبيات في أوائل نونية ابن القيم في العقيدة[2] حيث بدأ ابن القيم يعدد خصال الجهمية المعطلة[3] ويقصد بالمعطلة: أنهم يعطون صفات الله تعالى وينفونها ويزعمون أن الله ذات مجردة، وهم وإن كانوا متأولين إلا أن نهاية قولهم هو القول بتطيل الخالق، إذ لا يتصور العقل ذاتا من في غير صفات إلا لمن لا حياة له، أو نهاية أمره هو القول بوحدة الوجود، وهو أن الله هو كل موجود، وقد ورث الأشاعرة هذه العقيدة (التعطيل)، مع أنهم ينسبون هذه الصفات إلى الله تعالى إلا أنهم يجردونها عن حقيقتها بتأويلها فينسبون لله صفة المحبة ولكنهم يفسرونها أنها إرادة الخير من الله للإنسان. فابن القيم يقول عن الجهمية أنهم نفوا عن الله تعالى صفة الخلة وهي صفة جاءت في الحديث: ((لو كنت متخذا من الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكني خليل الله))، والخلة هي أعلى مراتب المحبة لأنها لا تقال إلا إذا تخلل الحبيب كل القلب، كما قال الشاعر:

تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا

ولهذا سمي إبراهيم عليه السلام خليل الله تعالى.

---

[1] – رواه البخاري في الرد على الجهمية (ح رقم 3) وفي "التاريخ الكبير" (14/1/1) الدارمي والأجري في "الشريعة".

[2] – سميت بذلك لأن قافيتها نون.

[3] – أتباع جهم بن صفوان الخزري وقيل الترمذي ثم قتل زندقة لأقواله هذه.

فالجهمية نفت صفة الخلة وجعلوا الخلة هي حاجة المرء لربه، فرد عليهم ابن القيم أن هذه الصفة لا يتميز المسلم بها عن الكافر لأن جميع الخلق (مؤمنهم وكافرهم) محتاجون إلى الله تعالى، وجميع الخلق في قبضته وأسره.

وبسبب نفيهم صفة الخلة عن الله تعالى وقولهم بتعطيل صفات الله تعالى كالكلام وكذا علوه على خلقه استحقوا القتل، وقد قتل القسري الجعد بن درهم لقوله بهذه العقيدة الفاسدة.

وقد مدح العلماء (أهل السنة) صنيع خالد القسري هذا وكذا مدحه ابن القيم بقوله: "لله درك من أخي قربان".

لقد احتاج الشباب المسلم المجاهد قفزة نفسية هائلة حتى استقرت في أذهانهم مصطلحات السلف، وصاروا يستعملونها دون حرج ودون شعور بالنقص، نعم كانت الدائرة التي يتوقف عند حدودها الشباب في المناقشة حول القرب من الصواب، فمن أصوبنا؟ ومن أقربنا إلى الحقيقة؟ وهذا بسبب التربية البدعية التي نشأوا عليها والتي تجعل كل قول ينتسب إلى الإسلام قولا إسلاميا، وأنه يجب اعتباره واحترامه وتقديره، واختلط في أذهانهم عدم الفرق بين المسائل الاجتهادية والمسائل الخلافية فلم يعودوا يفرقون بينهما، فكل مسألة اختلف أهل الإسلام حولها هي مسألة يصح فيها اعتبار الأقوال وعدم العيب فيها على المخالف حتى صرنا نسمع بوجود مصطلحات غريبة عن الفقه الذي كتبه علماؤنا مثل مصطلح الثوابت ومصطلح المتغيرات، ولم يعد الشباب الذين ربوا تربية بدعية في بعض التنظيمات يعرف الحد الفاصل بين ما هو ثابت وما هو متغير، لأنه قد سمع من قادته ومشايخه أنه لا فرق بين أهل السنة والشيعة في القواعد والأصول فربنا واحد ورسولنا واحد وقبلتنا واحدة وفقط (هذه هي الثوابت عندهم وغيرها من المتغيرات)، إلى هذا الحد وصل تجريد الإسلام عن حقائقه وتعريته من أصوله وقواعده، وتفريغه من مضمونه، ولهذا وجب على كل الدعاة إلى الله أن يقرأوا كتب السلف الصالح وأن يتربوا عليها لأن هذه الكتب هي التي تصنع المزاج السني زيادة على المنهج السني، فإن المزاج السني يحتاج إلى طرق ومهمات تربوية لإعادة صياغته وبنائه وإصلاحه من الدمار الذي أصابه، والتشويه الذي لحق به.

هناك كتب سلفية لا ينبغي للمرء المسلم السني المجاهد أن تغيب عن ناظريه، بل يجب عليه أن يعود لها المرة تلو المرة حتى يستقيم منهجه ويصح مزاجه، ومن هذه الكتب العظيمة:

1 - كتاب "السنة" للإمام أحمد الله بن أحمد بن حنبل.

2 - كتاب "الرد على بشر المريسي" للإمام الدارمي.

3 - كتاب "الرد على الجهمية" للإمام البخاري.

4 - كتاب "الإبانة الكبرى" لابن بطة العكبري.

5 - كتاب "الشريعة" للآجري.

6 - كتاب "التوحيد" لابن خزيمة.

ففي هذه الكتب وما نسج على منوالها تستطيع أن تدرك الفارق العظيم بين ما نحن فيه من أخطاء وعيوب وبين ما كان عليه السلف من نصاعة ووضوح.

في هذه الكتب المزاج السلفي الصريح بهجران المبتدعة وتنفير الناس منهم وتحذيرهم من الاقتراب منهم.

هذه الكتب تعينك على فهم ضلالة المفكرين الآرائيين حيث أنهم يرومون هدم الإسلام من قواعده وتدمير أركانه حيث جعلوا شعار الإسلام من حق كل أحد قال أنا مسلم.

هذه الكتب تصنع مزاجا حقيقيا لقيمة السنة وعظمتها ومحبة أهلها، وتصنع مزاجا حقيقيا ببغض المبتدعة والبدعة، وتدفعك بقوة إلى قول كلمة الحق دون مواربة أو تقية.

تهافت المبتدعة (السلف والخلف):

المحدثون المعاصرون يريدون منك حاملا لقاعدة الحق النسبي: أي أن الحق الذي تحمله من فهم السلف الصالح لدين الله هو حق نسبي لا مطلق، فعليك أن تعترف لغيرك بالوجود، ولغيرك بأنه يملك رؤية عليك أن تحترمها وتقدرها فإن خلافك مع المبتدعة لا يفسد للود قضية، وأننا علينا أن نتعاون على ما اتفقنا عليه (حتى مع الشيعة الروافض) ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه (حتى لو اختلفنا حول هل شيء هو إسلام واجب أم هو كفر غليظ الديمقراطية والدخول في العمل البرلماني).

وها أنا قد سقت لك مقدمة من تعامل السلف مع المبتدعة، حيث مدح أهل السنة والدين قتل خالد القسري الجعد بن درهم، ولو حدثت الحادثة في هذه الأيام لتصايح الآرائيون بأن هؤلاء (أهل السنة) يقتلون مخالفيهم ولا يحتملون وجود الرأي الآخر، هؤلاء منغلقون ومتحجرون ومتخلفون!!. هذه عبارات الآرائيين.

وأنا أذكرك بأن ما قاله الجعد بن درهم أهون ألف مرة مما يقوله مبتدعة هذا الزمان، ألا ليت مبتدعة هذا الزمان كشجاعة الجعد بن درهم، وليتهم قائلون للحق أمام الطواغيت كالجهم بن صفوان.

إن معايير السلف قد ضاقت في عقولنا إلى درجة هائلة، ولو أننا تعاملنا مع موازينهم في الرجال والحركات لكان ما يقوله هؤلاء المبتدعة في هذا الزمان عند الأوائل زندقة:

فلو أن رجلا قال أمام الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى -: إن حديث الذبابة لا آخذ به لأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس متخصصا في الكيمياء، فماذا سيحكم عليه الإمام أحمد رحمه الله تعالى؟!!، بل لو عرض هذا القول على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فماذا سيرد عليه، هل سيرد عليه بأن يقول: هذا قولك وأنا أخالفك، وخلاف الرأي لا يفسد للود قضية، أهذا هو دين الله الذي انتصر به السلف أم هو دين الزنادقة.

ولو أن رجلا قال أمام الإمام البخاري رحمه الله: إننا لن نحكم بالإسلام حتى يقبل الناس هذا الحكم، فلو اختار الناس الإلحاد لجاز لهم أن يحكموا به، فهذا الرجل أيصنفه الإمام البخاري مع الجعد بن درهم أم مع ابن الراوندي؟.

يا قوم قليلا من تقدير الله تعالى، وقليلا من احترام فهم الصحابة لدين الله تعالى.

هذه القفزة النفسية الرائعة بتسمية المبتدعة بأسمائهم احتاجت إلى جهد شاق من القراءة المتتابعة لكتب السلف، ثم احتاجت إلى بصر واع للواقع الذي يعيشه الناس وإلى معرفة واقع القوم الذين يزورون دين الله تعالى باسم الإسلام والدين.

قال أبو عبد الله (أحمد بن حنبل): ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يسلم عليهم، ولا يُعادُون ولا يناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل

ذبائحهم. قال عبد الرحمن بن مهدي: هما ملتان (دينان يفترقان عن دين الإسلام) الجهمية والرافضة.[1]

قوله: لا يعادون: لا يزارون في مرضهم، وقوله لا يشهدون: أي جنائزهم.

كان شأن سلفنا الصالح رضي الله عنهم عظيم، مع أهل البدع، ولا يرون شيئا أضر على دين الإسلام منهم، والقارئ المتمعن لكتب السلف لا يرى هذه الهنات النفسية التي وقع فيها الخلف من الإخوان المسلمين وحزب التحرير، ولا يرى فيها التنازلات المقيتة التي وقع فيها المتأخرون من أصحاب التجمعات البدعية، والسلف من أهل الحديث والسنة لم يكن عندهم هم التجميع والتكثير على حساب المنهج بل كان المنهج قبل كل شيء، والتوحيد بجلائه ووضوحه هو أساس المحبة والولاء، والبدعة والشرك هما مناط البغض والعداء والبراء، لكن لما هانت السنة على الناس، وصار الحديث عند أصحاب الفهم الحضاري للإسلام عن الجنة والنار والغيب والآخرة والثواب والعقاب هو حديث السذج من الناس، ضاعت معالم الدين واندرست آثاره، وبدأت المصطلحات الجديدة تغشى الإسلام وشعاره المجرد فصار هناك الإسلام الحضاري، والإسلام الديمقراطي، والإسلام الليبرالي، وصار مقدم القوم هو من يحسن لوك الألفاظ المفخمة، ويتقعر في حديثه متجنبا السنة وآثارها، فتضخمت الرؤوس بالأفكار، والألسن أصابها داء السرطان فطالت مرضا، وقل العمل، وضعفت عبودية الناس لربهم، وقل الشوق إلى الآخرة، حينئذ ضرب الله قلوب الناس بالشبه والأهواء، فالعبقري الذي لا يفري فريه هو من يحسن رد السنة بالهوى، ومن يقدم الجنة للناس بلا تكاليف، هذا حال أهل الرأي الذين جعلوا الوحي حضارة والنص الغيبي فكرا، فتأنس الإسلام على أيديهم، إذ صار الإسلام هو مصلحة الرجل والجماعة لتحقيق شهواتهم في الدنيا، وكل تكليف ومشقة تلحق الناس في عمل من الأعمال ردوه بحجة الضرورة ورفع الحرج، فتوسع الناس في التأويل وحفظ الرخص ومزالق العلماء وأخطائهم.

وقوم آخرون زعموا التمسك بالسنة وبفهم السلف الصالح، وأخرجوا الناس من تقليد الأوائل ولكنهم لم يبرأوا من جرثومة التقليد فأخرجوا الناس من تقليد الشافعي إلى تقليد ابن

---

[1] - "خلق أفعال العباد" للإمام البخاري 53، 54.

باز ومن تقليد مالك إلى تقليد ابن عثيمين ومن تقليد أحمد إلى تقليد الألباني، تحاور الرجل منهم الساعة والساعتين وتلقي بوجهه الدليل تلو الدليل فلا يجد في قلبه من الشر إلا أن يقول لك: ولكن الألباني يقول بغير ذلك!!، ولكن ابن باز لم يقل هذا!!، هل قال بهذا ابن عثيمين وابن باز والألباني؟، من قال بهذا؟، ولو قلت له قال الأئمة العظام لعارض هذا القول في نفسه ما يقول هؤلاء الذين اتخذهم آلهة من دون الله، لا يقول إلا ما يقولون، ولا يدين إلا بمذهبهم، وكأنهم أنبياء هذا الزمان، وكان من مقت الله تعالى لهؤلاء القوم أن مسخ الله قلوبهم وعقولهم حيث جعلوا الإمامة (وهي أعلى المراتب وأشرفها في هذه الدنيا) من حق من مسخ الله قلبه وأتى المكفرات العظيمة، فانتسابهم للسلف لم يعلمهم التوحيد الذي يوجب عليهم البراءة من كل طواغيت الأرض، وإني لأعلم عالما (سلفيا!!) اسمه يطرز على كتب الحديث تحقيقا وتخريجا ومع ذلك هو في حزب علماني من أهل بلده، ولا يرى الحرج في ذلك فأي قوم هؤلاء؟! وأي سنة صحيحة ينتسبون إليها؟!!.

هذا حال المتدينين في هذا الزمان، وأهل السنة والحديث كالملح في الطعام؟ غرباء بين أهل الإسلام، ولولا أن الله برحمته يرطب قلوبهم بالإخلاص وذكر الآخرة لضاقت بهم الحياة وانفطرت قلوبهم حزنا وغما.

إن حدثوا الناس بالسنة والعمل قال أهل النفاق: هؤلاء أهل القشور.

وإن حدثوا الناس بكفر الحاكمين بغير ما أنزل الله وطوائفهم قال أهل النفاق: هؤلاء خوارج.

وإن حدثوا الناس بالجهاد في سبيل الله ضد المرتدين قال أهل النفاق: هؤلاء متسرعون لا يفقهون السياسة.

وإن حدثوا الناس بكفر الديمقراطية وكفر العمل البرلماني التشريعي قال أهل النفاق: هؤلاء غلاة.

وإن حدثوا الناس بوجوب تجريد الأتباع ونبذ الأغيار قالوا: هؤلاء متكلسون.

فأي نصر يرجونه من الله ؟!! وأي تأييد إلهي سيقع عليهم؟!!.

لقد جاءت الفرص الكثيرة والكبيرة جدا لتحقيق أماني المسلمين بوجود دولة لهم ترعاهم، وبيضة تمنعهم وتحميهم، وملاذا يؤوبون إليه، ولكن خيب الله ظنونهم، وضاعت هذه الفرص من أيديهم لأنهم لا يستحقونها، ولعلم الله تعالى أنهم أدنى من أن يقع عليهم المن الإلهي بالفوز والظفر. وإني لأعتقد أن الله قد خبأ هذا الخير - دولة الإسلام - لمن يستحقه من أهل التوحيد والسنة والجهاد. وإن جاز لنا أن نحمد هؤلاء القوم على عدم توفيقهم لحمدناهم، ولكن لا يحمد المرء على جهله، فإنهم لو وفقوا لدولة لهم يحكمونها لساموا أهل السنة والحديث والجهاد سوء العذاب.

فلو أن الإخوان المسلمين حكموا دولة من الدول، ثم جاء الخميني بدولته الرافضية اللعينة فماذا سيصنع هؤلاء المبتدعة؟.

لقد علمنا صنيعهم، ورأيناهم وهم يتراكضون عليه يؤممونه ويسيدونه ويوسدونه، حتى قال قائلهم وهو يخطب في جمع من الغثاء بعد أن عاد من إيران الرافضية وتنعم بالسلام على اليد "المباركة"، يد الإمام الشيعي آية الله الخميني، قال: لقد رأيت في وجهه صورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلو أن مثل هؤلاء القوم حكموا بلاد المسلمين فماذا ستكون النتيجة؟، النتيجة أنهم سيسلمون رقابنا إلى إمامهم الأكبر وسيدهم الأعظم الخميني فيفعل بأهل السنة الأعاجيب، كما صنع أستاذه وسيده ابن العلقمي نصر الدين الطوسي في أهل بغداد عندما فتح بغداد لهولاكو فاستباح دماء الناس وأعراضهم حتى قتل أكثر من مليون شخص.

قدر الموحدين:

إني أعتقد أن الفضل الإلهي بدولة الإسلام الناصعة، القائمة على التوحيد الصافي والاتباع المجرد لله لن يصيب - إن شاء الله تعالى - إلا أهله، ولكن بشرط (وشرط أكيد) أن لا يضعفوا، ولا يتنازلوا عن شيء من السنة والدين مقابل مصالح موهومة، أو من أجل هم التجميع والتكثير، أو بسبب طول الطريق وكثرة المعوقات.

نعم يا أهل التوحيد والجهاد لقد ضاقت بكم السبل وقل الناصر وكثر الخصوم فلا تغفلوا عن باب الله المفتوح لكم في كل حين، وهو أوسع الأبواب وأرحمها وأرحبها.

نعم يا أهل الحق لم نصل بعد إلى أن ننشر بالمناشير، ولم نصل إلى أن نقول بل نصرخ: متى نصر الله؟!!.

نعم يا أهل التوحيد والجهاد أئمتنا يسجنون ويقتلون ويقتنصون لكنها ضريبة الطريق، وحتمية السنن.

نعم يا أهل التوحيد والجهاد عمر عبد الرحمن يسجن ويقيد، وأصحاب العمائم النخرة يلهون ويلعبون ويتحدثون أمام الطواغيت عن فضائلهم التي لم تكتشفها الشعوب إلى ا لآن.

نعم يا أهل التوحيد والجهاد لقد رماكم الناس عن قوس واحدة، وتكالبت عليكم قوى الشرق والغرب، وتبرأ منكم أهل البدعة والفرقة والشقاق، لكنها إرهاصات النصر إن شاء الله تعالى.

فإياكم والوهن والتبديل والتغيير، وإياكم ثم إياكم أن يأتيكم الموت وقد بدلتم وغيرتم.

أليس من سننية النصر أن يفترق الناس إلى فريقين، وينقسم الناس إلى معسكرين: معسكر إيمان لا نفاق فيه ومعسكر كفر لا إيمان فيه؟ فكيف يحصل هذا بدون محنة وبلاء وعذاب ومشقة؟ لكن اعلموا أن أهل البدعة والضلالة وإن ملكوا الأموال والمناصب، وإن سارت بأسمائهم الركبان، وإن فتحت لهم السدود والحدود فإن ذل المعصية والبدعة مضروب على جباههم، معلق على صدورهم، فها هو الطاغوت يتلعب بهم، ويلهو الشيطان لهم، ويدحرجهم كما تدحرج الكرة، فكفى بذلك لك عبرة، فإياك أن تمر بك الآيات دون نظر وعبرة: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار}.

واحذروا من زمزمة القراء، وكثرة المتشدقين، قال صلى الله عليه وسلم: ((أكثر منافقي أمتي قراؤها))، وعليك بالسنة والأثر والرجوع إلى فهم السلف ومنهجهم فهم أعلم الناس بدين الله تعالى.

معوقات الدعوة: المثالية والواقعية

إن من بين المعوقات التي تمنع الكثير من طيبي القلوب وحسني النية من متابعة تأييدهم ومشاركتهم للأعمال المؤثرة في حياة البشر هو أنهم يعيشون حالة من التسامي مع الأفكار والمبادئ، ويشعرون بجمالها وهي تحاور على الورق أو تناقش في الندوات والجلسات الممتعة، لكنها حين تخرج من حيز القول والاعتقاد إلى عالم التطبيق والحقيقة فإنهم يصابون بالصدمة النفسية إذا لم يكونوا يربطون بين جمال الأفكار المجردة وبين صورتها الواقعية والعملية، وهؤلاء على الدوام يخسرون التأثير وكذلك يكثرون اللوم والتقريع.

حين يأتي شيخ ويتحدث عن حكمة وعظمة التشريع في حد الزاني المحصن، وأن الرجل أو المرأة يشدان إلى ثيابهما ويوضعان في وسط الناس، وتحضر لهما الحجارة فيقوم الناس برمي الزاني والزانية بهذه الحجارة حتى يتم موتهما، هذا المنظر بكل انفعالاته الواقعية، وبكل ما يحمل من مدلولات وتأثيرات على النفس، إذ عليك أن تتصور صراخ المحدودين ونزيف الدماء، وصياح الناس، وتفاوت النفوس في رؤيتها لهذا الحدث، فهذا محب للمرجوم فهو يبكي على حالته، وقد تضطرب نفسه فيصاب بما يصيب أمثاله إن كان من ضعاف النفوس في موقفه أمام هذه الأحداث فقد يشهق شهقة، وقد يرتفع عويله وصراخه فيقع منه الهذيان، وقد يجتمع أطفال الزانية أو أولاد الزاني فيبكون فقيدهم، مثل هذه الصور قد لا يستطيع الشيخ الذي يتحدث عن عظمة التشريع وحكمته أن يواصل النظر إلى الحدث حتى نهايته، وقد لا يطيق رؤية الدم وهو يخرج كالنافورة من رأس المرجومة فيصاب بالغثيان أو يخر صريع الغيبوبة، فهناك فارق كبير بين جمال الأفكار وبين واقعيتها.

حين يتحدث الناس عن الجهاد في سبيل الله تعالى، فهذه كلمة جميلة وجميلة جدا - الجهاد في سبيل الله تعالى - ولكن واقع الجهاد ليس جميلا كله في كل أحداثه، فالجهاد ليس هو هذه الخطب الرنانة، وليس هو تلك الكلمات الجميلة، وليس كله غنائم وسبايا، وليس كله نصر مؤزر، وليس كله خطب نارية، بل فيه موت الحبيب، وفيه جرح الصديق، وفيه تطاير الأشلاء وفقد المال، وفقد المعين، وبمعنى آخر فيه جانب من المشقة، بل المشقة العظيمة، ثم

فيه اختلاط الجنود وحصول الخصومات بين الناس، فهذا ضرب هذا، وهذا خاصم هذا، وهذا شط على هذا، فهو حركة بشرية، وفيه أخطاء واجتهادات، وتأويلات بعضها يستساغ وبعضها ليس كذلك، فهناك حد فاصل بين جمال الفكرة وسموها وبين واقعيتها.

لو أخذنا تصور الناس وخيالهم لواقع الدولة الإسلامية، لوجدنا أنها أقرب ما تكون في أذهانهم إلى عالم الأحلام، عالم مليء بالصور الجميلة، والفراشات الطائرة، والألوان الزاهية، والسماء تنزل غيثها على الدوام، والضرع مليء في كل حين، والأعداء يخافون جانبنا لما يعلمون من نزول الملائكة معنا في القتال، فهم يتصورون دولة الإسلام التي لا فقير فيها، ولا مريض فيها وكل من طلب شيئا فهو بين يديه، ولكن لو نظرنا لدولة النبي صلى الله عليه وسلم لما وجدنا هذه الجنة، بل لوجدنا أن معاناة الصحابة رضي الله عنهم في دولة الإسلام في المدينة أشد من معاناتهم وهم في مكة.

فهل حصل للصحابة رضي الله عنهم في مكة ما حصل لهم في غزوة الخندق {إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا} في دولة الإسلام زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وابتلاء كالزلزال بل هو الزلزال نفسه.

قارن بين هذه الصورة وبين الصورة التي يحاول رسمها مشايخ هذا الزمان لدولة الإسلام، فهم يعدون الناس بالدولة التي لا خوف فيها ولا مشقة، بيت لكل إنسان، طعام لكل بطن، والناس يدخلون في الإسلام لمجرد رؤيتهم لنا ولدولتنا، وعلى هذا فالناس يأتون إلينا (إلى جماعتنا) لأن في أذهانهم أننا الحزب الذي سيؤمن لهم من النعيم الدنيوي أكثر مما تؤمنه الأحزاب الأخرى.

لكن لو قلت لكم: إن ثلاثة من الخلفاء الراشدين ماتوا قتلا، وعلى يد أناس لم يحتاجوا لكثير من التخطيط لقتلهم:

- فعمر بن الخطاب رضي الله عنه قتله عدو الله أبو لؤلؤة المجوسي وهو قائم في صلاة الفجر، بين يدي شيوخ المسلمين وعلمائهم وقادتهم ورؤسائهم.

- عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه انطلق الهوجاء وسيطروا على المدينة حتى دخلوا وهو يقرأ القرآن على الخليفة الصائم رضي الله عنه وذبحوه في بيته وهو يقرأ القرآن.

- علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قتل في وسط المسجد وهو قائم يدعو الناس إلى صلاة الفجر، وبين طائفة، يأتيه ابن ملجم الخارجي فيضرب هامته بالسيف بتصرف فردي وباتفاق مع آخرين على قتل معاوية وابن العاص، وهذا عصر الخلافة الراشدة وما أدراك ما بعده ولذلك علينا أن نقول: إن الذين يتصورون عالم الإسلام العملي (حركة المرء المسلم في الحياة) هو عالم لا يمت إلى عالم البشر، وهو خارج عن حركة الحياة برمتها هؤلاء واهمون، ويعيشون توهيمات وخيالات فبمجرد اصطدامهم بالصورة الحقيقية لهذه الحياة ستجدهم ينقلبون على أنفسهم، يعلنون اعتزالهم وعدم قدرتهم على تحمل هذه الحياة.

إن العيش مع الكتب وبين الكتب، ومع الأفكار والقلم والورق ليس هو الإسلام إنما الإسلام هو حركة الحياة، حركة البشر (الإنسان) بما فيه من صواب وخطأ، فالصواب يقوى ويدعم، والخطأ يقوم ويصلح، فعالم الإسلام العملي فيه الصواب وفيه الظلم، فيه الصدق وفيه الكذب، وكل له مقامه في الإسلام.

الإسلام يعترف بوجود الخطأ كونا، ولا يلغيه في الخلق والوجود ولذلك أنزل الله تعالى الحدود وأنزل العقوبات، وأنزل الأحكام، والخطاب الرباني في ذلك كله للمجتمع المسلم الموحد المجاهد وليس هو خطاب لغير المسلمين.

على الرغم أن عصر الفتنة بين علي رضي الله عنه وخصومه (عائشة ومعاوية رضي الله عنهما) هو عصر نكل فيه أصحابه إلى الله تعالى، ولا نقول فيه إلا ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكامه كقوله صلى الله عليه وسلم لعمار: (تقتلك الفئة الباغية) وغيره من الأحاديث، لكن لو حاولنا استطلاع ورؤية الواقع عن قرب (وهو عصر مبكر وقريب من القرون الخيرة بل هو منها) لرأينا هولا، ولرأينا من الأمور التي تشيب لهولها الأطفال، انظر:

1 - الخوارج (أربعة آلاف رجل مقاتل قرروا قتال علي رضي الله عنه وثلاثة آلاف في الكوفة قرروا عدم قتاله ولا القتال معه) طلب منهم علي رضي الله عنه أن (نمضي إلى قتال عدونا وعدوكم معاوية)، لكنهم يرفضون حتى يعلن اعترافه بالكفر والتوبة عنه، فيقيم لهم علي

رضي الله عنه ملحمة في النهروان بعد قتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت وزوجته الحامل، فقتلهم ولم ينج منهم سوى (400) رجل جريح.

2 - معركة الجمل في الخريبة قرب البصرة (حسب رواية عمر بن شبة) وهي معركة بين مسلمين بل بين القبائل نفسها (مضر ضد مضر وربيعة ضد ربيعة ويمن ضد يمن) إخوان في الدين والمنهج والنسب، وقتل فيها طلحة والزبير (المبشرين بالجنة).

3 - معركة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، معركة حصل فيها مجزرة مع أن بعض الناس حرضوا على الصلح وقالوا: "من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ من لثغور العراق بعد هلاك أهل العراق، من للذراري والنساء، ألا تذكرون الأرحام؟" وبعيدا عن ضعف الروايات التي ذكرت الهول في القتلى لكن بلا شك أن القتل كان عظيما.

4 - "ردة بعض النصارى بعد إسلامهم حتى قالوا: والله لديننا الذي خرجنا منه خير من دين هؤلاء الذين هم عليه، ما ينهاهم دينهم عن سفك الدماء وإخافة السبيل وأخذ الأموال. (الطبري) وقاتلهم علي على الردة.

ثم بعد ذلك كله عام الجماعة، ثم حرب عبد الله بن الزبير، ثم... ثم...

فهذا جانب من حركة الإنسان (أي الإنسان) لا ينبغي أن ينسى أو توضع عليه الأيدي لنفهم الناس أن حياة المسلم كلها قيام ليل، وصيام نهار، وعفو متكرر، وعطاء متكرر، وخير دائم حتى اصطبغت صورة الولي في خيال الإنسان المسلم على هيئة الغاز المثالي، الذي لا وجود له.[1]

الولي هو إنسان.. وهو.. بشر.

المجاهد هو إنسان.. وهو.. بشر.

أما تصوير صورة الإسلام العملي وعالم الإسلام والمسلمين على صورة أفلام الكرتون أو عالم الجن والملائكة فهي صورة تهين الإسلام أكثر مما ترفعه.

---

[1] - انظر "المتهاجرون"، أي من مات من الصحابة والتابعين وهو مهاجر لصاحبه حتى مات في المعارف لابن قتيبة ص 550.

إننا نقول هذا لأولئك القوم الذين يعطلون عظائم الأمور ويوقفونها لمجرد بعض الأمور الصغيرة، فحساسيتهم أمام الأخطاء تجعلهم يضعون العصبة على عيونهم لتحجبها عن رؤية الخير والنعمة والفضل الإلهي.

إن الجهاد في سبيل الله تعالى حركة بشرية، وحركة من أجل السلطان والملك، ففيه تتداخل كل انفعالات الإنسان، ومن دعا للسيف أو حرض على السيف، فلا ينتظر أن يناقشه الناس ويحاربوه بالخطب الرنانة والورق الصقيل، بل عليه أن يحضر نفسه ليذوق حر السيف، هذه هي سنة الله تعالى، وللذكر فإن الخلفاء الثلاثة (الشهداء) ما ماتوا بيد الكفار بل ماتوا بيد مسلمين (فسقة، مبتدعين) فأبو لؤلؤة الفارسي ليس من أهل الشرك (ومحاولة إثبات مجوسيته دونها خرط القتاد وإن نسب إليها) وأبو ملجم من الخوارج (و لم يكفر أوائلهم إنما الخلاف فيمن أتى بعدهم)، والثائرون على عثمان (بعض قادتهم صار من قادة جيش علي رضي الله عنه).

ولذلك من وضع رجله ويده في هذا السبيل، سبيل إعادة سلطان الله تعالى على الأرض بالجهاد في سبيل الله تعالى، ووقف نفسه للتحريض ضد الطواغيت، وإزالة عروشهم، ودك طغيانهم، فهذا رجل نهايته معلومة، وإن لم يحضر نفسه لذلك فهو رجل مستريح (أي لا عقل له) فهذا طريق نهايته إما برد العدل أو حر السيف.

نعم يسعك أن تنشئ مجلة أو نشرة لتكون حزبا معارضا، وحزبا ترقيعيا تطلب الإصلاح وتنتظر الفرج بإخراج المساجين، أو مرت ملك ليأتي غيره فربما يكون خيرا منه، فحينئذ أمرك سهل وهين، فأنت رجل سياسة وكلمة، وملفك عندهم لا يعدو أن تكون معارضا محترما، أي تحترم حدود المعارضة السياسية.

أما وقد قلت: الجهاد والقتال، فما عليك إلا أن ترتقب، فلست أنت بخير من أسلافك الأخيار، ولست أنت بخير من أقرانك، فليس عبد الله عزام عنك ببعيد، وليس الشيخ عمر عبد الرحمن عنك ببعيد، وليس الشيخ أبو طلال القاسمي عنك ببعيد، وليس الشيخ أنور شعبان عنك ببعيد، وليس أبو عبد الله أحمد عنك ببعيد، وليس سفر الحوالي وسلمان العودة عنك ببعيد وليس... القائمة طويلة يا عبد الله ويكفيك هذا.

فهذا أمر تشيب له الولدان، وليس له إلا الرجال، ففكر كثيرا قبل أن تخوض، وإياك أن تقول: لقد ورطوني، فما ورطك أحد، فنحن لم نضمن لك حصول الوزارة والمنصب، ولم نضمن لك ملائكة تجاهد معك لا يخطئون، ولم نضمن لك مسدسا ينزل من السماء يعرف المؤمن من الكافر والسني من البدعي، ولم نضمن لك نبيا قائدا يوحى إليه، فقد نقول لك اليوم قولا ونرجع عنه غدا، ونقول لك: هذا ما رأينا، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين، فإن أردت (الغاز المثالي) اصعد إلى القمر، فإن أعجزك فالكثير من الناس قد سلكوا سبيل السلامة وجلسوا كالعصافير مع أبنائهم في أعشاشهم، يأكلون ويشربون ويرقبون الحياة من وراء زجاج بيوتهم، هذا في وقت المدافع، فإذا سكنت سيخرجون علينا بمواعظم العظيمة ليقولوا لنا: لقد قلنا... وقد توقعنا... وقد أنذرنا... وقد.. وقد... ألسنة طويلة نسأل الله تعالى قطعها.

{سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير}.

إن الكثير من المقعدين يتقنون نقد لاعبي كرة القدم، ولكنهم أصحاب أصوات عالية في قيادة المعركة على كرسي النظارة، وهم يعرقون ويتصببون عرقا وتبح أصواتهم لكنهم ليس لهم من اللعب إلا الوصف.

الجهاد والاجتهاد بين الظن واليقين:

قال صلى الله عليه وسلم: ((إنكم تختصمون لدي ولعل بعضكم ألحن بحجته من غيره فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه إنما أقطع له قطعة من النار)).

اعلم يا عبد الله أن مبنى أعمال البشر وأفعالهم قائمة على الظن وغلبته، وليست على اليقين والقطع، لأن أعمالهم قائمة على الاجتهاد، والاجتهاد كما هو معروف في كتب الأصول لا يفيد إلا الظن، وقد تعبدنا الله تعالى بالاجتهاد - كما قال الشافعي - مع أنه غير مأمون الخطأ، ومن معوقات الطريق عند حسني النية وطيبي القلب أنهم يتركون الأعمال مخافة الخطأ، وهذا منتهى السلبية والعجز، فها أنت ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم بين احتمال وقوع الخطأ لعارض من العوارض، ولكن هذا لم يمنعه من القضاء وفض الخصومات بحسب

الظاهر والاجتهاد، بل إنه صلى الله عليه وسلم اجتهد في أمور ثم ثبت أنها على خلاف الصواب كما اجتهد في أسارى بدر من المشركين ثم نزل العتاب الإلهي }لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم{ (الأنفال)، فقال صلى الله عليه وسلم: ((لو عذبنا في هذا الأمر ما نجا غيرك يا عمر))[1]، والجهاد عمل من أعمال الإنسان المسلم، فهو يقارب ويسدد ويبغي وجه الله تعالى، ويجتهد بحسب وسعه في إصابة الحق، فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر، لأن التكليف لا يقع إلا بالظن الغالب كما قال أهل الأصول، وقد نقل عن الشافعي رحمه الله تعالى قوله: في كل واقعة ظاهر وإحاطة، ونحن ما كلفنا بالإحاطة.[2] فمن هذا الذي يستطيع أن يحيط بالأمر من جميع جوانبه؟!! ويعلم أصله وفصله ومآله؟!! ولذلك يكفي المسلم أن يعمل بالظاهر، والظاهر يتوصل إليه بالنظر في الأمارة، والأمارة قد يدخلها العطب والتشويش أو التعظيم والتحسين (ألحن بحجته)، ولكن هذا (القيد) المحتمل لا يمنع العامل من العمل وإلا لبطلت الشريعة وتعطلت الحدود، وترك الناس دينهم وأعمالهم.

ثم اعلم أن الكثير من الأحكام الشرعية مبنية على غلبة الظن لا على اليقين، لأن مبناها على السنة، وثبوت السنة يتم باطمئنان المسلم لثبوت هذا الحديث عن طريق صدق راويه وضبطه، وهي أمور نسبية لا قطعية، فثبت أن فروع الشريعة ثبتت بغلبة الظن، وتصحيح المسلم عمله يكون بغلبة الظن، وقد عاب أهل العلم طلب اليقين في موطن الظن، واعتبروا أن هذا الفعل من أسباب هلاك الدين وفرط عقد الشريعة، وترك مهمات الأمور، قال الجويني في الغياثي، وهو يتكلم في باب "الإمامة" و"السياسة": معظم مسائل الإمامة عرية من مسالك القطع، خلية عن مدارك اليقين.[3] ويقول: كل ما لم يصادف فيه إجماعا اعتقدناه واقعة من أحكام الشرع، عرضناه على مسالك الظنون وعرضناه على سائر الوقائع، وليست الإمامة من قواعد العقائد (أي التي تتطلب اليقين) بل هي ولاية عامة، وعبارة معظم القول في الولاة والولايات العامة والخاصة مظنونة في محل التوخي والتحري. فقرة 72 ونفسها في فقرة 221، حيث يقول:

---

[1] – الطبري في تفسيره وهو في صحيح مسلم رحمه الله تعالى.

[2] – المحصول 34/6.

[3] – فقرة 96.

"والذي يجب الاعتناء به تمييز المقطوع به عن المظنون، ومستند القطع الإجماع، فما اتفق ذلك فيه تعين في الاتباع، وما لم يصادف فيه إجماعا عرضناه على مسالك النظر، وأعملنا فيه طرف المقاييس وأدرنا فيه سبل الاجتهاد"، بل إن الجويني يعتبر أن الفقه هو التدرب على مآخذ الظنون وإدارتها حتى يتبين لك الترجيح. يقول: "أهم المطالب في الفقه التدرب على مآخذ الظنون في مجال الأحكام، وهذا هو الذي يسمى فقه النفس، وهو أنفس صفات علماء الشريعة"، والجويني يعلق سلاك الأمة وتجنبها منهج الاقتصاد بذلك: والسبب الظاهر في ذلك، أن معظم الخائضين في هذا الفن يبغون مسلك القطع في مجال الظن، ويخرجون عقدهم باتباع الهوى، ويتهاوون بالغلو على موارد الردى، ويمرحون في تعاليل النفوس والمنى.[1] نعم والله إن هؤلاء القوم يمرحون في تعاليل النفوس والمنى.

أصناف المكلفين: سلوك العامل والخامل

لقد مارس بعض المسلمين عمليات جهادية، وسبلا دعوية، وحيث لم تكتمل أسباب النجاح لعجز أو كسل فتقدم منهم من تقدم إلى ربه، وراح إليه وهو مجاهد شهيد، وأصيب من أصيب فخرج منها ناقص العضو إذ قدم بعض أجزائه إلى الآخرة، وبعضهم خرج وهو شاكر لربه أن وفقه لعمل الخيرات وصرف الوقت في الخير والجهاد، وبعضهم خرج يضرب كفا بكف وهو يبكي على سنين عمره التي ضيعها ولم تثمر النتيجة التي حلم بها وملأ بها جوانحه، وخرج بنفس مبتورة تشك في كل شيء، وتشك في كل طريق، وساعده في الوصول لهذه النفس المبتورة دعاة الإرجاف وأعلام الهزيمة والخذلان حيث استقر في ذهنه قولهم، وانطبعت في قلبه شبههم: هاهي تجربتكم الجهادية في مكان كذا وكذا، وهاهي نتائجها، فانظروا إليها، أما تعلمتم؟ أما اتعظتم؟!!، فيقع في التردد والحيرة والشك وحينئذ يكون كما قال الجويني: "ويمرحون في تعاليل النفوس والمنى"، أي أنه يقف جامدا بلا حركة ولا نشاط يعلل نفسه ويمنيها بأن يقع فيها القطع اليقين على شيء أو عمل أو حركة يجزم بنتيجتها، ولا يأمن ضياعها أو تغيرها، هؤلاء نراهم لا يثقون إلا بأنفسهم، ويربطون خير الأمة بقيادتهم، فإن سبقهم في

---

[1] - فقرة 69.

غيرهم إلى عمل أو حركة ذهبوا يرفعون راية التشكيك، ويحرضون قلاع التخذيل ويصيحون: رويدكم فما هذا الذي ترونه إلا كسابقته وقد جربنا هذه الحركات وهذه الأعمال فلم تعد تخدعنا، وقد جربنا وجربنا، وإني لأحس في هذه النفوس النفاق من وجهين:

الوجه الأول: أنهم لا يرون الخير إلا في أنفسهم، ولا يثقون إلا بذواتهم، إذ امتلأت أنفسهم برؤية الذات وتعظيمها وهذا منتهى النفاق.

والوجه الثاني: أنك تحس في أنفسهم تمنى وقوع الشر الذي توقعوه، ويرغبون من كل جوانحهم أن لا يقع الخير الذي تمناه غيرهم، فهم يرجون الشر للأمة لتصح توقعاتهم وما أساؤوا فيه الظن.

وهناك قسم آخر من البشر، يكيل بمكيالين، ويزن بميزانين: ميزان ما يقوم به ويؤيده، وميزان ما يقوم به غيره أو يؤيده غيره، (والتأييد جانب نفسي أكثر منه شرعي مبني على دليل): إن كان ما يقوم به ويؤيده فهو لا يحس إلا بالجوانب الحسنة، ولا يرى إلا الجمال وعينه عن الأخطاء معطوبة وكليلة، فهو يحسن كل ما يقع ويسبغ الشرعية على كل حدث، ويناور ليثبت مراده، وإن كان الآخر فهو على العكس تماما: تشكيك دائم ونقد دائم، وعيوب ظاهرة: وعين الرضى عن كل عيب كليلة...

والجانب الصحيح أن يكون الرجل منصفا في الحب ومنصفا في البغضاء: أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وابغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما.

لقد قاتل الناس مع الأفغان وأحسنوا فيهم الظن إلى أبعد حد، فوقع بعض الخير وتخلف بعضه فماذا كان؟.

لقد قاتل بعضهم مع عزت بيجوفيتش في البوسنة، حيث جالسوه فرأوا فيه المسلم التقي، وظنوا فيه من الخير إلى أبعد حد، فهل كان أمرهم مبنيا على الظن أم على اليقين؟ فوقع بعض الخير وتخلف أكثره فماذا كان؟.

لقد جاهد من جاهد، واجتهد من اجتهد، وهاجر من هاجر، وابتلي من ابتلي، وتعلم من تعلم، واستشهد من استشهد، فهل هذا مما يوسف عليه أم أن هذه هي الحياة التي ينبغي أن يعيشها أهل الإسلام؟.

ثم اعلموا حفظكم الله أن حصول تمام ومنتهى النصر لا يقع دفعة واحدة، وإن النصر النهائي هو محصلة نهائية لحركة حياة جهادية كاملة، فيها النصر، وفيها الهزيمة، فهل فتح مكة ثم بين ليلة وضحاها؟ أم أنه وقع بعد سنين من المعاناة: نصر في بدر، وهزيمة في أحد، فتن وآلام وملاحم في الخندق، مناورات عسكرية ودعوية في الحديبية، ثم وقع الفضل الإلهي بفتح مكة، لكنه بعد مقدمات كثيرة، فهل الوصول إلى القمة يتم بقفزة واحدة كما يفكر أهل التصوف الفكري المعاصر من أصحاب نظرية العصا السحرية: ضربة واحدة فإذا نحن في بلد الإسلام وبلد العزة والهجرة، مالكم كيف تحكمون؟!!.

المسلم لا يعلم الغيب لكن إن قدر لبعضنا أن يعيش ويرى الثمرة النهائية وهي تسقط على أصحاب الفضل الإلهي سيدرك أنه ما من حركة قام بها أهل التوحيد والجهاد إلا وكانت لبنة في البناء النهائي: {**ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء**}.

لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدركون أن صلح الحديبية فتح من الله، وهو مقدمة فتح الفتوح مع وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم، ومع أنه هو الذي عقد العقد، وأنشأ الصلح، إلا أن نفوسهم لم تكن تحتمل هذه الواقعة، ولكن سبق علم الله علمهم، وكان ما أراده الله لهم.

نحن على الطريق نسدد ونقارب: نعمل ونصبر ونبقى في مواقعنا لا نتزحزح عنها حتى يأتينا أمر الله ولن نعتذر عن عمل بنيناه على الاجتهاد، ورجونا خيره، وحصول ثمرته الكلية، فإن وقع ما أملنا فهذا فضل الله وحده، وإن كانت الأخرى: فيا الله يا صمد، يا عالم السر وأخفى ويا من بيده ملكوت السماوات والأرض، أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تقبضني إليك، فلا أرى ولا أسمع ضحكات التشفي والغرور.

فلسفة العجز قديما وحديثا:

كثيرة هي المرات التي يتخلف الناس فيها عن الحق بسبب الهوى وشدة تكاليف الثبات على الطريق، ولكن قليل هي الحالات التي يعترف فيها هذا المتخلف بهذا السبب، فإن المتخلفين لابد لهم من ستر هذا الهوى وهذا الضعف بصور من التبريرات التي يحاولون بها إقناع الناس أن تخلفهم له من الأسباب المقنعة والموضوعية، فأول ما يفعلونه أنهم يذهبون إلى الحق لشتمه وتزوير حقيقته، أو لتعظيم بعض الجوانب السلبية على الحقيقة الظاهرة، والقرآن الكريم كشف لنا هذه الأساليب خير كشف، وعراها لنا لنكون على بصيرة ونور من هذه المكائد النفسية، وليعلمنا أن محاولاتهم هذه مكشوفة غير مستورة، وأنها وإن تقنعت بقناع حاجب، فهو في الحقيقة قناع زائف يشف ما تحته، ويبين ماوراءه لمن تمعن فيه ولم تغره الصور الظاهرة.

في قوله تعالى عن المنافقين في أول سورة نقرؤها فيها ذكرهم: {**وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون**}.

هذه الآية عظيمة في كشف النفاق والمنافقين، وطريقتهم في التنفير من الحق، وهي كلما سمعتها أو قرأتها تمثل لي أولئك القوم الذين مروا على مدار التاريخ الإسلامي وإلى يومنا هذا في ادعاء الفهم الثاقب، والعقل السديد، والإدراك العظيم للقضايا التي تطرح أو تعالج، وهم مع هذه الدعوى ينبزون الأثريين والسلفيين بضيق الأفق، وقلة المعرفة، وسذاجة الفهم، وبسبب هذا ينفرون عن الحق بسبب سهولته، ويتعاظمون نفاقا عن الحق بسبب أنه حق عملي له تأثيره على الواقع.

في التاريخ وجد الفلاسفة الذين يحللون الخبر ولا يصنعونه، ويدرسون التاريخ وهم خارج حركته، ولهذا قلما ما نجد فيلسوفا استطاع أن يكون قائدا عسكريا، أو إداريا ناجحا أو سياسيا خبيرا، حتى صار في عرف الدارسين قولهم: الفيلسوف لا يصلح للسياسة، وكذا لا يصلح للقيادة فنشأت ثنائية الفيلسوف والقائد، والفيلسوف والإداري، والفيلسوف والسياسي.

والسبب كما هو واضح أن الفيلسوف يعيش أوهام عقله، ويحلق بأجنحة الفكر فوق السحاب، ولا يتقن السير على طريقة البشر فوق الأرض.

هذه ثنائية توجد في عالم البشر والناس، وكم شكى القادة العسكريون وكذا السياسيون من أوهام الفلاسفة والمفكرين.

في العالم الإسلامي تاريخا وحاضرا:

القرآن سماهم منافقين وقال لهم: (آمنوا كما آمن الناس}، وانظر إلى قوله تعالى: (الناس)، هو الإيمان على صورة واحدة وحقيقة واحدة يعيها الناس جميعا بفطرهم على حقيقة واحدة دون تفاوت في أصلها، يا قوم آمنوا كما آمن الناس، فهذا هو الذي أرتضيه منكم، وهذا هو أمري لكم، فلا تغالوا، ولا تتقعروا، ولا تتعمقوا تعمقا ممقوتا، آمنوا كما آمن بلال، وكما آمن ياسر، وكما آمن البدوي والحضري، فإن سألتم ما الإيمان وما تعريفه وما حده، قال لكم ابتداء: هو شيء تعرفونه في أنفسكم فلماذا تسترونه، وهو شيء يلفح قلوبكم بحرارته فلماذا لا تعترفون به؟.

وأنت أمام هذا تتذكر أمر الله تعالى لليهود: (**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**}.

فالمؤمن لا يتقعر، ولا يداري ليستر الحقيقة، ولا ينشغل بالحد عن المحدود، أي باللفظ عن الحقيقة، ولا بالاسم عن المسمى، بل هو يفهم من القول أن يتحرك ليذبح بقرة، أما كون لفظ الذبح له معنى خاص ووقع خاص وله شواهد في لغة الشعراء، فهذا لا يفكر فيه ابتداء، بل يستقر في قلبه إرادة الحركة لتحقيق الفعل: أن يذبح بقرة. هكذا يتلقى المؤمن أمر الله تعالى، يتلقاه ليعمل به، فإذا عمل به شعر بحلاوة الإيمان في قلبه، وازداد ألق العلم في نفسه، وفتح الله عليه المعارف التي تؤيد صلته بالله تعالى.

أما اليهود، من أهل السفسطة والجهالة، فكان وقع الأمر عليهم على صورة أخرى:

هذا أمر جميل، لكن لا بد أن نوقعه على طريقة لا تتلاءم مع ما يفهمه (الناس)، فالساذجون هم فقط من يفهم البقرة أنها البقرة، فهل كل بقرة تصلح لأن تقدم لتنفيذ أمر الله، فتعالوا إذن نسأل عن البقرة؟.

كان شان اليهود يوم ذاك أنهم يعيشون وبين يديهم نبي يوحى إليه، فصاروا يراوغون ويحاورون حول صفة البقرة، لكن لنتخيل أمر أولئك اليهود في زمن لا يوجد فيه نبي.

قيل لهم: {**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**}، فماذا سيقول أصحاب السفسطة (أو السفهاء كما سماهم القرآن): قطعا سيجلسون أمام هذا الأمر محرفين ومؤولين لحقيقته لصرفه عن كونه دافعا لهم للعمل والامتثال، كلما ابتعد ولكن المرء عن الحقيقة الأولى التي تستقر في ذهنه لا بد أن يزداد رهقا وتعبا، فلما زاد اليهود في السؤال ازداد ضيق الأمر عليهم {**فذبحوها وما كادوا يفعلون**}.

قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس.. قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء.

هي كما ترى أخي في الله تقع على معنيين:

الأول: أنهم رفضوا اتباع الحق بسبب أن أهل الضعف والفقر والمسكنة قد سبقوهم إليه، فأنفت نفوسهم الخبيثة أن يساووا بينها وبين أولئك القوم الذين أكرمهم الله تعالى بنور الإيمان وبرد اليقين، فرفضوا الإيمان وتنكبوا عنه، وقد صدر منهم ما يدل على كبرهم هذا، وذلك أنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم يوما خاصا، أو مجلسا منفردا يحدثهم فيه عن الإسلام والإيمان، فلما هم ومال لهذا القول طمعا في هدايتهم قال الله تعالى له: {**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**}، وهكذا سلب الله من الناس القدرة على أن يجعلوا للحق قيمة من عند أنفسهم، بل الحق قوته تكمن في نفسه لأنه من الله تعالى {**وقل الحق من ربكم**} فالحق لا تزداد قوته بإقبالكم، ولا تضعف قوته بإدباركم، الحق تكمن القوة فيه بسبب أنه من الله تعالى، وأنتم الذين تنتفعون به وليس هو الذي ينتفع بكم.

الثاني: أنهم استكثروا على أنفسهم أن يفهموا الحقيقة على صورتها الأولى دون تأويل يبطل حقيقته، فراحوا يشتمون الفهم الأول والذي يعيه الناس جميعا بحجة أنه فهم ساذج، وطريقة لا تليق بعقولهم العظيمة كما يزعمون، فلما انشغلوا بالتأويل المتعمق والتقعر الفاسد فاتهم نور الإيمان الذي لا يستقر في القلب ولا يشعر به إلا بعد الإقرار والتصديق، وحينئذ بدأ الشيطان يأخذهم إلى شبهات العقول فأفسد عليهم عقولهم.

فالمعنى الأول يدخل فيه أهل المناصب والأموال ممن يأنفون عن الحق بسبب اتباع عوام الناس له فهم أهل الشهوة، والمعنى الثاني يدخل فيه أهل السفسطة ودعاة التعمق والتفكر فهم أهل الشبهة، وهم داخلون في التقرير الأول: {**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون**}.

هكذا هي القضية: قضية أقوام أعيتهم الأعمال، وأرهقهم الاتباع، فراحوا يزعمون العلو في الدنيا مادة ومعنى، ولكن ليتذكر أولئك أن عامة أهل الجنة هم الفقراء.

وليتذكر أولئك أن عقول غيرهم أكبر من عقولهم، ولكن لا يصنع التاريخ إلا العاملون، فاللهم اجعلنا منهم.

كم هو عظيم هذا الإسلام، وكم هو يحتاج لرجال عظماء يرفعوا شأنه في هذه الدنيا!.

حينما يستقر في نفس رجل مؤمن أن عليه أن يبذل نفسه وروحه في سبيل هذا الدين، فإن عليه واجب النظر الصحيح والتفكير الصائب أن سنن الله تعالى لا تحابي أحدا ولا تختلف بسبب نفسيته الجميلة {**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به**} فالسنن الإلهية حاكمة على البشر جميعا مؤمنهم وكافرهم وما أعظم ابن تيمية رحمه الله تعالى حين قال: "إن الله لينصر الدولة الكافرة العادلة ويديمها ويهزم الدولة المسلمة الظالمة ويزيلها"، وهذا من تمام فقه الرجل، فإن العدل هو قوام الملك، وبهذا نعلم أن السنن ستعمل عملها بإجراء الله تعالى لها رغم أنف البشر جميعا قال تعالى: {**إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون**} فالمسلم يألم ويقع عليه ما يقع على الناس من جريان السنن الإلهية ولا تتخلف عنه بحجة أن نيته طيبة ومقصده حسن وغايته جليلة، وهذا داخل في شروط العمل الصالح (أي متابعة السنة وعدم معارضتها) فإن من شروط العمل الصالح أن يكون موافقا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم التشريعية، وما السنن التشريعية إلا موافقة للسنن الإلهية الكونية، فما من سنة أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهي تعالج سنن هذه الحياة وتحقق للمرء إرادته الصالحة ونيته الطيبة، فبهذا يحقق الوعد الإلهي لتحقيق المصالح في الدنيا وتحصيل الأجر الأخروي يوم القيامة، فهو سعيد في دنياه وسعيد في أخراه، ولكن لا يظنن أحد أن سعادة الدنيا تتم بتحقيق كثرة المال والعرض والمنصب، فهذه ليست بشيء في إرادة

الرجل المسلم، فإن إرادته معلقة بنيل الشهادة، وهكذا يتقلب المرء في سنة الله بمتابعة سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

السنن الإلهية كونا وشرعا:

إن السنن الإلهية لا تحابي أحدا ولا تتخلف لأمنية رجل كائنا من كان، وهذا من تمام رحمة الله بعباده، فإن الدنيا دار سنن لا يجوز تركها أو معارضتها، فهي تطحن من وقف أمامها أو تلعب بها أو تغاضى عنها بحجة انشغاله بصلاح قلبه أو بأوراد ذكره وعبادته، والغفلة داء مهلك وهو يعتري أكثر طيبي القلوب من هذه الأمة، وكان من شكوى أهل الحديث في تحقيقهم لصحة الأحاديث أن أكثر الأحاديث الصحيحة تسري بين هذا الصنف من الناس، ولذلك صح عن الإمام مالك رحمه الله تعالى قوله: "إني لأرد أحاديث أقوام وأرجو دعاءهم لي"، فهو يرد حديثهم لغفلتهم ويقبل دعاءهم لكثرة ذكرهم وعباداتهم، ومن هنا وقف الكثير من الناس موقف العداء من الناصحين لإخوانهم بإحسان العمل وإتقانه على وجه يتطابق مع سنة الله تعالى بحجة أن هذا لا يعرف من فقه السلف، وفقه السلف هو ليس فقه أهل الفقه والحديث، فإن هذا فقه الأحكام الشرعية، أما كيف يكون العمل موافقا لسنة الله التكوينية فهذا يرجع فيه إلى أهل الخبرة والتجربة ممن درسوا هذا الأمر وعرفوا تكوينه على وجه يوافق الوضع الإلهي له في قدره وخلقه، وعلى هذا ففقه السلف الحقيقي في هذا الباب هو فقه الصحابة رضي الله عنهم لأنهم وحدهم من جمع الإتقان السنني للكونيات والفهم السنني للشرعيات فاستحقوا الولاية الدينية والولاية الكونية، وما حدث بعده هو الافتراق بين هاتين الولايتين كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، ولهذا واجب على أهل الولاية الكونية أن لا يتمادوا في دراساتهم بعيدا عن أهل الولاية الشرعية، ولا أهل الولاية الدينية أن يترفعوا عن الإذعان والتعلم من أهل الولاية الكونية، ولا تصح ولا تكون رفعة الإسلام إلا باجتماع هاتين الولايتين، واجتماعهما في شخص واحد في مثل هذه الأزمان اجتماع صعب، ولكن رحمة الله تعالى ليست ببعيدة في تحقيق الوعود الإلهية بالهداية التامة لبعض عباده،

ولكن لتشعب الحياة وكثرة ما فيها من جديد من اكتشاف الناس لسنن الكون تجعل اجتماع الوعي الكامل عسيرا على العقل الواحد.

وهذا الذي شرحته وبينته كتب الأصول وهي شاهدة عليه فإن ما يسمى عند أهل الأصول بتحقيق المناط هو في حقيقته يعني معرفة الشيء وفهمه على حقيقته، حتى تتعرف صفته وهيئته وما فيه من سنن الله تعالى، وهذا لا يستلزم في تحقيقه أن يكون الرجل صاحب ولاية دينية، وقد ذكر هذا الإمام الشاطبي - رحمه الله تعالى - في "الموافقات"، وقد ذكر ابن القيم في "الإعلام" وغيره أنه لا تجوز الفتوى حتى يتم للفقيه معرفة الواقع، والواقع ليس هو أخبار الواقع ولكنه سنن الله تعالى وخلقه وكونه.

افتراق الولايتين: الولاية الدينية والولاية الكونية تصنع فصاما نكدا في حياة المسلمين، ولذلك كان الحكام والقادة على الدوام بحاجة إلى نصائح العلماء وفقهم وإرشاداتهم، وكان العلماء بحاجة إلى سيف الحكام لحمايتهم وإقامة شؤونهم وتسهيل معاشهم وحماية بيضة الأمة.

أما هذه الأيام فالأمر جد مخز مختلف ومعيب، كل فريق رضي لنفسه الإمامة الناقصة فوقع المحظور بتخلف النصر الإلهي والوعد المرتجى، ولن يكون للأمة قياما ورفعة إلا بعقل جمعي يشرك غيره في الشورى والبحث ويكون رأيه ملزما في ما يفهم فيه ويتقنه، فليس هذا عصر الرجل الذي يعادل ألف رجل، وليس هذا زمان الرجل الذي يكون صوته في الجيش خير من ألف رجل مع أن وجود هذا الرجل ضروري وواجب في الجيش والحركة، ولكن فهم مثل هذه الأحاديث على درجة الاستقلال في تحقيق النتائج فهم صبياني ساذج، فإن الشجاعة هي قوة الإرادة وهى شق من شقين لتحقق العمل ووقوعه والشق الآخر هو القوة، بل إن الإرادة القوية لا تنتج إلا بشقين هما قوة الرغبة والعلم، إذا فقوة جنان الرجل وشجاعته هي جانب وحيد من جوانب متعددة في تحقيق النصر أو الوعد الإلهي، فانظر لهذا وتفكر فيه، وإياك والشعارات التي لا تسمن ولا تغني من جوع وعليك بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم فإنهم هم الرجال، وهم الذين يقتدى بهم في فهم دين الله تعالى وكيف يتحقق في الأرض.

عوامل التمكين: الإرادة والإدارة مع العلم والقدرة

لقد كتب من كتب من الأوائل في إبراز عامل الشجاعة وحب الدار الآخرة في تحقيق النصر وقلما رأينا من كتب في إبراز عامل الفهم والتعامل مع السنن الإلهية والقيادة الواعية في تحقيق النصر، ومن هنا فالمعركة إدارة وليست طلقات فقط وتحسم المعركة، ولكنها طلقات تسير ضمن قانون سنني دقيق تجمع معها إدارة شاملة وحنكة راقية ووعيا رفيعا وهداية ربانية ودعاء مظلومين والتحاء الصالحين لسيدهم في الأسحار كل هذه أجنحة مهمة لتحقيق الموعود الإلهي.

إني على ضعفي وقلة حيلتي وقلة إدراكي فإني أقول إننا مازلنا في القاع، ولم نخرج بعد من الفهم الغنوصي للسنن والحياة، وبيننا وبين الفهم عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم أميال وأميال، ولما نفهم فهما صحيحا لكي تتحرك إرادتنا بعلم صحيح (للشرعي والكوني) ورغبة في الدار الآخرة ونملك ما أمر الله تعالى به من القوة حينها ستفتح علينا خزائن الله متفجرة بتحقيق الوعود والمبشرات.

لسنا على استعداد أن نتوقف ويكفينا أن نذهب إلى الأخدود كما ذهب أصحاب الأخدود وعلينا أن نحضر أنفسنا لذلك، فالطريق ما زالت بعيدة عن التمكين في الأرض، ولكن لنجعل الطريق إلى السماء بحصول الشهادة (وهي طريق جد قصيرة) خطوة ندفع بها إسلامنا إلى الأمام لتأتي الأجيال القادمة فترى طريقا معبدا، ومعالم واضحة، فتأخذ بها لتحقيق التمكين في الأرض.

مقاصد الشارع ومقاصد المكلف من التمكين:

من المهمات العظمى لهذا الدين إخراج المرء من دواعي هواه إلى دواعي تحقيق العبودية لرب العالمين، ومن صور هذه المهمة أن الإنسان بطبعه تقصر نظرته إلى الواقع الضيق الذي يعيش فيه، ويكون همه أن تفرج عليه بمقدار هذا الواقع والهم الضيق، ويظن أن منتهى الطلب وغاية المنى هو تحرره من ضيقه الآني وحفرته الصغيرة، وهذا هو هم نفسه وغاية هواه، ولما يخرج المرء من هم نفسه وغاية هواه إلى مقصد الرب من نفسه وغاية الإله من ذاته فإنه

وإن كان الإنسان المسلم في لحظة من اللحظات يعيش هذا الهوان وهذا الضيق فإنه متطلع إلى غايات عظمى ومقامات جليلة وهي مقاصد الرب التي تتلاءم مع قوته وعظمته، مع أن غايات الإنسان الضعيف تتلاءم مع ضعفه وعجزه.

فالمسلم في سجن من السجون، وهو يذوق أصناف العذاب ويلاقي أشد الهوان، فإن مقصده، بل أعلى مطالبه أن يخرج من هذا السجن ويعفى من هذا العذاب، ويظن أن ذلك هو غاية ما يمكن أن تبلغ رحمة الله تعالى به، ولكن من سمات هذا الدين ومن مقاصده أن يرفع نظره، ويعلي درجته غايته أن يقود العالم، ويحكم الدنيا وتخضع له الأرض، ويكون ذلك أمله وهو في هذه الحالة من الهوان، فهو يتعامل مع قوي عظيم قادر على كل شيء، ولا ينظر فقط إلى حالته وقوته هو.

عندما كان الصحابة رضي الله عنهم يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم في أشد حالات العذاب والفتنة وهم في مكة، ويشكون له هوانهم على الناس، وألم العذاب وضيق الحياة، فهم في هذه الحالة وهم في شدة من أمرهم، وضيق بدني ونفسي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع أعينهم وهممهم إلى غايات لا يحلم بها الإنسان في هذا الموطن، ولا يتفكر بها، فالموشك على الموت من الجوع لا يرجو أطايب الطعام ولا أجوده ولا أرفعه وأعلاه ولكنه يحلم بقطعة خبز، فهذا منتهى أمله وغاية مطلبه، ولكن المؤمن يتعامل مع الله تعالى، فهو مدعو ليرفع همته، ولذلك كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم وهم في مكة وهم يشكون شدة العذاب فوق ما يحلمون ويرجون: ((**والله لتسيرن الظعينة من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلا الله والذئب على غنمها ولكنكم تستعجلون**))، ويقول لهم في موطن آخر: ((**والله لتفتحن كسرى وقيصر ولتنفقن أموالهما في سبيل الله**))، كما وقع من قوله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق، فالصحابة رضي الله عنهم مشغولون بالحفاظ على أنفسهم لئلا تهلك وعلى أعراضهم لئلا تسبى وتنتهك ومع ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشرهم بفتح فارس كسرى وروم قيصر.

وهذا أمر فيه الامتحان للنفوس والعقول فإن من في دينه شك وريبة سيقول: {**غر هؤلاء دينهم**}، لأنه حينئذ ينظر إلى قوته ويتعامل مع هذا الدين من خلال نفسه لا من خلال

واضعه رب العزة والجلال، وأما المؤمن فهو الموقن بموعود الله تعالى ويرقبه أيقع عليه أم أن الشهادة ستكون أقرب إليه من الوعد الإلهي؟.

ثم هذا فيه هدف آخر وهو دفع المؤمن ليغير واقعه ويسعى لإصلاحه وتدمير الباطل فيه، فالمؤمن يحمل نفسية المهاجم دائما حتى وهو ضعيف عاجز، ولا يجتمع هوان نظره المؤمن مع هوان واقعه، ولا يرضى لليأس أن يصيب قلبه ونفسه، بل هو مستعل بالإيمان دائما وأبدا في أي حال كان وعلى أي موطن من درجات الدنيا كان مستقره، فإذا علم أن مهمته لا تعدو الخروج من مأزقه والانفكاك من عذابه، بل مهمته تتجاوز ذلك بأن يهاجم الباطل، لا ويصارعه ويحاربه حتى وهو صريع ضعيف، فبهذا يكون حاملا دائما نفسية المسلم العزيز بربه والواثق بنصر الله تعالى وصواب دينه، انظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسير داعيا إلى الله تعالى في مكة، فهو مستضعف معذب، وقريش تريه ألوان العذاب فهي تضع على ظهره فرث الجزور وهو ساجد في ظل الكعبة، ويبقى كذلك حتى تأتيه فاطمة رضي الله عنها فتزيل عنه القاذورات وقريش تضحك بملء فيها، ومع ذلك كله فهو يوزع عليهم النذر، ويبشر بالعذاب، ويعدد عليهم ماذا سيصنع بهم، فهو الذي قال لهم يوما وقد أساءوا الإجابة له إساءة بالغة: ((**لقد جئتكم بالذبح**))، فيرد أبو الحكم مرتعدا على هذه النذارة: يا محمد ما كنت جهولا قبل اليوم، فيجيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بل أنت الجهول))، ومن يومها فأبو الحكم هو أبو جهل، وهو الذي قال لرجل من قريش وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمرن مهرا من خيوله، فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: على هذا سأقتلك يا محمد، فيجيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بل أنا قاتلك إن شاء الله))، فيكون هو الرجل الوحيد الذي يقتله الرسول صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة رحمة منه لأنه القائل: ((**أشد الناس عذابا من قتل نبيا أو قتله نبي**)).

ولهذا الأمر هدف آخر وهو هدف تربوي وهو أن المؤمن الصالح لا يضع خططا قصيرة الأمد، ولا يقصر نظره على ما هو أمامه فهو يتعامل لا مع الخطوة التالية فقط، ولكن يضع خططه لآلاف الخطوات القادمة، فهمّ الخطوة الأولى كيف يخرج من واقعه، ولكن الخطوة التالية هي كيف يغير واقعه، وبعدها كيف ينتقل إلى غيرها، فهو ممتلئ النفس

بالمهمات العظمى ولا يقف عند حد، ولا ينتهي عند نقطة قاصرة بل ينتقل من عمل إلى عمل، ومن خطوة إلى خطوة، وكلها في ذات الإله سبحانه وتعالى، قال تعالى: {**فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب**} فحيث انتهى من مهمة نصب نفسه في مهمة أخرى.

ثم لهذا الداعي هدف آخر وهو امتلاء النفس بأمر الله تعالى والنظر إلى مطالبه وأوامره ومقاصد هذا الدين، وليس النظر القاصر إلى نفسه وهواه ومطالبه هو فقط، فإن مهمة هذا الدين أن يبسط سلطانه على الأرض كل الأرض، فمن امتلأت نفسه بذلك افترق عن الآخرين بلا شك، وإذا أردت أن تنظر إلى الفارق المهم بين الجيل الذي ربي على هذه الوعود العظيمة وهو حكم الأرض كل الأرض وبين الجيل الذي في ذهنه أن يكون غاية مناه أن يتوسع الضيق عليه قليلا هو هذا الذي تراه من الفقه الأعوج المرذول والذي يخرج من أفواه هؤلاء المشايخ السحرة، أو من قبل الحركات المهترئة، فإن عامة الجماعات وكذا المشايخ الذين يقرأون الواقع كثيرا، ينشغلون بتعداد أسلحة أمريكا وجنود أمريكا، وأسلحة إسرائيل وجنود إسرائيل، وجنود الشرق والغرب فإن انشغالهم هذا دون القراءة المتعمقة أو المعادلة لقراءة وعود النبي صلى الله عليه وسلم وبشاراته وقوة الله وقدرته هذه القراءة أوقعت في نفوسهم اليأس والخذلان والرهبة إلى درجة الارتعاش وبالتالي خرج منهم فقه الهزيمة والخنوع، أو آراء التبرير والتسويغ لهذا الواقع فهم يعرفون قوة القنبلة الذرية، ويعرفون قوة الصواريخ العابرة للقارات، وقوة الطائرات الأسرع من الصوت، ولكن أنى لهم أن يعرفوا قدرة الله تعالى، أو يعرفوا عظمة الله تعالى، أو يعرفوا قوة وقدرة جنود الله تعالى؟!!.

أنى لهؤلاء أن يعرفوا أن ملكا من ملائكة الله تعالى قادر على جعل الأرض ومن فيها نسيا منسيا؟!!.

أنى لهؤلاء أن يقرأوا وصف ملك من ملائكة الله ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة خسمائة عام؟!.

أنى لهؤلاء أن يقرأوا بشارات النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار؟!!.

أنى لهؤلاء أن يقرأوا وعود النبي صلى الله عليه وسلم بأن جند الله سيفتحون روما ويعلقون سيوفهم على شجر قسطنطينية؟!!.

أنى لهؤلاء أن يعرفوا شيئا عن جندي ضعيف من جنود الله تعالى لو سلطه على قواهم لصارت أثرا بعد عين؟!!.

دعوى استعجال النصر في مواجهة الطواغيت:

ساد في أوساط بعض المفكرين الإسلاميين (!!) وبعض الجماعات الإسلامية(!!) دعوى غريبة الشأن، لم تدرس بعناية من الوجهة الشرعية، ولم تكن هذه الدعوى قد خرجت إلى عقلية المسلم من خلال دراسة موضوعية شاملة، هذه الدعوى هي الزعم أن العدو (المرتدين) قد استجرنا إلى معركة خاسرة، فهو الذي دفعنا إليها وقد اختار لها التوقيت والأدوات ليحسمها متى يريد وكيفما يريد، وبالتالي علينا أن لا نستدرج إلى المعركة حسب توقيته، وكذا علينا أن نملك من الصبر العالي حتى نتحمل عنف السلطة نحونا مانعين من حصول المواجهة في الوقت الذي يريده هو ولا نريده نحن.

والفكرة ولا شك جميلة في أبعادها الذهنية، فإن من يملك التوقيت المناسب للمعركة هو الذي يستطيع أن يجعل في جرينه إحدى عوامل النصر وهزيمة الخصم، ولكن هل هذه الفكرة مبنية على أسس صحيحة؟ وهل سبب انتكاسة الحركة الإسلامية (!!) في الوصول إلى أهدافها أنها لم تملك ساعة الصفر في هذه المعركة؟، وهل صحيح أن ما حصل من مصادمات سواء كانت جهادية أم غير جهادية بين الحركات (!!) وبين السلطات المرتدة هي التي جعلت هذه الأوساط المفكرة والحركية تخرج هذه النتيجة؟.

ابتداء أقول أنه لم يحدث قط أن استدرج الطاغوت أي حركة إلى أي مواجهة في وقت أحبه هو أو رضيه هو، ولم تكن هناك ثم معركة بين الجماعات (!!) وبين الطاغوت كان سبب انهزام الحركات فيها هو خطأ التوقيت في البدء والعمل، بل إن الطاغوت في أي معركة نشأت بينه وبين هذه الحركات كان يعاني فيها الأمرين، ويصرخ بملء فيه استنجادا ورعبا، ولكن لأن النتيجة كانت في صالحه في النهاية فإنه استطاع أن يبث خبثه وحقده على الأمة، فيفجر

ويعربد ويستغل فورة فوزه في تعميق جذور الجاهلية ومحاولة إضعاف جانب الإسلام في الدولة والأمة، نعم النتيجة كانت مرعبة بالنسبة للإسلام بسبب هزيمة هذه الحركات، ولكن لم يكن سبب الهزيمة هو اختيار الطاغوت لهذه المعركة في هذا الظرف.

نحن أمام تجارب متعددة في الصدام بين الإسلام ممثلا بحركات سواء منها البدعية أو السنية لكننا نستطيع أن نجمل هذه الحركات ضمن سياقين:

الأول: السياق السياسي وهي الحركات التي لم تتبن الجهاد كحل شرعي وحيد لهدم الطاغوت واقتلاعه، وهذا اللون فيه الكثير من الأطياف بدءا بالإخوان المسلمين المبتدعة إلى حزب التحرير، ومن الجماعات الإصلاحية كجماعة التبليغ وإلى تيار القاعدة الصلبة والدعاة السلفيين المزعومين وغيرهم.

السياق الثاني: وهي الحركات القتالية والتي حكمت أمرها أن هذا الطاغوت له حل وحيد في شرع الله تعالى وهو القتال، وهذا اللون كذلك فيه أطياف متعددة بدعية وسنية.

والتجارب التي يحتج بما أصحاب هذه النظرة يأخذون حالة أو حالات من الأولى وحالة أو حالات من الثانية.

أما الاحتجاج بالسياق السياسي فهو احتجاج باطل، لأن هذه الجماعات ليس في عقليتها ولا برنامجها مجابهة الطاغوت ولا محاربته، وليس في خطط إعدادهم لكوادرهم ثم إرادة لتعليمهم أصناف السلاح وإتقان القتال. فهو احتجاج باطل من أصله.

أما الحركات الثانية فالحق أن هذه الجماعات هي التي بدأت وشرعت، وليس الطاغوت هو الذي استفزها واستدرجها، أما بالنظر إلى الفهم الشرعي لهذه الدعوى فإني قبل أن أعرض ما أفهم من دين الله تعالى في تطبيق الحكم الشرعي في هؤلاء المرتدين فإني مضطر أن أبين عائقا جديدا استقر في أذهان آرائية هذا الزمان منعهم من الفهم عن الله تعالى والفهم على رسوله صلى الله عليه وسلم.

أهل التحريف والتحليل السياسي: نظرية العمالة والمؤامرة نموذجا

على مدار التاريخ الإسلامي كان الشيطان يصب في عقلية التيارات المنحرفة بعض البدع والحوادث فيجعلها قواعد وأصول في تلقيهم للحكم الشرعي، فلو أخذنا مثلا الصوفية فإن بعض أئمتهم - الغزالي - في كتاب له لتربية النفس وصقلها صوفيا وعرفانيا نبه المبتدئ في الطلب إلى عدم قراءته للقرآن الكريم وجعل سبب هذا التحذير أن قراءة القرآن تشتت اجتماع النفس، ولا بد للطالب من جمع همته والتركيز على أمر واحد لحظة الخلوة، وقارئ القرآن الكريم تتشتت همته فإذا قرأ سورة البقرة مثلا فإنه يقرأ الآيات الأولى وفيها ذكر المؤمنين، ثم ذكر الكافرين ثم ذكر المنافقين، ثم ذكر آدم وقصته ثم ذكر بني إسرائيل، فهذه القراءة لهذه المتعددات تشتت الهمة وتوزع الفكر وهذا يفسد السالك الصوفي، فانظر إلى هذه المعوقات الشيطانية التي استقرت كقواعد في أذهان أصحاب هذا المذهب في التنفير من القراءة لكتاب الله تعالى وهي معوقات ذوقية.

بعض أهل الرأي ومتعصبو المذاهب منع من العمل بالحديث حتى يعرضه على إمام مذهبه، أو على أقوال مذهبه، فإن أخذ به إمامه أخذ به وإن رده إمامه رده هو.

أهل الكلام جعلوا ضابط الأخذ بالقرآن والسنة عرضها على العقل، فإن قبلها كان بها وإن أنكرها ردت أو أولت.

والقائمة طويلة، وللشيطان فنون في صد الناس عن تطبيق الحكم الشرعي.

أما في زماننا هذا فللشيطان مع صبية الفقه ومفكري الإسلام ممن لم يتضلعوا بالسنة النبوية ولم يقرأوها ولم يتشبعوا بها طريقة أخرى، فإنه استدرجهم لرفض الحكم الشرعي من باب جديد وهو باب يعادل الذوق الصوفي والعقل الفلسفي والنظر البدعي في رد الحكم الشرعي، هذا الباب هو التحليل السياسي.

هذه اللعبة الجديدة يمارسها أدعياء الفقه، وصبية الفكر في اتهام أي عمل يقوم به المجاهدون أنه داخل ضمن اللعبة الدولية، وهو خادم لإحدى قطبي النزاع في أي منطقة من العالم، فإنه ما من شك لأن عالمنا (الإسلامي!!) منطقة نزاع بين أقطاب دولية، وكل دولة تحاول أن

تهيمن على جزء منه، وهناك صراع دولي على الفوز بأكبر كمية من هذه الدول الضائعة بين أقدام اللاعبين الكبار(!!).

وبالتالي فإن أي معركة يقوم بها المجاهدون، ومن خلال تحليل سياسي إبليسي، يستطيع هذا المأفون السياسي(!!) أن يجعل جهاد المجاهدين في مصلحة قطب من أقطاب هذا الصراع الدولي.

وقد سبق للناس جميعا أن سمعوا تحليل أصحاب الأهواء - خدمة لأعداء الله تعالى - للجهاد في أفغانستان حيث جعلوا الجهاد هناك خدمة لأمريكا، فبالتالي فإن عبد الله عزام في عقلية هؤلاء المأفونين خادم لأمريكا، وبعضهم يرقق العبارة ليحدث لها القبول فيجعله مغفلا نافعا - والحديث عن المغفل النافع طويل - بل إن بعض ضلال هذا التيار صار يعلق الأحكام الشرعية على مناطات يفتريها المحلل السياسي، وبالتالي فعبد الله عزام عميل أمريكي، والعميل كافر، فعبد الله عزام كافر، وقد كان بعض أصحاب هذه اللعبة الشيطانية يقولها بملء فيه، وبعضهم يقف بها إلى بعض الحدود، ولكن بعضهم توقف عن ذلك عند مقتل الشيخ عبد الله عزام، ولكنك لن تعدم وجود محللا سياسيا آخر يزعم أن أسياده هم الذين قتلوه بعد أن انتهت مهمته.

التحليل السياسي يستطيع أن يفسر لك أي حركة ربانية في هذه الدنيا ضمن مساقات دولية معينة لا دور للإسلام فيها، ولا لمصلحة الإسلام فيها ذرة.

لأهل الهوى الآرائية ضروب من التفنن المنطقي في صرف حكم الله من إيقاعه على وجهه الصحيح، فمرة يدخل عليهم من باب الذوق النفسي فيجعلونه حاكما على الشريعة، وهذا منتشر بين كثير من الناس حين يجابهون الحكم الشرعي بعدم اطمئنانهم له، فيقول لك أحدهم: أنا لا أطمئن لهذا الحكم. أو قول بعضهم: إن نفسي لا ترتاح لهذا الرأي. وليت القائل قد تضلع بالسنة، وتشربها حتى ملأت عليه جوانحه ومشاشه، بل هو رجل لم يمر على السنة إلا لماما، وأخذ منها حديثا أو حديثين، ولم يقرأ القرآن قراءة درس وفهم، بل هذًّا سريعا، فكيف لمثل هذا الرجل أن يكون رأيه قريبا من السنة، أو يكون مزاجه قريبا من الحق؟!!، وللذكر فإن من جعل ذوقه حاكما على الشريعة يحسن ويقبح من جهة نفسه وهواه كافر زنديق، فليحذر المرء

من هذا الباب فإنه من باب القول على الله تعالى بلا علم، وهو أعلى مرتبته من الشرك كما قال تعالى: {**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**} (الأعراف) فانظر حفظك الله تعالى إلى ذكر مراتب المعصية وكيف رتب الله درجاتها حيث جعل أعلى المعاصي القول على الله بلا علم نعوذ بالله من الخذلان. ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى كلام نفيس في بداية كتابه الاستقامة فارجع إليه فإنه مهم.

قلنا سابقا إن من صوارف الشيطان الظنية في إبعاد الناس عن الحكم الشرعي هذه الأيام ما يسمى بالتحليل السياسي، وهو باب غريب وللناس فيه مذاهب وطرق تحار فيها حينا وتعجب منها حينا، وقبل أن أبين معارضة هذا الظني لقواعد الأصول فإني سأمر مرورا سريعا لتحديد بدايات هذا المأخذ الشيطاني في محاولة لكشف مصدره.

أعتقد أن أوائل وأسياد هذا المذهب في بلادنا هم اليساريون، فهم الذين فتحوا هذا الباب ليخدموا به مذهبهم وطريقتهم، فهم في سبيل إقامة الثورات ضد الحكومات (اليمينية) أو الحكومات (الرجعية) كما يقولون، جعلوا يرددون صباح مساء، وفي كل موطن أن حكوماتنا حكومات عميلة للغرب، وخاصة لأمريكا الجديدة وبريطانيا القديمة، وبريطانيا ومن معها من الدول الاستعمارية التاريخية ثم من لحق بما من العالم الجديد كأمريكا لها حضور سيء قبيح في أذهاننا، وهذا الحضور سببه تلك الآثار السيئة والتي لا تزال شاهدة على هذا السوء إلى يومنا هذا، مثل هذا التفرق والحدود التي اصطنعتها في بلادنا، ثم النهب السيء لخيرات بلادنا، ثم تاريخها مع فلسطين واليهود، فالعقل المسلم مليء ولا شك بهذا الواقع السيء من تاريخ الغرب في بلادنا، فبمجرد أن يلوح الخطيب بارتباط جماعة أو فرد بالغرب يكون كافيا بأن يسقط من أعين الناس واحترامهم.

فإذا أردت تدمير عدو لك ما عليك إلا أن تصفه بالعمالة ابتداء وبالتالي صارت هذه الكلمة تقال جزافا، فما أن يقوم انقلاب في بلادنا حتى يبرر الانقلابيون ذلك بأنهم وطنيون، وأن سلفهم عملاء للاستعمار، وكفى بذلك مبررا.

هذه البداية الصغيرة تطورت في تفسير أحداث الكون حتى صار مشهودا بين الناس المثل القائل: لو رأيت السمك يقتل في البحر ففكر بالإنجليز. ومع قليل من التهويل صار المسلم كلما قرع له بالشنان فكر بالأيدي العميلة المدبرة لأحداث الكون وأحداث الحياة، فليس هناك ثم صغيرة أو كبيرة فوق هذه الأرض وفي داخل البحر إلا وللدول الكبرى فيها يد، وصار المجتهد الجهبذ هو من يبعد لك النجعة في تحليل الخبر وتفسيره ضمن هذا السياق في فهم هذه الأحداث، وهناك بعض الكتب ساهمت في صنع هذه العقلية بغض النظر عن صواب بعض أحداثها وتحليلها أم لا، مثل كتاب "حكومة العالم الخفية" وكتاب "أحجار على رقعة الشطرنج" ومثلها كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" وكتاب "لعبة الأمم" وغيرها من الكتب، فإن هذه الكتب أوحت لقارئها (المؤمن بما فيها) أن أحداث الكون بصغيرها وكبيرها محاطة ومرسومة من قبل عالم خفي!، بعضهم أطلق عليه الماسونية وبعضهم قال هي حكومة أندية الروتاري وغيرها، وعقلية المسلم المتخلفة رأت في نفسها التطور للخروج من تحليل الأحداث على قاعدة الجن والشياطين إلى عالم المؤامرة والحكومات الخفية، فبدل أن تكون صوفية متخلفة تحلل الأمور على أنها من فعل الجن والشياطين وهذا تخلف، فالعلمية هي تسمية هذا العالم بالحكومة الخفية.

ولا يفهم من كلامي أني أنفي عالم الجن والشياطين وأن لهما صلة بواقعنا، أو يفهم من كلامي أي أنفي مبدأ وجود الأعداء المخططين ضد الإسلام وأهله، فأنا بفضل الله تعالى مازلت في مكاني لم أبرح عليه عاكفا.

أي أني أعتقد بوجود عالم الشياطين في الجن والإنس، وأعتقد قوله تعالى: {يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} ولكني لا أعتقد أن محمد علي كلاي كان ينتصر لأنه كان يستعين بجن مسلم يقاتل معه ضد جو فريزر الذي كان يستعين بجن كافر يلاكم معه.

المهم أن المناط الوحيد الذي صار يعلق الناس أحداث الحياة عليه هو العمالة وتخطيط الحكومة الخفية، والارتباط بإحدى أقطاب الصراع في العالم، وكان أئمة هذا الشأن من الجماعات الإسلامية هم حزب التحرير، فإنه ما فتئ يردد للناس من خلال نشراته أن الصراع بين أمريكا وبريطانيا على أشده في اقتسام العالم العربي، ولم يخرج رئيس ملعون أو حاكم مرتد

أو رئيس قبيلة أو قائد تنظيم من هذه المعادلة الجديدة، وما من معركة تقوم ولا انقلاب يحدث إلا ضمن هذا السياق والتحليل، فهذا بلد محكوم لأمريكا والانقلاب قام من أجل عمالة بريطانيا، وهذا بلد عميل لبريطانيا وما الانقلاب إلا من أجل عمالة أمريكا، وهكذا ما من حدث إلا ضمن هذه المعادلة، لا يخرج عنها شيء البتة، وانتشر هذا التحليل حتى عند صغار الناس وصار الوعي الكامل والفهم الثاقب البرهنة على أن هذا الحدث ضمن معادلة دولية، وعمالة خفية. وللذكر فإن هذا النوع من التحليل لا يرى للمعسكر الاشتراكي (يوم أن كان معسكرا) وجودا في المنطقة. وقد استخدم بعضهم نفس الأسلوب ضد حزب التحرير فاتهمه بأنه عميل بريطاني، فانقلب السحر على الساحر، وصدق من قال:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

وفي المقابل هناك قوم يحللون الأمر على جهة الحكومة اليهودية: هنا يهود، وهناك يهود، فهذا بلد صنعه اليهود، وهذا حزب وراءه اليهود، فاليهود هم قادة الأحداث كلها في هذا الكون.

وقد قابلت أقواما يحللون كل شيء على مناط الشيوعية، فكل من حارب الدول الديمقراطية واليمينية شيوعي - علم أم لم يعلم - فهو يرى أن الشيخ سلمان العودة وسفر الحوالي صنيعة شيوعية لأنهما يحاربان الدولة التي ما زالت أقدامها راسخة في محاربة المد الشيوعي، وهذا تيار موجود في الأردن وله رجاله وله مذهبه، بل إنه يرى أن كل من تكلم على الحكام وكشف شرهم وحرض الأمة على الخروج عليهم صنيعة يهودية - علم أم لم يعلم - ويحللون أحداث الكون على هذا النسق وهذه المعادلة، وهكذا تتغير التفسيرات ولكنها تبقى ضمن إطار واحد ونوع واحد وهو التفسير التآمري للأحداث.

أما ما يهمنا فهو خطورة هذه الطريقة في فهم أحداث الكون والحياة، وبالتالي ما يتعلق بما من أحكام شرعية.

لو نظرنا إلى أدلة هؤلاء المحللين لرأينا هشاشة أدلتهم وعدم قبولها إلا للأطفال والصبية، فبعضهم يجعل فلانا عميلا بمجرد أنه رآه مشتريا مجلة فيها صورة لحاكم من الحكام، وبعضهم يجعل فلانا عميلا لأنه رآه اشترى حذاء من صنع الدولة المعنية، وهكذا..، فلما كانت هذه

الأدلة لا تقبل ولا تصلح، كانت العمالة عندنا تعني الولاء والنصرة وبالتالي فمن كان عميلا لدولة كافرة هو كافر مثلها، وحكمه في دين الله تعالى هو القتل، وهذا هو حكم الجاسوس عند جمهور العلماء، كان إطلاق لفظ العمالة والجاسوسية على رجل أو حركة خطير جدا لا يصلح معه اللعب والفهلوة، نعم عليك بالحذر والكيس والفطنة ولكن عليك أن لا تكفر الناس بالظنة، فالأمر خطير.

هذه مسألة أولى تتعلق بأولئك القوم الذين يضربون بالرمل ويدعون علم السياسة فيستسهلون القول بأن فلانا أو تلك الحركة عميلة للطواغيت، فليعلموا أن معنى حكمهم هذا هو تكفير هذا الفرد وهذه الطائفة وتجويز قتله وقتاله لأي أحد من المسلمين.. هذه واحدة.

أما الثانية: فهي ما قدمنا من إبطال أي عمل جهادي ضد طاغوت من الطواغيت..

أهل التخييل: حكم قتال المرتدين

من قرأ سيرة الصحابة رضي عنهم في حروبهم وجهادهم رأى بكل وضوح أن جهادهم للمرتدين وخاصة قتال بني حنيفة أتباع مسيلمة كان من أشق الحروب وأتعبها عليهم فقد جهدوا فيها جهدا عظيما، وقال أهل السيرة أن عدد من قتل من المسلمين يقارب الألف، وعدد قتلى بني حنيفة (10) آلاف نفس، وكان عدد كبير من القتلى من حملة القرآن، وكانت هذه المقتلة سببا في إقبال الصديق رضي الله عنه على جمع القرآن، ثم من نظر في مسيرة التاريخ الإسلامي رأى أن حروب المسلمين لطوائف الزندقة كانت من أشد البلاء على المسلمين، أشد من قتالهم للكفار الأصليين، ولو تمعنا في سبب هذا الخصوص في قتال المرتدين لرأينا أن الأمر يرجع إلى سببين اثنين، وبفهمهما تدرك جماعات التوحيد والجهاد أن ما هم عليه لا يقوى له إلا الرجال ولا يقوم به إلا من أخلص وجهه لله سبحانه وتعالى، هذان السببان هما:

1 - إن حكم قتال المرتدين أشد من حكم قتال الكفار الأصليين:

قال الغزالي في "فضائح الباطنية" (ص 95): والقول الوجيز فيه أنه يسلك بهم (أي الزنادقة الباطنية) مسلك المرتدين في النظر في الدم والمال والنكاح ونفوذ الأقضية وقضاء العبادات، أما الأرواح فلا يسلك بهم مسلك الكافر الأصلي، إذ يتخير الإمام في الكافر الأصلي بين أربع

خصال: بين المن والفداء والاسترقاق والقتل، ولا يتخير في حق المرتد، بل لا سبيل إلى استرقاقهم ولا إلى قبول الجزية منهم ولا إلى المن والفداء، وإنما الواجب قتلهم وتطهر وجه الأرض منهم، هذا حكم الذي يحكم بكفرهم من الباطنية، وليس يختص جواز قتلهم ولا وجوبه بحالة قتالهم، بل نغتالهم ونسفك دماءهم، فإنهم مهما اشتغلوا بالقتال جاز قتلهم.ا.هـ.

فالمرتد أحكامه في القتال أشد من الكافر الأصلي. وكذلك لا يجوز مصالحة ومهادنة وعقد الأمان للمرتدين، ويجوز مصالحة ومهادنة وموادعة الكفار الأصليين: - قال الشافعي: إذا ضعف المسلمون عن قتال المشركين، أو طائفة منهم لبعد دارهم، أو كثرة عدوهم أو خلة بالمسلمين (أي اضطراب أمور المسلمين)، أو بمن يليهم منهم جاز لهم الكف عنهم، ومهادنتهم على غير شيء يأخذونه من المشركين، وإن أعطاهم المشركون شيئا قل أو كثر كان لهم أخذه.[1]

وجاء في "السير الكبير" وشرحه للشيباني بشرح السرخسي: وان لم يكن بالمسلمين قوة عليهم فلا بأس بالموادعة، لأن الموادعة خير للمسلمين في هذا الحال، وقد قال الله عز وجل: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله}.[2] وقال ابن قدامة: وتجوز مهادنتهم على غير مال، لأن النبي صلى الله عليه وسلم هادنهم يوم الحديبية على غير مال يأخذه منهم فإنها إذا جازت على غير مال فعلى مال أولى.[3]

هذا في أحكام الكفار الأصليين فإنه يجوز للإمام وللمسلمين موادعتهم ومصالحتهم وبسط أحكام الموادعة وموجباتها مفصلة في كتب الأئمة، ويجب الوفاء لهم بهذا، ولا يجوز الغدر ولا الخيانة إلا أن ينقضوا العهد والمواثيق. أما المرتدون فلا يجوز موادعتهم ولا مصالحتهم، قال أبو الليث السمرقندي في "تحفة الفقهاء"[4]: إن أخذ الجزية وعقد الذمة مشروع في حق جميع الكفار إلا مشركي العرب، والمرتدين، فإنه لا يقبل منهم الجزية، كما لم يشرع فيهم الاسترقاق.[5] قال كاساني عند شرحه لما تقدم: بأنه لا يقبل من المرتد إلا الإسلام أو السيف لقول الله

---

[1] - الأم 186/4.

[2] - 1689/5.

[3] - المغني 519/10.

[4] - وهو متن كتاب "بدائع الصنائع للكاساني".

[5] - 207/3.

تعالى: {تقاتلوهم أو يسلمون} قيل إن الآية نزلت في أهل الردة من بني حنيفة ولأن العقد في حق المرتد لا يقع وسيلة إلى الإسلام لأن الظاهر أنه لا ينتقل عن دين الإسلام بعدما عرف محاسنه وشرائعه المحمودة في العقول إلا لسوء اختيار وشؤم طبع فيقع اليأس عن فلاحه فلا يكون عقد ذمة.[1]

قال القرطبي: قال الأوزاعي: تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب، وكذلك مذهب مالك، فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيا، أو عجميا، تغلبيا أو قرشيا كائنا من كان إلا المرتد.[2]

قال ابن تيمية: وقد استقرت السنة بأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي من وجوه متعددة، منها أن المرتد يقتل بكل حال، ولا يضرب عليه جزية، ولا تعقد له ذمة، بخلاف الكافر الأصلي، ومنها أن المرتد يقتل وإن كان عاجزا عن القتال، بخلاف الكافر الأصلي الذي ليس هو من أهل القتال، فإنه لا يقتل عند أكثر العلماء كأبي حنيفة ومالك وأحمد، ومنها أن المرتد لا يرث ولا يناكح ولا تؤكل ذبيحته، بخلاف الكافر الأصلي إلى غير ذلك من الأحكام.[3] وعلى هذا فأحكام قتال المرتدين أشد من أحكام قتال الكفار الأصليين، ولما علمنا أن حكام بلادنا مرتدون فلا يجوز مصالحة أحد منهم أو مسالمته أو مهادنته تحت دعوى المصلحة، أي أنه لا يجوز لجماعات الجهاد أن تداهن أحدا من هؤلاء المرتدين أو تسالمه أو تتعاون معه في قتالها لطائفة الكفر في بلدها.

كان المسلمون الأوائل يخرجون للجهاد وقد حضروا أنفسهم وجهزوا أمورهم وهم في أرضهم وبلدهم آمنون.

أما اليوم انظر إلى واقع الجماعات المجاهدة فإنها جاءت إلى واقع مقفل لا منفذ لهم فيه، وقد ترقت الدول العلمانية الكافرة اليوم في الحالة الأمنية الرقي الشديد ما لم يكن بمثل هذه الصورة المتينة في يوم من الأيام، وليس للجماعات المجاهدة أرض ينطلقون منها، ومع ذلك

---

1 - 111/7.

2 - الجامع لأحكام القرآن 110/8.

3 - مجموع الفتاوى 532/28.

فهم يواصلون الطريق بكل آلامها وجروحها فلو أصابتهم مصيبة في لقاء ومعركة من المعارك فليس لهم أرض يفيئون إليها، ولا فئة يتحازون إليها، فيا الله ما أعظم هذا النوع من الجهاد وما أشقه!!.

نعم إن جهاد المرتدين اليوم جهاد شاق وفيه من البلاء والعنت ما الله به عليم، والرجل المجاهد ملاحق من بيت إلى بيت، وأهله تحت سطوة الطاغوت وقوته، أي أنه مكشوف نصفه، بل أغلبه، فهذا جهاد خاص ولذلك له أجر خاص كما أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن أجر المتمسك بدينه في مثل هذه الأزمان أجر خمسين من الأوائل، لأن المجاهدين اليوم لا يجدون على الحق أعوانا وكان الأوائل يجدون على الحق أعوانا.

انظر اليوم كم يعاني الأخ من أجل أن يصل إلى أرض الجهاد، وكم يبذل من الجهد والفكر، وكم يلاقي من العذاب والمشقة من أجل أن يصل إلى أرض ليجاهد فيها، وتفكر في هذه القيود الأمنية التي يخترقها الشباب المسلم الموحد حتى يطبق فريضة وعبادة القتال في سبيل الله تعالى ضد المرتدين؟.

هل مر على المسلمين مثل هذه الحالة من قبل؟.

الجواب القديم: بالقطع أننا لم نعهد قبل هذه الحالة في تاريخنا.

انظر اجتماع العالم أجمع - كفارا ومرتدين - من أجل تطويق الجهاد والمجاهدين، وهم لا ظهر يحميهم ولا دولة ترعاهم، ولا إعلام يوصل صوتهم، فهل مر على المسلمين على مدار التاريخ مثل هذه الحالة؟. الجواب: بالقطع هو النفي.

2 - وأما السبب الثاني فهو موافقة الأمر القدري للأمر الشرعي المتقدم وأعني أنه لما جعل الشارع الحكيم سبحانه وتعالى حكم المرتد أشد من حكم الكافر الأصلي إنما هو لأن المرتد في نفسه وحاله يستحق هذا الحكم وهو ملائم له وقد أشار الكاساني رحمه الله في كلامه المتقدم إلى هذا المعنى، وهو أن المرتد لم يقع منه هذا الكفر إلا بسبب انحطاط نفسه وخبثها وعظيم شرها، فإن من أسلم وعرف حقيقة هذا الدين وعظمته وأثره على النفس والحياة ثم انقلب عنه بغضا وكرها لما أنزل الله تعالى فإن هذا الشخص يستحق هذا الحكم في حقه، وهو لا يستحق هذه الحياة، فليس له أن ينعم بخيراتها ولا يأكل من ثمارها.

ولما كان بغض المرتدين لهذا الدين وكذلك بغضهم لأهله شديدا كان قتالهم للمسلمين شديدا، بخلاف الكفار الأصليين فإن الكثير منهم لا يعرف لماذا يقاتل ولا علام يقاتل، بل يساق إلى الحرب سوقا، ولذلك بعد أن تضع الحرب أوزارها فان كثيرا منهم يدخل في دين الله تعالى، وهذا حال الدول والممالك والأقطار التي فتحها المسلمون الأوائل رحمهم الله تعالى، فإن تلك البلاد دخل أصحابها في دين الله تعالى أفواجا.

وقد أشار الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه "ردة ولا أبا بكر لها" إلى حقيقة نفسية هؤلاء المرتدين، وأنها أعتى نفسية مرت على وجه التاريخ، بل هي اقتبست معالمها من نفسية الشيطان ذلك أنه لما رأى نفسه قد حكم الله تعالى عليه الخلود في جهنم فإنه طلب من الله تعالى أن يمهله إلى نهاية الدنيا حتى يفتن كثيرا من الناس فيذهب بهم معه إلى جهنم، فإنه نقم على الناس طهرهم وعفافهم وإيمانهم، وكذا المرتد فإنه ينقم على الناس إسلامهم، وأذكر أن الشيخ أبا الحسن قد ذكر في كتابه نفسية هذا المرتد وحلل هذا النوع من الناس وأنه يرى نفسه قد ضعف أمام الشهوة، إما شهوة المال أو شهوة المنصب أو شهوة النساء فيرى نفسه حقيرا ذليلا وهو يرى أمامه شابا مسلما قد ترفع عن هذه الشهوات وضربها بقدمه واستمسك بدينه فينقم عليه هذه الفضيلة ويستصغر نفسه أمامه فبدل أن يؤوب إلى رشده ويهتدي إلى رحمة الله فإنه لنفسه الخبيثة يحقد على هذا الشاب لأنه يذكره بضعفه وعجزه، فيكون له كالمرآة، ولذلك عندما تسمع أو تقرأ هذه القصص الحقيقية من تعذيب المرتدين للمسلمين تكاد لهولها أن تدخل في عالم الخيال والخرافات، لأن هذا النوع من البشر ليس له مثيل في الظلم والكفر والعدوان.

إذن قتال هذا النوع من البشر قتال خاص في شدته وهوله وعظمته، وهو يقاتل إلى آخر رمق وإلى آخر نفس، وإني لأعجب من أصحاب النظر الصوفي الجديد حين يأملون الهداية لهؤلاء المرتدين، إن هؤلاء القوم جد واهمون ولا يعرفون حقيقة حكامهم.

محك النظر وميزان العمل: الحسنة والسيئة

إعادة ترتيب الموازين المائلة في العقول في الحكم على الأشياء والأفعال هي إحدى مهمات الأنبياء المرسلين عليهم الصلاة والسلام، فالنظر القاصر الضعيف، والعين التي لا ترى إلا هذا

العالم فقط وما فيه من حركة ظاهرة لا بد أن تحكم على الأشياء والأفعال حكما قاصرا ضعيفا، فإذا أقام الناس أحكامهم وموازينهم على ما سماه الله تعالى ظنا وهوى فإن الحياة ستختل وتضطرب، والفطرة وإن كانت في أصل خلقتها سليمة معافاة وفيها الصلاحية أن تصيب الحق أو أن تتعرف عليه حين تهدى إليه إلا أن هذه الفطرة قابلة للتبدل والتغير بعد معافستها هذه الحياة - ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) - والهوى له قوة دافعة لتحقيق الشرور، والظن والجهل وسوء التأويل يبرر لهذا الهوى أفعاله وحركته، ولا يتم وقوع هوى فاسد إلا بشبهة فاسدة ولذلك جمعهما الله تعالى في آية واحدة حين قال: {**إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس**} وجعل سبحانه وتعالى مقابل هذين الأمرين: الهدى، فقال: {**ولقد جاءهم من ربهم الهدى**} فالهدى يمنع الهوى، والهدى يمنع الظن.

إن الميزان المختل لا يقوم إلا على عمادين اثنتين هما: الهوى والظن.. فالهوى هو الشهوة الجامحة التي لا رابط لها ولا زمام، وهي لا يمكن لها أن تنطلق من عقالها وتسرح في وديان الضلالة والغواية إلا بعماد يدعمها ويبرر لها أفعالها ألا وهو الظن وهو ضد العلم، فدور الظن الفاسد تبرير حركة الهوى وإعطائه المقدمات المزعومة من الموضوعية الكاذبة المفتراة، وإذا وقعت الشهوة المحرمة دون ظن يبرر لها فعلها فإنها قريبا ما تتوب وترجع عن غيها ومعصيتها، ولكن إذا وقعت الشهوة المحرمة (الهوى) وكان معها الظن الفاسد والجهل المؤول فإنها ستكون حلقة ثابتة في الشر وهي كذلك تملك القوة في الدفع نحو الشرك والكفر.

إذا لا بد من التأويل الفاسد لتستقر المعصية ثباتا ودواما، وكلما كان التأويل (الظن والشبهة) مقنعا بقناع جميل براق، أي بقناع العقلانية والموضوعية كلما كان أدعى للقبول وأسلم للنفوس.

هذه واحدة.

أما الثانية فهي أن حركة الإنسان لا تقع إلا بإرادة وهذه الإرادة تتكون من قوتين اثنتين هما: قوة العلم وقوة الدافع، فحاجه المرء إلى شيء من الأشياء قوة لدفعه لتحقيق هذه الحاجة، وهذه الحاجة استقرت النفس على معرفتها معرفة حقيقية قوية، ففساد المرء (أي فساد عمله) إما أن يقع من جهة العلم، وإما أن يقع من جهة الدافع. وصلاح العلم يوجد صلاح الدافع

وقد يفترقا كما هو شأن المبتدعة الذين يريدون تحقيق الرضى الإلهي ودخول جنته بعلم باطل فاسد (أي بالجهل) كما قال تعالى: {**هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية**} فهذه نفس عاملة لكنها لا تبلغ هدفها لأنها تعمل بجهل كما هو شأن رهبان النصارى وعباد الصوفية وأمثالهم، وقد يقع العلم الصحيح مع الدافع الباطل كما هو شأن علماء السوء ممن يعوقون الحق ويأكلون به أموال الناس بالباطل كأحبار اليهود من الأمم السابقة ومن سار على دربهم من علماء المسلمين ممن يبيعون دينهم من أجل أعراض الدنيا الفانية.

فركنا الضلالة هما الجهل والهوى، فلا يمكن أن تستقر المعصية (الهوى) في الأرض إلا بتبرير صاحب الجهل لصاحب الهوى. وليس الجهل هنا عدم العلم فقط ولكن الجهل ههنا هو ما يتعلق بالعلم من فساد، فأي فساد لحق بالعلم انقلب العلم إلى جهل سواء لحق الفساد من جهة ترك العمل أو من جهة اتباع الهوى أو من جهة التأويل الفاسد أو من جهة معرفة الحق والحيدة عنه فكل هذا وغيره يقلب العلم الصحيح إلى جهل وظن.

إذا عرفنا هذا علمنا لماذا يحرص أصحاب الأهواء من السلاطين والحكام دائما على اصطحاب أصحاب العمائم، ولماذا ينفقون عليهم الذهب ويوسعون لهم في المجالس.. السبب هو أن معصية الحاكم وأهواءه لا يمكن لها أن تدوم وتستقر إلا بوجود هذا الجاهل (العارف).

فالحكام والسلاطين رؤوسهم فارغة من الفهم، وألسنتهم كلة عيية في تزوير حقائقهم للناس، فهم محتاجون دوما إلى رجل ذرب اللسان، ويمتلك القدرة على الخروج والدخول وإقناع الناس بمراد صاحب الهوى، بمعنى آخر لا بد من وجود الساحر، القادر على قلب حقائق الأشياء في أعين الناظرين.

والمسألة ليست مع الحكام والسلاطين فقط ولكن هذا أمر عام في كل معصية يريدها إبليس أن تستقر على وجه الأرض، وأن يجعل لها قوائما وأرجلا وجذورا وسيقانا.

((**أخوف من الدجال على أمتي: الأئمة المضلون**)) هكذا نطق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أسباب الهزيمة وعوامل النصر: الطاعة والمعصية

المعصية من غير ستار يسترها عارية مفضوحة، نتنة الرائحة، خبيثة المنظر ينفر منها كل أحد ولا يستسيغها أحد، لكنها حين تحف بالشبهة وتأتي إليك وهي تنطق كلمات الله فإنها تتزين للناظرين، وهذا هو مكمن قوتها وسر قبولها ولذلك صدق من قال: كم يخيفني الشيطان حين يأتيني ذاكرا اسم الله.

العلم الصحيح القائم على الحق المطلق (الكتاب والسنة)، وترك التقليد، ونبذ التعصب، ومتابعة السنة، والاهتداء بمن ماتوا على خير، وترك التعلق بالغرائب والشذوذات، كل هذه محصنات للمسلم من أن تمرر عليه ألاعيب أهل الباطل من السدنة الكاذبين، وعلماء اللسان والسلطان، وخطباء الفتنة.

قال تعالى: {**إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفى الله عنهم إن الله غفور رحيم**} (آل عمران).

هذه الآية من سورة آل عمران في عرضها لذكر المصاب الجلل في غزوة أحد، وهذه الآية جامعة لكل معوقات النصر وموانع وقوعه: وإنما هي الذنوب.

{**إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا**} وبعيدا عما قاله أهل التفسير رحمهم الله تعالى حيث أكثروا فيها القول فإنما أقوالهم تعود إلى أمر واحد، وهو أن الشيطان لا يكون له على المسلم سبيل في تحقيق مراده منه حتى يعطي المسلم الحجة لها.

{**استزلهم الشيطان**}: أي أوقعهم في الزلل، والزلل هنا الهزيمة وعدم الثبات في المعركة، أي هو تعطيل النصر وعدم تحقيقه.

{**ببعض ما كسبوا**}: لقد كان للشيطان عليهم سبيل بأن حقق فيهم الهزيمة بسبب أعمالهم وذنوبهم. فهكذا هي سنة الله الجارية في المسلمين، وهي سنة لا تتخلف ولا تتعطل وهي أن الهزائم لا تقع إلا بسبب أعمال يصيبها المسلم فتبعد عنه النصر وتقرب إليه الهزيمة.

وهنا لا بد من أمر نذكره وهو أن هذه المعاصي (أسباب الهزيمة) لا بد أن يكون لها من ارتباط سنني مع الهزيمة. أي أنها ليست مطلق المعاصي والذنوب لكنها المعاصي التي لها علاقة

الحرب والقتال مثل: ترك التدريب، والإعراض عن الجماعة، وعصيان الأمير، وترك الأخذ بالسنة القدرية كعدم تعيين صاحب الأمر المفيد في بابه، وهذا لا يعني التقليل من شأن الذنوب الأخرى لكن تأثيرها على نتيجة المعركة تأثير غير مباشر بخلاف الذنوب التي لها علاقة مباشرة بعملية الجهاد والقتال، ولذلك من إبعاد النجعة حين نبحث عن أسباب الهزيمة في معركة من المعارك وموقع من المواقع أن نذهب فنعدد معصية عدم صلة الرحم، أو معصية أكل مال اليتيم كأسباب لحصول الهزيمة ونترك الأسباب المباشرة لحصول الهزيمة، فلا بد أن ننتبه إلى العلاقة القدرية بين السبب والمسبب، بين العمل والنتيجة، بين الذنب والهزيمة.

قال تعالى: {**إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين**} (القصص).

في هذه الآية من سورة القصص يبين الله سبحانه وتعالى أسلوب الطاغوت في فرض ألوهيته على الخلق، وكيف حصل له العلو والإفساد، والعلو في القرآن مقارن للفساد: قال تعالى: {**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا**} (الإسراء).

قال تعالى: { **علا في الأرض وجعل أهلها شيعا**) فأول أمر فعله لاستتباب حكمه وإفساده هو تفريق الناس لجعلهم شيعا.

واللفظ القرآني (**جعل أهلها شيعا**) فيه من الدلالات العميقة والتي تحتاج إلى كشف وبيان: فقول الله تعالى: (شيعا) دل على أن فرعون لم يستخدم كثيرا من القهر في تحزيبهم وتشتيتهم وتفرقهم، بل استخدم شيئا من المكر والدهاء في إثارة عوامل التفرق الكامنة في نفوسهم، فالتشيع هو التناصر على شيء، فشيعة الرجل أتباعه وأنصاره، هذا التشيع حصل بإثارة كوامن ذاتية في النفوس، فيها القبول الذاتي بحصول التشيع أي الأتباع والأنصار، فصارت كل فرقة تتبع وتناصر شيئا فيه الدافع الذاتي من المحسن الخارجي، وإلا فلو كان فقط القهر الخارجي هو الذي صنع الفرقة لما جاء لفظ (شيعا) ولجاء لفظ غيره. ولكنهم صاروا شيعا بعامل ذاتي فيه القبول الذاتي والرضوخ النفسي لهذا المحرض الخارجي وهو فساد فرعون.

وقد ذكر الله تعالى عقب هذا قوله: { **يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم**} وهنا لم يذكر الله تعالى شأن الذين اتخذهم فرعون ليمارسوا القهر والذبح والسبي، فحيث اتخذ طائفة للاستضعاف فإنه ولا بد اتخذ طائفة أخرى للاستكبار والاستعلاء.

والحديث هنا في ذكر القرآن لقصة موسى عليه السلام مع بن إسرائيل، ولكن الحديث القرآني عنه في جعل الناس شيعا جاء عاما { **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا**}.

هكذا هي سنة الطاغوت في استتباب ملكه وتجذير شره في الناس: أن يكون الناس شيعا، التفرق والتنازع والتعدد.

والقران لا يذم التفرق على أساس الحق حيث يتعدد الناس إلى فرق بحسب أديانهم، بل هذا هو الواجب في دعوة الأنبياء، فإن النبي صلى الله عليه وسلم فرق بين الناس، فالمؤمنون ينزعون أنفسهم من بين الكافرين ويتفرقون عنهم ويتشيعون دونهم على حقهم، وأهل السنة ينزعون أنفسهم من بين أهل البدع ويتشيعون دونهم على السنة، وهذا من أسباب تحقيق الرفعة لهم والعزة لدينهم ولسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

أما الذنب الذي لا يجبر في هذه الدنيا فهو التشيع على الباطل، والتحزب على غير الحق، والتفرق على أسس الجاهلية، فهذا الذي يجعل لزلل الشيطان فيهم موضعا.

وكذلك من الذنب الذي تعجل به العقوبة وتحصل به الهزيمة الاجتماع على غير الحق، والالتفاف على الباطل.

التحالفات المقيتة (هزيمة):

إن من أعظم ما نراه واقعا ومحققا الهزيمة للمسلمين في كل موقع هو التحالفات على أسس الوطنية المقيتة.

لقد كان لهذا الباب دور شر على أمتنا في عدم تحقيق مقاصد الشريعة بل وقوع الضد وهو تحقيق مصالح أعداء الله تعالى. فما من تجربة وقعت فيها التحالفات على غير الهدى والحق إلا وكانت هذه التحالفات السبب الماحق لكل المكاسب التي يحاول أهل الإسلام تحقيقها.

لقد أعمل فينا فرعون عمله حين قسم المسلمين إلى طوائف وشيع حسب بلداننا وقرانا واستجبنا له بفعل الجاهلية التي أعملت فينا عملها. فتفرقت أوصالنا على أسس الجاهلية المقيتة فسهل على الشيطان أن يبث فينا شره.

وهذا وقع أشد منه وقوعا بين المسلمين وأوضح معلما. أي تفرق المسلمين شيعا على أساس الباطل (الجاهلية) واجتماعهم على أساس باطل (الجاهلية).

هذه الوطنية المقيتة متى يعلو أهل الإسلام عن خبثها ونتنها؟: جماعات مسلمة تتحد مع جماعات كافرة على أساس الوطنية، وتعرض عن أخواتها لأنها ليست من بلدها ووطنها، فكيف يتحقق النصر حينئذ؟!!.

كيف نخطو إلى أهدافنا والشيطان يعمل فينا عمله ولم نستطع أن نتجاوز ما استمرأنا عليه من نتن الاجتماع على القبيلة الواحدة والبلد الواحد والدولة الواحدة؟!!.

نحن لا نذيع سرا حين نقول إن هذا المرض ما زال يعمل عمله بين المسلمين وهو موجود بكل ثقله ووطأته بين الفرق والجماعات.

لقد أعطانا الله تعالى عمقا جغرافيا نستطيع أن نستخدمه باتباع سبيل المؤمنين لتحقيق أهداف الإسلام العظيمة، ولكننا قلبنا هذه النعمة نقمة وحولنا بقبول ذاتي ورضوخ نفسي عوامل النصر إلى سبب الهزيمة، ثم والأعجب من ذلك كله صرنا نتمتع بلعق هذه الدماء النازفة منا دمارا وتفتيتا، وأقصد بهذا التمتع هو ما نراه بين الشباب المسلم من استكبار وغرور في تعداده لمناقب أهل بلده، وظلمه وحيفه وهو يعدد مثالب وأخطاء بلد غيره.

أتمنى أن يكتشف كل أهل بلدة أخطاءهم ومثالبهم وسوءاتهم مثل قدرتهم على اكتشاف سيئات وأخطاء الآخرين!!.

إن الجرح في الكف، بل إن الجرح تحول إلى مرض سار في البدن كله، فإن لم نتداركه باتباع الشرع الحنيف هلكنا واستزلنا الشيطان بقبولنا أن نكون شيعا.

إيثار الحق على الخلق (نصر):

اعلم يا عبد الله أن هذا الدين لا يعطى ثماره في الخلق حتى يثقوا به تمام الثقة، وتمتلئ قلوبهم به، ويستغنوا به عمن سواه، لأن صاحب هذا الأمر هو الله سبحانه وتعالى، والله جل وعلا كامل قدوس لا يعتريه النقص والضعف {**لا تأخذه سنة ولا نوم**}، فلما كان صاحب هذا الأمر كاملا لا يحتاج إلى غيره، علومه كاملة، وعطاياه كاملة، فإن تخلف شيء من العطاء إنما هو لضعف في الخلق، وعدم استحقاقهم لكامل العطاء والمنح.

واعلم حفظك الله وهداك أن هذا الحق ليس بحاجة إلى رضا أحد من البشر، ولا يجوز للمسلم الواثق بكمال هذا الدين أن يطلب من الأغيار أعداء هذا الدين الرضا والقبول على هذا الدين، فإنه إن فعل ذلك دل على أنه مهزوم في نفسه، لا يثق الثقة الكاملة بهذا الدين. وهذه هي حقيقة الهزيمة، لأن الهزيمة ليست خسارة أرض وبلدان، ولا ضياع أولاد وخلان، ولا ذهاب أموال وأعراض وعمران، بل الهزيمة تخلي المسلم عن دينه، وإصابته في نفسيته من جهة ثقته بهذا الدين، ولذلك سيبقى السؤال قائما للتفريق بين إعلامين ودعوتين: هل علينا أن نسعى لإقناع الأغيار بوجودنا وحقنا في إثبات مواقفنا؟ وهل سيكون دور إعلامنا وكلماتنا ودعوتنا أن نقنع الأغيار (من كفرة ومبتدعة وضلال) بأنفسنا؟ فلعلنا ننال منهم نظرة رضا أو كلمة إعجاب، وقبول الوجود.

هل هذا هو دور الإعلام والنشرات والدوريات؟ أن نرتق الكلمات، ونخفي شيئا ونظهر شيئا، فنضع أيدينا على آيات ساطعة، وكلمات مضيئة حتى يرضى عنا الأغيار.

أم أن هذه القضايا لا تهمنا، بل همنا أن نظهر دين الله تعالى كما هو في نفسه من غير تقية ولا مناورة ولا جمجمة؟.

على أي حساب وضعنا هذه المقارنة فسيكون خيار أهل الثقة بهذا الدين هو خيار الذين باعوا أنفسهم لله وارتقبوا في كل لحظة التخطف من الأرض، واللحوق بالصادقين من هذه الأمة، هناك فرق بين التاجر مع الله والتاجر مع المال والدينار، وهناك فرق بين الحكمة المزعومة المكذوبة وبين الحكمة التي تحمل في طياتها أول ما تحمل كلمة الحق لأن الحق هو

الحكمة، والحكمة هي الحق. هي قاعدة يعرفها أهل الإسلام، }ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم{. أليست هذه آية محكمة وهي قاعدة في حصول الصراع بين الحق والباطل، وأن هذا الصراع سيبقى قائما مادمت مفارقا لباطلهم، ولن يسكتوا عنك حتى تكون مثلهم.

إن خوف حصول البلاء معناه ترك سبيل الله، وإن سلوك سبيل الله معناه وقوع البلاء، أما أن تسلك سبيل الله ثم تطلب حصول الأمان والرضا والاستقرار فهذا لعمري في القياس عجيب.

إن قاعدة التبرير بعد التقصير يتقنها كل الناس. وهذا القرآن الكريم مليء بحجج المنافقين وبحجج تاركي الحق، لكنها وإن تقنعت بقناع الحكمة والتروي والتبصر، فإنها مكشوفة عند أصحابها وعند أهل البصيرة وقبل ذلك عند علام الغيوب.

بل البلاء كل البلاء ومعاناة الأمة من صنوف العذاب والهوان والذل والضعف المبين، إنما يكون بالإعراض عن هذا الدين وترك الجهاد }**إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير**{ واعلم أن البلاء سنة كونية شرعية وهو واقع بالعبد لا محالة، فاختر لنفسك يا عبد الله أقوم السبيلين وأهدى الطريقين، واصبر على البلاء كي تؤجر فبلاء في طاعة الله وفي سبيله وابتغاء مرضاته خير من بلاء في معصية الله وإخلادا إلى الحياة الدنيا الفانية السريعة الزوال. وحياة في عز طاعة الله تفضي إلى رضوانه ونعيمه خير من حياة في الذلة والشقاء تفضي بالعبد إلى سخط الله وعقوبته }**وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**{.

واعلم أن سعادة المسلم في الدنيا والآخرة إنما تكون بابتغاء مرضاة الله وباتباع هدي رسوله:

}**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**{.

وتأمل عبد الله قول الحق جل وعلا، ثم كن على يقين وثقة من موعود الله }**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**

وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشروكون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} النور.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبيه وعلى آله وصحبه.